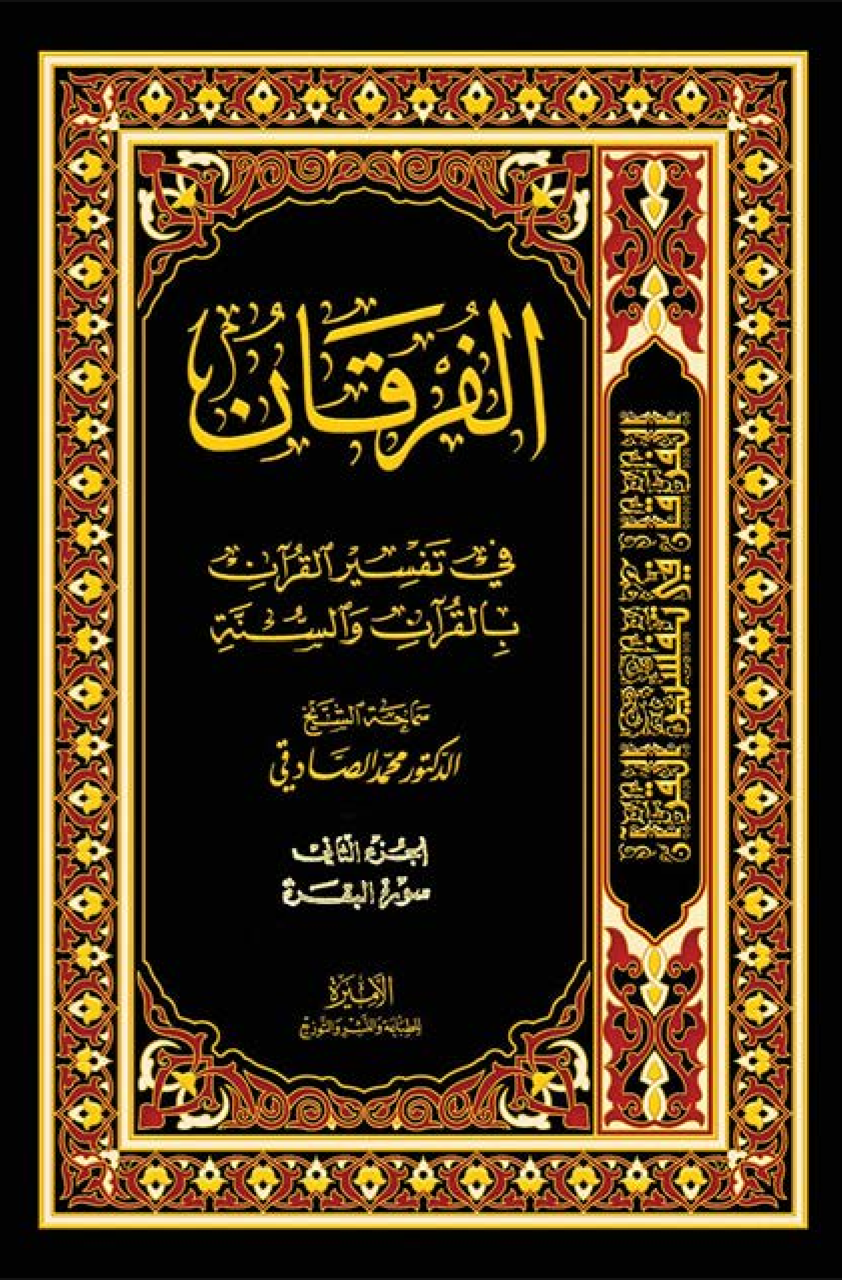

الفرقان
في تفسير القرآن بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء الثاني
سورة البقرة
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

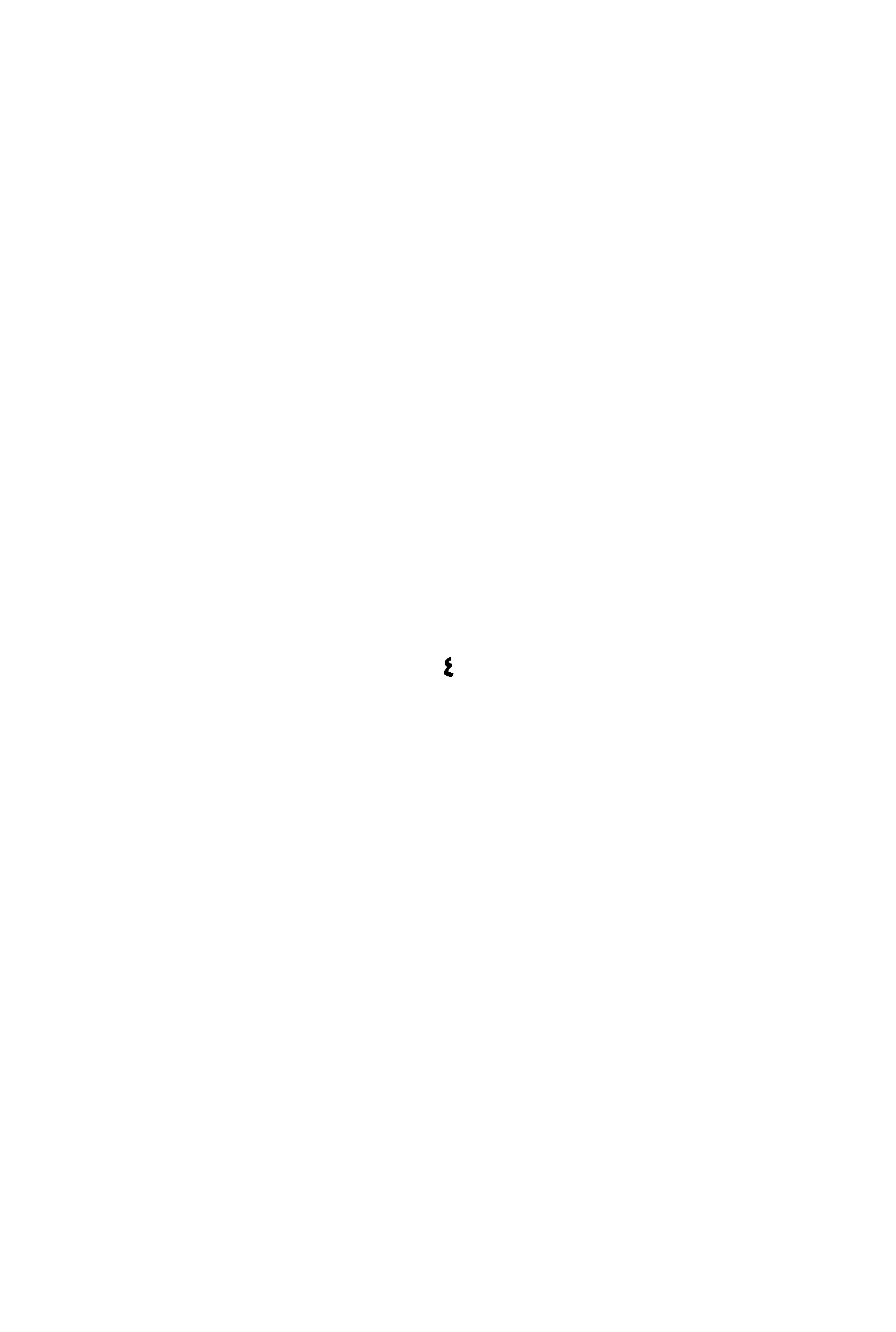
الجزء الثاني

تتمة سورة البقرة

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي





١

تتمة

سُورَة البَقَرة



٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ
ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا
عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ
أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ
لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ
يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ
تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾
وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟
هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب
بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ

مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

عرض لنعم عشر بعد ما أجملت في ﴿نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ترسم أمام الاختلاف مشاهدها التي كانت للإسلام، استحياء لمشاعرهم صور الكروب التي عاشها آباؤهم وأنجاهم الله منها وهم قابلوا نعمة الله بالكفران وبدلوها كفراً فأحلوا قومهم دار البوار، عظة للأخلاف لكي يخالفوا الأسلاف في الكفران والطغيان.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ[1] يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾:

نعمة أولى أن أنجاهم الله عن سوم العذاب، فالإنجاء من النجاء والنجوة والنجاة هو الفصل إلى علٍ، مكان مرتفع بعيد عن الأذى.

(١) «فرعون» اسم لملوك العمالقة كما قيل: «قيصر» لملك الروم و«كسرى» لملك الفرس و«خاقان» لملك الترك و«تبع» لملك التبابعة، إذاً ففرعون لقب عام وقد كان في مصر فراعنة تلو بعض وفرعون موسى هو «رامسيس الأوّل» وقد رأيت جسده في معرض الآثار القديمة في القاهرة، وهو تصديق لقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢].

وسوم العذاب هو دوامه في دوّامة لمرعاه، كماشية سائمة ترعى دائمة، ولكنها ترعى في المرعى الكلاء، وهم يسأمون في المرعى البلاء، كأنها لهم غذاء، كما الكلاء دائمة للماشية السائمة.

فهذه الطغمة الطاغوتية النكراء كانت تسومهم سوء العذاب، كذبح الأبناء واستحياء النساء دونما انقطاع، وكأنه نعمة يمنون بها عليهم فعليهم الشكر كما السائمة في الكلاء.

وعدم العطف في ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ - و﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ يعطف بنا إلى أنهما فقط سوم العذاب، بياناً ردفاً دون عطف لسوء العذاب، وكما في أخرى: ﴿... يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ و...﴾[(١)] مهما عطفا في ثالثة عليه ﴿... وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ و...﴾[(٢)] آيات ثلاث في صيغة واحدة إلّا في ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ الوسطى وعطف الأخيرة، وهذا العطف لا يعني إلّا أنهما من أسوأ العذاب الذي كانوا يسامونه: قتل الأبناء تضعيفاً لساعدهم، واستحياء النساء خدمة لآل فرعون ومتعة جنس.

فتقتيل الأبناء إبادة للنسل والساعد، وعزاء دائب، واستحياء النساء: إبقاء لحياتهن خادمات، وإفناء لحيائهن في دعارات[(٣)] عذاب فوق العذاب، على ما ينالهن وغير الأبناء من سوء الخدمات الإجبارية، دون مقابل إلّا الإبقاء على رمق الحياة قدر ما يخدمون، وفي الحق أن استحياء النساء كان أصعب عليهم وأنكى من تقتيل الأبناء!

وترى هل الأبناء المذبّحون هنا هم - فقط - الولائد حين الولادة كما

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤١.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٦.

(٣) الاستحياء هو طلب الحياء إبقاء وطلب الحياء إزالة فهما - إذاً - معنيان كما هما الواقع في آل فرعون.

تدل عليه روايات؟ أم هم الأبناء، ولائِد أم كباراً ما هم أبناء، كما تدل عليه الآيات؟

لا ريبة هنا في العموم، حيث يشمل - لأقل تقدير - الأبناء الذين ولدوا منذ أخبر فرعون أنه سيولد فيهم من يهلك سلطانه، فالذين تنالهم أيدي البغي يُقتلون حين ولادتهم، ومن يفلت حينها يُغتال أياً كان وأيان، وإن كان بالغاً حدَّ الغلمة أم زاد.

ثم النساء هنا أعم من الولائد واللّدات والكبيرات، فهن معفو عنهن في هذا النظام، خدمة للجنس ولآل فرعون.

وترى أن البلاء العظيم هو فقط سوم العذاب؟ أم وإنجاءهم من سوم العذاب؟ لفظة البلاء تشملهما بلاء سيئاً وحسناً ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ البعيد المدى من سوء البلاء وحسنه ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾(١) ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٢).

وترى كيف ينسب سوء البلاء - بجنب حسنه - إلى الله وهو من آل فرعون؟ إنه سوء العذاب من آل فرعون ظلماً وطغياناً حيث افتعلوه، وبلاء عظيم من ربكم إذ أمهله ردحاً من الزمن دون ردع تسييراً ومنعاً، امتهاناً لهم وإملاءً ليزدادوا إثماً ولهم عذاب اليم، ثم وامتحاناً لكم وبلاءٍ حسناً بعد هذا البلاء لكي تستعظموا نعمة ربكم بإنجائكم وتشكروه، فإن فرعون عبّد بني إسرائيل واعتبره نعمة عليهم وعلى موسى الرسول عليه السلام: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٣) فسامهم بذلك سوء العذاب.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٨.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٢.

وترى ولماذا قتل الأبناء وهم أنفع له خدمة وأقوى؟ دون الكبار وهم حِملٌ لا يتحملون خدمة لائقة!

ذلك حيث أخبر فرعون أن هلاكه وقومه على يدي موسى عليه السلام الذي يولد من بني إسرائيل فوضع القوابل على النساء وقال: لا يولد العام ولد إلّا ذبح ووضع على أم موسى قابلة.. ولكن الله نجاه..[1].

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾:

نعمة ثانية هنا لبني إسرائيل هي الأخيرة لهم في الجوّ الفرعوني الطاغي حيث أغرق آل فرعون وهم ينظرون، والبحر هو البحر، ولكن الله فرق بهم

(١) نور الثقلين ١ : ٧٩ عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن يوسف بن يعقوب عليه السلام حين حضرته الوفاة جمع آل يعقوب وهم ثمانون رجلاً فقال: إن هؤلاء القبط سيظهرون عليكم ويسومونكم سوء العذاب وإنما ينجيكم الله من أيديهم برجل من ولد لاوي بن يعقوب اسمه موسى بن عمران عليه السلام غلام طوال جعد أدم، فجعل الرجل من بني إسرائيل يسمي ابنه عمران ويسمي ابنه موسى -.
فذكر أبان بن عثمان عن أبي الحصين عن أبي بصير عن أبي جعفر أنه قال: ما خرج موسى حتى خرج قبله خمسون كذاباً من بني إسرائيل كلهم يدعي أنه موسى بن عمران فبلغ فرعون أنهم يرجعون ويطلبون هذا الغلام وقال له كهنته وسحرته: إن هلاك دينك وقومك على يدي هذا الغلام الذي يولد العام من بني إسرائيل فوضع القوابل على النساء وقال: لا يولد العام ولد إلّا ذبح ووضع على أم موسى قابلة فلما عرف ذلك بنو إسرائيل قالوا: إذا ذبح الغلمان واستحيى النساء هلكنا فلم نبق؟ فتعالوا لا نقرب النساء فقال عمران أبو موسى عليه السلام: بل ائتوهن فإن أمر الله واقع ولو كره المشركون، اللهم من حرمه فإني لا أحرمه ومن تركه فإني لا أتركه ووقع على أم موسى فحملت فوضع على أم موسى قابلة تحرسها فإذا قامت قامت وإذا قعدت قعدت فلما حملته أمه وقعت عليه المحبة فقالت لها القابلة: ما لك يا بنية تصفرين وتذوبين؟ فقالت: لا تلوميني فإني إذا ولدت أخذ ولدي فذبح قالت: لا تحزني فإني سوف أكتم عليك فلم تصدقها، فلما أن ولدت التفتت إليها وهي مقبلة فقالت: ما شاء الله، فقالت لها: ألم أقل إني سوف أكتم عليك ثم حملته فأدخلته المخدع وأصلحت أمره ثم خرجت إلى الحرس فقالت: انصرفوا - وكانوا على الباب - فإنما خرج دم مقطع فانصرفوا....

البحر فعبروه يبساً ورهواً، ثم أغرق فرعون وجنده آية عظيمة إلهية تبصر الأعمين وتنبّه النائمين.

وترى كيف فرق بهم؟ فهل فرق البحر بهم: بسببهم، حيث دخلوه بكثرة واستعجال فراراً عن فرعون وملئه؟ والبحر لا يفرق لأيّة جماعة إلّا وتغرق! وكما آل فرعون وهم كانوا كما هم وأعجل دخولاً وأقوى وطأة، وإنما ذلك آية معجزة إلهية بهم: بدخولهم البحر فراراً! وقد أمر موسى أن يضرب بعصاه البحر: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1] ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾[2] ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾[3].

فقد انفلق البحر وأصبح لهم طريقاً يبساً بأن ضرب موسى عصاه، وبدخول بني إسرائيل، فلولا عصى موسى كما أرادها الله لم يفلق البحر ويفرق، ولولا دخولهم البحر لم يضرب موسى عصاه، حيث الفرق الفلق كان لإنجائهم وإن كانت كذلك آية لهم.

وترى - بعد - أن انفلاق البحر وانفراقه طريقاً يبساً، كل ذلك لصدفة جزر عظيم، أو كثرة الواردين فيه؟ وكما يهرفه من لا يعرفه، هراء دائباً مغبة نكران المعجزات، مهما أقحم نفسه في المفسرين.

فالبحر المفروق لبني إسرائيل نعمة إلهية حيث أنجاهم وأغرق آل فرعون وهم ينظرون، إذ انخدعوا بعبور بني إسرائيل فعبروا، ونعمة لهم إيقاناً بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل، نعمة تجمع بين إنجاء أبدانهم

(١) سورة الشعراء، الآية: ٦٣.
(٢) سورة طه، الآية: ٧٧.
(٣) سورة الدخان، الآية: ٢٤.

من غرق البحر وملاحقة آل فرعون، وإنجاء أرواحهم من الشكوك التي اعترضتهم إذ ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾[1].

﴿فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾: مشهد النجاة والغرق بأم أعينكم.

وترى كيف دخل آل فرعون عن آخرهم البحر، - فلم يروا أوائلهم غارقين؟ إنهم انخدعوا أن جاوزه بنو إسرائيل وهم ضعفاء، فهم أحرى بالجواز وهم أقوياء فتجرؤوا على الجواز، وقد ترك البحر رهواً كما أوحى الله لموسى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾[2]: والرهو هو الساكن المستوي بطريق يبس، فلما دخلوا كلهم غرقوا أجمعين: ﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٦﴾[3] حيث تدل أن إغراقهم كان بعد إزلافهم وجمعهم في البحر أجمعين، وبعد ما جاوز بنو إسرائيل البحر: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ﴾[4].

اتبعوهم عدوّاً بسرعة ليدركوهم فأدركهم الغرق قبل أن يدركوهم!

﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٥٢﴾:

﴿مُوسَىٰٓ﴾ معرّب عن «موشة» عبرانية، كلمة مركبة تعني «ماء - شجر» حيث أخذه آل فرعون عن التابوت الذي ألقته أمه في اليم فوقف في الماء

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٩.
(٢) سورة الدخان، الآية: ٢٤.
(٣) سورة الشعراء، الآيات: ٦٤ - ٦٦.
(٤) سورة يونس، الآية: ٩٠.

بين الشجر أمام القصر الفرعوني، ففيه تلميحة طريفة إلى المعجزة الربانية في إنجاء موسى بيد عدوّه الذي قتل - بغية الحصول عليه وقتله - نيفاً وعشرين ألفاً من أبناء بني إسرائيل!.

يأتي ذكر «موسى» ١٣٦ مرة في القرآن في ٣٥ سورة، من البقرة إلى الأعلى مما يدل على مدى مراسه في الدعوة واكترائه لها ومجابهاته وجاه عدوّه وبني إسرائيل الذين آذوه، أكثر من كافة المرسلين اللهم إلّا خاتم المرسلين[١].

وهل كانت هذه المواعدة مرة هي أربعين كما هو اللائح هنا، أو مرتين أولاها ثلاثين ثم العشر المتمم للأربعين، مواعدتين تلو بعض، فهما مع بعض مواعدة واحدة كاملة كما يُعرف من الأعراف: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾[٢]؟ وللأربعين مواقف مجيدة في مختلف الحقول في الحق أن آيتي المواعدة تتجاوبان في تمام المواعدة، وأن ثلاثين الأولى لا تستقل عن الأربعين، حيث العشر مكملة لها، وإن كانت كأنها هي البداية ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ﴾ فإنها ثلاثون في صيغة التعبير امتحاناً لبني إسرائيل - لابداء لله في التكميل-[٣] حتى إذا تأخر موسى لحدّ الأربعين أهم باقون على إيمان أم هم مكذبون موسى ومكذبون الله كما فعلوا والتفصيل إلى الأعراف وطه.

---

(١) حيث يذكر أكثر منه بكثير بأشرف خطاب: الرسول - النبي - حين لم يذكر غيره فيما يذكر إلّا باسمه دون لقب الرسالة أو النبوة إلّا قليلاً.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.

(٣) تفسير البرهان ١: ٩٧ - نقلاً عن تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في آية الأربعين قال: كان في العلم والتقدير ثلاثين ليلة ثم بدا الله فزاد عشراً فتم ميقات ربه الأول والآخر أربعين ليلة أقول هل كان في العلم والتقدير ميقات ناقص لنقصان العلم والتقدير ثم كملا بالبداء؟ إن هذا إلّا اختلاق!

وهذه المواعدة - هنا - نعمة ثالثة بإنزال التوراة على موسى وبمشهد من منتخبيهم جانب الطور الأيمن: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾[١] مواعدة لهم ضمن ما لموسى عليه السلام.

ولكنهم وهم بين نعمتين: الإنجاء من آل فرعون، وإنزال التوراة «اتخذوا العجل» الذي صنعه السامري فعبدوه: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: بعد موسى حيث غاب عنهم إلى ميقات ربه ولما يتم أو يرجع ﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾: أنفسكم ﴿إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾.

﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ شرط التوبة بعد أن تقتلوا أنفسكم: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ - ﴿عَفَوۡنَا﴾... ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

ثم ونتيجة المواعدة الأربعين:

﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ٥٣﴾:

وهذي إيتاء الكتاب والفرقان هو أهم النّعم التي أنعم عليكم، هنا الكتاب: التوراة - يقابل الفرقان، مما يدل على أنه غيره، وحقاً أن الفرقان وهو البرهان المفرق بين الحق والباطل، ليس هو التوراة ولا غيرها من كتابات الوحي إلّا القرآن، فإنه كتاب وفرقان لا سواه.

فلا نجد آية تصف كتاب وحي بالفرقان إلّا القرآن: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾[٢] وقد يختص باسم الفرقان: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾[٣]... ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾[٤] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٤.

نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾[١]. فالقرآن هو كتاب تشريع وهو فرقان، يفرق بين الحق والباطل جملة وتفصيلاً، وما هكذا سائر كتب الوحي، ولا سيما بعد تحرّفها، ولقد أوتي المرسلون مع كتبهم فرقاناً يدل على رسالتهم ووحيهم كموسى وهارون وأضرابهما: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٢] وقد يكون التوراة هنا ضياءً وذكراً على ضوء الفرقان: الآيات التسع التي أوتى موسى، حيث يُهتدى بالكتاب والفرقان: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

ثم الفرقان درجات من فرقان الرسالات على درجاتها وفي درجاتها، وهي المعجزات، ومن فرقان التقوى الإيمان: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[٣] أو فرقان الحرب المنتصرة بنصر الله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾[٤] ففي كلّ ميدان من معتركات الحق والباطل فرقان كما يناسب حقولها.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤﴾:

نعمة خامسة يمن بها عليهم، وترى كيف يكون حِملُ القتل لأنفسهم نعمة؟ إنها نعمة حيث هي في سبيل التوبة، فإنها خيرٌ من حياة اللعنة الدائبة في وصمة اتخاذ العجل.

﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً تعبدونه، وليس الله هو المظلوم: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث الظلم هو الانتقاص

(١) سورة الفرقان، الآية: ١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٤٨.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

والله لا يُنتقص منه شيء ذاتاً أو صفات أو أفعالاً - فـ«لا يتغير بانغيار المخلوقين» وإنما الظلم الانتقاص راجع إلى الظالم نفسه، حيث يخرج عن مستوى العدل، مهما انتقص غيره من الخلق في الظلم المتعدي إليهم، ولا تجد آية تلمح بأن الله يظلم، وإنما هو لغير الله نفسه أم سواه.

وحيث ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] فالتوبة عنه - ولا سيما من المرتد عن فطرة - إنها قد ترد ولا تقبل في الظاهر مهما قبلت في الباطن، وقد تقبل كما هنا ولكنه بعبء عظيم.

﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ ولماذا ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ دون «الله» أو «خالقكم» أو «ربكم» أو. . . لأن البرء هو التخلص عن مرض أو عيب أو أي نقص، فالمريض المعيب المنتقص بالخروج عن حكم الفطرة يجب عليه التوبة: الرجوع - إلى من برأه إذ خلقه حتى يبرئه بعد نقصه بظلمه، فـ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ. . .﴾[2] حيث خلق ثم برأ ما خلق ثم صور ما برأ، ومن برأه براءة الفطرة في يراعه التوحيد، فحيث تخلف عبدة العجل عن هذه البراءة، فتوبتهم هي الرجوع إلى البارئ ليُرجعهم إلى هذه البراءة التي افتقدوها بكلّ غباوة، إذ عبدوا العجل الذي يضرب به المثل في الغباوة، فأصبحوا أحمق وأغبى من العجل في هذه العبادة.

ولأنهم قتلوا روح التوحيد وفطرته بما استهوته أنفسهم الأمارة الغبية، فليقتلوا أنفسهم قتلاً بقتل حتى يحيوا حياة طيبة جديدة.

﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: أنتم الذين اتخذتم العجل إلهاً تعبدون، فإنما هم المأمورون أن يقتلوا أنفسهم حيث ظلموا أنفسهم باتخاذهم العجل، دون من

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢٤.

لم يظلم حيث لم يتخذ العجل، خلافاً لبعض ما يروى(١).

وترى أنهم أمروا أن يقتل كل واحد نفسه انتحاراً بنفسه؟ وأنه إبادة لهم أجمع فمن يبقى إذاً حتى يتاب عليه لو أنهم ائتمروا كلهم؟ أم كيف يتاب على المتخلفين عن أمر الانتحار لو لم يأتمروا كلهم.

أو أنهم أمروا أن يقتلوا فيما بينهم، كلٌّ يقتل من تناله يده أيّاً كان؟ فكيف يعبر عن ذلك بـ ﴿فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾!.

في الحق إن ذلك قتل لأنفسهم في زوايا ثلاث: أن يقتل كلٌّ نفسه الطائشة بعبادة العجل، فيعرض نفسه للقتل في معترك القتال فيما بينهم، ويقتل من هو كنفسه أباً أو ابناً أو أخاً أو أيّاً كان(٢) قتلاً لنفسه في هذه الزوايا الثلاث توبة إلى البارئ فتوبة منه عليهم، وإنه لتكليف شاق مرهق مرير، أن يقتل الأخ أخاه، فكأنما يقتل نفسه برضاه، كما ويقدم نفسه ويعرضه ليقتله أخوه، وهما يتطلبان قتل النفس الأمارة بالسوء في رأس الزاوية، ولكنه من وراء هذا الإرهاق تربية لتلك الحالة البئيسة الخوارة، التعيسة المنهارة التي تنهار إلى جحيم عبادة العجل، وبعدما ترى من آيات الله البينات من فرق البحر أم ماذا؟ فليؤدوا هذه الضريبة الفادحة الكادحة: ﴿فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

---

(١) كمرسلة المجمع: روي: إن موسى عليه السلام أمرهم أن يقوموا صفين فاغتسلوا ولبسوا أكفانهم فجاء هارون باثني عشر ألفاً ممن لم يعبدوا العجل ومعهم الشفار المرهفة وكانوا يقتلونهم فلما قتلوا سبعين ألفاً تاب الله على الباقين وجعل قتل الماضي شهادة لهم.
وفي تفسير البرهان ١: ٩٨ عن الإمام العسكري في الآية: ويقتل من لم يعبد العجل من عبده أقول وهما مردودان لمخالفة الآية والمقبول هو المروي عن علي عليه السلام وعن غيره الآتي.

(٢) أنفسكم هنا مثلها في أمثالها كـ: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] - حيث المؤمنون كنفس واحدة - كذلك هؤلاء إذ كانوا أقارب إضافة إلى قربة الإيمان أياً كان، وكقوله: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] - ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] - وأمثالها.

و﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ من أن تظلوا مرتكسين في حمأة الارتداد والضلال، أو نادمين تائبين دون تقديم لشريطة التوبة، عائشين عجالة الحياة في وصمة عبادة العجل الدائبة لو لم تقدموا هذه الضريبة: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بعد ما تبتم إليه هكذا ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: لمن يتوب ويسترحم كما يؤمر.

وقد تاب على القاتلين والمقتولين سواء(١)، إذ حققوا أمر الله فيما بينهم سواء حيث قَتَل من قَتَل بأمر الله، وقُتل من قُتل بأمر الله، مقدمين على هذا القتال في زواياه الثلاث.

وإن هذه منقبة لهؤلاء حيث اقتتلوا هكذا بأمر الله تفدية في التوبة إلى الله، كما ويندد بالمنافقين من المسلمين حيث لا يفعلونه إلّا قليلاً: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾(٢).

وتوبة المرتد عن فطرة تقبل عندنا بقتله، كما قبلت من هؤلاء، مهما

---

(١) الدر المنثور ١: ٦٩ - أخرج ابن أبي حاتم عن علي عليه السلام قال: قالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً فأخذوا سكاكينهم فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه والله لا يبالي من قتل حتى قتل منهم سبعون ألفاً فأوحى الله إلى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم وقد غفر لمن قتل ويتب على من بقي، وفي تفسير القمي قال عليه السلام: إن موسى لما خرج إلى الميقات ورجع إلى قومه وقد عبدوا العجل قال لهم موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] - فقالوا له: كيف نقتل أنفسنا؟ فقال لهم موسى عليه السلام: اغدوا كل واحد منكم إلى بيت المقدس ومعه سكين أو حديدة أو سيف فإذا صعدت أنا منبر بني إسرائيل فكونوا أنتم ملثمين لا يعرف أحد صاحبه فاقتلوا بعضكم بعضاً فاجتمعوا سبعين ألف رجل ممن كان عبدوا العجل إلى بيت المقدس فلما صلى بهم موسى وصعد المنبر أقبل بعضهم يقتل بعضاً حتى نزل جبرائيل فقال: قل لهم. يا موسى ارفعوا القتل فقد تاب الله لكم فقتل منهم عشرة آلاف وأنزل الله ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

أقول: واختلاف عدد القتلى والذين عبدوا العجل في الحديثين لا مرجع له من كتاب أو سنة يرجع إليه ولا يهمنا العدد وكما سكت الله عنه فلنسكت عنه.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٦.

اختلفت شاكلته، حيث إنها في بني إسرائيل كانت بأمر خاص وأصعب مما عندنا وأنكى!.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

نعمة سادسة لهم أن بعثوا بعد موتهم بصاعقة العذاب الهون وهم ينظرون.

ولقد كان سؤال الرؤية قبل اتخاذ العجل: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[1] [2].

أترى أن الذين سألوا الرؤية هم الذين عبدوا العجل؟ كأنهم هم كما تقول هذه الآية! ولكنهم السبعون الذين اختارهم موسى لميقات ربه حيث سألوا الرؤية، ومن بعده عبد الباقون عجل السامري: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾[3] ولم يكن الميقات إلّا واحداً كما تلمح له «ميقاتنا» فلأن عبادة العجل وسؤال الرؤية هما من باب واحد في تجسيم الإله - مهما اختلفا في تعيينه - نسبا معاً إليهم جميعاً، كما وينسبان إلى الموجودين منهم زمن النبي ﷺ لأن الشيمة في الأخلاف هي نفسها في الأسلاف، والشكيمة هي نفس الشكيمة، طبيعة جاسية لا تؤمن إلّا بالمحسوس.

ولأن سؤال الرؤية كان أخف وطأة من عبادة العجل، كانت عقوبته كذلك أخف منها، حيث أولاء قتلوا بالصاعقة ثم بعثوا، وهؤلاء تقاتلوا دون

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.

(٣) ويأتي تفصيل سؤال الرؤية منهم ومن موسى في محاله.

بَعثٍ لمن قُتلوا، وعلَّ القاتل منهم ترجّى ليته المقتول لعظم المشهد وهول المطلع.

فإطلال فترة الإذلال الفرعوني أفسد من فطرتهم الشيء الكثير، الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل الطويل، تحطيماً للفضائل وتحليلاً للفواضل، وغرساً للرذائل، واستخذاءً تحت رحمة الجلّاد، ثم تمرداً بعد رفع السوط، وتبطراً حين النّهمة بالنعمة على ما كانوا عليه من حب المادة، وصلابة العقيدة والحماقة العميقة.

ولكن الله تعالى يمهلهم دون أن يهملهم، ففي كلّ مرة من تهريف أو تجديف تدركهم رحمة الله وتوهب لهم فرصة الحياة لعلهم يشكرون فلا يهرفون بما لا يعرفون: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وفي هذا البعث رجعةً إلى الحياة الدنيا دليل قاطع لا مردّ له على إمكانية الرجعة وقوعاً فيما بعد كما نعتقده في دولة القائم المهدي عليه السلام وكما في آيات أخرى تبعث جماعات بعد موتهم(١).

ثم وفي هذه الآية دلالة باهرة على امتناع رؤية الله جهرة، فلو أمكنت لم يستحق طالب الرؤية لمزيد الإيمان عقوبة وتنديداً، ولم يك ذلك منهم ظلماً: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾(٢) ولم يك كذلك استكباراً وعتواً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ

---

(١) كما في ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٣] وفي الذي قتله بنو إسرائيل وأحياه الله ببعض بقرة: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣] وفي ﴿كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا . . . فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وأضرابها التي يأتي تفاصيلها في طياتها.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[1] لا بالنسبة للناس العاديين فحسب بل والنبيين كذلك كما في موسى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾[2] إضافة إلى سائر الدلالات القرآنية والعقلية التي تحيل الرؤية البصرية جهراً في كافة العوالم.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

نعمة سابعة سابغة إذ كانوا في التيه[3] نتيجة عصيانهم حيث لم يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم فارتدوا على أدبارهم فانقلبوا خاسرين.. ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[4]: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[5] ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾[6].

نعمة تضم نعماً ثلاث: تظليل الغمام - إنزال المن - إنزال السلوى -

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

(٣) نور الثقلين ١: ٨٢ عن الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي عليهما السلام فيما سأله اليهودي عن علي عليه السلام قال له اليهودي: فإن موسى قد ظلّل عليه الغمام؟ قال له علي عليه السلام: لقد كان كذلك وقد فعل ذلك لموسى في التيه وأعطي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من هذا: إن الغمامة كانت لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم تظله من يوم ولد إلى يوم قبض في حضره وسفره فهذا أفضل مما أعطي موسى عليه السلام.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٢٦.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٦٠.

(٦) سورة طه، الآيتان: ٨٠، ٨١.

والغمام من الغم: الستر، وهو لا يحمل ماءً أو لا يمطر: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾(١) ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾(٢) ثم ولا تجد غمامة في آية تمطر وإنما تغم وتستر بخلاف السحاب والغيم والمزن والمعصر فإنها هي التي تمطر، وإن كانت كذلك تستر، فقد كان الغمام في أربعين التيه سترة لهم من الشمس دائبة، اللهم إلّا شتاءً حيث تَلزمهم نور الشمس ونارها.

وإنها لنعمة كبرى حيث يراعيهم ربهم بها في الصحراء الجرداء، يقيهم هجيرها بالغمام، وجوعَهم - حيث هم منقطعون عن مواد الغذاء - بطيبات من الغذاء لا جهد فيها ولا عناء.

غمام يظلهم من الهاجرة التي كانت تفور بالنار، ومنٌّ يمن به عليهم وسلوى يتسلون به، مثلث النعم السابغة رغم ما لهم من سوء الحال والسابقة.

وترى ما هو المن وما هي السلوى اللذان رزقوهما في التيه؟

ذكرهما في موضع الامتنان دليل على أنهما لم يكونا من أرزاق التيه كبرٍّ من البراري، وقد يلمح إنزالهما «إلى» لإتيانهما من السماء، كما و﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ تشير إلى أنهما أو أحدهما مجموعة طيبات دون لون أو لونين من الأكل، ولا تنافيها الوحدة في قولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ إذ قد يعني النوع الواحد على طيبته كلِّه، وهم تهوّسوا ﴿مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

فهل هما اثنان: منٌّ وسلوى: طيبان؟ وهناك ﴿طَيِّبَٰتِ﴾، أو أن المنّ ما يمن به من طعام وهو الطيبات، والسلوى ما يتسلى بها نفسيّاً؟ لا نص في

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٥.

القرآن أو ظاهر يفسرهما إلّا قدر ما فسّر: أنه أو أنهما طيبات ليس من رزق الأرض المعتاد، بل هي منزّلة السماء وإن كانت على أشجار.

وقد يروى أن «الكمأة من المن وماءها شفاء للعين»[١] لا أنها فقط هي المن، وهي ثمرة بيضاء كالشحم تنبت من الأرض يقال لها شحم الأرض، فنزولها إذا هو كثرة إنباتها في التيه تقصّداً لأصحاب التيه، كما ومنها «الترنجبين»[٢] أو شيء كان يسقط على شجرة الترنجبين[٣] أو ما كان ينزل عليهم بالليل فيقع على النبات والشجر والحجر فيأكلونه[٤] وجملة القول هنا أن ليس شيء مما ذكر أو يذكر[٥] هو المن فقط، إذ لا تعنيها لغته، وإنما هي مصاديق عدة من المن: «ما يمن به عليهم في التيه من الأكل» وهي كلها ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ فالأرضي منها نازلة من علوّ الرحمة، والسماوي منها نازلة من علٍ كما هي نازلة برحمة، فهما إذاً نازلان من علٍ أياً كان.

---

(١) رواها أصحابنا وإخواننا جميعاً، فمن الأول ابن بابويه القمي عن أحمد بن محمد بن خالد البرقي عن محمد بن علي عن محمد بن الفضل عن عبد الرحمن بن زيد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: . . .
وفي الدر المنثور ١: ٧٠ - أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم عن سعيد بن زيد قال قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: . . . كما وأخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن أبي حاتم عن سعيد بن زيد قال قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: . . . كما وأخرجه أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة والنسائي من حديث جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وابن عباس.

(٢) تفسير البرهان ١: ١٠١ - عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أن المن الترنجبين كان يسقط على شجرهم فيتناولونه. . . .

(٣) الدر المنثور ١: ٧٠ - أخرج جماعة عن السدي: فأنزل الله عليهم المن فكان يسقط على شجرة الترنجبين.

(٤) علي بن إبراهيم القمي في معنى الآية.

(٥) فعن عكرمة أنه شيء مثل الطلّ شبه الرب الغليظ، وعن مجاهد أنه صمغة، وعن الربيع بن أنس أنه شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، وعن وهب بن منبه أنه خبز الرقاق مثل الذر، الدر المنثور ١: ٧٠ أو شيء كالطل فيه حلاوة يسقط على الشجر (مفردات القرآن للراغب) ولعلّه المادة التي يصنع منها في ايران «الكز» والعرب اصطلحوا له المن بالإضافة إلى السلوى، ولكنه فقط المن دون السلوى.

ثم السلوى هي في الأصل ما يتسلى به ومنه السُّلوان والتسلي، وإذا كان المن منة الغذاء البدنية، فالسلوى إذاً هي الغذاء النفسية، فالأوّل يصلح ويصحح البدن، والثاني يؤمِّن ويسلّي الروح، وهما «نعمتان مجهولتان الصحة والأمان» والطير السماني الذي جاء تفسيراً للسلوى هو من المن، فإن السلوى لغوياً لا تعني طيراً أم شيئاً خاصاً، وقد يكون السماني سلوىً في المن يسلي الذائقة بلحمه المُلذّ بين سائر المنّ، لا أنه هو السلوى والسلوى هي - فقط - السماني[1].

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من المنِّ، على السلوى الطمأنينة، حيث لا تطيب الطيبات على غير طمأنينة، فلا طيبات في المنّ - بل ولا منَّ إلّا بالسلوى.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: إنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم

---

(١) البرهان ١: ١٠١ عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام . . «والسلوى: السماني طير أطيب طير لحماً يسترسل فيهم فيصطادونه». . والشيخ مرسلاً عن الصادق عليه السلام «. . وكان المن والسلوى ينزل على بني إسرائيل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس فمن نام تلك الساعة لم ينزل نصيبه وكان إذا انتبه فلا يرى نصيبه احتاج إلى السؤال والطلب» ونزول السلوى مع المن في هذه الفترة تدل على أنها غير التسلية ولكنها رواية مرسلة. ثم والتفسير المنسوب إلى الإمام عليه السلام مخدوش في نسبته، كما وأن متنه يشمل على غرائب من التفسير قد لا تلائم القرآن أو يخالفه - ولم يرد تفسير السلوى بالسماني إلّا فيه فلا حجة - إذا - فيه، وقد يؤول بما أوّلناه، حيث السلوى لا تعني - لغوياً - السماني. وفي الدر المنثور ١: ٧٠ عن ابن عباس أن السلوى طائر شبيه بالسماني كانوا يأكلون منه ما شاؤوا وكما أخرجه ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة، وعن الضحاك - وفقاً للعسكري -: السماني هي السلوى، وعن قتادة كانت السلوى طيراً إلى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب فكان الرجل منهم يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده، وعن وهب بن منبه قال: سألت، بنو إسرائيل موسى اللحم فقال الله: لأطعمنهم من أقل لحم يعلم في الأرض، فأرسل عليهم ريحاً فأذرت عند مساكنهم السلوى وهو السماني ميلاً في ميل قيد رمح في السماء فخبّوا للغد فنتن اللحم.

وكفرانهم نعم الله التي كانت تنزل عليهم تترى، ولا سيما في صحراء التيه القاحلة الجرداء، حيث سقاهم - إلى سائر النعم - عيون الماء: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(١).

أتراهم بعد كلّ ذلك شكروا، كلا! إنهم ظلموا حيث خالفوا أوامر الله إلى غيرها ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، ومن مظالمهم:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

نعمة ثامنة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ لهم بعدما تاهوا في الأرض أربعين سنة لتخلّفهم عن أمر ربهم بدخول بيت المقدس بعد خروجهم عن مصر: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٠.

ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾[١].

فبعدما تاهوا في الأرض هذه السنين، وأنعمنا عليهم فيها بطيبات وانتهى أمد التيه ﴿قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾: الأرض المقدسة التي كتب الله لكم دخولاً للسكنى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾[٢].

أمروا أن يدخلوا باب القدس سجداً ويقولوا حطة، وترى كيف يمكن الدخول سجداً والسجدة المعروفة هي وضع الجبهة على الأرض ولزامه السكون، والدخول هو حركة المشي فكيف السجود؟.

إن قرينة الدخول الحركة تُحوّل السجود عن الساكن منه إلى غاية الخضوع حالة الحراك في الدخول، أن يركعوا في دخولهم قدر المستطاع، حيث يمكنهم المشي حالته، فلا يعني السجود إلّا غاية الخضوع، ولها في كلّ حقل ما لها من هيئة تناسبها على كونها غاية الخضوع حالها، وكما ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾[٣].

أترى أنها تسجد لله على هيئة سواء؟ وإنما حالة خاشعة سواء في مداها فكذلك يفسر ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ خشّعاً لله حيث تدخلون بيت الله، ولأن الله أدخلكم الأرض التي كتب لكم.

(١) سورة المائدة، الآيات: ٢١ - ٢٦.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦١، ١٦٢.
(٣) سورة الحج، الآية: ١٨.

فهنا دخولان: ﴿ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ دخولاً في قرية القدس، ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ دخولاً في القدس نفسه: البيت المقدس من باب خاص وهو المعروف الآن بباب حطة، وعلّها الباب الثامن أو التي كان يصلي إليها موسى.

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ولأن غفر الخطايا فرِّع على قول حطة كما فرِّع على دخول الباب سجداً كجزاء لهما، نعرف أن ﴿حِطَّةٞ﴾ تعني حطّ الخطايا، أن يستغفروا ربهم لكي يحط عنهم خطايا من كان منهم مخطئين، وأن يزيد في درجات من كانوا محسنين.

فهم لم يؤمروا فقط بالقول ﴿حِطَّةٞ﴾: كيفية من الحط، كلمة مفردة لا تعني كلاماً يفيد معنى! وإنما طلباً لانحطاط خطاياهم بكيفية خاصة يتقدمها الدخول سجداً لكي تتكيف جوارحهم وألسنتهم ومعها قلوبهم بعباد منحطّين أذلاء حين يدخلون شكراً لما أنعم عليهم والتماساً لحطّ خطاياهم[1].

فلا يصح القول: إنهم أمروا أن يقولوا ﴿حِطَّةٞ﴾ بنفس اللغة وهي عربية وهم عبريون، بل ما يفيد معناها في كيفيتها الكلامية التامة بعبريتهم.

فكما أن سجدتهم كانت غير السجدة المعروفة، كذلك حطتهم كانت غير هذه الحطة في صيغة التعبير، وإنما معنى الحطة ومعنى السجدة كما يناسب حالهم ومقالهم.

---

(١) هنا وردت روايات عن الأئمة من آل الرسول عليهم السلام «انما مثلنا في هذه الأمة كسفينة نوح وكباب حطة في بني إسرائيل» ففي الدر المنثور ١: ٧٣ - أخرج ابن أبي شيبة عن علي بن أبي طالب قال: إنما . . .

ونور الثقلين ١: ٨٢ عن عيون الأخبار بإسناده إلى الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لكل أمة صديق وفاروق وصديق هذه الأمة وفاروقها علي بن أبي طالب عليه السلام إن علياً سفينة نجاتها وباب حطتها.

أقول: وهكذا تظافرت الروايات من طريق أصحابنا وإخواننا . .

﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾ إن كنتم مخطئين ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ من كان منكم محسنين - ولكن:

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾.. ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ خاصة، لا هم بأجمعهم، حيث كان فيهم محسنون دخلوا الباب سجداً وقالوا حطة: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وقد تلمح ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بدلاً عن «المخطئين» أو «الظالمين» أنهم جماعة من الخاطئين إذ ظلموا بتبديل القول غير الذي قيل لهم، ظلماً على خطيئتهم، لا كل الخاطئين، إذ تابعت فرقة منهم سيرة المحسنين، ففعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا، وتخلفت أخرى قدماً إلى تخلفات أخرى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ - ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ فهم إذاً ثلاث: محسنون - تائبون - خاطئون ظالمون فاسقون - ولم يكن الرجز إلّا على الآخرين.

وترى أن ﴿قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ يعني تبديل قول ﴿حِطَّةٞ﴾ فقط إلى غيره؟ دون تبديل لفعل: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾؟ والفعل أصعب تحقيقاً وأقرب تخلفاً!

إن قولاً - هنا - الموصوف بغير الذي قيل لهم هو مفعول ثان لـ«بدل» فأوّلها: قول الله، فقد بدلوه إلى غيره: ما يغايره - فتبديل قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ دخولهم معاكساً، كأن يدخلوها زاحفين على أستاههم[1] مقبلين لها بأدبارهم مهما كانوا راكعين لكي يعاكسوا أمر الله مستهزئين.

---

(١) الدر المنثور ١: ٧١ - أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس وأبي هريرة قالا قال رسول الله ﷺ: دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حنطة في شعيرة.

ورواه مثله في تفسير البرهان ١: ١٠٣ عن تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام بقوله: «لم يسجدوا كما أمروا ولا قالوا ما أمروا ولكن دخلوها مستقبليها بأستاههم وقالوا: هطا سمقانا، يعني حنطة حمراء نتقوتها أحب إلينا من هذا الفعل وهذا القول..».

وتبديل قوله ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ قولة معاكسة كالقول «لا حطة» أو مستهزأ كـ«حنطة». أما هيه؟

والرجز من السماء الذي أنزل على الظالمين منهم الفاسقين هو الاضطراب حيث تعنيه لغته ومنه رجز البعير إذا تقارب خطوها واضطرب لضعفِ فيها، والرَّجَز لتقارب أجزائه، فرجزهم هو الاضطراب المتتابع المتقارب، وكما وأنزل على آل فرعون رجزاً من السماء: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾[1]... ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[2] ومهما عرف رجز آل فرعون كما هنا لم يعرف رجز بني إسرائيل إلّا بوصفه العام: عذاب مضطرب متناوب ينزل على الذين فسقوا وظلموا دون أن يعرف قومية ولا عنصرية، على آل فرعون الظالمين أو بني إسرائيل الظالمين سواء!

﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

نعمة تاسعة هي إسقاؤهم في التيه في صحراء جرداء لا ماء فيها ولا كلاء، وجحيم الهاجرة تفور بالنار: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٤.

﴿يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ . . . ﴿١٦١﴾﴾[١].

فاستسقاء قومه - لا طلبهم للإعجاز - يلمح أنهم كانوا عطاشى في قفر، لا في مدينة أو قرية، فهو التيه، ودلالة ثانية أمرهم بعد ذلك: ﴿اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ فقد تمت لهم مربع النعم السابغة وهم في التيه حيارى، رغم أنهم تاهوا جزاء عما تخلفوا من اقتحام القدس وفيها العمالقة الجبارون.

ثم الانبجاس والانفجار مترتبان تلو بعض، فلما ضرب بعصاه الحجر انبجس: انفراجاً أضيق من الانفجار، ثم انفجاراً باثنتي عشرة عيناً منبجسة عدد الأسباط المقطّعة اثنتي عشرة أمماً، حيث كانوا يرجعون إلى اثني عشر سبطاً عدد أحفاد يعقوب عليه السلام وهو إسرائيل المنسوبون إليه المتسللون عنه، وهم رؤوس القبائل الإسرائيلية ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ حيث عيّن لكلٍّ خاصة لا تعدوهم إلى سواهم، وقيل لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِزْقِ اللَّهِ﴾ أكلاً من طيبات المنّ وشرباً من هذه العيون ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ حيث كانت لهم نفسيات مفكّكة وجبلّات متداعية هابطة، آبية من الارتفاع إلى مثل الأخلاق الأبيّة.

وأصل العثا شدة الفساد، فهو السعي في شديد الإفساد، فقد يكون الفساد نتيجة عدم انضباط النفس عن الحرام أحياناً ما فهو من اللمم، وأخرى انضباط النفس غوراً في الحرام وخوضاً فيما لا يرام، وثالثة تجنيداً للقوى للإفساد وهو عثا الإفساد وعيثه محسوساً وغير محسوس[٢] وهنا النهي

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦٠، ١٦١.

(٢) في غريب القرآن أن العيث والعثى متقاربان إلّا أن العيث أكثر ما يستعمل في الفساد المحسوس والعثى فيما يدرك حكماً لاحساً أقول: ولعل العثى هنا تجمع بين الإفساد غير المحسوس والمحسوس، حيث الأوّل إذا تجاوز حده ظهر في المحسوس.

موجّه إلى حالتهم الفعلية الرديئة: السعي في عيث الفساد حالة الإفساد، وهو غاية الطغيان والكفران رغم أنهم نالوا من رحمة الله غاية النعمة، وأين نعمة من نقمة!.

ثم ترى أكان هذا الحجر خصيصاً من حجر التيه؟ أم حجراً منكراً أيّ حجر؟..

تعريف «الحجر» دون منكّره: «حجر» دليل الاختصاص، وكما أن عصاه عصا خاص: ﴿بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ لا «بعصى حجراً» وهي عصا لها معجزاتها الأربع: فلق البحر - تفجير العيون - صيرورتها «جاناً تهتز» «وثعباناً مبيناً» ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[1] وقد كان موسى يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه وله فيها مآرب أخرى.

ولزام هذا الحجر أن يكون من الكبر بقدر يمكن أن تتفجر منه اثنتي عشرة عيناً ترد مشاربها مئات الآلاف من بني إسرائيل دون تضايق وانتظار، أو تمانع واحتصار، بعيون واسعة، ومشارب شاسعة، فلا يمكن أن يكون حجراً صغيراً يُحمل كما لا يكون جبلاً كبيراً، حيث النص «الحجر» لا «الجبل» فليكن حجراً كبيراً أيًّا كان في جبل أو غير جبل حتى يستجيب طلب هكذا انفجار بمشارب فاسحة دون انتظار واحتصار، والنص لا يثبت هنا الإعجاز إلّا في انفجار العيون الاثنتي عشرة.

إن ضرب موسى بعصاه الحجر، دون أن يحمل الحجر - أيضاً - على صغره كحِمل بعير، هكذا انفجار شرباً لعشرات الآلاف المنقسمة إلى أسباط اثني عشر[2].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١٧.

(٢) في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى أبي الجارود وهو من الكذابين المعروفين بالجعل قال قال أبو جعفر عليه السلام إذا خرج القائم من مكة ينادي مناديه ألا لا يحملن أحد =

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾:

نعمة عاشرة وتلك عشر كاملة مما أنعم الله به عليهم وهم يكفرون ويقتلون ويعصون ويعتدون، فـ ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ فـ ﴿لَن﴾ تحيل صبرهم، وطبعاً إحالة - هنا - باختيار أن لن يرضوا بمنّ الله في طيبات ما رزقهم: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ كما مضت تفسيراً للمنّ أم السلوى، فوحدة الطعام لا تعني الوحدة العددية صنفاً فإنه المنّ: الطيبات، بل هي وحدة النهج بغيب نزوله: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ بعيداً عن الاعتياد الأرضي وأتعابها وأشغابها، مستبدلين الذي هو أدنى بالذي هو خير كرزق الجنة، حيث أرادوا الدّنيّة رغم أن الله اختار لهم العليّة، ولكن الطبائع المتخلفة النحسة ليست لتقبل إلّا الدنية.

هنا يسيئون الأدب بجنب الله مرة حيث استحالوا صبرهم على هذه الطيبات، وأخرى إذ طلبوا من موسى متعنتين: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ كأنه - فقط

= طعاماً ولا شراباً وحمل معه حجر موسى بن عمران عليه السلام وهو وقر بعير فلا ينزل منزلاً إلّا انفجرت منه عيون فمن كان جائعاً شبع ومن كان ظمآن رُوّي ورويت دوابهم حتى ينزلوا النجف من ظهر الكوفة.

وفي الخرائج والجرائح عن أبي سعيد الخراساني عن جعفر بن محمد عن أبيه مثله وفي آخره: فإذا نزلوا ظاهره انبعث منه الماء واللبن دائماً فمن كان جائعاً شبع ومن كان عطشان روي، أقول: بهذا المرسل وذلك المخدوش لا يمكن إثبات معجزة لا تشير إليها الآية والله أعلم.

- ربه وليس ربهم وليتهم طلبوا ما هو أطيب وأعلى! ولكنهم طلبوا من رزق الأرض الأرذل الأدنى ﴿مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ﴾ فالفوم: الثوم - والبصل هما الخبيثان على لسان النبي ﷺ: «من أكل هذين الخبيثين فلا يقرب مسجدنا» خبث الريح وأمثاله، مهما طابا في مآرب أخرى أكلاً أم سواه، والقثاء ليست طعاماً يغني من جوع ولا فاكهة، والبقل والعدس ليسا من الحاجيات الدائبة.

فرغم أن هذه الخمسة من المأكولات، ولكنها ليست من ضروريات الطيبات، : ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ فـ ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ توحي إلى انتقالهم من حياة عالية إلى حياة هابطة، و﴿مِصۡرٗا﴾ تشير تنكيرها إلى أنها ليست مصراً معينة فليكن مصراً: الذي خرجوا منها حيث لم يقل «مصرَ» حتى تعنيها.

فإجابة هذه الطلبة الهينة الزهيدة لا تتطلب دعاء ولا محاولة إلهية فإنها موفورة في كافة الأمصار، فلا حاجة الى: ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ اللهم إلّا في خروجهم عن التيه إلى مصرٍ، ولكنهم لم يطلبوه وإنما ﴿مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا﴾ في التيه أم سواه! وإذ أنتم ترفضون حياة الطيبات دون صراع ومخانقة في تحصيلها فـ ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ إلى حياة خانعة خانقة متعبة حيث تجدون بغيتكم حاضرة: من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها..

﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ وترى ما هي هذه الذلة وهذه المسكنة؟ ولماذا ضربت عليهم؟ وحتى متى؟ وهل ضربت عليهم - فقط - أم يعدوهم إلى أضرابهم بما يفتعلون؟ أسئلة تطرح نفسها في الظرف الذي احتلت إسرائيل فلسطيننا وقدسنا فاختلت الموازين بهذا الاحتلال فهل هم بعد أذلّاء مساكين؟!.

في الحق إن الذلة والمسكنة هما لزامان لكلّ من يحذو حذوهم كما قال

الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ولا نجد شعباً أنحس منهم في تاريخهم الأسود، ، ولذلك نرى الذلة والمسكنة لزامهم دائباً، إلّا بحبل من الله وحبل من النـــاس: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[١]: عصياناً لله حيث يكفرون بآيات الله، واعتداءً على عباد الله حيث يقتلون أنبياء الله، شرّ عصيان بجنب الله وشرّ اعتداء على عباد الله، كسيرة لهم دائبة مهما اختلفت صورته، فعصيانهم لله وكفرهم وتكذيبهم بآيات الله مستمر، وقتلهم رسل الله كذلك حيث اختلقوا عليهم في كتابات الوحي الإسرائيلية ما يمس من كراماتهم كرسل وصالحين، وأنكروا محمداً ﷺ شر نكير، ولو كان بين أظهرهم لقتلوه كما حاولوه في زمنه[٢] ويأبى الله إلّا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

فهم - إذاً - قتّالون لرسل الله ورسالاته كما يستطيعون بسيرة واحدة مهما اختلفت الصورة، فالسيرة هي السيرة والسريرة هي السريرة «وكل إنسان يعمل على شاكلته».

ثم المسكنة هي حياتهم دائباً أياً كانوا وأيان وكما نراهم حتى في دويلتهم لأول مرة يعيشون بأضيق المعيشة رغم أنهم يمتلكون أضخم

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٢.

(٢) نور الثقلين ١ : ٨٤ عن أصول الكافي بسنده عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: والله ما قتلوهم بأيديهم ولا ضربوهم بأسيافهم ولكنهم سمعوا أحاديثهم فأذاعوها فأخذوا عليها فقتلوا فصار قتلاً واعتداء ومعصية أقول: هذا من باب التطبيق وبيان مصداق خفي لقتلهم، لا أنهم ما قتلوهم أبداً، ففريق قتلوهم بما دلهم آخرون ثم وفريق رضوا وهم شركاء ثلاثة في قتلهم، كما أن الذين حرّفوا شرائعهم وكذبوهم وافتروا عليهم، فقد قتلوا رسالاتهم فهم كلهم شرع سواء.

الثروات، حيث يصرفونها في الأسلحة المحافظة على استمرارية الاحتلال، فميزانية التسليح للجنود، والتسليح لما يدمر دوماً من عمرانهم بالعمليات الفدائية، هذه الميزانية هي أضعاف ما تصرف في حاجياتهم المعيشية، رغم كافة الحيل والاحتيالات في جمعهم للأموال والثروات من كافة أنحاء العالم، فهم أقناهم رغم أنهم أغناهم، وأسكنهم حين أنهم أثراهم!

ثم الذلة هي حياتهم ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وليس لهم هكذا حبل طول تاريخهم العتيق ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وذلك حينما أخذت تستحكم حبلاً من الناس المستعمرين يمنة ويسرة بكل شغب وعسرة، عِمالة عُجالة للاستعمار حتى تشكيل دويلة العصابات، وترى أن هذا الحبل يدوم؟ كلّا فإنه ينفصم بعباد صالحين مرتين ثم لا حبل لهم إلى يوم الدين[1]؟.

ثم ولا يتغلب حبلهم من هؤلاء الناس النسناس إلّا حين ترك المسلمون حبلهم من الله ومن الناس:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ . . . ﴿١١٢﴾﴾[2] وليس المخاطبون بـ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾ هنا إلّا المسلمون المتمسكون بالحبلين وكما تتقدم آيتهما آياتهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

(١) راجع الفرقان ١٥ تفسير سورة الإسراء آية بني إسرائيل.
(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١١١، ١١٢.

فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴿١١١﴾﴾[1].

فحبل من الله هو الإيمان والاعتصام بالله وتقوى الله، والاعتصام بحبل الله: كتاب الله ونبي الله - عقيدة الإيمان وعمل الإيمان، إنها حبل من الله، ثم جماعية الاعتصام بحبل الله على تكوُّن أمة فيهم داعية إلى الخير آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، وعدم التفرق عن دين الله أو في دين الله، إنها حبل من الناس، دون سناد إلى النسناس. وإذاً: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾.

ثم حبل اليهود من الناس لن يفيدهم خروجاً عن ظاهر الذل إلّا مرتين على بقائهم في مسكنتهم: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[2] إفساداً في الأرض كل الأرض مرتين، وعلواً كبيراً مرة واحدة هي الثانية ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾[3] واحتلال فلسطيني ومن ثم القدس ولحدّ الآن هي المرة الأولى من الإفساد العالمي بعلوٍّ غير كبير، وسوف يقضي عليهم ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ أقوياء صالحون يجوسون خلال الديار ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٠٠، ١١١.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٥.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾[(١)] رداً لإسرائيل إلى ما كانت أوّل مرة وأقوى علواً: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا... فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾[(٢)] المرة الآخرة الثانية، ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟﴾ هؤلاء العباد الصالحون ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ أسوأ من الأولى ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ - (الأقصى) - كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾[(٣)].

ولم يسبق لإسرائيل إفساد عالمي طول تاريخ إفسادهم أن يؤسسوا دولة الإفساد إلّا في احتلال القدس، ولا علو كبير عالمي إلّا مستقبلاً بعد أن يدخل ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ القدس بجوسهم خلال الديار أوّل مرة، ثم رجوعهم إلى ما كانوا وأفسد وأعلى ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾[(٤)] حيث يرجعون إلى المسجد الأقصى ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾.

وهم منذ وُجدوا مفسدين وإلى يوم الدين يسامون سوء العذاب وحتى في قوتهم وشوكتهم حيث دويلة العصابات: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٥)] سوء عذاب دائب بعباد صالحين كما هنا وهناك ومنذ التأديبات المتتالية زمن الرسالات الإسرائيلية والرسالة الإسلامية حتى الآن، أم وطالحين كالهتلريين أم من ذا؟ حيث هم قبل دويلة العصابات المغتصبة كانوا مشردين نيلة كل نائل وغيلة كل غائل، وهم في دويلتهم الآن في خطر دائب وتفجرات داخل أراضيهم ليل نهار، - فلا يكفي هذا لسومهم سوء العذاب؟!

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦.
(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٦، ٧.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٧.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٦٧.

إذاً فالمسكنة لزامهم مضروبة عليهم ضرب السكة لا تمحى، مهما كانت الذلة ﴿إِلَّا . . . وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[(١)] حيث لا يبقى، وإنما ردح من الزمن ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾[(٢)] على سومهم سوء العذاب حتى في هاتين المرتين، كما وإنهما مضروبتان لكل من يفتعل فعلتهم: تركاً لحبل من الله وحبل من الناس حتى وإن كانوا مسلمين و﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ دون المتمسكين بالحبلين، القائمين بشروط الله حتى وإن كانوا غير مسلمين ف: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾[(٣)].

وهذه الآيات تأتي بعد التي تأمر المسلمين بما تأمر وتضرب على اليهود الذلة والمسكنة فـ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾[(٤)].

فإنما هو الإيمان وعمل الصالحات فقط دون جنسيات أو هويات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٢.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠١.
(٣) سورة آل عمران، الآيات: ١١٣ - ١١٥.
(٤) سورة النساء، الآيتان: ١٢٣، ١٢٤.

طوائف أربع ذكروا ردف بعض بمختلف أسمائهم الحاكية عن مختلف شرائعهم وطرائقهم، ثم جمعوا وأمثالهم غير المذكورين هنا في طابع الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، كما يوحي لذلك ترك الضمير الراجع إليهم ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ دون «منهم» مما يوحي بأن الضابطة العامة في مثلث النجاة: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إنها - فقط - مثلث: الإيمان بالله - واليوم الآخر - والعمل الصالح، مهما كانوا من الذين آمنوا أو الذين هادوا أو النصارى والصابئين أم أياً كانوا من الموحدين، وكما دلت آية ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾[1] أن أهل الكتاب منهم ليسوا سواء فيما يذكر لليهود منهم، فحتى اليهود أيضاً إن كانوا في مثلث الإيمان فهم ناجون، فضلاً عن سواهم! وكما أن الثلاث الأخرى موحدون، كذلك الصابئون حيث ذكروا معهم ثم يشملهم ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ وإلّا لم يكن لذكرهم في شمل الموحدين هنا من معنى.

وفي حين أنهم يتأخرون هنا ذكراً عن الذين هادوا والنصارى، نراهم في المائدة يتوسطون بينهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2] تدليلاً على أنهم وإياهم سواء في التوحيد مهما اختلفوا في شرائع التوحيد.

ثم نراهم بنفس الصيغة في الحج ومع المجوس يردفان بالثلاث الأخرى من الموحدين، خمساً تجاه المشركين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[3] مما يدل على أن الخمس الأوّل ليسوا في

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٩.
(٣) سورة الحج، الآية: ١٧.

عداد المشركين مهما كانوا منحرفين في عقيدة التوحيد، ولكنهم تجمعهم كلمة التوحيد: أن ليسوا وثنيين.

ومن الملاحظ أن الأوليين تحكمان بالنجاة لمن آمن منهم إذ لم يكن بينهم مشركون، ثم الثالثة تأتي بكلمة الفصل فيما بينهم بدل النجاة، حيث الانفصالية للذين أشركوا عمن سواهم في عقيدة التوحيد، مما يبرهن أن العبرة في مجال النجاة إنما هي بحقيقة العقيدة، دون عصبية جنس أو طائفية أم ماذا من الفوارق؟

لذلك ترى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لا تكفي نجاة بمجرد أنهم مسلمون، كما الألقاب الأخرى على سواء، اللهم إلّا بانضمام الحقيقة إلى الادعاء: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ دون الادعاءات الخاوية الجوفاء من: مسلمين أو الذين هادوا والنصارى والصابئين والمجوس أم من ذا؟ من المنسلكين في سلك التوحيد بألسنتهم - فقط - أم وفي عقائدهم أيضاً، إلّا بمظهر العمل الصالح للإيمان بالله واليوم الآخر.

فـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هنا هم المسلمون المؤمنون بالرسالة الإسلامية دون المنافقين إذ لا إيمان لهم ولا عمل صالحاً، إنما هم المؤمنون، دخل الإيمان في قلوبهم أو لمّا يدخل وهم في سبيل الإيمان، وهذه مواصفة للمسلمين غير المنافقين في مئات الآيات تكريماً لهم بكرامة الإيمان، دون الألقاب الخاوية الأخرى[١] ولا ينافي تكرارَه ذيلُ الآية بملحقات أخرى ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم...﴾[٢] حيث المعني من الأول مطلق الإيمان والآخر هو

---

(١) تتكرر هذه المواصفة لهم في القرآن (٢٥٨) مرة في مختلف الواجهات، والدرجات الإيمانية، ولكنما المنافقون لا يعبر عنهم إلّا به أو يشملهم المسلمون حيث يعمّهم والمؤمنون بقلوبهم والذين هم في سبيل الإيمان.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

الإيمان المطلق كما في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ...﴾[1]..

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ هم اليهود، يذكرون بهذه الصيغة في آيات عشر، وكما يذكرون هوداً أو اليهود، وعلّ الأصل من «هدنا إليك»[2] رجوعاً عما طلبوا من رؤية الله جهرة، وعما عبدوا العجل، إلى الله وحده حيث مقالهم: ﴿... وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ... ﴿١٥٧﴾﴾[3].

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ قد تأتي علماً لليهود كطائفة، هادوا هكذا أو لم يهودوا، كما هنا حيث يستثنى أخيراً في النجاة من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً كما للمؤمنين وسواهم من المذكورين، وقد تأتي تنديداً وتعريضاً بالذين سمّوا هوداً ولم يهودوا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[4] ولم تأت كمدح ومواصفة لهودهم ورجوعهم إلى الله إلّا في آية يتيمة هي الأصل في تسميتهم هوداً: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾[5] ثم اشتقت منها صيغ الهود واليهود تنبيهاً على الأصل، وتأنيباً على الشاذين عن هذا الأصل.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٦.
(٢) الدر المنثور ١: ٧٤ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن نجي عن علي عليه السلام قال: إنما سميت اليهود لأنهم قالوا: إنا هدنا إليك.
(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٦، ١٥٧.
(٤) سورة الجمعة، الآية: ٦.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ الآتية في (١٤) موضعاً علّه جمع نصري[1]: المنسوب إلى النصر حيث ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾[2] لما قال المسيح ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[3] كما وأن المسيح والحواريين كانوا في «الناصرة» حيث يقال: «المسيح الناصري»[4] ولكنما الأصل في «النصارى» قرآنياً وفي اللغة هو النصري، وليس الناصري، مهما لمح إليه النصري هامشياً[5].

وكما كانت «هود» كذلك «النصارى» تأتي عاماً كما هنا حيث تشمل المؤمن الناصر للحق، والمنتسب إليه بالهوية، وتأتي عاماً بترك النصرة: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾[6] كما وتأتي مدحاً بالنصرة: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾[7].

---

(١) هذا هو المشهور من مفردها مثل صهري وصهاري، وفي غريب القرآن للراغب: سموا بذلك انتساباً إلى قرية يقال لها نصران فيقال: نصراني وجمعه نصارى أقول: هذه القرية هي الناصرة ومنسوبها ناصري لا نصراني، ثم الناصري ليست جمعاً للنصراني وإنما جمعها نصرانيون، وجمع الناصري أيضاً ناصريون، ولا يناسب النصارى هذه المفردات، وإنما نصرى أو نصري والثاني أوفق بالنسبة إلى النصر المدلول عليه في مقالة النصارى: نحن أنصار الله، وفي الكشاف أنها جمع نصران، أقول: عله مثل سكران سكارى ولكن فاء الجمع هنا مضموم وهناك مفتوح إذاً فمفردها بين نصري ونصرى.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.

(٤) في قاموس الكتاب المقدس: ذكرت الناصرة (٢٩) مرة في العهد الجديد، ولقد أمضى المسيح أيام طفولته فيها فاشتهرت بوطنه ولقب المسيح الناصري كما الحواريون ناصريون (متى ١٣: ٥٤ - ٥٨) - (مرقس ٦: ١ - ٦) - (اعمال الرسل ٢: ٢٢ و٣: ٦ و٤: ١٠ و٦: ١٤) والجيل السادس من المسيحيين أخذوا يزورون الناصرة.

(٥) نور الثقلين ١: ٨٥ في عيون الأخبار بإسناده إلى الرضا عليه السلام قيل له: فلِمَ سمي النصارى نصارى؟ قال: لأنهم من قرية اسمها ناصرة من بلاد الشام نزلها مريم وعيسى بعد رجوعهما من مصر أقول: لم يكن كل النصارى من الناصرة، وإنما هو المسيح والحواريون، وقد تناسب هذه النسبة على هامش النصرة الإلهية كما قلناه.

(٦) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

(٧) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ هم الذين صبأوا وانتقلوا من دين إلى دين، فهل من دين التوحيد إلى الشرك؟ وهذا ينافي ردفهم بالموحدين ونجاتهم بالإيمان بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات، كذلك ومقابلتهم بالذين أشركوا! إذاً فهم الصابئون من الشرك إلى التوحيد،(١) متحللين عن أي كتاب سماوي، أم صابئين من توحيد كتابي كشريعة إبراهيم إلى شريعة خليطة من وحي الأرض الزردشي ووحي السماء الإبراهيمي كما تؤيده الروايات(٢) كما المجوس أيضاً من الموحدين(٣) مهما أخطأ هؤلاء وهؤلاء في توحيد الله، وفي الصبوء والتمجّس عن الشريعة الكتابية، ومهما يكن من شيء فليس الصابئون والمجوس من أهل الكتاب تماماً مهما يحترم فريق منهم النار إلّا أنه ليس لحد الإشراك بالله، وعبادة من دون الله.

هؤلاء الطوائف الخمس الموحدون، من كتابيين وسواهم، هم المشهورون المذكورون في القرآن بأسمائهم، وقد أجمل عن ذكر موحدين آخرين كانوا أو تكوّنوا أم سوف يكونون، من ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهكذا تحدد شاكلة الإيمان المنجي أولاً وأخيراً كضابطة عامة تحلّق على الألقاب: مسلم - يهودي - نصراني - صابئي - مجوسي أمّن ذا؟

---

(١) كان العرب يسمون النبي ﷺ صابئاً لأنه أظهر ديناً بخلاف أديانهم.

(٢) الدر المنثور ١: ٧٣ - أخرج ابن أبي عمر العدني في مسنده وابن أبي حاتم عن سلمان قال: سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم فذكر من صلاتهم وعبادتهم فنزلت الآية - أقول ولا شك أن من كان سلمان معهم ومنهم هم الزرادشت الإيرانيون.

(٣) وفيه عن وهب بن منبه الصابئي هو الذي يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل بها ومن المحتمل إنهم اتباع ماني وعلى حد المروي عن الصادق عليه السلام وقد سئل لِمَ سمي المجوس مجوساً؟ قال: لأنهم تمجسوا في السريانية وادعوا على آدم وشيث وهو هبة الله انهما أطلقا نكاح الأمهات والأخوات والبنات والخالات والعمات والحرمات من النساء ولم يجعلوا لصلاتهم وقتاً وإنما هو افتراء على الله وعلى آدم وشيث (مجمع البحرين).

فمن مات على غير الإيمان بالرسالة الإسلامية موحداً: كتابياً من هود أو نصارى، أم غير كتابي كالصابئين والمجوس، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ شريطة القصور والاستضعاف حيث لم يسمعوا بهذه الرسالة[1] أو لم يعرفوا حقها، دون المقصرين في التعرف إليها، أو الذين ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[2].

فالجحد بآيات الله وتكذيب آيات الله ينافيان الإيمان بالله، ونكران يوم لقاء الله ينقص من الإيمان بالله، وترك الصالحات التي تناسب الإيمان، دليل على خواء الإيمان، فهؤلاء ليسوا من المبشَّرين بالأجر وعدم الخوف والحزن، وإنما هم المؤمنون بالله واليوم الآخر والعاملون الصالحات، ومهما كانوا درجات في مثلث الإيمان، فهم درجات في مثلث النجاة، كما أن من سواهم دركات في اللّاإيمان واللّانجاة دون تسوية هنا وهناك ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[3] ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[4] في نقير الإيمان وعمل الصالحات، دون ترسب على عنصريات أو طائفيات فبعدما ضربت آية الضرب الذلة والمسكنة على اليهود، تستدرك هذه الآية عما ربما يختلج بالبال أنه خاص باليهود، فهناك بينت سبب الذلة المسكنة أنه الكفر والتكذيب والاعتداء أينما كانت، وهنا تبيّن سبب النجاة في مثلثه أينما كان،

(١) الدر المنثور ١: ٧٤ - أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: سأل سلمان الفارسي النبي ﷺ عن أولئك النصارى وما رأى من أعمالهم؟ قال: لم يموتوا على الإسلام، قال سلمان: فأظلمت علي الأرض وذكرت اجتهادهم فنزلت هذه الآية: «إن الَّذِينَ هادُوا»... » فدعا سلمان فقال ﷺ:
«نزلت هذه الآية في أصحابك، ثم قال: من مات على دين عيسى قبل أن يسمع بي فهو على خير ومن سمع بي ولم يؤمن بي فقد هلك».

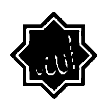
(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٣) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٢٤.

دون فرق بين الموحدين، من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ﴾[1] لا هنا ولا هناك!

﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ على غرار ما آمنوا وعملوا ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ في عالم الرب يوم الأجر والجزاء ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ من عذاب ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ لما فات عنهم جمعاً لهم بين أمن الحاضر والمستقبل والغابر.



(١) سورة الحج، الآية: ١٧.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

الميثاق هنا هو ميثاق الكتاب حيث يشمل المواثيق كلها، ميثاق واحد هو جمعية الميثاق، كما توحي له وحدة ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ ويصرح به ميثاق الكتاب: ﴿. . .أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ. . . وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ. . . وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ. . .﴾[1].

وقد رفع فوقهم الطور بميثاقهم المأخوذ عليهم: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾[2] حيث سببه الميثاق لكي يعرفوا مدى تحمّل الميثاق وحمله كما يرفع الطور بقوة، وحتى يخافوا من ترك الميثاق فقد أمروا حينه: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ كما هنا وفي الأعراف، أو

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٦٩ - ١٧١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٤.

«واسمعوا ما فيه» كما في أخرى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ فالأصل هو أخذ ما أوتوا بقوة، بأن يذكروا ما فيه ويسمعوا ويعوا ثم يعملوا.

ولقد رفع الطور فوقهم نتقاً: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] فالجبل هنا هو الطور دون ريب كما توحيه لام التعريف، ولم يكن المعروف عندهم إلّا الطور كما وهو في التوراة «طور» أو: جبل الزيتون، والجبل الذي أمام أورشليم، والذي على شرقي البلد.

ونتق الشيء جذبه ونزعه حتى يسترخي كنتق عرى الحِمل، فقد جذب الله الطور ونزعه فاسترخى فرفعه ﴿فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾.

مع نتق الجبل فوقهم بميثاقهم نراهم في مثلث الأمر حيث حِمله كحِمل الجبل: ١ - ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ بقوة الأبدان والقلوب[2] حيث يعم التكاليف البدنية والنفسية: عقلية أم قلبية، استجاشة لكافة القوى حتى يتم الأخذ الذي يحمل آخذه على التقوى.

٢ - ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ حيث الأخذ الصحيح ليس وارداً إلّا بعد الفهم الصحيح، وتذكُّر ما فيه، دون غفلة وغفوة، أو لفتة عما فيه.

٣ - ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ بسماع آذانكم[3] ما يقرأ عليكم رسولكم حيث يقرع به

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧١.

(٢) تفسير البرهان ١: ١٠٥ - العياشي عن إسحاق بن عمار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣] - قوة في الأبدان أم قوة في القلوب؟ قال: فيهما جميعاً ورواه عن ابن بابويه مسنداً إلى إسحاق ويونس مثله.

(٣) لأن «اسمعوا ما فيه» يذكر في آيته بدلاً عن ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣] في آيتيه، نعرف أن سمع ما فيه هو سمع القلب كما الذكر هو فعل القلب، فسمع القلب هو ذكره وذكره سمعه، يتجاوبان في آيتيهما.

أسماعكم، ومن ثم بآذان قلوبكم لكي يكمل الوعي، فيحصل العمل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: حيث إن فطنة الاتقاء ومغبته ليس إلّا بعد التحليق في هذا المثلث بتحقيق زواياه، آخذاً من ظن الاتقاء وعلمه وواقعه اليقين.

ويا له من مشهد متناسق في لزام القوتين: نتق الجبل فوقهم كأنه ظلّة، وأخذ الميثاق بقوة، مما يوحي بأنه من معجزاتهم كما نتق الجبل معجزة، بما عرف من إخلادهم إلى الأرض واتباع أهوائهم وفرُط أمرهم وانجذابهم إلى جواذب الفسوق والعصيان ونزعات الطغيان، وكما الجبل منجذب لا محالة إلى الأرض إلّا بقوة الله فليأخذ وإما أوتوا بقوة التصميم حسب المستطاع، وليستعينوا بالله في تحقيق ميثاق الله باستجماع نفس وتصميم.

هذا المشهد الرائع المروِّع المتناسق ينبههم أن المجال في ميثاق الكتاب لا يتحمل أية رخاوة وتميُّع وفلول، ولا أية أنصاف حلول، وإنما هو نتق لجبل الإنيات والشهوات والنزعات، لا سبيل فيه إلّا الجدّ بكافة الطاقات والإمكانيات حيث يودّعون حياة الدعة والرخاوة واللامبالاة ويقبلون إلى الله بكلهم إقبال الجادّ العارف المصمم.

فميثاق الكتاب منهج حياة إيمانية: يقيناً فنظاماً ينظم الحياة في كافة حقولها كما يريد الله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وترى أنهم أخذوه بقوة وسمعوه وتذكروا ما فيه؟.. إنهم خادعوا الله حيث تظاهروا - والجبل فوقهم كأنه ظلة - كأنهم موفون بميثاق الكتاب خشية وقوع الجبل عليهم، ثم تولّوا: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ وكان لزاماً نتق الجبل ووقوعه عليهم بعد ذلك: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

ليس فحسب أنهم تولوا من بعد ذلك، بل وقالوا قولتهم الفاتكة بعدما

قيل لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ﴾ -: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

فـ ﴿ثُمَّ﴾ في آيتنا تؤخر قولتهم الفاتكة عن واقعة الجبل، وتفسر هذه: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[2] أنها كانت بعد الواقعة، فلو كانت عندها لوقعت الوقعة حيث لم ينتق الجبل حينه إلّا إخافة.

ولم يكن رفع الجبل إكراهاً لهم في الدين: العقيدة حتى تنافيه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾[3] وإنما حملاً لهم على تطبيق الدين بعدما تبيّن لهم كعقيدة، حيث النص: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ فقد كان أخذ الميثاق قبل رفع الطور وبعد ظاهر الإيمان بما أخذ عليهم ميثاقه، ثم تحقق رفع الطور بذلك الميثاق: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ...﴾[4].

ورفع الجبل هذا كان لهم موعظة وذكرى وإخافة «إن لم تقبلوه وقع عليكم الجبل فقبلوه وطأطأوا رؤوسهم»[5]. آية إلهية تزيد في الإيمان بالله، فالتمسك بميثاق الله، والإخافة عن النكثة النكسة عما أخذ عليهم الله، آية يتيمة في تاريخهم لم تتكرر، حيث الآيات التي عاشوها زمن الرسالة الموسوية لم تكن لتحمل إخافة لبني إسرائيل، إلّا هذه التي تضمنها بجنب الحجة والموعظة.

وهكذا ينطق الجبل بنتقه آية إلهية ليست بمقدور مَن سوى الله أن يرفع

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٤.
(٥) نور الثقلين ١: ٨٥ عن تفسير القمي قال الصادق عليه السلام: «لما أنزل الله التوراة على بني إسرائيل لم يقبلوه فرفع الله عليهم جبل طور سيناء فقال لهم موسى عليه السلام: ...».

فوقهم كأنه ظُلّة دون عَمَد يرونها إلّا إرادة الله، فمهما ينتق الإنسان جبالاً من حديد أم ماذا بعمد يصنعها، ولكنه ليس إلّا بوسائل معروفة علمية، لا فقط إرادة النتق مهما كانت هناك عمد إلهية أخرى، مما لا يُرى.

فمن الهُراء القولة الناكرة للمعجزات: إن بني إسرائيل كانوا في أصل الجبل فزعزع وزلزل حتى أطل رأسه عليهم فظنوا أنه واقع بهم،! فإنه تأويل عليل للنص: ﴿وَرَفَعْنَا﴾.. ﴿نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾ وتُرى إذ يراد الإفصاح عن رفع الجبل ونتقه، هل هناك نصٌ أو في من رفعه ونتقه؟..

أما لو أريدت الزلزلة والزعزعة كيف لا يعبر عنهما بنصه؟ رغم أنهما لا تنتقان الجبل وترفعانه فوقهم كأنه ظُلّة.

وترى ما هو موقع الترجي في ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؟ والله لا يترجى، بل الذي لا يعلم عواقب الأمور هو الذي يترجى!.

الجواب: أن المقام هو مقام الرجاء وإن كان الله لا يترجى، وإنما المكلف بأمر الله له أن يترجى الاتقاء عن المحاظير إن حقق أمر الله، حيث الأخذ بما أوتوا بقوة مترجىّ، ثم الاتقاء بعد ذلك رجاء بعد رجاء، حيث العوائق قد تحول بين الأخذ والاتقاء، إلّا أن يشاء الله، فلا يملك العبد على أية حال إلّا الخوف والرجاء.

ولعلّ أخذ ما أوتوا بقوة هو أخذ التصميم بالإيمان كما وأن ذكر ما فيه وسمعه هو الإرادة القلبية عن بصيرة ويقين، وهذا كله تقوى باطنية، فـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تعني التقوى الظاهرية حيث تترجى على أثر التقوى الباطنية، ولكلّ وجه والجمع أوجه.

و﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ تشمل الغابرين حيث ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وكذلك الحاضرين زمن الخطاب حيث كانوا تاركين التوراة كالغابرين، مهما

لم يكونوا قائلين قولتهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أو قالوها، فإنما العبرة بالتطبيق المفقود هنا وهناك على سواء، فتراهم يمارسون تحريف التوراة لفظياً ومعنوياً وعمليّاً عائشين مثلث التحريف والتجديف، في وهدة التهريف وحِدَّة التزييف! حيث تعنيها كلها: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾.

ومن فضل الله عليهم أن لم يسحقهم بوقعة الجبل بعدما عصوا ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ المُعَدمين بسحق آبائكم العاصين!.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

.. هنا اعتداء في السبت عملياً تحت ستارٍ ماكر يخادعون الله فيه، إذ لم يسبتوا عن العمل والصيد يوم سبتهم متظاهرين أنهم سبتوا بما مكروا في خدعة شرعية! هازئة بحكم الله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[1] ... ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[2].

فكوّنهم بما اعتدوا قردة خاسئين ﴿نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ الحاضرين ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: المستقلبين، ممن سلكوا سبيلهم - حيث تنكلهم: تقيدهم عما يشتهون، وكذلك نكالاً للحياة الحاضرة الأولى والمستقبلة الأخرى، ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون طيب أنفسهم، أن تقيدهم وتنكلهم تقواهم عن طغواهم، فليست القردة الخاسئة لهم نكالاً، وإنما هي موعظة بها يتعظون.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٦.

إن هذا التطور القاصد: تحويل الخاطئين إلى قردة خاسئين، يضم إلى زاويتيهما لجمعي الطاغين والمتقين، ثالثة هي اللعنة عليهم يوم الدنيا ويوم الـديـن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[1].

هذا الاعتداء السافر الماكر بعدما ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾[2] وإنما جعل عليهم بما اختلفوا في إبراهيم بلاءً وامتحاناً وحرماناً مؤقتاً: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ (إبراهيم)[3].

والسبت لغوياً هو القطع كما ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[4]: قطعاً لحركات التعب ونهضات النصب، كذلك جعل السبت على الذين هادوا حكماً رابعاً من النواميس العشرة التوراتية (الخروج ٢٠: ٨) وهو حكم ثابت في الشريعة التوراتية حتى جاء الإسلام ونسخه إلى الجمعة، وكما ليس لنا تحويل الجمعة بفرضها وأحكامها إلى غيرها، كذلك السبت ثابت طوال الزمن التوراتي.

فمن الهراء قولة المسيحيين: (لنا تغيير السبت إلى يوم الأحد لأن المراد منه الانقطاع إلى عبادة الله في كل سبعة واحدة، سواء السبت أو الأحد أم ماذا) لذلك يسمي النصارى الأحد سبت المسيحية لأنه اليوم الذي قام فيه المسيح من دور الأموات بعد صلبه يوم الخميس، فدخل جحيم النار ليذوق العذاب بجسمه البشري ثم صعد إلى أبيه في السماوات[5] وقد حادوا

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٤.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٤.
(٤) سورة النبأ، الآية: ٩.
(٥) راجع كتابنا: عقائدنا عند البحث عن الصلب.

الله في تغيير السبت إلى الأحد، وأهانوا المسيح أن اتخذوا يوم جحيمه - على حدّ قولهم - يوم عيدهم، وهكذا فعلوا وافتعلوا بشريعة التوراة بما أضلهم سامريهم بولس الرسول!.

ثم القول: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ليس لفظة قول، وإنما هي إرادة فعل، فقوله تعالى فعله في مجالات التكوين، كما: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[1] فعبارة القول إشارة إلى مدى نفاذ أمره دونما وقفة أو شريطة أمر آخر أو أمور أخرى، فـ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2]. وتعني ﴿خَاسِئِينَ﴾ مهانين بعيدين، حيث القردة العاديين ليست خاسئة حيث خلقت قردة كسائر الحيوان المخلوقة حيواناً دونما بُعد عن رحمة الله وكرامته، وهؤلاء حوّلوا قردة بعدما خلقوا أناسي، فحوّلوا إلى ﴿خَاسِئِينَ﴾ طريدين مهانين بعيدين عن رحمة الله.

وترى أنهم كوّنوا قردة - فقط - في أبدانهم أو أرواحهم، أم فيهما معاً؟ علّ اللائح من ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ تحوّل الجزءين إلى قردة، ولم يقل: كونوا في أرواحكم، أو في أبدانكم! أو يقال: الأمر لا يوّجه إلّا إلى العاقل وليست الأبدان بالتي تعقل فتقبل الأمر أو لا تقبل؟ ولكنما الأمر هنا أمر التكوين فيعم مطلق التكوين عاقلاً وسواه وكما ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾[3].

ولعلّ ﴿خَاسِئِينَ﴾ دون «خاسئة» تلمح إلى بقاء أرواحهم الإنسانية عاقلة، لمكان جمع العاقل، ولأن نكالهم لا يبقى لأنفسهم ما عاشوا لو حوّلت أرواحهم قردة، فإنها لا تشعر تحوّلها، ثم ولأن القردة المحولة بجزءيها عن

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.
(٢) سورة يس، الآية: ٨٢.
(٣) سورة فصلت، الآية: ١١.

جزءَي الإنسان لا تبقى مكلفة تعذب هنا وفي الأخرى، كما لو جنّ عاقل عاص ومات مجنوناً، حيث المعيار في الحساب هو الحالة التي يموت فيها المحاسب، إن عاقلاً فإلى ثواب أو عقاب، وإن مجنوناً أو قرداً أم أي حيوان لا يعقل فلا حساب إلّا قدر ما يشعر.

فالروح الإنسانية التي عاشت جسمها فترة، ثم حول جسمها إلى قرد إنها تذوق أشد العذاب بما تعقل.

وأما أن تحوّل أرواحهم - فقط - قردة مع بقاء أبدانهم فلا نكال لهم - إذاً - ولا لما بين يديها ولا خلفها، حيث لا يرون نكالها.

هنا تحوُّل إلى قردة خاسئين نكالاً أو موعظة، فماذا تحوّل القردة أناسي - على حدّ مزعمة دارون - فإذ نقبل التحول الأول بدليل قاطع كما هنا، لسنا لنقبل التحول الآخر بمجرد التشابه دون دليل، وآيات خلق الإنسان من طين لازب - من صلصال من حمإٍ مسنون - وكالفخار، ليست لتقبل هكذا تأويل، والبحث آتٍ في طيات آياته.

﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

النكال هو الضعف والعجر والقيد والحجز، فالنكال العجز والحجز مجعول هنا لمثلث ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وترى ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أهم الأمم التي كانت تشاهدها من حاضرين لمشهدها ليكون نواحاً ذرين عن محتدها ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ هم الأمم التي أتت بعدها وهوت هواها فطغت طغواها[1]؟ إذاً فلماذا «ما» وهي تلمح لغير ذوي العقول؟.

(١) في تفسير البرهان ١: ١٠٥ عن زرارة عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام في الآية قال: لما معها ينظر إليها من أهل القرى، ولما خلفها قال: نحن ولنا فيها وعظة.

أو ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ هم القريبون الناظرون، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ هم البعيدون عن مشهدها أمكنة كمعاصريها، أو أزمنة كمستقبليها[١]؟ فكذلك الأمر؟.

أو أن ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ حياتها الحاضرة الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ حياتها الآتية الأخرى، حيث النكال هنا ضعف وعجز، كما أنه هناك قيد وحجز؟ وهذا يناسب صيغة اللفظ «ما» وسياق المعنى، إذا النكال عنى ضعفاً وعجزاً، لا قيداً وحجزاً اللّهم إلّا للآخرين؟

أو أن «ما» تعني مثلث المعنى - فـ ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من الناظرين أو الحاضرين المعاصرين، ناظرين وسواهم، أو الحياة الدنيا للخاسئين وسواهم من أضرابهم، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ من المعاصرين البعيدين غير الحاضرين ذلك المشهد، أو المستقبلين من مواطنين وسواهم، أو الحياة الأخرى؟ وهذا هو الأحرى حيث تتحمله الآية.

كما وأن ﴿نَكَٰلًا﴾ تعني القيد والحجز لـ«من بين يديها ومن خلفها» والضعف والعجز ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ من الحياتين للخاسئين.

وترى في المحتملة الأولى ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ كيف اعتبرت الأمم التالية للقردة الخاسئين ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ رغم أن كل أمة تستقبل الحياة والأمم الأخرى فهي إذاً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ لا ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾؟

علّه لأنه يجمعه والمحتملين الآخرين، وأن هذه الخاسئة خلّفت أمماً كأمثالها في طغواها: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾[٢] وقد كانت القردة الخاسئة مخلدة إلى حاضرها، ناظرة إلى غابرها، ناكرة لحياتها الأخرى، فهي إذاً لم تكن لتستقبل الحياة الأخرى، مهما كانت

(١) وفي الرقم (٢) الآتي عن الرضا عليه السلام وجعل عظة وعبرة للخلق...
(٢) سورة مريم، الآية: ٥٩.

الأخرى والأمم الأخرى تستقبلها، فالواقع أن مستقبل كل أمة - من أمة ومن الحياة الأخرى - هو بين يديها، ولتنظر إليه نظرة البصيرة النافذة، إلّا أن هذه الأوغاد المناكيد لم يكونوا يفكرون في مستقبل الأخرى، فأصبحت الأمم والحياة الأخرى ﴿بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ هي بنفسها ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ في نظرة مركوسة مطموسة.

هذا هو نكال القردة الخاسئة في مثلث الأضلاع، حيث ينكل الخاسئة أنفسها ضعفاً وعجزاً في ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾: دنياها ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: عقباها، وتنكل كذلك أضرابها من الطغاة، من هم ﴿بَيْنَ يَدَيْهَا﴾: حاضرة ناظرة، أو معاصرة سامعة، ومن هم ﴿خَلْفَهَا﴾: الآتية العاتية، تنكلهم جميعاً قيداً وحجزاً، كما نكلت القردة ضعفاً وعجزاً.

﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾.. كما كانت القردة الخاسئة: البعيدة المهانة نكالاً لأهل الطغوى، كذلك هي موعظة لأهل التقوى، من كانوا بين يديها أو أتوا ويأتون من خلفها، حيث يتخذونها عبرة وعظة.

وترى أن القردة الخاسئين هل ظلت مشهد النكال والموعظة لأهل الطغوى والتقوى بأنفسها أحياءً، إن عاشت زمناً بعيداً؟ أم هلكت بعد ثلاثة أيام كما يروى(١) أم ماذا؟

واقع النكال والموعظة للآخرين - وإنْ لزمن تعيشه سائر القردة - يحكم بالبقاء حيث الهلاك بعد ثلاثة وما إليها يحول دون نكالها ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ ككل المعاصرين، فضلاً عن ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾.

---

(١) نور الثقلين ٢: ٩٠٦ في من لا يحضره الفقيه وقد روي أن المسوخ لم تبق أكثر من ثلاثة أيام وأن هذه مثل لها فنهى الله عزّوجلّ عن أكلها، وفي المجمع وردت الرواية عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ إن الله لم يمسخ شيئاً فجعل له نسلاً وعقباً.

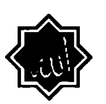
وفي الدر المنثور ١: ٧٥ عن ابن عباس: ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل، وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال: انقطع ذلك النسل.

إلا أن النكال هذا لا يختص بالآخرين، حيث يعني - ويأحرى - أنفس القردة الخاسئين في الأولى ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ والأخرى ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ وإن لثلاثة أيام هنا.

ثم النكال للآخرين لا يختص بحاضر المشهد وشاهده، فشاهده يتنكّل أو يتقي وغائبه يقبل من شاهده حيث الخبر المتواتر يُقبل، وليس النكال القيدُ والحجُزُ إلّا لواقع الواقعة وكما في الواقعة ولمّا تأت، دون خصوص الشهود، وهكذا يكون دور النكال والموعظة لكل واقعة هي عبرة وتذكرة، لكلّ من يسمعها ويصدقها.

فلقد حقّ عليهم النكول عن أمر الله فتحول نكالاً، ولو أنهم لم يكونوا قردة في نفسياتهم لم ينكصوا هكذا عن أمر الله، ولكنهم نكصوا فانتكسوا قردة خاسئين حيث انطباعات الشعور - عن تقصير لا عن قصور - تعكس على الوجوه، لزاماً في الأخرى، وأحياناً في الأولى.

وهل أن سائر القردة هي من نسل هذه الخاسئة؟ قد تروى: نعم[1] ولكنه، لا وكما[2] تروى وأن المقطوع تكوُّن سائر القردة قبل الخاسئة بدهر طويل.



(١) هنا أحاديث يفسرها الحديث الأول إلى غير اللائح منها، ففي نور الثقلين ١ : ٧٣ في عيون الأخبار عن محمد بن سنان عن الرضا عليه السلام حديث طويل وفيه: كذلك حرّم القردة لأنه مسخ مثل الخنزير وجعل عظة وعبرة للخلق دليلاً على ما مسخ على خلقه وصورته وجعل فيه شبه من الإنسان ليدل على أنه من الخلق المغضوب عليه.
وفيه عن جعفر عن أبيه عن جدِّه علي بن أبي طالب عليهم السلام قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسوخ فقال: هم ثلاثة عشر: الفيل - إلى أن قال: وأما القردة فقوم اعتدوا في السبت.

(٢) مضت روايته في الرقم (١) هنا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

هنا عرضٌ فسيحٌ يُفْصِحُ عن مدى لجاج اليهود أمام الله ورسوله، تمحّلاً للمعاذير الواهية المهينة في أمرٍ كان لصالحهم، وقد تساءلوا موسى عنه، وهو قصة القتل التي خلقت فيهم جوّاً من الحجاج واللجاج.

كلٌّ من قبيلي النزاع يتهم الآخر، مما يكاد يولِّع نيران الحرب بينهم،

وكما ورد في الأثر[1] المؤيِّد بملامح آيات القصة: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ

---

(١) البحار ١٣: ٢٥٩ عن تفسير القمي أبي عن ابن أبي عمير عن بعض رجاله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن رجلاً من خيار بني إسرائيل وعلمائهم خطب امرأة منهم، فأنعمت له، وخطبها ابن عمٍّ لذلك الرجل وكان فاسقاً رديئاً فلم ينعموا له، فحسد ابن عمه الذي أنعموا له فقعد له فقتله غيلة ثم حمله إلى موسى عليه السلام فقال: يا نبي الله هذا ابن عمي فقد قُتل، فقال موسى عليه السلام: من قتله؟ قال: لا أدري، وكان القتل في بني إسرائيل عظيماً جداً فعظُم ذلك على موسى فاجتمع إليه بنو إسرائيل فقالوا: ما ترى يا نبي الله؟ وكان في بني إسرائيل رجل له بقرة وكان له ابن بارّ كان عند ابنه سلعة فجاء قوم يطلبون سلعته وكان مفتاح بيته تحت رأسه وكان نائماً، وكره ابنه أن ينبهّه وينغص عليه نومه: فانصرف القوم فلم يشتروا سلعته، فلما انتبه أبوه قال له: يا بني، ماذا صنعت في سلعتك؟ قال: هي قائمة لم أبعها إن المفتاح كان تحت رأسك فكرهت أن أنبهك وأنغص عليك نومك، قال له أبوه: قد جعلت هذه البقرة لك عوضاً عما فاتك من ربح سلعتك، وشكر الله لابنه، ما فعل بأبيه، وأمر موسى بني إسرائيل أن يذبحوا تلك البقرة بعينها، فلما اجتمعوا إلى موسى وبكوا وضجوا قال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فتعجبوا وقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ نأتيك بقتيل فتقول: اذبحوا بقرة! فقال لهم موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البَقَرَة: ٦٧] فعلموا أنهم أخطأوا فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ [البَقَرَة: ٦٨] والفارض التي ضربها الفحل ولم تحمل، والبكر التي لم يضربها الفحل، فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ [البَقَرَة: ٦٩] أي شديدة الصفرة ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٦٩] إليها ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: ٧٠-٧١] أي لم تذلّل ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي لا تسقي الزرع ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي لا نقطة فيها إلّا الصفرة ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ [البَقَرَة: ٧١] هي بقرة فلان فذهبوا ليشتروها فقال: لا أبيعها إلّا بملء جلدها ذهباً فرجعوا إلى موسى عليه السلام فأخبروه فقال لهم موسى: لا بدّ لكم من ذبحها بعينها، فاشتروها بملء جلدها ذهباً فذبحوها، ثم قالوا: يا نبي الله، تأمرنا؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: قل لهم اضربوه ببعضها وقولوا من قتلك؟ فأخذوا الذنب فضربوه وقالوا: من قتلك يا فلان؟ فقال: فلان ابن فلان ابن عمي الذي جاء به، وهو قوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

فِيهَا وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾[1].

ندرس في قصة البقرة - القصيرة - آماد الحمق والعناد في العمق لهؤلاء الأباقرة العباقرة! وكم بقروا: كلًّا في بصائرهم الكليلة العليلة في العقلية الإنسانية، مهما بقروا: شقاً للمسالك الحيوانية الشهوانية، فهم في الروحية الإنسانية في أسفل سافلين، وفي الترسُّلات الحيوانية والسياسات المادية في أعلى عليين!.

هنا السمات الرئيسية للطبيعة الإسرائيلية، والوصمات النكدة النكبة، تبدو واضحة وَضْحَ النهار في هذه القصة، من مدى انقطاع الصِّلة بين قلوبهم المقلوبة وبين مقلِّب القلوب، انقطاعاً عن نبعة الحياة الروحية الشفافة الرَّقْراقة، واتِّصالاً طليقاً حليقاً بالمظاهر المادية، لحدٍّ قد يسبقون الماديين في دورهم الدائر وحورهم الحائر حول المادة والحيوية الحيوانية الشرسة.

ولقد سُمِّيت سورة البقرة بها بمناسبة قصة البقرة، وهؤلاء الأباقرة فيما تقصه عنهم في هذه المجالة وسائر المجالات المعروضة فيها، عرضاً لحمقهم في عمقهم لحدٍّ قد تُهان البقرة في تمثيلهم بها وعبادتهم إياها!.

وترى كيف يُلفت عن خطاب الحاضر لهم - فيما سبق هنا من خطابات - إلى عرض غائب في تقاولاتهم هذه، ثم نقلةً إلى خطابهم عرضاً لمادة القصة المقدمة عليها: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ﴾ وهي أحرى أن تقدَّم بطبيعة الحال التسلسلية؟.

علَّه لأن القصة غير مذكورة في التوراة زمن نزول القرآن كما الحاضرة، فليعرضوا غُيَّباً فيها، ومن ثم - وبعد تثبيت القصة - يأتي دور العرض لقتلهم

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٧٢، ٧٣.

نفساً وتدارؤهم فيها، ولها إشارة في التوراة[١] تلفيقاً دقيقاً رفيقاً للواقع المغفول عنه بالواقع المشار إليه فيها وليذكّروا ماضيهم فيعرفوا من هم؟.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

يقولها لهم موسى لمّا راجعوه بشأن القتيل المجهول أمره ليوضّح لهم، وإذا هم بأمرٍ لا يُناسب في قياسهم سؤلَهم وسؤالهم، وهو في نفس الوقت هتكٌ لما يحترمونه من البقرة لحدّ عبدوها لفترة، بل ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[٢] ثم إذا كانت هناك صلة فلتكن إحياء الميت بذبح البقرة وذلك هو أبعد البعد صلة بأمرهم! فكيف - إذاً - يذبحون بقرة؟ ولا تمتُّ بصلة قريبة ولا بعيدة لمعرفة القاتل، أم كيف يُعرف القاتل بقتلٍ آخر!

لكنهم تناسوا الحكمة الربانية الخفية في أوامره، الجليلة في تطبيقاتها، كما جربوها ردحاً بعيداً من الزمن، فتثاقلوا في الائتمار، واثّاقلوا في الحوار، فراراً عما أمروا به إلى سواه، بسيِّئ الأدب مع الله ورسوله في أصل الأمر وفصله، ولكنهم في نهاية الأمر ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ بعد

---

(١) في الإصحاح الحادي والعشرين من سفر التثنية: (١) «إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعاً في الحقل لا يعلم من قتله (٢) يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون إلى المدن التي حول القتيل (٣) فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها لم تُجرّ بالنير (٤) وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى وادي دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة في الوادي (٥) ثم يتقدم الكهنة بنو لاوي لأنه إياهم اختار الرب إلهك ليخدموه ويباركوا باسم الرب حسب قولهم تكون كلّ خصومة وكلّ ضربة (٦) ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة لمكسورة العنق في الوادي (٧) ويصرحون ويقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر (٨) اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يا رب ولا تجعل دم بريّ في وسط شعبك إسرائيل. فيغفر لهم الدم فتنزع الدم البريّ من وسطك إذا عملت الصالح في عيني الرب.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٣.

ما تحمَّلوا مواصفات زائدة في «بقرة» ما كانت عليهم لو ائتمروا من فورهم دون تعنُّت وتساؤل!

الأمر الأول لم يحمل إلّا «بقرة» طليقة عن كلِّ صفة إلّا كونها «بقرة» ثمينةً أو رخيصةً، فارِضاً أم بكراً أم عواناً، صفراء أم سوداء أم بيضاءَ أم عواناً، فقد كانت تكفيهم في البداية - حسب طليق الأمر - أيّة بقرة.

وكما يروى عن النبي ﷺ قوله: «. . . ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم ولكنهم شدَّدوا فشدّد الله عليهم»[1].

يقول لهم موسى الرسول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ فيردون عليه ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ ويكأن الله يهزأ بعباده عن جهالة، أو أن رسول الله يفتري على الله ما فيه جهالة!.

﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ في ذلك الأمر الإمر، البعيد عن تحقيق سؤلنا، ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ في نقل الأمر افتراءً، وهو من أجهل الجهالة، أم في نفس الأمر أن يحمل أمر الله بما أحمله جهالة الاستهزاء!.

هنا نتبيّن أن الهُزء من الجهالة، وطبعاً إذا كان بدائياً ومن جاهل، وفي حالة الهجمة، وأما الجزاء الوفاق من المجازي الحق دفاعاً عن الحق فليس

---

(١) الدر المنثور ١ : ٧٧ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : لولا أن بني إسرائيل قالوا : وإنا أن شاء الله لمهتدون - ما أعطوا أبداً لو أنهم. . . أقول: وقد رويت عنه ﷺ بألفاظ مختلفة، المتفق عليه فيها إطلاق الأمر وأجزاء أية بقرة، ولكنهم لما شردوا شرد الله عليهم، مما يلائم ظاهر الأمر الطليق في الآية، وهنا عشرة كاملة من الأحاديث تحمل تدرج الأمر في قيود المأمور به وقد رواها أبو هريرة وعكرمة وابن جريج وقتادة وابن عباس عن النبي ﷺ والبزنطي ومقاتل بن مقاتل ومحمد بن عبيدة عن الرضا عليه السلام وعلي بن يقطين عن موسى بن جعفر عليه السلام وابن طاوس عن الباقر عليه السلام وهي كلّها موافقة لظاهر القرآن في ذلك فلا يصغى إلى قيلة القائل إن المأمور به كان مقيداً من أوّل الأمر، لا سيّما وأن قوله : ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البَقَرَة: ٦٨] أمر حال بإتيانه ولمّا تذكر سائر المواصفات التالية، ولو كان كما قيل لكان أمراً بالمحال أن يأتوا بما لم يتبين بعد قيوده!

من الجهل، وكما في نوح عليه السلام: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[١] وكما الله ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾[٢].

فالهزءُ والسخرية البادئة هما من الجهالة وسوء الصنيعة، وقد نهي عن الاستهزاء في (٣٣) آية، وفي عديدة أخرى عن السخرية، مما يبيّن لنا مبدئياً أنها من المحرمات الناتجة عن الجهالة القاصدة المقصرة، وأما القاصرة فلا تكليف فيها ولا تنديد.

ففيمَ تهزأ بإنسان؟ أفي نقصٍ من خلقه في مقياسك؟ وليس إلّا من خلق الله، فلا تهزأ - إذاً - إلّا بالله، وهذه جهالة بالله!.

أم في نقصٍ قاصر من فعلٍ أو تركٍ؟ فكيف يُهزأُ بقاصرٍ وليس مكلفاً في أيٍّ من الأعراف!.

أم في نقصٍ مقصرٍ؟ إذاً فهو مريض بحاجة إلى تمريض، ولا يزيده هزؤك به إلّا مرضاً إلى مرض، وعليك أن تكون له طبيباً إن استطعت، أم تأتي له بطبيب يداويه، أم تتركه وحاله، لا له ولا عليه إن لم تستطع في علاجه.

أم لأنك تظنك على كمال هو فاقده؟ فكذلك الأمر، وليس ظنك صائباً على أية حال!: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾[٣] وحتى إذا كانوا خيراً منهم ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٤]!

(١) سورة هود، الآية: ٣٨.
(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٤، ١٥.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١١.
(٤) سورة الحجرات، الآية: ١١.

فلا مجال للسخرية والهزء إلّا بمن يسخر بالحق بدلاً عن الانتباه، هزءاً عن مصدر العلم والحكمة دون أية جهالة بالله، أم جهالة بالأعراف الشخصية والجماعية، أو الواجبات الدعائية، وهنا السخرية لها مجال اعتداءً بالمثل، وصداً عن نشوب الباطل بين أهل الحق.

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ هو عوذٌ بالله في بعديه، بالله الذي أمره أن يقول لهم: «اذبحوا بقرة» فلا يجهل أمر الله، والله الذي يعصم رسوله عن الجهالة فلا يجهل في رسالة الله، وهم عارفون أنه رسول الله، القائل قوله عن الله، وهم يتهمونه بهذه الجهالة الفاتكة لاستبعادهم - في قياسهم المتهوس المركوس وعقليتهم الحيوانية - ألّا صلة لذبح بقرة باتِّضاح أمر القتيل، وقد اتَّضح أخيراً، إضافة إلى بيان الواقع من إحياء الموتى، وجزاء الولد البارّ بأبيه في قصة البقرة.

لقد كان في ذلك التوجيه الوجيه كفاية لهم أن يثوبوا إلى أنفسهم، ويتوبوا إلى ربهم، تنفيذاً لأمره لصالحهم في المبدأ والمصير، أمراً كان لهم من السهل اليسير، ولكنهم بدلوه بالأمر العسير، أمراً واحداً طليقاً يتبدل في تساؤلاتهم المتعنتة بأوامر عدة لا تنطبق إلّا على بقرة يتيمة منقطعة النظير، وهم لا بدَّ لهم من تطبيقه حسماً لمادة النزاع في «من هو القاتل»؟.

وهنا ندرس دراسات أصلية أصولية على أضواء هذه الآية الطليقة، المقيدة بعدُ بما تقيدوا.

١ - لا يجوز تقييد المطلق بسناد الاستغراب أو الاحتياط أو أنه القدر المتيقن أمّا هي من تقييدات لا سناد لها إلّا تخيلات لا حجة فيها، اللّهم إلّا قيوداً عفوية من قبل الشارع نفسه، في كتاب أو سنَّة قاطعة، وقد كانت في «اذبحوا بقرة» منفية، فلما تعنتوا في التساؤل وشدّدوا شدّد الله عليهم جزاءً وفاقاً.

٢ - كما أن إطلاق المقيد بدليل محظور، كذلك تقييد الإطلاق دون

دليل محظور، فإنهما تخلف عن ظاهر الدليل أو نصه، ومشاقة مع الشارع في التشريع.

٣ - تقييد الإطلاق - وهو في مقام البيان - هو تجهيل للمطلق كأنه قصَّر في بيانه ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؟ إذاً فهو محظور عقائدي بجنب المحظور العلمي.

٤ - وحتى إذا لم يتبين قطعاً أن المطلق في مقام بيان كامل مراده، فظاهر الحال يقتضي التماشي مع الإطلاق حتى يتبين له قيد أو قيود، فإن كانت قبل وقت العمل فتقييدُ تبيين، وإن كانت بعده فنسخٌ قَدَرَه.

٥ - وهنا نرى تعاضل الأمر - بتضايق في أوصاف المأمور به - ما تعاضل المأمورون به، فقد كان في البداية طليقاً عن أيَّة صفة إلّا أنه «بقرة» ثم لصقت بها أوصاف تلوَ بعضٍ ولِصْقَ بعضٍ حيث اثَّاقلوا عن تطبيقه طليقاً وتعاضلوا، وهذه بلية ربانية يبتلي بها المتعنِّتون ولا ينبئك مثلُ خبير.

ورجوع ضمائر التأنيث إلى البقرة الأولى الطليقة لا يقيِّدها لأول الأمر، فإنما القيود آتية تلوَ بعضٍ والبقرة هي جنس البقرة، فـ ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ تعني أن المطلوب الآن بقرة... لا الأوَّل فإنها كانت دون قيود.

﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

﴿رَبَّكَ﴾ هنا، دون «ربنا - أو - رب العالمين» - وقد كُرِّرت في ثالوث سؤالهم المنحوس - ذلك يشي بأنهم لا يزالون في ريبهم يترددون، وفي غيِّهم وعيِّهم يعمهون، كأن موسى هازئٌ بهم، أو أنه ينقل عن ربٍّ سوى ربهم، ويْكأن هناك أرباباً عدة هم متشاكسون في أوامرهم، ثم وهم أولاء يحترمون رب موسى أكثر من أربابهم، لذلك ﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾!

ثم ﴿مَا هِىَ﴾ سؤالاً عن الماهية، إنه تجاهل عن أنها بقرة، وقد نص

عليها أوّل مرة، ثم مزايدة جاهلة قاحلة حول ماهية البقرة من حيث الكيان في عمرها، وكل أمرها، حيث الأسعار والفاعليات تختلف حسب مختلف الحالات والمجالات.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ جواباً عن الماهية الأولى ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ جواباً عن الثانية ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ وقد أمرتم أولاً في طليق الأمر، ثم زدتم عليه - تطلُّباً جاهلاً - مواصفاتٍ ماهوية ما كانت من ذي قبل إلّا أنها «بقرة» ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ دون مزايدة ومكايدة، حيث الأمر صريح لا إبهام فيه، لا يبقي مجالاً لأي سؤال!

ذلك تأكيد أكيد على واجب الوقوف لحدّ الأمر - أيّاً كان - بحدوده المذكورة معه أم دون حدود، مما يوضّح أن «بقرة» كانت طليقة، ثم زيدت عليها قيود بأوامر أخرى جزاء بما كانوا يتعنتون.

والفارض - هنا - هي العجوز والبكر هي الشابة غير المضروب عليها بالفحل، و﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ هي الوسط بين هذه وتلك، وهو وسط العمر وكماله.

وقد تُسمّى فارضاً لفرض السِّن وقطعه، ولفرض الأرض وقطعها، ولفرض ما يحمّل عليها وقطعه من أشغال، فروض ثلاثة في الفارض، يجمعها طليق «فارض».

وتقابلها البكر، بكراً في العمر فما فرضته، وبكراً عن الحرث فما استُعملت له، وبكراً عن ضرب الفحل فما انضربت به.

إذاً فعوان بين ذلك يعني الوسط بينهما، لا متقدمة في العمر ولا حمولة وقد ضربها الفحل.

ولماذا ﴿ذَٰلِكَ﴾ مفرداً مذكراً وكلٌّ من فارض وبكر مؤنث؟ علّه يعني ما ذكر من مواصفات.

ولقد كان في هذا وفي ما قبله كفاية لمن يصغي إلى الحق المرام، ولكن إسرائيل هي إسرائيل!.

فإلى لجاج ثالث، تضييقاً لدائرة الموضوع، علّهم ينجون عن أصله، أم يتأكدون أكثر وأكثر في أصله:

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾:

فكما أن الأثر علّه في ماهية خاصة من البقرة، كذلك علّه في لون خاص، وفي ذلك تجهيل لساحة الربوبية كأنه قاصر أو مقصر في البيان، وهم أحرى بالحائطة على أوامره تعالى!، ثم تعجيز له سبحانه، كأن الأثر في خصوص بقرة خاصة وليس من الله، فـ ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ بين مختلف الألوان ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾ وهنا لا يكتفي بمطلق الصفرة تقريباً لمضايقتهم في خاصة الميِّزة، وقطعاً لمعاذيرهم في تساؤلات أخرى حول نوعية الصفرة، فهي - إذاً - ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ صادق الصفرة بمشبعها فالفاقع في الأصفر هو أشدّه وأشبعه وأنصعه، كما يقال: أصفر فاقع، وأسود حالك، وأبيض يقق، وأحمر قان، وأخضر ناضر.

﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ بلونها وسائر شمائلها، فلا هي مكسورة ولا عوجاء ولا قبيحة المنظر من ناحيةٍ أخرى، بل هي في مثلث الجمال والكمال، ماهية ولوناً وشكلاً، ولا يتمّ سرور الناظرين إلّا أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط والتماع في تلك البقرة.

وقد تلمح ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ بعد ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أن فاقع الصفرة هو من أحسن الألوان وأنضرها فانظرها حسناً وجمالاً وكما يروى[1].

---

(١) نور الثقلين ١ : ٨٩ في الكافي عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: من لبس نعلاً صفراً لم يزل ينظر في سرورها ما دامت عليه لأن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٦٩].

أتراهم اكتفوا بعدُ بهذه المواصفات؟ كلّا! فهم إسرائيل الحجوج اللجوج، إذ عادوا مرة أخرى هي الأخيرة - إذ لم تبق بعده مواصفة يتعنّتون بها - يسألون فيها عن ماهيتها مرة أخرى:

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ۝٧٠﴾:

وهم في هذه المرحلة الأخيرة مسنِدون إلى بقاء التشابه في موضوع الأمر: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ وواعدون الاهتداء بها بمشيئة الله: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾.

ولماذا ﴿ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ دون «البقرة» المكررة هنا وهناك؟ علّه جنس البقرة مهما كانت أنثى، فليس أي جنس من البقر له ذلك التأثير، فليكن بقراً منقطع النظير لا مثيل له حتى يؤتى منه ذلك الأثر المنقطع النظير.

فهؤلاء الحماقى يفتِّشون بعدُ عن بقرة خاصة لها خاصتها هذه، متجاهلين أن الأثر كلّه هو من خالق البقرة وليس في البقرة نفسها، ولولا قولهم أخيراً ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ لما بينت لهم آخر الأبد «والذي نفس محمد بيده لو لم يقولوا ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لحيل بينهم وبينها أبداً»[1] أترى أن الله لم يشأ اهتداءَهم حتى الآن؟ فهم إذاً معذورون! أم شاء؟ فتخلفت المشية عن الواقع! فما هو دور ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هنا إن كان لهم الاختيار؟.

لقد شاء الله اهتداءهم بشرعته لما أمرهم بما أمرهم فتخلفوا عنه عاصين، ولم يشأ حتى الآن اهتداءَهم تكويناً إذ هم لم يشاؤوا بسوء اختيارهم، فليس لـ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هنا دورٌ إلّا تكويناً لاهتدائهم إن شاؤوا هم أن يهتدوا وقد شاؤوه أخيراً لما عيوا وأيسوا عن مكرهم.

(١) تفسير الفخر الرازي ٣: ١٢٠ قال الحسن عن رسول الله ﷺ: . .

والمتورط في العصيان عليه التبرك بـ ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لصقاً بمشيئته إلى مشيئة الله تعالى، ثم ﴿لَمُهۡتَدُونَ﴾ قد تعني إضافة إلى هدي التطبيق لأمر الله، الاهتداءَ إلى بقرة تحمل كلَّ هذه المواصفات، ثم الاهتداء إلى معرفة القاتل في هذا البين، فقد يشاء الله - بما شاؤوا - اهتداءَهم إلى ذبحها، ثم لا يشاء اهتداءَهم إلى القاتل أن يضربوا المقتول ببعضها، أم لا يشاء اهتداءَهم إلى هذه البقرة الخاصة بعد ما شاء اهتداءَهم لائتمارهم جزاءً بما تعنتوا.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾:

فلم تَعُد هذه البقرة - إذاً - متوسطة العمر صفراء فاقع لونها تسرُّ الناظرين فحسب، بل هي بقرة غير مذللة بإثارة الأرض وسقي الحرث، ثم هي مسلَّمة: خالصة اللون في الصفرة الفاقعة ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ لا تشوبها علامة، ولا تمازج لونَها لونٌ آخر، كما هي مسلمة عن سائر العيوب:

وترى ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ هي - فقط - إيضاح لـ «مسلمة»؟ وليس القرآن كتاب لغة! ومسلمة اللون - طبعاً - ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ إذاً فهي توضيح للواضح!

قد تعني ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ عن كلّ العيوب ومنها ﴿شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ ومسلمة عن آثار العمل، ومسلمة عن الحبس للعمل وعن كلّ نقص متصور لبقرة، أم ومسلَّمة من والد إلى ولده البارّ به جزاءَ برِّه، أمّا ذا من مسلمات في بقرة.

﴿قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ وَيْكأنه قبل الآن كان جائياً بالباطل من ربه، وَيْكأن الله ما كان يعرف ما عرفوه ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ نكراناً لأن يؤثر ذبحها في التعرف إلى القاتل، وتماسكاً عن دفع مال في ذلك المجال، وتمنعاً عن ذبحِ بقرة ولهم سابق العبادة لها، وذلك الثالوث المنحوس كان يمنعهم عن ذبحها لولا سؤلهم المدقع في التعرف إلى القاتل، أم وليجربوا موسى في الإجابة عن سؤالهم!

ففي هذه الضَّفَّة - البخيلة المماكسة الناكثة لعهود الله، المتشاكسة في أمر الله - ينتهي أمر اللجاج إلى بقرة منقطعة النظير في كلّ إسرائيل عن بكرتها.

ثم في الضَّفَّة المؤمنة: رجل بارٌّ بأبيه[1]، تاركٌ ربح التجارة حرمة له، تُوهَب له هذه البقرة بعينها جزاءً بما كسب، والضفتان تتلاقيان في هذه الوهبة الأبوية بوهبة ربانية تجعله من أغنى الأغنياء في بني إسرائيل، كما وأن ضرب المقتول ببعضها شهادة معلنة أنه يحيي الموتى وهو على كلِّ شيء قدير.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

هنا ﴿نَفْسًا﴾ و«بقرة» هما مؤنثان، فكيف تختص إحداهما بذكورة الضمير ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾؟

علَّ تذكير الضمير الراجع إلى ﴿نَفْسًا﴾ باعتبار أنها القتيل، وليوضِّح أنه

(١) نور الثقلين ١: ٨٧ في عيون الأخبار بسند متصل عن البزنطي قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: إن رجلاً من بني إسرائيل قتل قرابة له ثم أخذه فطرحه على طريق أفضل سبط من أسباط بني إسرائيل ثم جاء يطلب بدمه فقالوا لموسى: إن سبط آل فلان قتلوا فلاناً فأخبرنا من قتله؟ قال: ايتوني ببقرة ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البَقَرَة: ٦٧] ولو أنهم عمدوا إلى أي بقرة اجزأتهم ولكن شردوا فشرد الله عليهم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ [البَقَرَة: ٦٩] ولو أنهم عمدوا إلى بقرة لأجزأتهم ولكن شردوا فشرد الله عليهم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ [البَقَرَة: ٦٨] فوجدوها عند فتى من بني إسرائيل فقال: لا أبيعها إلّا بملء مسكها ذهباً فجاؤوا إلى موسى عليه السلام فقالوا له ذلك فقال: اشتروها فاشتروها وجاؤوا بها فأمر بذبحها ثم أمر أن يضرب الميت بذنبها فلما فعلوا ذلك حيي المقتول وقال: يا رسول الله إن ابن عمي قتلني دون من يدعي عليه قتلي، فعلموا بذلك قاتله فقال لرسول الله موسى بعض أصحابه: إن هذه البقرة لها نبأ فقال: وما هو؟ فقال: إن فتى من بني إسرائيل كان باراً بأبيه . . . فقال رسول الله موسى انظروا إلى البرِّ ما يبلغ بأهله!.

المضروب ببعض البقرة وليست هي المضروبة به، ولا سبيل لذلك الإيضاح إلّا تذكير ضمير ﴿نَفۡسٗا﴾ القتيل.

وهنا عرض لمادة القصة الأصيلة وهي واقع إحياء الموتى، ففي ﴿ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ﴾ نموذج منه يدل على إمكانية وواقع إحياء الموتى بالأولى، فإذا يَحيى ميت بضرب ميت آخر به، فلئن يحيى بإرجاع الروح إليه أحرى وأولى.

أنتم ﴿قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ﴾ كلٌّ يدرؤه عن نفسه ويلقيه على آخر ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾[1] بهذه الخارقة البارعة أن تضربوه ببعضها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ البعيد في قياسكم، القريب القريب في قياس الله ﴿يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ على طول الخط، مهما اختلفت الإحياءات هنا وفي الأخرى، ولكنما الإحياء في الأخرى أحرى.

أحرى ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ وهنا الإحياء لم يكن إلّا إخراجاً لما كنتم تكتمون، كواقعة جزئية تهتدون فيها إلى جزاء القاتل بعد ما تعرفون.

وأحرى لأنه أهون من الخلق الأوّل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾[2] ﴿أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ في قياسكم، إذ ليس في قياس الله لنفسه هين وأهون، فـ ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾[3] ثم و﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ مما يلمح أنهم كانوا في شكٍّ من إحياء الموتى، وكما لا نرى في التوراة الحالية - على طولها - نصوصاً حول

---

(١) ١ : ٧٨ - أخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ : لو أن رجلاً عمل عملاً في صخرة صماء لا باب فيها ولا كوة خرج عمله إلى الناس كائناً ما كان، وفيه أخرج البيهقي من وجه آخر عن عثمان قال قال رسول الله ﷺ : من كانت له سريرة صالحة أو سيئة أظهر الله عليه منها رداء يعرف به.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

المعاد، اللهم إلّا إشارات، مما يدل على حالة النكران الإسرائيلي - العريقة فيهم - منذ نزلت عليهم التوراة فضلاً عما بعدها، فقد حرَّفوا عن التوراة آيات المعاد فجرَّفوها بجرّافات التجديف والتحريف!

فطالما المسافة بين الموت والحياة هائلة غائلة تُدير الرؤوس، ولكنها في حساب الخالق سهل يسير، ففي ضمن ما يجيب عن سؤالهم يعطفهم إلى واقع إحياء الموتى الذي هم فيه مترددون.

فقد كان بالإمكان الإجابة: أن فلاناً هو القاتل، ولكنهم - حسب طبيعتهم - قد ينكرون تكذيباً لموسى، فليكن القائل هو نفس القتيل حتى يصدقوه شاؤوا أم أبوا.

وكان بالإمكان إحياء القتيل ليشهد شهادته دون هذه الطائلات البليات في قصة البقرة، ولكنهم قد يتشكَّكون في كونها خارقة إلهية بيد موسى الرسول.

وكان بالإمكان إحياءه بأن يَضرب به موسى يده أو عصاه، ولكنه ما كان يفيد كامل الفائِدة: أن يؤمروا بذبح ما كانوا يحترمونه لحدّ العبادة، وأن يشتروها وهم الأنجاس، وأن يضربوه ببعضها فيحيي تدليلاً على إمكانية بروز الحياة بضرب ميت بميت فضلاً عن رجوع الروح الحي إلى البدن الميت! فـ ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أترى أي جزءٍ من جسد البقرة كانت له هذه الفاعلية بإذن الله؟ ﴿بِبَعْضِهَا﴾ يلغي كل الاختصاصات عن أي جزء منها، فكما «بقرة» كانت طليقة لأوّل مرة، كذلك ﴿بِبَعْضِهَا﴾ على طول الخط، إذ لم يتزايدوا فيه كما تزايدوا فيها فلم يخرج عن إطلاقه!

فيا لقصة البقرة من آماد بعيدة وآيات غريبة قريبة، لم تك تحصل إلّا بما حصل، ما يحق أن تتسمى بها السورة لهذه البقرة وهؤلاء الأباقرة.

وقيلة القائل - الغيلة على آيات الله البينات - أن ﴿يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ هنا يعني حفظ الدماء التي كانت عُرضة للسفك بسبب الخلاف في: من هو القاتل، إنها مردودة عليه بـ﴿كَذَٰلِكَ﴾ المشيرة إلى ﴿ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ﴾، فـ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الضرب ﴿يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، ولو لم يكن في ذلك الضرب إحياء القتيل، فكيف عُرف القاتل بذلك الضرب، وما هي الصلة بينه وبين معرفة القاتل لولا إحياء القتيل! ثم ولا إشارة في القصة باحتمال سفك الدماء لو لم يُعرف القاتل!

صحيح أن إبقاء الحياة قد يُسمى إحياءً: ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾[1] ولكن كيف تُبقى حياة بين المتدارئين في: من قتل القتيل، إلّا بمعرفة القاتل الحقيقي، وكيف يُعرف بـ﴿ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ﴾ لولا إحياءه بذلك الضرب، ثم ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ ليس إلّا تعريفاً عملياً بالقاتل، كما و﴿يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ تلميحة بينة أن هناك آية خارقة إلٓهية بها عرف القاتل.

فإنما هي انتفاض الميت مبعوثاً ناطقاً شاهداً فيما ادّارؤوا، على ضربة من بعض جسد لبقرة بكماء مذبوحة، ليس فيها من حياة ولا مادة حياة ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

لا كما يقوله هذا الهارف الخارف، المأول آيات الله المعجزات إلى دعايات متعودات.

﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾:

﴿ثُمَّ﴾ بعد هذه الآيات البينات ﴿قَسَتۡ قُلُوبُكُم﴾ أكثر مما كانت قاسية بدلاً

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

عن أن تلين لذكر الله ﴿قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الإحياء إجابة عن سؤال وإيتاءً لسؤال، كما ﴿بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ التنبيه بكل نُبهة في مختلف المجالات.

أترى الخطاب هنا يختص بالسابقين؟ فما هو ذنب اللّاحقين! ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(١)! أم يخص اللّاحقين ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الذي حصل للسابقين عبرة للّاحقين، فـ ﴿قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ إذ ﴿أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾(٢): ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾(٣).

قد يشملهم الخطاب جميعاً، فإنهم سلسلة موصولة على طول التأريخ الإسرائيلي، إنهم تقسى قلوبهم أكثر وأقسى مما كانت من قبل، وآيات الله تترى عليهم لِصق بعضٍ ليلَ نهار، كما ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(٤).

﴿ثُمَّ قَسَتْ... فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾ في القسوة الصلبة الصلتة، لا فحسب ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

وترى ﴿أَوْ﴾ هنا تُضرب عن قسوة الحجارة إلى أشد قسوة؟ وليست قلوبهم - ككلّ - إلّا كالحجارة أو أشدُّ قسوة، فلا مجال للإضراب إلّا ممن يجهل مدى القسوة فيها!

أم هي للإضراب بالنسبة لبعضهم؟ و«كُم» لا تعني البعض، فقلوب الكلّ إما هي كالحجارة أو أشدّ قسوة!.

قد تعني ﴿أَوْ﴾ هنا التقسيم، فقلوب البعض كالحجارة، وقلوب الآخرين أشدّ قسوة.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٦.
(٢) سورة القصص، الآية: ٤٥.
(٣) سورة الحديد، الآية: ١٦.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

أم وتعني مختلف الحالات في بعض القلوب، فقد كانت قاسية، ثم اشتدت قساوتها فهي كالحجارة، ثم تشتد فهي أشد قسوة، فكلا الإضراب والتقسيم - إذاً - معنيَّان من «أو» أم وثالث هو الإبهام[1]، وهو - فقط - بالنسبة لمن لا يعرف مدى قساوة القلوب، التي هي كالحجارة أو أشدّ قسوة، ويلحقه رابع هو التشكيك، والأخيران هما في دور واحد!

ودليلاً على ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾: تفجر الأنهار من بعض الحجارة، وتشقق البعض بخروج الماء منها، وهبوط البعض من خشية الله!

وهذه القلوب الخاوية المقلوبة لا تتفجر منها أنهار المعرفة، ولا تتشقق بخروج مياهها منها، ولا تهبط من خشية الله، بل هي جافة صلدة صلتة لا تزداد في خِضمِّ الآيات البينات إلّا تصلُّداً وجموداً وجفافاً وخموداً!.

لقد رأوا الحجر انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بما ضرب موسى عصاه، ولم تنفجر قلوبهم بعصا الرسالة الموسوية! ورأوا الجبل اندكَّ بما تجلَّى له ربه، ولم تندكّ جبال قلوبهم بتجلي هذه الرسالة السامية، وجلوات آيات الله البينات، فهي لا تلين بها ولا تندى، ولا تنبض بخشية ولا تقوّى، بل وتزداد طغوى على طغوى! قلوب قاسية جاسية مجدبة كافرة ليست لتلين بذكر الله أيّاً كان وأيّان ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فـ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾[2].

نرى أن ﴿مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ كما نرى ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا

---

(١) خيّر أبح قسم باو وأبهم ... واشكك وإضراب بها أيضاً نمي

وفيما يروى عن الإمام الحسين عليه السلام من تفسير الآية ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البَقَرَة: ٧٤] أبهم على السامعين ولم يبين لهم كما يقول القائل: أكلت خبزاً أو لحماً، وهو لا يريد به أنه لا أدري. أن يبهم على السامع حتى لا يعلم ماذا أكل وإن كان يعلم أن قد أكل أيهما...

(٢) سورة إبراهيم، الآيتان: ٤٢، ٤٣.

﴿يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ فما هي الحجارة التي تهبط من خشية الله وهي لا تعقل ولا تكلَّف بشيءٍ؟

أهي كما قال الله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١) تحوِّله إلى مَثَل لا واقع له، و﴿لَوْ﴾ تحيل واقعه، فلن ينزل الله على جبل ذكراً: قرآناً وغير قرآن، وهناك الله في اقتسام الجبال يضرب مثل الواقع من الجبال لبيان مدى قساوة هذه القلوب، فليكن هبوطها من خشية الله واقعاً كتفجر الأنهار من بعضها، وخروج الماء من تشقق الأخرى!.

ثم لو كان الهبوط من خشية الله على فرض نزول الوحي عليه لعمّ الجبال كلها كما ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ تعممه لها كلّها، دون ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾!

أم ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ هنا راجعة إلى القلوب لتَقدم ذكرها، ومهما كانت الحجارة أقرب مرجعاً، فالقلوب أنسب وأليق معنى؟ وهو بعيد أدبياً لبعد المرجع، وبعيد معنوياً حيث القلوب تقلَّب ولا تهبط، اللهم إلّا هبوطاً عن علوائِها المقلوب، فتنضبط ذاكرة لله، متذكرة بآيات الله.

هذا ولكن الجبال كجبال هي مثال لقساوة القلوب، وليست القلوب الخاشية الهابطة من خشية الله - وهي القلوب المؤمنة المطمئنة بالله - ليست هي بالتي تناسب ضربها مثلاً لإثبات أن قلوبهم أقسى من الحجارة!.

قد يعني هبوط بعض الجبال من خشية الله، هبوطها الهابط منها بأمر الله تكويناً وهي شاعرة له ومدركة، فـ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(٢) تعمّم الخشية الشعورية إلى كلّ شيءٍ، فالهابط من الجبال تهبط بخشية الله، كما الثابت منها تثبت بخشية الله، ولا ينافيها الأسباب الطبيعية

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

لهبوطها، فإنها كلها منتهية إلى الله، ولا يعمل أي سبب عمله إلّا بأمر الله و﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾[1] فظاهر الخضوع فيها لتدبير الله بآثار الصنعة وإحكام الصنعة لحدّ الهبوط فيما تهبط، تقريع على تلك القلوب المقلوبة غير الخاشية لله.

فحينما الحجر يهبط من خشية الله، لا تهبط قلوب هؤلاء - الأشد قسوة من الحجارة - من خشية الله ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

إنهم خَوَنة في أمانة الله لا يوجد لهم مثيل في الكائنات فـ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾[2] وآية الأمانة هذه - كما فسرناها في سورتها - تحمل حملة عنيفة على الإنسان الظلوم الجهول في خيانته أمانة العقل والتكليف، فحمل الأمانة يقابل أداءها، فهو خيانتها.

وعلى حدّ المروي عن سيِّد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام في تفسير الآية: «يبست قلوبكم معاشر اليهود كالحجارة اليابسة، لا ترشح برطوبة، أي: أنكم لا حَقّ الله تؤدون، ولا لأموالكم تتصدقون، ولا بالمعروف تتكرمون، ولا للضيف تقرون، ولا مكروباً تغيثون، ولا بشيءٍ من الإنسانية تعاشرون وتواصلون...»[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٦.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٣) نور الثقلين ١ : ٩٠ في الخرايج والجرايح روي عن الحسين بن علي عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم﴾ [البَقَرَة: ٧٤] - نقلنا تفسير ﴿أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ في العدد السابق - ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾، أي قلوبكم في القساوة بحيث لا يجيء منها خير يا يهودي، وفي الحجارة، يتفجر منه الأنهار فيجيء بالخير والنبات لبني آدم ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا﴾ أي من الحجارة ﴿لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ﴾ دون الأنهار، وقلوبكم لا يجيء منها الكثير من الخير ولا القليل ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ﴾ [البَقَرَة: ٧٤] أي من الحجارة أن أقسم الله عليها باسم الله يهبط، وليس في قلوبكم شيء منه ...

فيا ويلاه من قسوة القلوب فـ«ما جفت الدموع إلّا لقسوة القلوب وما قست القلوب إلّا لكثرة الذنوب»[١] و«لا تطوّل في الدنيا أملَك فيقسو قلبك والقاسي القلب مني بعيد»[٢].



(١) المصدر ٩٢ في كتاب العلل بإسناده إلى الأصبغ بن نباتة قال قال أمير المؤمنين عليه السلام.
(٢) المصدر في الكافي عن علي بن عيسى رفعه قال: فيما ناجى الله عز وجل به موسى عليه السلام يا موسى...

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)﴾

لقد كان المسلمون على علم - حسب القرآن - أن اليهود يعرفون القرآن ويعرفون رسول القرآن كما سطرت لهم في التوراة، فكانوا - قبل الهجرة - يأملون أن يؤمنوا لهم، حتى هاجروا وخاب أملهم، وهنا يُطَمئِنهم الله أنهم ليسوا ليؤمنوا لهم بسابق غيِّهم وقساوة قلوبهم، وتحريفهم كلام الله:

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا...﴾[1].

هنا ﴿يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ كأضرابها، تعني الإيمان لصالح المسلمين، وليس الإيمان بالمسلمين، كما ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾[2] فإن في انسلاك لوط في سلك إبراهيم - وقد كان مؤمناً بالله قبلُ - أزرٌ وشدٌّ ظهر للدعوة الإبراهيمية، وكذلك اليهود - وهم أعظم أهل الكتاب - كان في إيمانهم برسالة الإسلام، اطمئناناً لصالح المسلمين فإيماناً لهم أمام مشركي الجزيرة، ولكنهم أصبحوا أنكر وأكفر منهم.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ بعد ما سمعتم من قساوة قلوبهم أمام شِرعتهم الإسرائيلية أنفسهم ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ وهم لم يؤمنوا لرسولهم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ التوراة ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ معنوياً، أم وتعبيرياً ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الحقَّ الرسالي لمحمد ﷺ فيما عقلوه، كسائر الحق الذي كانوا يحرفونه من بعد مواضعها!.

وذلك الفريق هم بطبيعة الحال مُدراء الشرعة التوراتية، المسموع كلامهم عند أتباعها، لحدّ لا يؤمنون لكم اتباعاً لهم، وليس يختص هذا الفريق بالذين عاشروا موسى عليه السلام ولا الذين عاشروا محمداً ﷺ بل هم كل من كان يسمع آيات التوراة ثم يحرفه من بعد عقْله لها وهو يعلم ماذا سمع وماذا ولماذا حرفّ؟.

فحين يسمعون كلام الله من موسى «نابىء آقِيم لا هِمْ مِقِرِبْ إحِيحِمْ

(١) سورة المائدة، الآية: ١٣.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢٦.

كِمُوشِهْ وِنـاتَتِّي دِبَارِي بِفِيوُ وِيِدِبِرْ الُوهِيمْ إتْ كـالْ أشِرْ أصَّونُوا» (تث ١٨: ١٩).

«نبيٌّ أقيم لهم من أقرباء أخيهم كموسى وأضع كلامي في فمه لكي يبلغهم جميع ما آمره به».

هكذا يسمعونه ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، يحرفونه تحريفاً مشوَّهاً كما في الترجمة العربية عن أصل يوناني ١٦٨٧:

«أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكلِّ ما أوصيه به» (١٩) فقد بدلت «من أقرباء أخيهم» إلى «من وسط إخوتهم» حتى تنحرف هذه البشارة عن النبوة غير الإسرائيلية، فأخيهم هنا هو عيص أخو يعقوب وكما في «تث ٢٨: ٨» ولأن عيص تزوج بنت إسماعيل وأولد منها ولداً ومن غيرها آخرين، لذلك أصبح بنو إسماعيل من عيص أقرباء بني عيص، إذاً فأقرباء إخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل من عيص وقد بعث من بينهم محمد ﷺ [1]!.

وحين يسمعون كلام الله من موسى «وُليشَمعِيل شِمَعتيخَا هِينِّهْ بِرَخْتي أوتوا وَهِيفْرتِي أُوْتُوا وهِيْربْتي أُوتوا بِمُئدْ مِئُدْ شِنِيم عاسارْ نِسيئيم يُولِدْ وِنْتَتِّيوُ لِغُوى غادُلْ» (التكوين ١٧: ٢٠):

«ولإسماعيل سمعته (إبراهيم) ها أنا أباركه كثيراً وأنميِّه كثيراً وأرفع مقامه بمحمد واثني عشر إماماً يلدهم إسماعيل وأجعله أمة كبيرة».

هكذا يسمعونه ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، كما في نفس الترجمة: «وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره جداً اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة».

---

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ٣٣ - ٣٩.

فقد ترجموا «بمئد مَئد» وهو محمّد - وحتى بحساب الأعداد الذي يعتمدون عليه، فإنه (٩٢) كما محمد (٩٢) - ترجموه بـ «أكثره جداً» رغم أن معناه كثير الحمد المعبر عنه بأحمد ومحمد[1]!.

وحين يسمعون كلام الله من هوشع: «كي هِنِّيه هالِخُو مِيشوذْ مِيصْرَيِيم تِقَبْصِم مُوفْ تِقَبْرِمْ محمَّد لِكسَفام قِيمُوشْ پِيراشِمْ حُوحَ بِاهآليهِم» (هوشع ٩: ٦):

«ها إنهم يرتحلون لأجل الخراب، فمصر تجمعهم، وموف تدفنهم، ومحمّد لفضتهم والقرّاص يرثهم، والعوسج يستولي على أخبيتهم».

هكذا يسمعونه ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون من هو محمّد، وكما نرى في مختلف التراجم:

«والقراص يرث فضتهم الشهية - يرث القريص نفائس فضتهم - الأمكنة المرغوبة لفضتهم - بيت الأمل لفضتهم» محرفين محمداً بهذه الأربع مخافة عن أن تعني محمداً ﷺ[2]!

وحين يسمعون كلام الله من سليمان عليه السلام في مواصفة عريضة لمحبوب وحيد له وفي النهاية:

«حِكُّو مَمْتَقِّيمْ وكُولُو مَحمَّديم زِهْ دُودِيْ وِزِهْ رِعي بُنتْ يِرُشالام» (نشيد الأنشاد ٥: ١٦):

«فمه حلوٌ وكّله محمّد هذا محبوبي وهذا ناصري يا بنات أورشليم».

هكذا يسمعونه ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون أنه محمد الرسول ﷺ.

---

(١) راجع «رسول الإسلام» ٤٠ - ٤٣.

(٢) بخصوص لفظة محمد في بشارة هوشع بيّنا هناك أن تحريفهم يحمل أغلاطاً من الناحية الأدبية كما المعنوية (٧٣ - ٧٩).

ففي الترجّمة التقليدية للتوارة نجدها هكذا: «حلقه حلاوة وكُّله مشتهيات هذا حبيبي وهذا خليلي يا بنات أورشليم!»[١].

وهكذا نجد وفيراً من البشارات التوراتية بحق محمّد ﷺ أوردنا قسماً منها في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» بين محرفة لفظياً أو معنوياً من هذا الفريق الغريق في أنانيات العنصريات.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾:

قد تلمح الآية أن هؤلاء هم فرقة غير متطرفة من هذه الفرقة العالمة المحرفة، فهم يراعون الجانبين ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ بما سمعنا من خبر محمد والقرآن في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا﴾: البعضُ الثاني المحرِّف اللجوج، للبعض الأوّل ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾: المسلمين ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: من هذه البشارات ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ لماذا لم تؤمنوا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن تحديثكم هذا خلاف المصلحة الطائفية، وقد يبوء بالخسار يوم الآخرة!.

وترى إذا كانت هذه البشارات فتحاً لأهل التوراة، فلماذا - إذاً - إخفاءها؟.

إنها كانت لهم فتحاً على الذين كفروا قبل مبعث الرسول محمد ﷺ، فتحاً جانبياً وقتياً، ثم بعد ما جاء دور الرسول المبشر به كفروا به: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٢].

---

(١) رسول السلام في الكتب السماوية ٨٠ - ٨٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

هؤلاء الحماقى يعتبرون التحديث بهذا الفتح للذين آمنوا خلاف العقل ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ تنديداً بفريق منهم غير متطرف يحدث به لهم إذ ليسوا من المعاندين المتواطئين[1].

وقد يلمح ﴿وَإِذَا لَقُواْ﴾ رجوعاً لضمير الجمع إلى الفريق السابق ذكرهم، السامعين كلام الله المحرفين له، أنهم كانوا ينافقون الفريقين: المسلمين واليهود، مهما كانوا أقل تطرفاً من أقطاب التحريف والتجديف، إذ هم يُجهِّلونهم بما يحدثون للمسلمين.

﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٧٧﴾:

أفلا يعقلون هم أولاء الأنكاد المجاهيل ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ﴾ متجاهلين عن علم كتابي وعلم عقلاني ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من بشارة وسواها ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ إذا لقوا الذين آمنوا؟ فسواء عليه في حجاجه عليهم أسرّوا ما فتح عليهم أم أعلنوا، فحين لا يؤمنون بما فتح لهم فإنه يحتج عليهم يوم القيامة من فتح عليهم، سواء أحاجَّهم المؤمنون به عند ربهم أم لم يحاجوا، فلا صلة بأصل هذه المحاجة الربانية لهذا الإعلان، ولا لمحاجة المؤمنين إن علموا.

وَيْكأن الله لا يعلم إلّا بما علم المؤمنون، ولا يحاجهم إلّا إذا حاجوهم به عند ربهم، فالله - إذاً - هو الفرع وهؤلاء وأولائهم الأصلاء!.

فالله هو الذي فتح عليهم هذه البشارة، وهو الذي فرض عليهم اتِّباع هذا النبي، فهل ينسى أو يتناسى يوم القيامة ما فتح عليهم؟ فهو يحتج إذا حدثوه به المسلمين! ولا يحتج إذا لم يحدثوا!.

---

(١) نور الثقلين ١: ٩٢ - في مجمع البيان حول الآية روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «أنه كان قوم من اليهود ليسوا من المعاندين المتواطئين إذا لقوا المسلمين حدثوهم بما في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيحاجوكم به عند ربكم» فنزلت هذه الآية.

فيا لحمقهم من عمق، ولعمقهم من حمق، كيف يُجهِّلون الله مصلحية الحفاظ على الرسالة الإسرائيلية في زعمهم.

ومن أعجب العجاب أنهم يُجهِّلون غير المعاندين منهم، المجاهرين بذلك الفتح للذين آمنوا: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وهم أنفسهم يحملون من اللّاعقل ما ينفر منه الحمر المستنفرة، حاسبين ألّا حجة لله عليهم إلّا أن يصارحوا المسلمين بذلك الفتح! فحقاً إنهم أباقرة عباقرة!.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾:

هذه فرقة ثالثة إسرائيلية، جاهلة قاحلة مستضعفة، بعد الأولى العالمة المعاندة المستكبرة المحرفة، والثانية المتعلمة المنافقة غير المتطرفة، والويل كلّ الويل على الأوّلين، ثم الآخرين حسب دركات في تقصيراتهم، ثم المستضعفون القحّ غير المعاندين قد تدركهم رحمة من الله.

فـ ﴿أُمِّيُّونَ﴾ هنا يعني عن معرفة الكتاب، سواء هؤلاء الذين لم يدرسوا قطّ أي كتاب، ولم يسمعوا سمع المعرفة لعلم الكتاب[1]، أم الذين هم دارسون علوماً غير علم الكتاب، أو الذين درسوا ألفاظه وهم عن معانيه غافلون، وعن مغازيه جاهلون، ومهما اختلفت دركات ثالوث الأمية، ولكنهم كلهم قد يُعتبرون هنا من الأميين، وكما اعتبر غير أهل الكتاب - ككلّ - من الأميين، إذ لم تسبق لهم معرفة كتابية: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾[2].

---

(١) نور الثقلين ١ : ٩٢ عن الاحتجاج للطبرسي بإسناده إلى أبي محمد العسكري عليه السلام في الآية: إنّ الأمي منسوب إلى الأمّ، أي هو كما خرج من بطن أمه لا يقرأ ولا يكتب، لا يعلمون الكتاب المنزل من السماء ولا المتكلم به ولا يميزون بينهما إلّا أماني، أي إلّا أن يقرأ عليهم ويقال لهم إن هذا كتاب الله وكلامه، لا يعرفون إن قرئ من الكتاب خلاف ما هم فيه ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما يقرأ عليهم رؤساؤهم من تكذيب محمد صلى الله عليه وآله في نبوته. . .

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

فالأمية قد تكون مطلقة وأخرى نسبية، نسبة إلى علم الكتاب الرسالي بدرجاته، و﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ هنا، تعني هذه النسبية، فقد يكون بارعاً في العلوم التجريبية، ولكنه فارغ من العلوم الكتابية، فهو - إذاً - من الأميين، كما الأمي الطليق منهم، مهما اختلفت مسؤولياتهم حسب مختلف أمياتهم.

﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ هي جمع أمنية، وهي البغية الخيالية المتهوسة التي لا واقع لها حقاً، فقد يقرؤون الكتاب وهم عن معانيه غافلون، وهنا مسرح الأمنيات الفارغة من عند أنفسهم أو المستكبرين المحرفين الكَلِمَ عن مواضعه، فهم حضور عند الألفاظ والقراءات، غُيَّبٌ عن المعاني والمرادات ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فيما يتمنون من معانٍ، لا يسندون إلى علم أو أثارة من علم إلّا ﴿أَمَانِيَّ﴾ لأنفسهم، أم تقاليد جاهلة عمياء.

إذاً فـ ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ استثناء منقطع، حيث الأماني أمام الكتاب ليس علماً بالكتاب في وجه من الوجوه، فإن الأماني هي من الشيطان: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾(١) فهي - ككلّ - تخيلات بعيدة عن الواقع الحق وعن حق الواقع، بعيدة عن كتاب الله وعن كلّ شرعة الله!.

فالعلم الحجة من شرعة الله، هو بين علم عن اجتهاد سليم، أم علم عن تقليد سليم، ثم لا ثالث ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

ولا يعني التقليد في شرعة الحق التنازل عن كلِّ عقل وعلم، إنما هو تفتيش عاقل عالم عمن يعقل تماماً ويعلم شرعة الحق، عالماً عليماً أميناً على دينه، صادراً عن شرعة الوحي الحق، ووارداً مورد الحق.

فالأميّ الطليق الذي يجهل، ويجهل أنه يجهل دونما تقصير، هو من

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٠.

«المستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم».

والأميّ العارف بأميته وجهله، عليه أن يتعلم، أو يتبع خُطى من يعلم، دون ترسُّل في تقاليد جاهلة عمياء، فهو مستضعف مقصر في تقليده، مسؤول عند ربه.

والأمي الذي هو على درب التعلّم، ولا يقلّد إلّا فيما ليس ليعلم، وإنما يقلّد من يعلم وهو أمين، إنه على سبيل نجاة[1].

---

(١) في تفسير بيان السعادة ١ : ١٠٦ نقل أنه قال رجل للصادق عليه السلام : فإذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب إلّا بما يسمعونه من علمائهم لا سبيل لهم إلى غيره فكيف ذمهم بتقليدهم والقبول من علمائهم؟ وهل عوام اليهود إلّا كعوامنا يقلدون علماءهم فإن لم يجز لأولئك القبول من علمائهم لم يجز لهؤلاء القبول من علمائهم؟

فقال: بين عوامنا وعلمائنا وبين عوام اليهود وعلمائهم فرق من جهة وتسوية من جهة، أما من حيث استووا فإن الله قد ذمّ عوامنا بتقليدهم علمائهم كما ذمّ عوامهم، وأما من حيث افترقوا فلا، قال: بيّن لي ذلك يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال عليه السلام : إن عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصراح ويأكل الحرام والرشا وبتغيير الأحكام عن وجهها بالشفاعات والعنايات والمصانعات، وعرفوهم بالتعصب الشديد الذي يفارقون به أديانهم، وأنهم إذا تعصبوا أزالوا حقوق من تعصبوا عليه وأعطوا ما لا يستحق من تعصبوا له من أموال غيرهم وظلموهم من أجلهم وعرفوهم يقارفون المحرمات واضطروا بمعارف قلوبهم إلى أنّ من فعل ما يفعلونه فهو فاسق لا يجوز أن يصدَّق على الله ولا على الوسائط بين الخلق وبين الله فلذلك ذمهم لما قلّدوا من قد عرفوا ومن قد علموا أنه لا يجوز قبول خبره ولا تصديقه في حكايته ولا العمل بما يؤديه إليهم عمن لم يشاهدوه، ووجب عليهم النظر بأنفسهم في أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ كانت دلائله أوضح من أن تُخفى وأشهر من أن لا تظهر لهم وكذلك عوام أمتنا إذا عرفوا من فقهائهم الفسق الظاهر والعصبية الشديدة والتطالب على حطام الدنيا وحرامها وإهلاك من يتعصبون عليه وإن كان لإصلاح أمره مستحقاً، والرفق والبرّ والإحسان على من تعصبوا له وإن كان للإذلال والإهانة مستحقاً، فمن قلّد من عوامنا مثل هؤلاء الفقهاء فهم مثل اليهود الذين ذمهم الله بالتقليد لفسقة فقهائهم.

فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً على هواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلّدوه وذلك لا يكون إلّا في بعض فقهاء الشيعة لا جميعهم، فإن من يركب من القبائح والفواحش مراكب فسقة فقهاء العامة فلا تقبلوا منهم عنا شيئاً ولا كرامة لهم.

ثم الويل كلّ الويل هو للذين يستجهلون الأميين استحماراً واستثماراً استكباراً في الأرض.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

لقد جلسوا مجلس التشريع بإنزال الكتاب، وتبديل بعضه ببعض ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وكل ثمن الدنيا في ذلك الاشتراء قليل، فهم يكتبون الكتاب بأيديهم كما يهوون ثم يقولون للبسطاء الأميين هذا من عند الله، بغيةَ مكاسب دنيوية مالاً ومنالاً فوبالاً على أية حال.

إن ذلك هو أنحس دركات التحريف، حيث التحريفات المعنوية والألفاظ باقية كماهيه، ليست إلّا تخريفات للأميين الجامدين، فأما الذين يتحرون عن حق الوحي والوحي الحق، فهم - بفضل الله ورحمته - سوف يهتدون إلى الحق، متحلّلين عن تلكم التحريفات المعنوية، بترك هذه التقاليد العمياء.

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾ أولئك الكاتبين الكتاب بأيديهم ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ و﴿وَوَيْلٌ لَّهُم﴾ أولاء أصلاءَ، وللمنافقين التابعين لهم وسطاء، وللأميين أتباعاً ﴿مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من هذه المختلقَات الزورا!.

فقد «عمدوا إلى التوراة فحرفوا صفة النبي ﷺ - فيما حرّفوا - ليرفعوا الشك بذلك للمستضعفين من اليهود»[١].

وترى ما هو موقف «بأيديهم» ولم يك يكتب الكتاب إلّا بأيديهم، ثم إذا كتب بإملاء أم آلات كاتبة أخرى، فهلّا يندّد به إن كان تحريفاً وتجديفاً.

(١) نور الثقلين ١ : ٩٣ في المجمع وقيل كتابتهم بأيديهم أنهم عمدوا . . . وهو المروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام.

قد تعني «بأيديهم» كافة القوات والآلات الكاتبة، لا - فقط - الأيدي الجارحة، فلكي يحلِّق النهي على كافة المحاولات في تحريف الكتاب، فالأصلح الأصرح الأكفى هو ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ حتى تجتث كافة المحاولات بأية قدرة من القدرات لتحريف الكتاب، تلزيقاً له بوحي الكتاب، وتعليقاً على كتاب الوحي كأنه هو من الوحي.

ثم لمحة أخرى في ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ أنَّ كَتْب الكتاب لم يكن بأيدٍ ربانية ككتاب الوحي، أم نقلاً واستنساخاً لكتاب الوحي، بل بأيدي أنفسهم، بنفسياتهم وهوساتهم، أياً كانت تلك الأيدي بقواتها، سواء في ذلك الكتابات الخطية إملائية وسواها، أم الكتابات الصوتية أو الصورية، أم كتابات عملية أنهم يعملون أعمالهم الشهوانية، متظاهرين أنها ربانية، فـ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ قد يشمل كتب التقرير والعمل والبيان أياً كان، كما الأيدي تشمل كافة القوات الكاتبة بآلاتها متصلة ومنفصلة.

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

أمنية فارغة خارقة لا تستقيم مع عدل الله، ولا مع أيٍّ من الأعراف المستقيمة، ولا تتمشى مع التصور الصحيح في حقلي العمل والجزاء، أن يحسبوا أنفسهم ناجين من العذاب العدل والجزاء الوفاق مهما فعلوا وافتعلوا، لا لشيءٍ إلّا أنهم من بني إسرائيل!.

كما وإخوانهم المسيحيون قد يحسبون أنفسهم ناجين عن العذاب لا لشيءٍ إلّا أنهم يعتقدون في ثالوث الألوهية، وأن ربهم المسيح افتداهم - بصلبه ودخوله الجحيم - عن لعنة الناموس!.

أمنيات جاهلة متجاهلة ميزانَ العدل الرباني في عباده، يتمسك بها

الذين يهوون الحرية الكاملة في الشهوات والحَيْوَنات في كلٍّ النزوات الطائشة، وهم رغم كلّ هذه لا تمسهم النار إلّا أياماً معدودة أم ولا تمسهم أصلاً، ولن...

فـ «لن» تُحيل - في حسبانهم - أن تمسهم النار - وهم يستحقونها خالدين بما كتبوا وكسبوا - ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ في أي عَدَد وعُدَد، عدد الأيام التي عبدوا العجل، أم عدد الأيام التي اجترموا ما اجترموه، أم أي عدد في حسبانهم[1].

﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا﴾ في هذه الأمنية الفارغة البعيدة؟ وطبعاً كلّا! فإن اتخذتم عند الله عهداً ﴿فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ﴾ فلن تمسكم النار إلّا أياماً معدودة ﴿أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وإنما تتهوسون وتأملون دون أي سناد إلّا أماني وإن أنتم إلّا تظنون.

هؤلاء الأنكاد الأغباش الأبقار اتخذوا عنصريتهم جِذراً عن خلود النار، فهم - إذاً - أحرار فيما يعملون بما يأملون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ

(١) الدر المنثور ١ : ٨٤ - أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: اجتمعت يهود يوماً فخاصموا النبي ﷺ فقالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وسموا أربعين يوماً، ثم يخلفنا فيها ناس وأشاروا إلى النبي ﷺ وأصحابه فقال رسول الله ﷺ ورد يده على رؤوسهم: كذبتم بل أنتم خالدون مخلّدون فيها لا نخلفكم فيها إن شاء الله تعالى أبداً، ففيهم أنزلت هذه الآية، وأخرج مثله في العدد ابن جرير عن زيد بن أسلم عنه ﷺ.

وعن تفسير القمي في الآية قال قال بنو إسرائيل: لن تمسنا النار ولن نعذب إلّا الأيام المعدودات التي عبدنا فيها العجل فردّ الله عليهم قل يا محمد لهم: ﴿أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا﴾.

كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾(1).

وفي ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ﴾ تلميحة أن النار لا تحرقهم وهم داخلوها أياماً معدودة، وإنما تمسهم مساً دون دخول فيها ولا إحراق، وكأن ذلك تنازل منهم في استحقاق العذاب، وإلّا فهم شعب الله المختار فلا يعذبهم الله مهما كفروا وعصوا وكذبوا بآيات الله! والجواب كلمة واحدة:

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾:

﴿مَن كَسَبَ﴾ أيّاً كانوا من الأمم، ملحدة أم مشركة أم كتابية، هوداً أو نصارى أم مسلمين، فـ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾(2):

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

فالخالدون هنا في طاعة الله، هم الخالدون هناك في رحمة الله، والخالدون هنا في معصية الله، هم الخالدون هناك في نقمة الله ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

ولا يعني الخلود في النار - رغم ما يُزعم - لا نهائية المقام في النار، مهما عناها الخلود في الجنة لأنها حسب القرآن ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(3)

---

(1) سورة آل عمران، الآيات: ٢١-٢٤.

(2) سورة النساء، الآيتان: ١٢٣، ١٢٤.

(3) سورة هود، الآية: ١٠٨.

ولكن النار هي جزاء وفاق، فعلى قدر الكفر والعصيان يكون الخلود في النار، وحتى الآبدين في النار يفنون يوماً مّا بفناء النار بعد ما ذاقوا وبال أمرهم قدره، وقد فصلنا البحث حول مدى الخلود في النار كراراً وتكراراً.

﴿كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ هو الكسب القاصد العامد المعاند، دون الجاهل القاصر، أو المضطر غير العامد، ثم ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ شرطٌ ثانٍ يكمِّل أهلية الخلود في النار، وإحاطة الخطيئة التي هي من خلفيات السيئة التي استمرت ولم يتب عنها - حيث الخطيئة وهي الحالة الرديئة المخلَّفة عن السيئة البائتة - إنها تعم الخطايا العقائدية والعملية حيث يصبح المسيء خطيئةً كله، فلا منفذ - إذاً - إلى قلبه أو قالبه من نور، بل أصبح كلّه ناراً، والشيء لا يحيط بالشيء من جميع جهاته إلّا بعد أن يكون سابغاً غير قالص، وزائداً غير ناقص! ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

ثم يقابلهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فلا يرون ناراً ولا تمسهم النار.

ومن ثَم بينهما عوان، لا أنه أحاطت به خطيئة، ولا أحاطت به طاعته، فهم - إذاً - عوان بين الجنة والنار، وحين يبقى لهم - عند موتهم - إيمان وعمل الإيمان، فآخر مصيرهم الجنة.

أترى ﴿سَيِّئَةً﴾ هنا تعني أية سيئة وإن كانت صغيرة؟ والصغيرة تُكَفَّر بترك الكبيرة: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[1] ثم والكبيرة يعفى عنها بالتوبة، أم وأخيراً بالشفاعة، فأين - إذاً - أحاطت به خطيئته، وأين خلود النار؟

الشوط القريب في هذه السفرة النكدة يعني من السيئة أمثال الشرك بالله

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

والتكذيب بآيات الله، وتحريف كتاب الله[١]، فمن ثَمَّ ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ التي هي من خلفيات تلك السيئات العظيمة!

وقد يعبر عن هذه الحيطة الخليفة بـ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٢] خلوداً بخلود وعلى قَدَره وأثره، حيث أُغشيت كلّ وجوههم الظاهرة والباطنة بظلمات السيئات: ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[٣].

ثم أشواطٌ أخرى في سيئات أخرى مهما كانت صغيرة، حيث الإصرار فيها دون توبة يجرّ أصحابها إلى سيئات كبرى حتى ينتهي المسيءُ إلى تلكم السيئات الكبيرة التي تخلِّف إحاطة الخطيئة، سداً لمنافذ النور والتوبة.

فعلى أية حال ليست كلّ سيئة بالتي تخلِّد في النار، إنما هي التي تخلّف إحاطة الخطيئة، فيموت صاحبها مُحاطاً بالخطيئة عقائدياً وعملياً، فطبعاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

ثم وفي ﴿كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾ دون «عمل - أو - اقترف» أمّا شابه، تلميحة إلى حالة اقترافها، أنها اجتراح لها بالتذاذ واستساغة كأنها من مكاسب الحياة، فلو كانت كريهة في قياسه لما اجترحها متحمّساً حريصاً، ثم وما تركها تحيط به خطيئة، فكان يأتيها كارهاً أو مكرهاً أم غافلاً ثم يتوب عنها، ويلوذ إلى كنف غيرها، فهو - إذاً - يتخلص عن تبعتها، وهي إحاطة الخطيئة به، حيث لم تُغلق عليه منافذ التوبة.

فذلك هو التعبير الصحيح الفصيح عن حالة المسيء في هذه السيئة،

---

(١) نور الثقلين ١: ٩٣ في التوحيد بسند متصل عن ابن أبي عمير قال سمعت موسى بن جعفر عليه السلام يقول: لا يخلّد الله في النار إلّا أهل الكفر والجحود وأهل الضلال والشرك.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٧.

(٣) سورة القصص، الآية: ٨٤.

كما ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ تفسرها، لمحتان اثنتان تخرجان سائر السيئات - صغيرة وكبيرة - عن هذه السيئة، التي تخلف إحاطة الخطيئة ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾[1]!



(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ

ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

هنا عرض لعشرة كاملة من المواثيق أمراً ونهياً، التي نقضوها كلها وهم يعتبرونها من النواميس الأحكامية الأصيلة في الشرعة التوراتية، ثم عرض آخر لإرسال الرسل إليهم تترى، استكباراً أمام من لا تهواه أنفسهم تكذيباً لهم وقتلاً، وتكذيباً - في النهاية - بالقرآن وهم عرفوه من قبل استفتاحاً - بمستقبل نزوله - على المشركين، بحجة اختصاص إيمانهم بما نزل عليهم فقط وقد كفروا به وقتلوا أنبياءهم من قبل، كما اتخذوا العجل أمام موسى.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

ميثاق في شرعة التوراة عليهم، مذكور فيها بصيغة «الناموس» وتذكر هنا بنود الميثاق تقديماً للأهم فالأهم:

١ - ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أمرٌ بصيغة الإخبار، تأكيداً أكيداً على تطبيقه

وكأنه واقع قبله، مما يوحي ألّا بديل عنه ولا عذر في تركه، فكما الله واقع لا مرد له، كذلك عبادة الله واقعة لا مرد لها، مزوّدة بحكم الفطرة والعقل وكلِّ الأعراف المصدِّقة بوجود الله.

٢ - ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ دون «تحسنون بالوالدين» تنازلاً عن أكيد الأمر إلى مرحلة ثانية، كما والإحسان بالوالدين ليس فرضه إلّا بعد فرض عبادة الله، وليس - فقط - أن تحرم الإساءَة إليهما، بل الفرض هنا واجب الإحسان بهما في كافة الاتصالات والانفصالات الحيوية، روحية ومادية.

٣ - ﴿وَذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ مرحلة ثالثة من الفرض على اختلاف مراتب هذه الثلاث، فالإحسان بهؤلاء يأتي في ظل الإحسان بالوالدين، لتأخره عنه، ودمجهم في ﴿إِحْسَانًا﴾ في الوالدين، وكما الإحسان بالوالدين كان مُدمَجاً في ظل عبادة الله، وكل هذه من فروع عبادة الله.

ثم و«ذي القربى» في نفسها درجات ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾(١) وكذلك اليتامى والمساكين، الأيتم منهم والأسوأ حالاً ومسكنة.

فالأقرب الأيتم الأسكن، هو أوجب ممن سواه، وعلى هذا القياس دونما فوضى جزاف.

٦ - ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ مرحلة سادسة من واجب الحسن والإحسان تجاه الخالق والخلق، فإنه «يعني الناس كلهم»(٢).

فـ ﴿وَقُولُوا﴾ تفرض حسن العشرة العملية بالأولوية القطعية، وليس ﴿وَقُولُوا﴾ هنا إلّا بياناً لأقل الواجب تجاه الناس، و﴿حُسْنًا﴾ دون «حَسَناً»

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧٥.

(٢) الدر المنثور ١ : ٨٥ - أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب عليه السلام في الآية: . . .

تفرض خالص الإحسان وكأنه تجسُّدٌ للحسن، مبالغة بليغة في الحدِّ المفروض من حسن العشرة قولية وعملية مع الناس، كضابطة ضابطة كلَّ التخلفات الخلقية في عشرة الناس كلّ الناس ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾(١) فـ ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾(٢): ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾(٣) - ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾(٤).

فالضابطة السارية الجارية كأصل أوّلي في عشرة الناس هي الحُسن، بل ومعاقبة الظالمين أيضاً حسن بالناس، بل وحسن بالظالمين أيضاً لكي يرتدعوا، أم ينتهوا شاؤوا أم أبوا، ولكي يخفف عنهم يوم الحساب!.

فـ «قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يُقال فيكم»(٥) «ولا تقولوا إلّا خيراً حتى تعلموا ما هو»(٦) فـ «اتقوا الله ولا تحملوا الناس على أكتافكم...»(٧).

أجل «للناس كلّهم مؤمنهم ومخالفهم، أما المؤمنون فيبسط لهم وجهه، وأما المخالفون فيكلمهم بالمداراة لاجتذابهم إلى الإيمان فإن ييأس من ذلك يكف شرورهم عن نفسه وعن إخوانهم...»(٨). . . . .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٠.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٥.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.
(٥) نور الثقلين ١: ٩٤ في أصول الكافي بإسناده إلى جابر بن زيد عن أبي جعفر عليه السلام في الآية...
(٦) فيه بإسناده إلى معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية...
(٧) في تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول: ... إن الله يقول في كتابه: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البَقَرَة: ٨٣].
(٨) تفسير البرهان ١: ١٢٢ عن الإمام العسكري عليه السلام قال قال الصادق عليه السلام: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ=

فـ «لا تدع النصيحة في كلِّ حال»[١].

فالمؤمن حَسَن ومحسن أيّاً كان وأيّان، يصلح ولا يفسد في كلّ مجالات العشرة الحيوية، فكلّ قوله: «حُسن» وكل فعله «حُسن» وكل نيته وعقيدته حسنة، فهو في نفسه جَنةٌ لا تبوء إلى نار حتى يلاقي ربِّه في دار القرار.

ثم حُسن القول يعمّ الدعوة الحسنى، والأمر والنهي بالحسنى، وسائر العشرة القولية بالحسنى، ولكي يخلق المؤمن حسن الحب بحسن القول للناس وحسن المعاملة والعشرة معهم.

٧ و٨ - ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هنا إقام الصلاة عبارة أخرى عن ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بأفضل مصاديقها وقد تعني إقامُ الصلاة فيما عنت إقام الصلاة على محمد وآله، وهي من إتمام الصلاة[٢].

كما وإيتاء الزكاة عبارة أخرى عن كلِّ مراحل الإحسان روحياً ومادياً،

= حُسۡنٗا﴾، قال: . . . ثم قال: إن مداراة أعداء الله من أفضل صدقة المرء على نفسه وإخوانه، كان رسول الله ﷺ في منزله، إذ استأذن عليه عبد الله بن أبي ابن سلول فقال رسول الله ﷺ : بئس أخو العشيرة ائذنوا له، فلما دخل أجلسه وبشر في وجهه فلما خرج قالت عائشة يا رسول الله ﷺ : قلت فيه ما قلت وفعلت فيه من البشر ما فعلت؟ فقال رسول الله ﷺ : يا عويش يا حميراء إن شرَّ الناس عند الله يوم القيامة من يكرم اتقاء شرِّه.

(١) نور الثقلين عن مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام : قال الله : ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البَقَرَة: ٨٣].

(٢) تفسير بيان السعادة ١ : ١١١ قد فسر في الخبر إقامة الصلاة بإتمام ركوعها وسجودها وحفظ مواقيتها وأداء حقوقها التي إذا لم تؤدّ لم يتقبلها رب الخلائق، وقال عليه السلام : أتدرون ما تلك الحقوق؟ هو اتباعها بالصلاة على محمد وعلي وآلهما صلوات الله عليهم منطوياً على الاعتقاد بأنهم أفضل خيرة الله والقوّام بحقوق الله والنصّار لدين الله تعالى. قال عليه السلام : وأقيموا الصلاة على محمد وآله عند أحوال غضبكم ورضاكم وشدتكم ورخاكم وهمومكم المعلقة بقلوبكم.

حيث الزكاة تعمّ زكاة الأرواح الأحوال إلى زكاة الأبدان والأموال «وهي زكاة المال والجاه وقوة البدن»[١].

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾:

﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن كلٍّ هذه الثمان أم بعضها ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ إذ أقبلوا إليها ﴿وَأَنتُم﴾ المتولون ﴿مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

٩ - ١٠ - هنا تكملة للعشرة ناموساً أحكامياً للشريعة، حرمة الدماء والأموال: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ لأن سفك دم أخيك هو سفك لدمك نفسك، فإن نفسه نفسك ونفسك نفسه، فكما يحرم عليك سفك دمك، كذلك نفس مُحرمة أخرى غير مهدورة الدم، لا يحل سفكه، وكذلك إخراج أنفسكم من دياركم بنفس النمط، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه.

ثم في واجهة أخرى إن قتل نفس الغير وإخراجها من ديارها يخلف نفس القتل والإخراج لأنفسكم قصاصاً وجزاءً، فـ «لا تقتلون ولا تخرجون» لها أبعاد ثلاثة كلها منهية مهما اختلفت.

تلك عشرة كاملة تولوا عنها وهم معرضون:

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ

---

(١) تفسير البرهان ١: ١٢٢ عن تفسير الإمام العسكري عليه السلام قال: وآتوا الزكاة من المال والجاه وقوة البدن، فمن الحال مواساة إخوانك المؤمنين، ومن الجاه إيصالهم إلى ما يتقاعسون عنه لضعفهم عن حوائجهم المترددة في صدورهم، وبالقوة معونة أخ لك قد سقط حماره أو حمله في صحراء أو طريق وهو يستغيث ولا يُغاث من يعينه حتى يحمل عليه متاعه وتركبه وتنهضه حتى يلحق القافلة وأنت في ذلك كله معتقد لموالاة محمد وآله الطيبين وإن الله يزكي أعمالك ويضاعفها بموالاتك لهم وبراءتك من أعدائهم.

تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

﴿أَنتُمْ﴾ لحاضر الخطاب و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ لغائبه، فكيف يجتمعان والحضور في الخطاب هنا هم الغُيِّب؟

قد يعني ﴿أَنتُمْ﴾ شعب إسرائيل المتمثل في الحاضرين زمن الخطاب، وهؤلاء هم السابقون منهم القاتلون أنفسهم والمخرجون، دمجاً للحضور في الغيب لأنهم نفس النمط، ولهم نفس الخُلُق مأخوذين بنفس المأخذ، لأنهم سلسلة موصولة فيما كانوا يفتعلون، ولا أقل أنهم كانوا بما فعلوا راضين، والراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم.

أم إن ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هنا كمنادى تكرار منبّهاً لهؤلاء الحماقى أم كإشارة إليهم تأكيداً لصدور الجريمة منهم.

والآية تتحدث عن واقعٍ قريب العهد، قبيل غلبة الإسلام على قبيلي الأوس والخزرج، فقد كانوا كلهم مشركين، ويهود المدينة هم - وقتئذٍ - أحياء ثلاثة، مرتبطة بعهود، كلٌّ مع كلٍّ من حيي الشرك، فبنو قينقاع وبنو النضير هما حلفاء الخزرج، وبنو قريظة هم حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كلٌّ فريق من اليهود مع حلفائه المشركين ضد آخرين ومعهم يهود آخرون، فيقتل اليهودي مثله كما يقتل المشرك دونما تمييز تمسكاً بالأحلاف، وتناسياً لحلف الله وميثاقه الذي واثقهم به.

كما وكانوا يخرجون فريقاً منهم من ديارهم إذا غلب فريقهم، نهباً لأموالهم وسبياً لفريق منهم حلفاء مع عدوّهم ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ

﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ كما تتظاهرون على خلطائهم المشركين، وهذا خلاف نص الميثاق في ناموس التوراة.

ومن ثم ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ دافعين الفدية عنهم حتى تستلموهم وتحرِّروهم، وفقاً لنص آخر من التوراة ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ فكيف الجمع بين قتالهم وقتلهم وإخراجهم وأسرهم، وبين مفاداتهم ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فتفادونهم ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ فتقاتلونهم وتخرجونهم من ديارهم وتأسرونهم؟.

و«هو» هنا إمّا ضمير شأن، أو مبتدأٌ مبهم مفسَّر بـ ﴿مُحَرَّمٌ﴾ والجملة الخبرية خبرها.

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾ النقض لشرعة الميثاق التوراتي ﴿مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أن تقاتلوهم إخوانكم لصالح أعدائكم المشركين ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ لأن ذلك من أشدِّ العصيان لشرعة الله ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ خلاف ما أنتم تزعمون.

ولكي يُلفت أنظار المسلمين إلى أهمية ذلك المحظور، دون اختصاص باليهود، يخاطبهم:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

إعلان صارخ في هذه الإذاعة القرآنية يحذر المسلمين عن مثل ما افتعله اليهود، كيلا يحارب بعضهم بعضاً لصالح الكافرين.

خُطةٌ تقليدية لعينة إسرائيلية في إمساك عصيِّهم من أوساطها، انضماماً إلى المعسكرات المتطاحنة كلها حيطةً على مصالحهم المادية ومغانمهم على أية حال، نقضاً لميثاق الله الذي واثقهم به، وتحكيماً لميثاقهم مع أعداء

الله، مصلحة وقائية وقتية، تجعل شرعتهم على هامشها، أم رفضاً لها عُجالة حتى يربحوا المسرح، اشتراءً للحياة الدنيا بالآخرة!.

وترى الآخرة كانت مملوكة لهم حتى يشتروا بها الدنيا فهم مالكوها؟ وذلك بيع ما لا يُملك!.

لكلٍّ من المكلفين نصيب مقدَّر من نعيم الآخرة إن عمل لها، فالذي لا يعمل لها كأنه باعها حيث بطَّل على نفسه استبدالاً بها نعيم الدنيا، و﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾[1].

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في تجارتهم الخاسرة من خسارهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ إذ لا ناصر يومئذ إلّا الله وليس بمخفف العذاب.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

آية التقفية هذه نراها يُستدل بها عند المبشرين المسيحيين على أن المسيح خاتم النبيين، يقول قائل منهم: في القرآن كله، في النصوص كلِّها التي يرد فيها ذكر المسيح، ظاهرتان: **الأولى**: يقفِّي القرآن على كلّ الرسل بالمسيح، ولا يقفي على المسيح بأحدٍ (٢: ٨٧) يعني هذه، و(٥: ٤٦) (٥٧: ٢٧).

الثانية: المسيح نفسه في ما ذكر القرآن عنه لا يبشر بأحد من بعده على الإطلاق إلّا في بعض تلك الآية اليتيمة: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ وهذا يجعل تعارضاً ما بين الموقف المتواتر والموقف الشاذ اليتيم فيه، والعقيدة في كتاب منزل تُؤخذ من المحكم فيه لا من المتشابه[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦.

(٢) ذكره الحداد البيروتي في كتابه مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي ص ٣٦٤ . . .

يُستدل بآيات التقفية - الثلاث - على أن المسيح هو خاتم النبيين، فالثانية ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

والثالثة: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾[2].

ولكن آية البقرة تؤتي موسى الكتاب ثم تقفّي من بعده بالرسل، فلو كان المعني منهم كلّ الرسل لخرج المسيح عليه السلام أيضاً عن جماعة الرسل، فهم - إذاً - معظم الرسل الإسرائيليين، وقد قفى من بعدهم بالمسيح وهو خاتم الرسل الإسرائيليين، وليست هذه التقفية الإسرائيلية إلّا توطئة لبيان انتقال الرسالة إلى رسول غير إسرائيلي ﴿. . .وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3]! فقد تلعن - بين الملعونين - القائلين أن المسيح هو خاتم المرسلين على الإطلاق، ناكرين رسالة القرآن العظيم!

كما وأن آية المائدة أيضاً لا تقفّي بالمسيح إلّا على الرسل الإسرائيليين: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟. . . وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾[4] مما يبرهن أن المسيح عليه السلام هو آخر الرسل الإسرائيليين التابعين لشرعة التوراة، ثم ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ. . .وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٦.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٩.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٦.

ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[١]!

وكذلك آية الحديد، فإنها لا تقفي بالمسيح إلّا الرسل الذين ذكروا قبله، لا كلَّ الرسل، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ ثُمَّ . . . قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ ثم يقفي بهذا الرسول خاتماً لكلّ الرسالات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾[٢] [٣].

فتراهم - هؤلاء البعيدين عن علم الكتاب - كيف يستندون بآيات الرسالة الختمية المحمدية على نكران رسالته عن بكرتها، ولا يفضحون إلّا أنفسهم لو كانوا يشعرون!.

ثم التقفية بالرسل أم برسول تعني تأييد كلّ لاحق من الرسل سابقه، وبيان ما حرِّف بأيدي الدسِّ والتحريف، فليست لتعني الختم في الرسالة على أية حال، فالرسالات الإلهية هي سلسلة موصولة طول التاريخ الرسالي، فـ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[٤]!

لقد أتاهم رسلهم تترى تلوَ بعضٍ ولصِقَ بعضٍ، كلُّهم رسل التوراة، داعين إليه، وآخرهم عيسى ابن مريم المزوّد بالبينات، المؤيد بروح القدس، ولكنهم كفروا وكذبوا: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ على هؤلاء الرسل ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٨.
(٣) راجع رسول الإسلام في الكتب السماوية ١٦٢ - ١٧٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

هذه صنيعتهم برسلهم في ماضيهم النَّحِس النَّجِس، فماذا يرجى من حاضرهم أمام نبيٍّ إسماعيلي؟!.

وإذا كانت رسالات إسرائيلية لا تمشي على أهوائهم فهم بها يكفرون رغم توافق العنصرية، فماذا يرجى منهم أمام رسالة غير إسرائيلية لا توافق هذه العنصرية.

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ علّه روح القدس الرسالي ككلّ وهو مثلث الوحي والعصمة الرسالية وملك الوحي، وهذه الثلاث لا يصيبها ما يصيب سائر الأرواح الإنسانية[١].

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

﴿غُلْفٌۢ﴾ هي جمع أغلف أو غلاف، وهو الذي في غلاف مبالغة، أو كالمتعود من غلاف السيف، فهل يعنون بغلف قلوبهم أنها ﴿فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾[٢] لا تنفذ إليها دعوة جديدة غير إسرائيلية: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[٣].

---

(١) نور الثقلين ١: ٩٨ في أصول الكافي بإسناده إلى المنخل عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن علم العالم؟ فقال لي: يا جابر إن في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح القدس وروح الإيمان وروح الحياة وروح القوة وروح الشهوة، فبروح القدس يا جابر عرفوا، تحت العرش إلى ما تحت الثرى، ثم قال يا جابر! إن هذه الأربعة الأرواح يصيبها الحدثان إلّا روح القدس فإنها لا تلهو ولا تلعب.

وبإسناده إلى محمد بن سنان عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن علم الإمام بما في أقطار الأرض، وهو في بيته مرخى عليه ستره؟ فقال: يا مفضل إن الله تبارك وتعالى جعل في النبي خمسة أرواح روح الحياة فبه رب ودرج، وروح القوة فبه نهض وجاهه، وروح الشهوة فبه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال، وروح الإيمان فبه آمن وعدل، وروح القدس فبه حمل النبوة، فإذا قبض النبي انتقل روح القدس فصار إلى الإمام، وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يزهو ولا يلعب، والأربعة الأرواح تنام وتغفل وتلهو وتزهو وروح القدس كان يرى به.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥.

فهي - إذاً - غلفٌ بطبيعة الحال عما تدعونا إليه، فما هو ذنبنا وقد خُلقنا غُلف القلوب، والجواب كلمة واحدة: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ - ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1] - ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[2].

فليست هي غلفاً بما خلق الله، بل ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾[3].

أم يعنون أنها غنية عن أية شرعة غير إسرائيلية، فهي مغلفة عن غيرها، غنية بها، مليئة منها، ومن ثم «إنها أوعية للخير والعلوم قد أحاطت بها واشتملت عليها، ثم هي مع ذلك لا تعرف لك يا محمد فضلاً مذكوراً في شيءٍ من كتب الله ولا على لسان أحد من أنبياء الله»[4].

قد يعنون ذلك الثالوث من غُلف القلوب، ورداً عليهم فيها كلمة واحدة: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ قلوب لعينة مقلوبة عن الخير بكفرهم، امتناعاً لقبول الحق بالاختيار!.

ولأن الله لعنهم بكفرهم ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ قليلاً منهم، وقليلاً من الإيمان، والقلتان معنيتان، فإنهما من خلفيات لعنهم بكفرهم، فقليلاً منهم يتخلصون عن كفرهم، وقليلاً يؤمنون حين يتخلصون.

ويروى عن النبي ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغفل مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مُفْصِح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجُه فيه، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر،

---

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١٣.
(٤) تفسير الإمام الحسن العسكري قال عليه السلام في تفسير الآية . . . ومثله في الدر المنثور عن ابن عباس.

وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنْكَر، وأما القلب المُفْصِح فقلب فيه إيمان ونفاق، وَمَثَل الإيمان فيه كَمَثَل البقلة يمدّها الماءُ الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه(١).

لقد قالوا قولتهم الهارفة الخارقة هذه تثييساً لمحمد ﷺ وتعليلاً لعدم إجابتهم له:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

هنا ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ لا تصدق كلَّ ما معهم، فإنه دخيل من كلِّ تحريف وتجديف، إذاً فهو الذي كانوا يستفتحون به على الذين كفروا من بشارات هذه الرسالة السامية القرآنية(٢).

ثم وفي وجه آخر لما معهم، هو وحي التوراة خالصاً عما يشوبه، حيث القرآن يصدق كلّ كتابات الوحي، ويزيف كلّ دخيل فيها لأنه مُهَيْمِنٌ عليها:

---

(١) الدر المنثور ١ : ٨٧ - أخرج أحمد بسند جيد عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ: . . .
وفيه - أخرج ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان والبيهقي في شعب الإيمان عن علي ؓ قال: إن الإيمان يبدو لحظة بيضاء في القلب فكلما ازداد الإيمان عظماً ازداد ذلك البياض فإذا استكمل الإيمان أبيَض القلب كلّه، وإن النفاق لحظة سوداء في القلب فكلما ازداد النفاق عظماً ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق اسود القلب كله وايم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود».
أقول: يعني منه قلب الروح و«لو» المحيلة لذلك الشق يؤيده ولا استحالة في شق قلب الجسم.

(٢) تفسير البرهان ١ : ١٢٦ قال الإمام العسكري ؑ ذم الله اليهود فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ يعني هؤلاء اليهود الذين تقدم ذكرهم وإخوانهم من اليهود ﴿جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ ذلك الكتاب ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة التي يبيّن فيها أن محمداً الأمي من ولد إسماعيل . . .

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ . . .﴾[١].

والاستفتاح هنا هو طلب الفتح على المشركين، كقولهم فيما يروى «اللّهم إنا نستنصرك بحق النبي الأمي إلّا نصرتنا عليهم»[٢] أو وطلب الفتح منهم أن يخبروهم هل ولد مَن وصفته التوراة؟ ولكنه لا يصلح إلّا ضمن المعني من الاستفتاح عليهم لأنه طلب الفتح منهم لا عليهم!.

لقد كانوا يستفتحون ببشارة القرآن في توراتهم، على المشركين، كمصلحة وقتية ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا﴾ من ذلك الفتح الرسالي ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ مصلحيّة الحفاظ على الشرعة العنصرية ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٤٧، ٤٨.

(٢) الدر المنثور ١ : ٨٨ - أخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس قال: كانت يهود بني قريظة والنضير من قبل أن يبعث محمد ﷺ يستفتحون الله يدعون على الذين كفروا ويقولون: اللهم . . . فلما جاءهم ما عرفوا - يريد محمداً ولم يشكوا فيه - كفروا به. ومن طريق أصحابنا في نور الثقلين أخرجه بأسانيد وأخصرها متناً ما رواه القمي عن إسحاق بن عمار قال سألت أبا عبد الله عليه السلام في الآية قال: كان قوم فيما بين محمد وعيسى صلوات الله عليهما، وكانوا يتوعدون أهل الأصنام بالنبي ﷺ ويقولون: ليخرجن نبي فليكسرنّ أصنامكم وليفعلّن بكم وليفعلّن، فلما خرج رسول الله ﷺ كفروا به. وفيه عن روضة الكافي عنه عليه السلام يقول فيه بعد تفصيل للقصة وكانت اليهود تقول لهم - المشركين القاطنين بالمدينة - أما لو قد بعث محمد لنخرجنكم من ديارنا وأموالنا، فلما بعث الله محمداً ﷺ آمنت به الأنصار - وهم وقتئذ من المشركين - وكفرت به اليهود وهو قول الله عز وجل : ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وفي تفسير الإمام العسكري عليه السلام . . . وكان الله عز وجل أمر اليهود في أيام موسى وبعده إذا دهمهم أمر أو دهتهم داهية أن يدعو الله عز وجل بمحمد وآله الطيبين وأن يستنصروا بهم وكانوا يفعلون ذلك، حتى كانت اليهود من أهل المدينة قبل ظهور محمد ﷺ بسنين كثيرة يفعلون ذلك فيكفون البلاء والدهماء والداهية . . .

مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾:

فالإنسان - أيّاً كان - يعادل نفسه بثمنٍ مَّا قليلاً أو كثيراً، وأما أن يعادلها بالكفر بآيات الله، فتلك هي أبخس الصفقات وأنحسها، وذلك واقع إسرائيلي إن اشتروا أنفسهم بالكفر، بغياً وحسداً من عند أنفسهم أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، كفراً بما عرفوه في استفتاحهم، وبما حسدوا صاحب هذه الرسالة الأخيرة ﴿فَبَآءُو﴾ رجوعاً عن ذلك المتجر الخاسر الحاسر ﴿بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ لبعدي الكفر بالتوراة وبالقرآن ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ المغضوب عليهم ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ كما أهانوا رسالة الله.

وإليكم إشارات من بشارات الفتح التي كانوا بها يستفتحون، ففي كتاب حبقوق النبي (٣: ٣ - ٦) في الأصل العبراني:

«إلوهَ مِتِّيماه يا بُوءْ وِقادُوشْ مِهَرْ پَارَانْ سِلَاهْ كِيِّتَّاه شَامَيِمْ هوُدُو ويتهِلاتُو مالِيآه هاآرِصْ (٣) وِنُغَهْ كاأور تِهْيِهْ قَرْنَيِمْ مِيَّادُو لُو شامْ حِبْيُونْ عُوزُّهْ (٤) لِفاناي يِلِخْ دابِرْ وَيِسيءْ رِشِفْ لِرَجْلايو (٥) عامِدْ ويمُودِدْ أرِصْ رِآهْ وَيَتِّرْ غُويِمْ وَيِّتْ تِصِصُو هَرْ رِي عَدْ شَحُو جِبعُوتْ عُولامْ هَلِيخوتْ عولامْ لُو (٦)».

«الله من تيمان يأتي والقدوس من جبل پاران: حرى - فأران (يأتي) مع الأبد. غطى جلاله السماوات وامتلأت الأرض من تسبيحه (٣) شعاعه كالشمس وشعّ من يمينه النور وهناك استتار قوته (٤) قدّام وجهه يسير الوباء، وأمام قدميه تبرز حمّى مُلهبة (٥) وقف ومسح الأرض، نظر وأذاب الأمم، وتبددت الجبال القديمة وخسفت وانحنت إكام وأتلال القدم، مسالك الأزل له (٦)».

وفي الأصل العبراني (تث ٣٣: ١ - ٢) من التوراة:

«وِزُئْت هَبَّراخاهْ أشِرْ بِرَخْ مُوشِهْ إيش ها إلُوهِيمْ إتْ بِني يِسرائيل لِفِني مُوتوا (١) وِيُّومِرْ يُهواهْ مِسِّيني بَاو زارَحْ مِسِّعِيْر لامو هُو فِيعَ مِهَرْ فاران وِآتاه مِرْ بِبُتْ قُدِشْ مِي مِينُو اِشْ داتْ لامو (٢)».

«وهذه بركة باركها موسى رجل الله بني إسرائيل عند موته (١) وقال: الله من سيناء جاء، تجلّى من ساعير، تلعلع من فاران، وورد مع آلاف المقدسين، من يمينه ظهرت الشريعة النارية (٢)».

هنا يبشر الله بلسان موسى عليه السلام بتجليات ربانية ثلاث، فموسى «من سيناء» والمسيح «من ساعير» ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم «من فاران» تعبيراً عن الكلّ بالماضي تثبيتاً لتحقق وقوعها، تزويداً لمحمد المتجلي من فاران أنه ورد مع آلاف المقدسين، من يمينه ظهرت الشريعة النار وهي شريعة الجهاد.

وفي سالفة لها تختصر البشارة بآيتين «من تيمان» وهو مبعث المسيح فإنه ساعير جنوبي القدس، ومن فاران وهو مبعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم تصفه بشرعته ما تصف، بهيمنة وشوكة وأبدية...[1].

هكذا كانوا يستفتحون به على الذين كفروا وهم يعرفونه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾:

﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ جواباً عن ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ قسمة ضيزى

(١) راجع رسول الإسلام في الكتب السماوية ٤٤ - ٥٣.

في الإيمان بما أنزل الله، قضيةَ العنصرية الحمقاء فيهم، فـ ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أيّاً كان النازل وعلى أيٍّ كان، ما لم يكن نازلاً على إسرائيل! «وهو» «ما أنزل الله» الخالص الناصع دون خليط ولا تبدُّل حتى آخر زمن التكليف، فمهما كان النازل عليهم حقاً في أصله فهو حقٌّ وليس «هو الحق» كلّه، وهذا «هو الحق» كلّه هنا لكونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْۗ﴾ فيما كانوا به يستفتحون.

وحتى لو أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ وهم منكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بخصوص الوحي النازل على الرسل الإسرائيليين؟!

وهنا ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ خطاب الحال للحضور في تلك الحال بصيغة الحال والاستقبال، مما يحمل عليهم قتل الأنبياء حالاً واستقبالاً، و﴿مِن قَبْلُ﴾ توجهاً إلى الماضي، هما مما يؤكدان طبيعة القتل فيهم حاضرهم وغابرهم، سلسلة موصولة طول التاريخ الإسرائيلي، فلو كان زمن خطابهم نبيٌّ أو أنبياء لقتلوهم، كما قُتِل أسلافُهم، ولقد قتلوا - في حسبانهم - الرسالة المحمدية بنكران بشاراته وتكذيبه!.

﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

وهل إن اتِّخاذكم العجل من بعده: بعد أن جاءكم بالبينات، وبعد ما غاب عنكم فترة قصيرة إلى الطور(١)، هل إن ذلك أيضاً ممّا أُنزل إليكم فهو من وحي الإيمان والإيمان بالوحي!.

---

(١) تفسير البرهان ١: ١٣٠ قال الإمام العسكري عليه السلام قال الله عز وجل لليهود الذين تقدّم ذكرهم ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالات على نبوته وعلى ما وصف من فضل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشرفه على الخلائق... ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ - إلهاً - مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ بعد انطلاقه إلى الجبل وخالفتم خليفته الذي نص عليه وتركه عليكم وهو هارون ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٥١] كافرون بما فعلتم من ذلك.

لقد كفرتم بما أنزل إليكم في وحي التوراة، ثم ما أنزل في وحي الإنجيل وهما الركنان الركينان من الوحي الإسرائيلي، ثم أنتم تكفرون بوحي القرآن وقد كنتم تستفتحون به على المشركين، فما داؤكم وما دواؤكم! ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ موسى وشرعته، فظالمون الحقّ النازل من عند الله، وظالمون أنفسكم!.

ذلك وإلى مرات ومرات من التمردات والتنمردات عن شرعة الحق النازلة عليكم:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾:

﴿... بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾[1] ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[2].

قصة واحدة تأتي في مجالات عدة بمختلف الألفاظ الجانبية والأصل واحد، وهنا الجواب الفصل عن ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ - واسمعوا: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ والعصيان بعد حجة السمع هو أجرأ عصيان.

ثم ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ وكيف يُشرب العجل في القلوب؟ ولا يشرب العجل بل يُؤكل! وليس الشارب هو القلوب!.

إنها مبالغة بليغة في حبِّ العجل، فكأنها تشربت حُبَّه فمازجها ممازجة

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٦٣، ٦٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٤.

المشروب، وخالطها مخالطة الشيءِ الملذوذ، ولأن القلوب هي أعماق الكيان الإنساني، فإشرابهم حب العجل في قلوبهم كناية عن أن حبه تعرق وتعمق في كلِّ كيانهم.

وما ألطفها رواية - إن صحت - أنْ «عمد موسى فَبَرَدَ العجل - قطعاً بالمبرد - من أنفه إلى طرف ذنبه ثم أحرقه بالنار فزرَّه في اليمِّ، وكان أحدهم يقع في الماء وما به إليه من حاجة، فيتعرض لذلك الرماد فيشربه...»[(١)].

فقد أشربوا العجل في قلوب أرواحهم وقلوب أجسادهم لكثرة حبهم له، فكما أن شِرب الماء كسب لاستمرارية الحياة، كذلك هؤلاء الأباقرة ركزوا حياتهم على حب المادة وعبادتها، المتمثلة في حب العجل وعبادته، وما أَمْرهُم أن يذبحوا بقرة - ولا سيّما تلك الثمينة الغالية - إلّا أمراً بذبح ما كانوا يحبون ويعبدون، وكما أمروا بقتل أنفسهم بعد هذه العبادة القاحلة.

وتراهم من أشربهم في قلوبهم العجل؟ إنه طبيعتهم المنجذبة إلى المحسوسات، ثم هو السامري الذي استغل فيهم هذه الجاذبية، ثم الله لم يردعهم تكويناً وتسييراً حيث الدار دار الاختيار.

وقد يعني ﴿وَأُشْرِبُواْ﴾ - فيما تعني - أنهم أمروا أن يشربوا من مائه ليتبين العابد له عن سواه[(٢)] ولكنه لا يصلح إلّا ضمن المعني مما تعني، وقد

(١) نور الثقلين ١: ١٠٢ عن تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: ... وهو قول الله: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البَقَرَة: ٩٣].

(٢) تفسير البرهان ١: ١٣٠ قال الإمام العسكري عليه السلام ... في الآية: عرضوا بشرب العجل الذي عبدوه حتى وصل، ما شربوه ذلك إلى قلوبهم، وقال: إن بني إسرائيل لما رجع إليهم موسى وقد عبدوا العجل تلقوه بالرجوع عن ذلك فقال لهم موسى: من الذي عبده منكم حتى أُنفذ فيه حكم الله؟ خافوا من حكم الله الذي ينفذه فيهم فجحدوا أن يكونوا عبدوه وجعل كلّ واحد منهم يقول: أنا لم أعبده وإنما عبده غيري ووشى بعضهم ببعض فذلك ما حكى الله =

تعني ثالوث الشرب، في قلوب أرواحهم، ثم الأجساد، من عند أنفسهم أم بما أمروا، والنص يصلح لها كلها بكفرهم.

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ أن تكفروا بما أنزل الله، وبهذه الرسالة الأخيرة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فهو إيمان بئيس نحيس وليس إيماناً بالله! وترى الإيمان يأمر أو ينهى حتى يصح هنا ﴿بِئْسَمَا﴾؟ الأمر هو الدافع كما النهي هو المانع، وهما أصل الأمر والنهي قولياً أم واقعياً، فلا أمر ولا نهي تكوينياً أو تشريعياً إلّا بدافع أو مانع، أم هما بدافع كتعبير أصح وأعمق.



= عن موسى من قوله للسامري ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧] فأمره الله فبرده بالمبارد وأخذ سجالته فذرها في البحر العذب ثم قال لهم: «اشربوا منه فشربوا فكلّ من كان عبده اسود شفتاه وأنفه فمن كان لم يعبده ابيض شفتاه وأنفه فعند ذلك أنفذ فيه حكم الله».

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ

مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾:

فلأن اليهود زعموا أنفسهم شعب الله المختار وأبناءه: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ﴾[1] دعوى خاوية خالية عن أي برهان، لذلك يختصون بأنفسهم الدار الآخرة، ولكن البراهين تَتْرَى على بُطْلانها ومنها ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم، نقلة من هذه الحياة الظالمة المظلمة، الضيقة الكدرة، إلى دار لقاء الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2].

أترى أن تمني الموت هو من قضايا الإيمان الخالص والدار الخالصة للموت من عند الله؟ والحياة الدنيا هي حياة الاستعداد للأخرى، وهي مزرعة الآخرة! والتعرض للموت محرّم في شرعة الله! والفرار من بواعث الموت واجب في شرعة الله، فكيف يصبح - إذاً - تمني الموت من قضايا صدق القول إن لنا الدار الآخرة خالصة عند الله.

تمني الموت ليس هو ولا منه التعرض للموت، فلا يُتمنى ما بالإمكان تحصيله أو التعرض له، وإنما هو الترجي الصالح لأصلح الصالحين الذين هم من خُلصاء الله والسابقين إلى رضوانه، وكما يروى عن علي عليه السلام:

(١) سورة البقرة، الآية: ١١١.
(٢) سورة الجمعة، الآية: ٦.

«والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه» وعن الصديقة الطاهرة عليها السلام: «اللّهم عجل وفاتي سريعاً»[١] ولأنهم موقنون بالسعادة الآتية، راغبون في لقاء الله!.

أم وللذين يوقنون بتلك السعادة العظمى أطاعوا الله أم عصْوا، فماذا تُفيدهم - إذاً - بقية الحياة الدنيا إلّا بُعداً عنها وعن لقاء الله ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾!

ثم مَن سواهم لا يجوز لهم تمنّي الموت كما لا يجوز لهم التعرض للموت، فإن الموت لهم انقطاع عن حياة التحصيل ورجاء التلافي لِما قصّروا، أو المزيد فيما قصروا عنه «ولأنا لا نأمن من وقوع التقصير فيما أُمرنا به ونرجو في البقاء التلافي»[٢].

وقد يجوز تمنّي الموت لمن لا يرجو في البقاء التلافي، بل ومزيد العصيان، أم هو موقن بذلك، واليهود - فيما يدعون - هم القسم الثاني من الأربعة فليتمنوا الموت إن كانوا صادقين، فإن النقلة من ضيق الحياة وضنك

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٠٢ في الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام سمعت أبي يحدث عن أبيه عليهما السلام أن رجلاً قام إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين بمَ عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزائم - إلى أن قال -: في ماذا أحببت لقاءه؟ قال: لما رأيته قد اختار لي دين ملائكته ورسله وأنبيائه علمت بأن الذي أكرمني بهذا ليس ينساني فأحببت لقاءَه.

وفيه عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجل فقال له: ما لي لا أحب الموت؟ فقال له: ألك مال؟ قال: نعم، قال: فقدمته؟ قال: لا، قال: فمن ثم لا تحب الموت.

(٢) في مجمع البيان قال أمير المؤمنين عليه السلام - وهو يطوف بين الصفّين بصفّين في غلالة - شعار يلبس تحت الثوب الدرع - لما قال له الحسن ابنه عليه السلام ما هذا زيّ الحرب؟ فقال: يا بني إن أباك لا يبالي وقع على الموت أم وقع الموت عليه، وأما ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍّ نزل به، ولكن ليقل: اللهم احيني ما دامت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، فإنما نهى تمني الموت لأنه يدل على الجزع، والمأمور به الصبر وتفويض الأمور اليه، ولأن لا نأمن . . .

المعيشة إلى سعتها الخاصة الخالصة دون أي شرط إلّا أنك إسرائيلي، إن تمني تلك النقلة هي طبيعة الحال لأصحابها، بل وذلك أدناها، حيث الطمأنَة المطلقة تقتضي التعرض للموت، بل والانتحار.

إنهم يعبرون عن أنفسهم بما عبروا، وعن المؤمنين بالناس، تعبيراً ساقطاً مسقطاً لهم عن أية رحمة ربانية تشملهم، والدار الآخرة خالصة لهم أنفسهم لا يشاركهم فيها هؤلاء الناس!.

فهنالك دُعوا إلى تلك المباهلة، كبرهان واقع على كذبهم بعد كلٍّ البراهين التي رفضوها:

ولقد أمر الرسول أن يقولها لهم فقال: «إن كنتم في مقالتكم صادقين قولوا: اللهم أمتنا، فوالذي نفسي بيده لا يقولها رجل منكم إلّا غصّ بريقه فمات مكانه فأبوا أن يفعلوا وكرهوا ما قال لهم فنزل[1]:

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾:

وكيف يتمنونه وهم يخشون أن يستجيب الله لهم فيأخذهم من فورهم، فهم قد خسروا الدنيا بالموت الذي طلبوه انقطاعاً عن شهواتهم، وخسروا الآخرة بالعمل السيّئ الذي قدموه!.

قد يتمنى المشرك أو الملحد الموتَ لأسباب طارئة، ولأنه لا يخاف بعد الموت، ولكنهم ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لأنه نهاية شهواتهم وبداية بلياتهم بما قدموا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ﴾ أنهم لن يتمنوه، بل هم أحرص الناس على حياة:

---

(١) الدر المنثور ١: ٨٩ - أخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس في هذه الآية: قل لهم يا محمد ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ [البَقَرَة: ٩٤] يعني الجنة كما زعمتم ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: ٩٤] يعني المؤمنين ﴿فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البَقَرَة: ٩٤] إنها لكم خالصة من دون المؤمنين فقال لهم رسول الله ﷺ: . . .

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

هنا ﴿حَيَوٰةٍ﴾ منكّرة دون «الحياة» المعرّفة، لمحةً إلى أن حرصهم لا يخص الحياة الراقية المريحة المربحة، بل هي مطلق الحياة، ما تتسمى حياةً، مهما كانت أرذلها، لأنها على أية حال أفضل من الحياة الأخرى بما قدمت لهم أنفسهم.

فـ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ﴾ هم كلّ الناس دونما استثناء، وحتى الذين أشركوا، وكما يبيّنه: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: وأحرص من الذين أشركوا، لأنهم يخافون عما بعد الموت ما لا يخافه المشركون.

أجل إنها ﴿حَيَوٰةٍ﴾ أيّة حياة، ملمّحاً لها بذلك التنكير النكير الحقير، حياة ديدان أو حشرات، وإنما ﴿حَيَوٰةٍ﴾ ثم لا شيءَ آخر، الحياة الرذيلة التي لا يقبلها أي ذي حياة، لا وحتى الذين أشركوا!.

فهم - رغم أنهم عارفون القدر المتعوّد من الحياة - يجتازونها إلى أعلى ما بالإمكان في تقديرهم: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ كسباً أكثر وأوسع من ملذات الحياة الدنيا، ابتعاداً أوفر عن عذاب الأخرى، ولكنه ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ وكل آتٍ قريب، فحتى لو عمّر أحدهم الدنيا فليعذب أكثر وأكثر مما لو أنه لم يعمّر، لأنه يزيد في تعميره الأكثر استحقاقاً للعذاب أكثر، فتعميره الكثير - إذاً - يبوء إلى العذاب الكثير! ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

واختصاص المشركين هنا من بين الناس لأنهم أحرصهم على حياة، ولكن اليهود هم أحرص مِن أحرص الناس على حياة.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ كما يرجع إلى اليهود، كذلك إلى الذين أشركوا، أم هو

راجع إليهم، ثم اليهود يودّ أحدهم لو يعمر أكثر من ألف لأنهم أحرص منهم على حياة[1].

و﴿لَوْ﴾ هنا للتمني لا الاستحالة، حيث سمعوا أو رأوا من عُمِّر ألف سنة أو يزيد، فلأنه شاذ بعيد يتمنونه مزيداً في الشهوات.

أتراهم بعدُ ليس لهم تقليب الاقتراح في هذه المباهلة: إن كانت لكم المسلمين الدار الآخرة خالصة عند الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، أم ولترضوا أن نقتلكم عن بكْرَتِكُم تخلُّصاً إلى نعيم الجنة الخالصة عن هذه الدار المحفوفة بالبلاء؟.

كلّا! حيث الرسول والمسلمون معه لم يدَّعوا لأنفسهم خالص الدار الآخرة دون شرط، فـ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾[2].

فلم يدَّعوا لأنفسهم خالص الدار الآخرة، ولا دون شرط ولا دون الناس، بل ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[3] ثم منهم من يتمنّى الموت دون مقتٍ للحياة، بل هيماناً للقاء الله دون تعرض للقتل أو الموت فإنه محرم في شرعة الله، بل تجب عليهم مقاتلة الكفار المضللين.

ومنهم من لا يتمناه بغية الحصول على استعداد أكثر للموت، تحصيلاً لمزيد الثواب، وقضاءً على مزيد العقاب، فكيف - إذاً - يقلّب عليهم السؤال وهم ليسوا بمدعين دعواهم الخاوية الفوضى الجزاف؟

---

(١) الدر المنثور ١ : ٨٩ عن ابن عباس في الآية قال هو قول الأعاجم إذا عطس أحدهم: زه هزار سال - يعني ألف سنة.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٢٤، ١٢٥.

(٣) سورة النجم، الآية: ٣٩.

ثم ﴿عِندَ ٱللَّهِ - خَالِصَةً - مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ - ﴾ هي ثالوث منحوس في دعواهم، فـ ﴿عِندِ ٱللَّهِ﴾ هي منزلة خاصة منقطعة النظير، و﴿خَالِصَةً﴾ هي الخلاص عن شريطة العمل الصالح، والخلاص عن أي شوب من العقاب والخلاص عن شركاء، و﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ اختصاص لهؤلاء الناس دون سائر الناس، والقرآن طارد هذه الدعاوى الخاوية، فكيف يقلّب السؤال على أهله؟.

ثم في ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ تحدٍّ سافر على هؤلاء المدعين، وملحمة غيبية أن ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ وقد كان لهم أم لأحدهم أن يتمنوه تغلّباً في هذه المباهلة على الرسول، ولكنهم لم يتمنوه ولن! تخوفاً من وقوع الواقعة، وذلك من قضايا المباهلة حين لا تنفع أية حجة، وكما حصلت مراراً وتكراراً ومنها مباهلته ﷺ مع نصارى نجران.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾:

لقد عاد هؤلاء الحماقى الأنكاد - فيمن عادوا - جبريلَ، لما نزّل القرآن على نبي غير إسرائيلي؟ ثم لماذا نزل عليه نكايات على أهل الكتاب؟ ولماذا نزل عليه بشارات التوراة وكتب الأنبياء بحقه؟ ولماذا يُطلع محمداً على أسرارنا؟

وذلك - في الحق - كُفْرٌ بالله الذي أرسله لما أُرسل بما أرسل.

لقد قالوا للرسول ﷺ في حوار دار بينهم أنت الآن فحدثنا مَن وليك من الملائكة فعندها نتابعك، أو نفارقك، قال ﷺ: وليِّيٌ جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلّا هو وليه، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة لاتبعناك وصدقناك، قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: هو

عدوّنا، فأنزل الله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ - إلى قوله - كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) «فعند ذلك باؤوا بغضب على غضب»(٢).

ومن عدائِهم لجبريل أنهم ما أبقوا له ذكراً في كتابات الوحي إلّا أربعاً تفلتت عنهم، في «دانيال ٨: ١٦ و٩: ٢١» من العهد العتيق، ثم في «لوقا ١: ١٩ و٢٦» من العهد الجديد، ثم لا نراه يذكر في الأسفار الخمسة التوراتية ولا في سائر كتابات العهدين ولا مرة واحدة، وهو الملك العظيم، حامل الوحي إلى رسل الله، لا يمكن أن يترك اسمه في هذه الكتب المذكورة فيها أسماء الكثير ممَن هم دونه أم لا يحسبون بشيء!.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠١.

(٢) نور الثقلين ١: ١٠٦ في العلل بإسناده إلى أنس بن مالك عن النبي ﷺ حديث طويل قال فيه لعبد الله بن سلام وقد سأله عن مسائل أخبرني بهن جبرئيل عليه السلام آنفاً، قال: هل أخبرك جبرئيل؟ قال: نعم قال: ذلك عدوّ اليهود من الملائكة، قال: ثم قرأ هذه الآية . . .
وفي الدر المنثور ١: ٨٩ - أخرج الطيالسي والفرياني وأحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن عباس قال: حضرت عصابة اليهود نبي الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلّا نبي، قال: سلوني عما شئتم ولكن اجعلوا إلى ذمة الله وما أخذ يعقوب على نبيه لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني، قالوا: فذلك لك، قالوا أربع خلال نسألك عنها، أخبرنا أي طعام حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وأخبرنا كيف ماء الرجل من ماء المرأة وكيف الأنثى منه والذكر، وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم ومن وليه من الملائكة، فأخذ عليهم عهد الله لئن أخبرتكم لتتابعني فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، قال: فأنشدكم بالذي أنزل التوراة هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً طال سقمه فنذر نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه كان أحب الطعام إليه لحمان الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها؟
فقالوا: اللّهم نعم، فقال: اشهدوا، قال: أنشدكم بالذي لا إله الّا هو هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ وأن ماء المرأة أصفر رقيق فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، إن علا ماء الرجل كان ذكراً بإذن الله وإن علا ماء المرأة كان أنثى بإذن الله؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد قال: فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن النبي الأمي هذا تنام عيناه ولا ينام قلبه؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد عليهم، قالوا أنت الآن فحدثنا من وليك . . .

ثم المذكور فيما ذكر يعبر عنه بـ «الرجل جبرائيل» (٩: ٢١) مهما جاء في «لوقا»: وقال إن جبرائيل الواقف قدام الله (١٩) و«أرسل جبرائيل الملاك من الله...» (٢٦).

ولقد ذكر في القرآن بهذا الاسم مرات ثلاث، هنا وفي الآية التالية لها وفي التحريم (٤): ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

وهو مذكور مرات عدة في الذِّكر الحكيم باسم «الروح القدس - الروح الأمين - الروح من أمره» ولاسمه ﷺ صيغ سبع: جِبْرِيل - جَبْرِيل - جبرئيل - جِبرائل - جِبرائيل - جَبرايل - جِبرين[1]، والأصح هو صيغة القرآن المتواترة «جِبريل» المعربة عن الأصل العبراني «جِبرائيل» وكأنها مركبة من «جابر - أيل».

وجابر: العبرانية: גָבַר - بمعنى: «قَدرَ - اقتدر - اشتد - تجبَّر - زاد - ساد - تقوَّى - تغلَّب - تفوَّق - أخضع» كما و«أيل» هو الله، إذاً فـ «جبريل» هو قدرة الله وقَدَرُهُ واشتداده وتجبره وزيادته وسيادته وتغلبه وتفوقه وإخضاعه، وكلّ هذه المعاني تناسب ساحة جبريل فإنه مظهرٌ لهذه الأسماء الحسنى الربانية تكويناً وتشريعاً، فإنه وسيط الوحي إلى رجالات الوحي، ومن وسطاء التكوين، وقد يصح تفسيره بـ «عبد الله»[2] ولأن العبودية الخاصة الخالصة لله تجعل العبد وسيطاً بين الله وخلقه.

﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ﴾ لأنه نزل على قلبك ما نزّل ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ

---

(١) الأولى هي القراءة المتواترة في كتب القرآن وهي قراءة سائر القراء والثانية: ابن كثير والثالثة: حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم، ثم الصيغ الأربع الأخرى هي لغات فيها.

(٢) الدر المنثور ١: ٩١ - أخرج الديلمي عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: اسم جبريل عبد الله واسم ميكائيل عبيد الله واسم إسرافيل عبد الرحمن، وكل شيء راجع إلى «إيل» فهو معبد لله.

قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ دون هواه أم هوى سواه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ في أصل الوحي كسلسلة موصولة بين رسل الله، وفي البشارات المحمدية، ثم ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بهذه الرسالة السامية، إذاً فلماذا يُعادى؟ لكنّه إسرائيل!.

«وَيْحَكَ أجهلت أمر الله، وما ذنب جبريل إن أطاع الله فيما يريده منكم، أرأيتم ملك الموت أهو عدوّكم وقد وكلّه بقبض أرواح الخلق...؟»(١).

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾:

فإن عداء ملائكة الله ورسله وجبريل وميكال وأضرابهم عداءٌ لله وذلك كفر بالله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

---

(١) نور الثقلين ١: ١٠٣ في الاحتجاج قال أبو محمد الحسن العسكري عليه السلام: قال جابر بن عبد الله: سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله بن صوريا غلام أعور يهودي، تزعم اليهود أنه أعلم بكتاب الله وعلوم أنبيائه، عن مسائل كثيرة تعنّته فيها فأجابه عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما لم يجد إلى إنكار شيء منه سبيلاً فقال: له يا محمد! من يأتيك بهذه الأخبار عن الله تعالى؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: جبريل، فقال: لو كان غيره يأتيك بها لآمنت بك، ولكن جبرئيل عدوّنا من بين الملائكة، فلو كان ميكائيل أو غيره سوى جبرئيل يأتيك بها لآمنت بك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ولِمَ اتخذتم جبرئيل عدوًّا؟ قال: لأنه ينزل بالبلاء أو الشدة على بني إسرائيل، ودفع دانيال عن قتل بخت نصر حتى قوي أمره وأهلك بني إسرائيل، وكذلك كلّ بأس وشدة لا ينزلها إلّا جبرئيل، وميكائيل يأتينا بالرحمة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ويحك أجهلت أمر الله... أرأيتم الآباء والأمهات إذا وجروا الأولاد الكريه لمصالحهم يجب أن يتخذهم أولادهم أعداء من أجل ذلك؟

لا! ولكنكم بالله جاهلون، وعن حكمته غافلون، أشهد أن جبرئيل وميكائيل بأمر الله عاملان، وله مطيعان، وأنه لا يعادي أحدهما إلّا من عادى الآخر، وأنه من زعم أنه يحب أحدهما ويبغض الآخر فقد كذب، وكذلك محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام أخوان كما أن جبرئيل وميكائيل أخوان، فمن أحبهما فهو من أولياء الله، ومن أبغضهما فهو من أعداء الله، ومن أبغض أحدهما وزعم أنه يحب الآخر فقد كذب وهما منه بريئان والله تعالى وملائكته وخيار خلقه منه برآء.

إن الرسالة الملائكية والبشرية هي سلسلة موصولة بين الله وخلقه تكويناً وتشريعاً، فالكافر بعقد واحد من هذه السلسلة كافر بها كلِّها، والكافر بها كافر بالله، وإذا كان كفَر العداء لله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾.

و«ميكال» معرب «ميكائيل»: مَن هو كمثل الله؟ استفهام إنكار على من يشبّه بالله، وما أحلاه اسماً لملكٍ من ملائكة الله يحمل جانباً عظيماً من توحيد الله!.

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

آيات بينات الدلالة على أنها ربانية، وبينات المدلول كما يناسب الفطرة والعقل والحاجية السلمية الإنسانية ﴿وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ﴾ كفراً وكفراناً[١] في أي حقل من بيّناتها ﴿إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن قشر الإنسانية ولُبِّها، والمتخلفون عن عقليتها وفطرتها ومصلحياتها.

و﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ بتعريفها كأنها تعني المعروفين بالفسق بين الأمم الكتابية وسواها، المتعرق فيهم الفسوق فإنهم «إسرائيل»!.

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

﴿عَهۡدٗا﴾ مع الله كما عاهد عليهم الله أم عاهدوه، أم ﴿عَهۡدٗا﴾ مع عباد الله ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ من قلة أو ثُلة ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بالعهد والمعهود له، ومن العهد الرباني الإيمان بالرسول الأمي:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾:

---

(١) طالما الباء في الكفر تعدية وفي الكفران سببية أو مصاحبة، أن يكفر كفران بسبب الآيات أو مصاحبتها.

هنا ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ المنبوذ ليس هو القرآن فحسب، بل والتوراة وسائر كتابات الوحي أيضاً، حيث البشارات المحمدية فيها تترى بشأن القرآن ورسوله، فَنَبْذُ القرآن نَبْذٌ لما بين يديه من كتاب، ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ﴾ وهم الفرقة المتعصبة المحرّفة ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه رسول من عند الله وكتابه كتاب الله، وهما معروفان لديهم وَضَحَ النهار في جلٍّ كتابات الرسالات أم كلِّها.

ثم فريق ثان هم الأميون الذين لا يعلمون الكتاب إلّا أماني «نبذه» وهم لا يعلمون جهل التقليد المقصر، ثم فريق ثالث هم القلة القليلة منهم صدقوه وآمنوا به وهم يعلمون فيعلمون.

و﴿فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هنا تعريض عليهم، أنهم على معرفتهم بوحي الكتاب وبشاراته بهذه الرسالة الأخيرة ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ - ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[1]!

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾:

إنها من أطول الآيات البينات بعد آية التداين، يتيمة في مضمونها ككلٍّ، لا نظيرة لها في القرآن كله، حاملة حملة عنيفة على اتِّباعهم ما تتلو الشياطين على ملك سليمان من الكفر وتعليم السحر وما أُنزل على الملكين، فما هي مادة هذه التلاوة الكافرة الساحرة؟ وكيف أُنزل السحر على

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

الملكين؟ وكيف يُفرّق به بين المرء وزوجه بإذن الله؟! وهل السحر هو فسق عملي، أو أنه كفرٌ بالله؟ فالساحر - أيّاً كان - كافر؟!.

هؤلاء الحماقى الأنكاد، النابذون كتاب الله وراء ظهورهم وهم يعلمون، هم أولاء اتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وقد تلت على ملكه كفراً وسحراً، فما هي هنا «تتلو على»؟ أهي القراءة؟ وصيغتها الصريحة «تقرأ»! أم هي الاتّباع؟ وصيغتها الصالحة: «تتلو مُلك سليمان» كما ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾[1]! أم هي الكذب على؟ ولفظها الصحيح:

«تكذيب على»! قد تعني «تتلو على» مثلث التلاوة، قراءة على ملكه من شيطنات، تجعل ملكه أمام السامعين مُلكَ الشياطين، واتباعاً على ﴿مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ﴾ بعضهم البعض ضد ملكه، وكذباً على ملك سليمان[2].

وقد تلوا على ملك سليمان ذلك الثالوث المنحوس، نسبةً له إلى الكفر السلطوي الشركي كما نجده حرفاً بحرف في العهد العتيق، كما تلوا على ملكه السحر لعله ينقضه، وكأن ملكه كان بسحر، وكذبوا على ملكه أكاذيب يتبرأ عنها شلائطة الناس فضلاً عن نبي كسليمان عليه السلام.

وإليكم طرفاً مما تلوه على ملكه ودُسَّ في كتابات منسوبة إلى أنبياء بني إسرائيل، فشيطنةُ الوحي هذه خليطة بربانية الوحي التوراتية:

نموذج عارم عن الدسّ والتجديف في التوراة ضدَّ سليمان:

«. . .أصبح سليمان في سلطانه مثرياً للغاية فأخذ في السَّرف والتَّرف

---

(١) سورة الشمس، الآيتان: ١، ٢.

(٢) فإن «تلى على» تعني قرأ، أم كذب اعتباراً ان «على» للضرر، وكذلك اتبع على، حين تعني «على» الضرر لا التعدية حتى تختص بالقراءة.

والتعيُّش الممنوع أكيداً في (تث ١٧: ١٦ - ١٧) ولقد هدّده الله ووبّخه في رؤياه الثانية، فرغم أن يتعظ استكبر وتساهل في أمر ربه ونسي ربه» (١ ملوك ١ - ٩ و٢ - أيام ٧: ١١ - ٢٢) «أخذ يعاشر ويعاشق النساء الغريبات اللّاتي منع الله من عشرتهن فنكح منهن سبعمائة بالعقد الدائم وثلاثمائة منقطعاً، فاجتذبن وأمَلْنَ قلبه عن ربّه إلى أنفسهم وهو على كهولته وشيخوخته نحى نحوهن وحذى حذوهن لحدٍّ بنى لكل واحدة منهن مذبحاً للأوثان على الأتلال» (١ ملوك ١١: ٨ وسخميا: ١٣: ٢٦) «ولذلك غضب الله عليه وفرق ملكه من بعدُ جزاءَ كفره وفسوقه!».

و«كثرة النساء محرمة على الملوك كما في التوراة (تث ١٧: ١٧) وكذلك نكاح الوثنيات (خروج ٣٤: ١٦ وتث ٧: ٣ و٤) فضلاً عن الانجراف في ميولهن الشركية أن يبني على الأتلال معابد الأوثان!».

«وهكذا انحرف في سلطانه وقدرته عن العدل وبالنسبة لرعيته حيث أجبرهم على خدمته وظلمهم في الخراجات الثقيلة المحرجة، لحدٍّ اضطر المظلمون المحطَّمون أن يتظلموا إليه جهاراً في جلوس يربعام» (١ ملوك ١٢: ٣ - ٢٠) مقابل مع (اصموئيل ٨: ١٠ - ١٨) هذه ولها نظائر يستحي القلم عن سطرها ك «إن داود الملك ولد سليمان من التي لأوريّاه» (متى ١: ٦) وهي امرأة ذات بعل، فقد جمع سليمانُ العهدين بين كلّ كفر عقائدي وعملي، وهو مع ذلك نبي ملك! و«هو الذي بنى البيت المقدس فاتخذه الله ابناً له» (أيام ٢٨: ٦ - ٧) وأمر ناتان النبي أن يدعوه: يَديديا - أي: محبوب الرب (صموئيل ١٢: ٢٥) وانتصبه الله خليفة أبيه داود قبل ولادته (١ - أيام ٢٢: ٩ - ١٠) فأصبح ملكاً نبياً في العشرين من عمره (١ ملوك ٢: ١٢ و٣: ٧ و٢ - أيام: ١) - وتجلى له ربُّه في رؤياه قائلاً: سل ما شئت فسأله الحكمة فوهبها وزيادة هي المُلك والسلطان (١ ملوك ٣: ٤ -

٥ و٢ - أيام ١: ١٣ - مقابل مع: أمثال.: ١١ - ١٦ ومتى ٦: ٣٣)!!...

هذه الشطحات الزور والشيطنات الغُرور هي مما ﴿تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾.

ثم القرآن يصفه بأجمل الأوصاف في سلطته الزمنية، والروحية الرسالية كما في الأنعام والأنبياء والنمل وص وسواها، مما يقلُّ مثيله في المرسلين الملوك والملوك من المرسلين![1].

وهنا ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ حالاً من الشياطين، تعني أنهم حال كفرهم - بما تلوا على ملك سليمان - يعلمون الناس السحر، فهو من قضايا الكفر، ولقد كان مما تلوه على ملكه أنه إنما ملك ما ملك بالسحر، فلنملك نحن أو نملّك بالسحر، نكراناً لاصطفاء الله له في هذه السلطة الزمنية إلى الروحية الرسالية! إذاً فتعليم السحر وتعلمه كفرٌ أو على هامشه، وأما ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾؟.

لا شكّ أنهُ أنزل على هذين الملكين السحر، ولكنه أنزل عليهما ما أنزل إبطالاً لسحر الشياطين وليس تعليماً للإفساد، فكما أن تعليم الآية المعجزة لموسى إبطالاً لسحر السحرة واجب رسالي، فلتكن معرفة المعجزة واستعمالها إبطالاً للسحر واجباً أم راجحاً إيمانياً، وكما القرآن - بأحرى - يبطل أي سحر!

فـ «ما» في ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾: و﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ قد تكون نافية تعني: ما أنزل سحر الشياطين على الملكين وإنما أنزل عليهما مبطل السحر مهما كان سحراً ولكنه من نوع آخر يبطل الأوّل، فهو - إذاً - أقوى من الأوّل، ثم

---

(١) راجع كتابنا «عقائدنا» في مقارنة سليمان القرآن والعهدين ٤٢٧ - ٤٤١.

و﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ إبطاله ﴿مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ امتحاناً لكم وابتلاء ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ باستعماله في الباطل، وإنما في حق الإبطال لباطل سحر الشياطين ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾.

وكون «ما» الأولى موصولة لا يرجع إلى معنى صالح، اللّهم إلّا بحذف الواو عن ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ فالمعنى: والسحر الذي أنزل على الملكين ما يعلمان به من أحد... فإنه ليس إلّا إبطالاً للسحر.

ذلك، وأبعد منه عن المسرح كون «ما» فيهما موصولة، أو الأولى نافية والثانية موصولة، مهما دخلت هذه الثلاث في حساب المليون ومائتين وستين ألف احتمالاً بضرب كلّ المحتملات في كلٍّ من مقاطع الآية بعضها في البعض، حيث الاكثرية الساحقة لا تناسب أدب اللفظ أم المعنى أم كليهما.

ثم هاروت وماروت وهما ملكان، كانا يظهران - بأمر الله - بهيئة الإنسان ببابل فيعلِّمون الناس المبتلين بسحر الشياطين سحراً أقوى منه يبطله ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ سحرهما النازل عليهما إلّا بحجة رادعة قارعة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ ولكنهم كانوا يبدِّلون الحسن سوءاً والخير شرّاً ككلّ من يستعملون نعمة الله في نقمة حيث يبدلونها نَعمة ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ فـ «يفرِّقون به - دون - يفرِّق به» تلمح أن ذلك السحر كان لإبطال التفرق، وكما يأتي منه التفريق أيضاً حسب مختلف استعمالاته، كما اللسان القادر على الإفصاح قد يوفق بين المتخاصمين وأخرى يفرق بين المتحابين(١).

---

(١) نور الثقلين ١ : ١١٤ في الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل وفيه قال السائل له: فمن أين علم الشياطين السحر؟ قال: من حيث عرف الأطباء الطب، بعضه تجربة وبعضه علاج، قال: فما تقول في الملكين هاروت وماروت، وما يقول الناس بأنهما يعلمان السحر؟ قال: إنهما موضع ابتلاء وموقف فتنة بتشبيحهما اليوم لو كان فعل الإنسان كذا =

هؤلاء الأنكاد كانوا يستعملون آلة الخير في الضر بالناس، ويخيّل إليهم أنهم هم الضارون به بعيداً عن إذن الله، حال أنهم - كضابطة عامة في كلّ ضرٍّ وشرٍّ أم خير - ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أترى الله يأذن بتأثير الضرِّ تكويناً ما لم يسمح به تشريعاً وهو تناقض؟ هنا الضر بإذن الله ليس إلّا بعد تكملة الاختيار من أصحاب الضرِّ والشرِّ، فلا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين، وكما لا جبر في فعل الخير أو تركه، كذلك لا جبر في فعل الشرِّ أو تركه، وهكذا التفويض، فأمر بين أمرين في هذين الأمرين، أن المقدمات لكلّ فعل اختياريٍّ، منها اختيارية يختارها الفاعل، ثم الإذن التكويني الخاص بالله - قضيةَ توحيد الأفعال - هو الذي يُبرز عملية الاختيار إلى الوجود، فقد يأذن الله تحقق محاولات الشرّ، إذ لولاه لكان الشرير مسيّراً في ترك الشرِّ، كما في كلّ شرير واصلٍ إلى شرّه، وهذه ضابطة عامة تحلّق على الخيرات والشرور.

وقد لا يأذن - لأمور طارئة، حكمة من الله، أم لصالح فيمن يُؤمَن عن الشرّ، أم هما كما لم يأذن الله للنار أن تحرق إبراهيم، وهو يأذن لها أن تحرق كضابطة عامة سارية المفعول عند الشرائط الخِلقية.

إذاً فـ «لا مؤثر في الوجود إلّا الله» ولكن دون جبر أو تفويض في الأمور الاختيارية، فإنما الفعل يصبح اختيارياً للفاعل، أو الترك للتارك، إذا كانت بعض مقدماته اختيارية، مهما كان الاختيار درجات أو دركات في

= وكذا لكان كذا وكذا، ولو يعالج بكذا وكذا لصار كذا أصناف السحر، فيعلمون منهما ما يخرج عنهما فيقولان لهم: إنما نحن فتنة فلا تأخذوا عنا ما يضركم ولا ينفعكم، قال: أفيقدر الساحر أن يجعل الإنسان بسحره في صورة الكلب أو الحمار أو غير ذلك؟ قال: هو أعجز من ذلك وأضعف من أن يغيِّر خلق الله، إن من أبطل ما ركبه الله وصوره فهو شريك الله في خلقه تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

الخيرات والشرور، حسب عديد المقدمات كثرة وقلة، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[(١)].

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ من الشياطين، فإنهم يعلّمون الناس السحر ضَرّاً، أم من الملكين، مهما علّموهم ما ينفعهم إبطالاً لضرّ السحر وشرّه، ولكنهم بسوء اختيارهم يستعملونه في الشرِّ بدلاً عن إبطاله.

والسحر هو كسائر العوامل الخفية - الطبيعية - عن جلّ الناس، يؤثر أثره حين يأذن به الله، والعلوم الباحثة عن خفيات التأثيرات الغريبة متشجرة - وهي في نفس الوقت متشاجرة - واعرف ما تداول منها: السيمياء - الليمياء - الهيمياء - الريمياء - والكيمياء[(٢)]، وهي مشتركة في كونها من

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) فالسيمياء هو العلم الباحث عن تمزيج القوى الإرادية بقوى مادية خاصة للحصول على غرائب التصرفات في الأمور الطبيعية، كالتصرف في الخيال المسمى بسحر العيون وهو من أبرز مصاديق السحر، والليمياء هو الباحث عن كيفية التأثيرات الإرادية باتصالها بالأرواح القوية العالية كالأرواح الموكلة بالكواكب والحوادث وغيرها بتسخيرها أو باتصالها واستمدادها من الجن بتسخيرهم ويسمى بفن التسخيرات.

والهيمياء هو الباحث عن تركيب قوى العالم العلوي مع العناصر السفلية للحصول على عجائب التأثير وهو الطلسمات، فإن للكواكب العلوية والأوضاع السماوية ارتباطات مع الحوادث المادية كما أن العناصر والمركبات وكيفياتها الطبيعية كذلك، فلو ركبت الأشكال السماوية المناسبة لحادثة من الحوادث كموت فلان وحياة فلان وبقاء فلان مثلاً مع الصور المادية المناسبة أنتج ذلك الحصول على المراد وهذا معنى الطلسم.

والريمياء هو الباحث عن استخدام القوى المادية للحصول على آثارها بحيث يظهر للحس أنها آثار خارقة بنحو من الأنحاء وهو الشعبذة، وهذه الأربعة مع الكيمياء - الباحث عن كيفية تبديل صور العناصر بعضها إلى بعض كانت تسمّى عندهم بالعلوم الخمسة الخفية . . .

(تفسير الميزان نقلاً عن الشيخ بهاء الدين العاملي) ثم يستمر قائلاً: ومن العلوم الملحقة بما مرّ علم الأعداد والأوفاق وهو الباحث عن ارتباطات الأعداد والحروف للمطالب ووضع العدد أو الحروف المناسبة للمطلوب في جداول مثلثة أو مربعة أو غير ذلك على ترتيب مخصوص، ومنها الخافية وهو تكسير حروف المطلوب أو ما يناسب المطلوب من الأسماء =

السحر، مختلفة في أسبابها وتأثيراتها وأبعادها في النفوس وواقع الحياة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ السحر من الشياطين الضارّين به، أو الناس المشترين إياه منهم، أم هما معاً ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ ونصيب ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ إذ شروها بيعاً بثمن السحر الضار، فأبقوا نفوسهم بتعلم السحر والإضرار به، واستحقوا العقاب، ويْكأنهم رضوا بالسحر ثمناً لنفوسهم، إذ عرّضوها بعمله للهلاك، وأبقوها لدائم العقاب، وكانت كالأعلاق الخارجة عن أبدانهم بأنقص الأثمان وأدون الأعواض.

أولئك الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار. جهنم يصلوها وبئس القرار!

هذا ما يتسابق إلى الفهم من مغزى الآية بصورة تجريدية صالحة لفظية ومعنوية، والقرآن حمال ذو وجوه فاحملوه إلى أحسن الوجوه.

فـ «الشيطان» هنا تعمُّ شياطين الجن والإنس، ومن الآخرين هؤلاء العلماء السوء الذين دسّوا في كتابات الوحي ما يمس من كرامة الساحة الرسالية لسليمان وأضرابه من المرسلين.

فقد كفر شياطينُ الجن إذ ألقوا إليهم ما ألقوا، وكفر هؤلاء التلاميذ إذ دسّوا في كتب الوحي ما دسّوا.

وما قصة نازل السحر على الملكين إلّا بلية صالحة لغربلة الناس، ليظهر ناسهم عن نسناسهم، فيعرفون أنفسهم ويعرفهم الناس، كيف هم يبدلون

= واستخراج أسماء الملائكة أو الشياطين الموكلة بالمطلوب والدعوة بالعزائم المؤلفة منها للنيل على المطلوب، ومنها التنويم المغناطيسي وإحضار الأرواح وهما كما مرّ من تأثير الإرادة والتعرف في الخيال واشتهار أمرها يغني عن الإشارة إليها هاهنا والغرض مما ذكرنا على طوله إيضاح انطباق ما ينطبق منها على السحر أو الكهانة.

نِعمةَ الله كفراً، ويستغلونها في الضرّ والشرّ؟. كما و﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[1] وإلى سائر الابتلاءات والفتن الربانية.

ولقد كثرت رواة هذه القصة وقلّت رعاتها، اهتماماً بأيّة رواية، وتغافلاً عن أيّة رعاية، ولا يصدَّق منها إلّا ما صدقه كتاب الله، أم - ولأقل تقدير - لم يكذبه ولم يأت برهان لتكذيبه، فقد يحتمل إذاً صدقه.

هذه القصة وأضرابها مما تمتُّ بصلة إلى إسرائيل هي مسرح الأكاذيب والمختلقات الزور الغُرور، التي يدسّها بين أحاديثنا الغَرورُ، ولا أصل لنا أصيلاً نصدر منه ونرجع إليه إلّا القرآن العظيم.

وكثير من هذه الأحاديث - كغيرها - الواردة في مطاعن الأنبياء وعثراتهم، هي مما دسّته اليهود في أحاديثنا، كما وأعانهم عليها قوم آخرون من المسيحيين ومنافقي المسلمين، وجهالهم البسطاء!.

والقرآن ينفصح عما دسوا وأخفوا، ويفضح ما صفوا فيه ودفوا، فإنه مهيمن على ما بين يديه.

إنهم كفروا بذريعة الإيمان والأمان، وطغوا فيها بديلاً عن التُّقى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

﴿وَلَوْ﴾ الأولى تحيل إيمانهم وتقواهم، كما الثانية تحيل علمهم بمثوبة الله، وهما استحالتان بالاختيار: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٢) سورة الصف، الآية: ٥.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٠﴾ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ

يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾:

﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صيغة سائغة في القرآن لقبيل الإيمان، يختص بها المؤمنون بهذه الرسالة الأخيرة، وهذه هي المرة الأولى في القرآن حسب التأليف - دون التنزيل - ونجدها في القرآن زهاء خمس وثمانين مرة.

ثم الأمم الأخرى حسب التعبير القرآني هم بين: قوم - أصحاب - بني... ناس - وأضرابها، مما يبرز شرف هذه الأمة الأخيرة على ما قبلها، ولأن إيمانها أشرف إيمان بين مؤمني الأمم بأسرها.

﴿رَاعِنَا﴾: في لغة المسلمين لا تعني إلّا: انظرنا رعاية لحالنا، وهي - ليًّا باللسان - في لغة إسرائيل: سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع أمّا شابه نقيضاً لإسلاميتها، واليهود المتعودون على تحريف الكلم من بعد مواضعه

(١) سورة النساء، الآية: ٤٦.

كانوا يستعملون هذه الصيغة السائغة لقبيل الإيمان، كصيغة لقبيل الكفر، متظاهرين أنها كالأول، مستهزئين بالرسول ﷺ والمؤمنين، فنهى الله المسلمين أن يقولوها ابتعاداً عن ذريعة إسرائيلية إلى بغية لئيمة، وكذلك عما تعطيه ﴿رَاعِنَا﴾ من هيِّن المعنى وهو إدارته الحفظ مع تولي الأمر، وليس هي على الرسول ﷺ وإنما عليه البلاغ ثم النظر إلى المبلَّغ إليهم كيف يعملون؟.

إذاً ففي ﴿رَاعِنَا﴾ ذريعة إسرائيلية لعينة، ومزرأة إسلامية مُهينة، ولكن ﴿انظُرْنَا﴾ نظراً رسالياً كشهيد على المرسل إليهم، ذلك تعبير نظيف حفيف.

﴿وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ سمعاً لمقالات الرسالة، وتطلُّباً من الرسول أن ينظر إليهم نظر الرقابة هل عملوا بما سمعوا، أم هل وعوا ما سمعوا، ليطابق الوعي البلاغ، ويوافق العملُ ما بلَّغ، تكميلاً لنقص الوعي، وتقويماً في التطبيق.

فهذا هو المطلوب من الرسول بعد البلاغ، دون الرعاية لأحوالهم وكأنه هو الشارع، فليخفِّف عنهم في شرعته، ففي تركهم قول ﴿رَاعِنَا﴾ سدٌّ على ثغرة إسرائيلية، وآخر على مجهلة إسلامية.

ثم ﴿رَاعِنَا﴾ عربياً مفاعلة من الرعاية، طلباً لها، فقد يعني ليَّها بألسنتهم ليَّ التعبير كـ ﴿رَاعِنَا﴾ يعنون بها أن الرسول ما هو إلّا راعي الإبل فينا دون رسالة أو ميِّزة أخرى؟.

أم ﴿رَاعِنَا﴾ من الرعونة بحذف أداة النداء «يا راعنا» مدللاً فيما تدعيه من الرسالة؟.

أم ليّ المعنى إيهاماً بها للمساواة كـ: أرعنا سمعك لنرعيك أسماعنا؟.

أم ليّاً فيهما، ففي التعبير ليٌّ يحرِّف ﴿رَاعِنَا﴾ عن عربيته مثل «رَعناً»:

حمقاً، ثم المعنى كخليفة له: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾[١] كما في آيتها الأخرى تفسيراً لها؟ ولا نجده في ليٍّ عربي إذ لم يكن يعني إلّا الرعونة وراعي الإبل وأين هما من مثلث المعني هنا؟.

وعلّهم كانوا يجمعون بين اللّيين، جمعاً للمعنيين اللئيمين، والقرآن يكتفي في آيته الثانية بالثاني.

وقد بدل الله هنا «عصينا» بـ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ - ثم ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ بـ ﴿وَٱسْمَعْ﴾ و﴿وَرَٰعِنَا﴾ بـ ﴿وَٱنظُرْنَا﴾ إصلاحاً شاملاً كاملاً يسد إلى ثغرة إسرائيلية: ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾[٢] ثغرةً إسلامية: جهلاً في الدين، وقد يناسب ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ تفسيراً لـ ﴿وَرَٰعِنَا﴾ في ليِّها، بأنها من الرّعن، وهي في العبرانية: الحمق، إن كانوا يقولون «رَعناً» أي: حَمقاً، وحمق الرسول ﷺ - وعوذاً بالله - طعن في الدين عن بكرته، فإن الشرط الأوّل للرسالة هي العقلية البارعة للرسول، وقد يروى عن الإمام الباقر عليه السلام: «هذه الكلمة سبٌّ بالعبرانية إليه كانوا يذهبون»[٣] «يقولون راعنا يريدون شتمه»[٤].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٦. (٢) سورة النساء، الآية: ٤٦.

(٣) نور الثقلين ١: ١١٥ عن المجمع.

(٤) تفسير البرهان عن الإمام العسكري عليه السلام قال موسى بن جعفر عليه السلام وكانت هذه اللفظة ﴿رَٰعِنَا﴾ من ألفاظ المسلمين الذين يخاطبون رسول الله ﷺ يقولون: ﴿رَٰعِنَا﴾ أي: ارع أحوالنا واسمع منا كما نسمع منك، وكان في لغة اليهود معناه: اسمع لا سمعت - فلما سمع اليهود المسلمين يخاطبون بها قالوا: كنا نشتم محمداً إلى الآن سرّاً فتعالوا الآن نشتمه جهراً فكانوا يخاطبون رسول الله ﷺ ويقولون راعنا يريدون شتمه ففطن لهم سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا أعداء الله عليكم لعنة الله أراكم تريدون سبّ رسول الله توهمون أنكم تجرون في مخاطبته مجرانا والله لا أسمعها من أحد منكم إلّا ضربت عنقه، ولولا أني أكره أن أقدم عليكم قبل التقدم والاستئذان له . . . لضربت عنق من قد سمعته منكم . . . فأنزل الله يا محمد ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [النِّساء: ٤٦] وأنزل ﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ [البَقَرَة: ١٠٤] فإنها لفظة يتوصل بها أعداؤكم من اليهود إلى سبّ رسول الله وشتمكم ﴿وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ [البَقَرَة: ١٠٤] أي: قولوا بهذه اللفظة لا بلفظة ﴿رَٰعِنَا﴾.

والحق أن «رَعناً» هو الأنسب ليًّا خفياً فيه لفظياً، ثم طعناً في الدين معنوياً، مهما ليُّوا إلى جانبه سائر اللي.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾:

التسوية بين قبيلي الكفر في ﴿مَّا يَوَدُّ﴾ تنديدة شديدة بكفار أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بهذه الرسالة السامية، فـ﴿مَّا يَوَدُّ﴾ فيهم، لها صبغة عنصرية إسرائيلية و﴿مَّا يَوَدُّ﴾ في المشركين، لها صبغة الجهالة القاحلة، المستبعدة في الأصل أن ينزل الوحي على بشر، ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ دون حبس لها وقصر على أهواء أولاء وهؤلاء، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ دون ما يزعمونه من فضل محدَّدٍ محدود، أم فضل عميم لا يختص بأحد، وجواباً عن نسخ آية رسالية أو إنسائها:

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾:

وهذه - في وجه - نظرية آية النحل ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وقد تعني آية البقرة من ﴿ءَايَةٍ﴾ ما هي أعم من آية النحل، من آية تحمل حكماً أو أحكاماً، إلى آية الرسالة في أصلها، وآية: الرسول، فهي - إذاً - مثلث الآية دون اختصاص ببعضها، والأنسب للمقام هما الأخيران، إلّا أن يُعنى من آية الحكم كلّ كتاب الوحي: القرآن، الناسخ لما بين يديه في أحكام.

وعلى أية حال فلا تعني ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ - فيما تعني - إنساء آية عن خاطر

(١) سورة النحل، الآية: ١٠١.

الرسول ﷺ مهما كانت منسوخة الحكم[(١)]، إذ سبقتها مكية كافلة لعدم نسيانه أيّة آية: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[(٢)] إقراءٌ رباني يضمنُ ألّا ينسى ما أُقرئ، و﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[(٣)] راجع إلى ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ دون ﴿تَنسَىٰٓ﴾، كما فصلناه في محله.

هنا يخرّ سقف المختلقات الزور من آيات يدعى أنها كانت من القرآن ثم نسخت أو أُنسيت عنه وعن خاطر الرسول ﷺ - يخرّ سقفهم من فوقهم وينهدّ صرحهم[(٤)].

---

(١) ومن الإسرائيليات المختلقة الزور هنا ما في الدر المنثور ١ : ١٠٤ - أخرج جماعة عن ابن عباس قال: كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل وينساه بالنهار فأنزل الله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ﴾ وفيه عن قتادة قال: كانت الآية تنسخ الآية وكان نبي الله يقرأ الآية والسورة وما شاء الله من السورة ثم ترفع فينسها الله نبيه فقال الله يقص على نبيه: ما ننسخ . . .

(٢) سورة الأعلى، الآية: ٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.

(٤) كما في الدر المنثور ١ : ١٠٥ - أخرج جماعة عن أبي موسى الأشعري قال: كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها غير أني حفظت منها لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوفه إلّا التراب، وكنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات أولها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الحديد: ١]، فأنسيناها غير أني حفظت منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصّف: ٢] فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة وفي نقل آخر عن أبي موسى نفسه: قال: نزلت سورة شديدة نحو براءة في الشدة ثم رفعت وحفظت منها: إن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، وفيه عن أبي واقد الليثي قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوحي إليه أتيناه فعلمنا ما أوحي إليه، قال: فجئته ذات يوم فقال: إن الله يقول: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو أن لابن آدم وادياً لأحب أن يكون له الثاني ولو كان له الثاني لأحب أن يكون إليهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب ويتوب الله على من تاب. ولقد نسب إليه فيما يروى عن بريدة أنه قرأ هذه الجملات في صلاته كأنها آيات؟!

أقول: وحتى الطفولة في معرفة القرآن تضحك على هذه العبارات، فأين هي في ألفاظها ومعانيها من القرآن. إن هي إلّا إسرائيليات تعني للقرآن ما عُني لكتاباتهم المحرفة!

﴿ءَايَةٍ﴾ هنا هي آية الرسالة والآية الرسول، أم وآية تحمل حكماً، ونسخ الآية الأولى وإنسائها هو نسخ الآيات المعجزات البصرية، حيث نسخت بآية القرآن بصيرةً خالدة تمشي مع الزمن، والقرآن الآية خير من كلٍّ آيات الرسالات صورة ومادةً ومدةً، نسخت تلكم الآيات وأَنْسَتْها، وكما نجد القرآن في عشرات من آياته يتحدى الناكرين بنفسه، ويجعله كافية عن سائر الآيات الرسالية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾(١)!

كما وأن الآية الرسولية محمد ﷺ نسخت الرسل السابقين أو أنستهم، لأنه جمع كلَّ فضائل الرسل والرسالات وزيادات، لحدٍّ هم يعتبرون تَقدِمات لمجيء هذا الرسول ﷺ، كما يُعتبر وحيهم الرسالي بجنب وحيه وصيةً.

ثم الآيات الأحكامية الناسخة في القرآن - وهي قلة قليلة - قد أتى الله بها خيراً من المنسوخة أو مثلها في الأثر الصالح للأمة الأخيرة، وقد يجري ذلك في آيات الإمامة إلّا في الإنساء فإنهم معروفون على مدار الزمن، وقد يصدق ﴿بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ في صاحب الأمر، كـ﴿مِثْلِهَآ﴾ في سائر الأئمة خلفاً لسلف(٢).

ثم الآيات الرسالية قبل القرآن، هي كذلك، لا تأتي آيةٌ لاحقة منها إلّا ناسخة للسابقة أو مُنسِيَةً، وهي خير منها أو مثلها، والقصد من الآية الرسالية تثبيت الرسالة، كلٌّ حسب المقتضيات والمصالح التي قد لا يعلمها إلّا الله،

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.

(٢) نور الثقلين ١ : ١١٥ عن أصول الكافي علي بن محمد عن إسحاق بن محمد عن شاهديه بن عبد الله الجلاب قال: كتب إلى أبو الحسن عليه السلام في كتاب: أردت أن تسأل عن خلف بعد أبي جعفر وقلقت لذلك فلا تغتم فإن الله عز وجل لا يضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبيّن لهم، ما يتقون، وصاحبكم بعدي أبو محمد ابني وعنده ما تحتاجون إليه يقدم ما يشاء الله ويؤخر ما يشاء ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾. قد كتبت بما فيه بيان وقناع لذي عقل يقظان.

فليست الآية الرسالية - وكما الرسولية - لتُحصَر في واحدة، وتُحسر عن سواها، بل هي محلّقة على كلِّ ما هو الأصلح للرسل والمرسل إليهم، دلالة قاطعة على رسالاتهم.

وهنا مقابلة ﴿نَنسَخْ﴾ بـ ﴿نُنسِهَا﴾ تجعل النسخ إزالة الحكم مهما بقي في العلم، وتجعل الإنساء إزالة عن العلم كما أزيل حكمه، ومهما عمت ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ مثلث الآيات، فلا تعمها ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ فقد تُنسى آية رسالية أم رسولية بين أمة لاحقة، ولكن لا تُنسى آية حكمية عن خاطر رسول، حكماً له أو لمن قبله، ولا سيّما محمد ﷺ حيث ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[١].

إن مشكلة النسخ كانت مشكلة كتابية إسرائيلية، إحالة له أحياناً، ونكراناً له أخرى، سواء أكان نسخاً لآية رسالية ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[٢].

أم آية رسولية كالرسالة الإسماعيلية الناسخة للرسالات الإسرائيلية، فرغم البشارات المحمدية في كتبهم أنكروه لمَّا جاءهم لأنه ليس إسرائيلياً.

أم آية أو آيات أحكامية، كما القرآن بالنسبة لما بين يديه، والإنجيل بالنسبة للتوراة في أحكام، ولا يعني النسخ الأحكامي - وكما النسخ الرسالي والرسولي - تجهيلاً لساحة الرب أنه عَلِم بعد جَهلٍ، إنما الناسخ بيان لأمد المنسوخ، كما الآيات المنسوخة القرآنية تلمح بنفسها أنها لأمد سوف يبيّن[٣] فالحكم المنسوخ إن كان محدداً بحدٍّ معلوم أم غير معلوم،

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

(٣) فمثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ... فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥] والسبيل هنا هي التي تحملها آية النور: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

كان الناسخ بياناً للمجهول في غير المعلوم حدّه، وتوضيحاً للمعلوم والحكم الآتي بعده.

وإن لم يكن محدَّداً بحدّ فهو مطلق فيه، كان الناسخ كتقييد لإطلاقه وقتياً، إذاً فلا نسخ في الشرعة - في نفسها أو لشرعة أخرى - بمعنى التعارض، بل هو - ككلٍّ - بيان لانتهاء حكم سابق وابتداء حكم لاحق.

وفي ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ برهان قاطع لا مرد له أن الآية الثانية - أيّاً كانت - لا تقل عن الأولى، بل وقد تزيد، آية رسولية أم رسالية أم أحكامية، فلا يصح القول بتقديم الأقدم من أولي العزم وتفضيله على لاحقة، فإمّا هما على سواء، أم اللاحق خير من سابقه كما يصدق تماماً في خاتم النبيين ﷺ.

و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ تعمّ مثلث الرسالة وحيثها وحيثيتها مادة ومدة، عدّة وعدّة.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه مثلث الآيات رسالية ورسولية وأحكامية:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ فيهما لا تخص بخطاب الرسول ﷺ اللهم إلّا من باب إياك أعنى واسمعي يا جارة، بل هو كلٌّ من يأهل لذلك الخطاب العتاب، المعترض على نسخ آية أو إنسائها، أو المتلبّك فيه.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾:

هذه تؤيد أن ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ في آية النسخ تعني - كأصل - آيتي الرسالية

والرسولية، إذ كانوا يستبعدون نسخها إلى شاكلة أخرى غير السابقة المتعوّد عليها في الرسالات، كما و﴿أَمْ﴾ إضراب عما سبق من تساؤلٍ جوابُه آية النسخ، إذ تعنتوا متثاقلين متسائلين في هذه الآية الرسالية والرسولية.

و﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ هو مثل سؤال الرؤية: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً...﴾[١]: وقالوا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً...﴾[٢] وكما برزت هذه الإرادة السيئة في أسئلة جاهلة قاحلة من المشركين: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا... أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾[٣] [٤].

ولأن ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ تشمل أهل الكتاب والمشركين، فالسؤال - إذاً - يعمهما كما الأول للأولين والآخر للآخرين[٥].

ولقد آل أمر التساؤل التجاهل لحدّ سألوا الرسول ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ذات أنواط، وهي شجرة كان المشركون يعبدونها ويعلقون عليها التمر، وكما سأل بنو إسرائيل موسى: ﴿اجْعَل لَّنَا

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٢.

(٤) الدر المنثور ١: ١٠٧ عن ابن عباس قال قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه أو فجّر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك فأنزل الله في ذلك ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٠٨].

(٥) تفسير البرهان ١: ١٤١ قال الإمام العسكري عليه السلام قال علي بن محمد بن علي بن موسى الرضا عليه السلام: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ بل تريدون يا كفار قريش واليهود ﴿أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ ما تقترحونه من الآيات التي لا تعلمون فيه صلاحكم أو فسادكم ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [البَقَرَة: ١٠٨] واقترح عليه لما قيل له ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البَقَرَة: ٥٥].

إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ كما وتطلّبوا منه ﷺ ألّا يكسر اللّات - مهما كسر سائر الأصنام - حتى يؤمنوا!.

وترى الخطاب في ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ تشمل - فيما شملت - المسلمين؟ اللهم نعم، قضيةَ الإطلاق، ولكنه - فقط - لحدّ إرادة السؤال دون واقعة، ثم اللّهم لا، في واقع السؤال، حيث الإيمان لا يلائم هكذا سؤال، اللهم إلّا من المنافقين، وكما في أضرابهم من الكتابيين.

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ﴾ يقبل الكفر بدلاً ﴿بِالْإِيمَانِ﴾ في مسرح التبادل بين الكفر والإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ تجارة خاسرة، حاسرة عن أية عائدة.

هؤلاء يتبدلون الكفر بالإيمان لأنفسهم ويودون آملين نفسَ القصة للمؤمنين:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾:

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾(١) ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾(٢).

إعلان صارخ عن كيد لئيم يكيده كثيرٌ من أهل الكتاب جموعَ المؤمنين ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ تمنياً باطلاً قاحلاً في ودّهم المضلّل «يردونكم كفاراً» ولماذا؟

﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ لا جهلاً بحقكم، فإنما مجال الحسد منقبة لا

(١) سورة النساء، الآية: ٨٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٤.

ينالها الحاسد أم لا يريد نيلها ولكنه يراها منقبة، وذلك ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ و«هم» يعمهم وأهل الحق، ويا للعجب أن هؤلاء الحماقى في الطغاة يودّون لو يردونهم كفاراً، والحق مبين لهم وللمؤمنين، فقد ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾[1] ويودون أن يتحول المؤمنون أمثالَهم، شيطنة مدروسة مدسوسة بين قبيل المُؤمنين من هؤلاء الشياطين، فما داؤهم - إذاً - وما دواؤهم؟ فهل يحاربهم قبيل الإيمان، ذوداً عن أنفس مؤمنة بسيطة سريعة التأثر بالدعايات المضادة؟ أم عفواً وصفحاً في العجالة حتى يأتي الله بأمره؟!:

﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وكيف يعفى عن تلكم الدعاية المضللة الخطرة، أم كيف يصفح عن الساعين في الأرض فساداً؟ ونفس العفو والصفح دليل حاضر القوة الدافعة والمحارِبة!.

إنه ليس العفو عنهم والصفح إلّا مصلحة وقتية ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ فهو مطلق العفو المحدّد بإتيان أمره وليس العفو المطلق مهما بلغ أمر الكيد والإفساد منهم.

ولقد دافع الله عنهم سوء هذه الدعاية اللئيمة والشكيمة - فيما دافع[2] - بما أخبر رسوله والمؤمنين بكيدهم هذا، فلا تجب قتالهم كدفاع عن إفساد

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٣: ٢٣٦ روي أن فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس ونفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد: ألم تروا ما أصابكم، ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلاً، فقال عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد، قال: فإني عاهدت أني لا أكفر بمحمد ما عشت، فقالت اليهود: أما هذا فقد صبأ، وقال حذيفة: وأما أنا فقد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخواناً، ثم أتيا رسول الله ﷺ وأخبراه فقال أصبحتما خيراً وأفلحتما، فنزلت هذه الآية.

العقيدة، فإنما أمِر بالعفو والصفح لمصلحة ربانية، علّ منها أن يعلم أهل الكتاب بفضحهم في كيدهم، والمسلمون على قوتهم وعلمهم بذلك الكيد اللعين أمروا بالعفو والصفح، علّهم يحيدون عما يكيدون آئبين إلى ربهم، ثم بعد ردحٍ يؤمر بقتالهم حيث الإياس عن نُبهتهم: و﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ منه أمر السياسة الصالحة وجاههم حين لم يرتدعوا ولم يرعووا، ومن أمره الآتـــي: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[1].

وهنا الأمر بعد حدّه الزمني محدّد بسلوب أربعة، انتهاء إلى استسلامهم ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ دفعاً للجزية بعد انتهاء شرّهم.

كما ومن أمره أمر هدايته لمن اهتدى بعد ضلالٍ، وارتدع بعد دلالٍ، فـ «أمره» يعمّ التكوين والتشريع، اللذين لم يكونا حاضرين حالاً فيحضران استقبالاً.

ويا لمقابلة أسوأ السوء بالحسن لعلّهم يرتدعون أم يهتدون، وليعلموا أن الله يردع المؤمنين عن قتالهم وهم أقوياء أمام هؤلاء الضعفاء الأغوياء، الذين جمعوا كلّ شرّ وضرٍّ في ذوات أنفسهم:

﴿وَدَّ ... لَوْ يَرُدُّونَكُم ... حَسَدًا ... مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾! والحسد هو ذلك الانفعال الأسوأ الأسود الرديء الذي فاضت به نفوس اليهود تجاه الأمة المسلمة وما زالت تفيض، منبعثة منه كلّ دسائسهم وتدابيرهم اللئيمة في كل دوائر السوء ضد الأمة المرحومة، وقد كشف القرآن لنا منها لنعرفه فنحذرهم، وقد يروى عن النبي ﷺ قوله: «إن لنعم

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

الله أعداء، قيل: وما أولئك؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله»[1].

وهنا - في الوقت الذي تتجلّى للمؤمنين هذه الشكيمة اليهودية - يدعو القرآن أتباعه إلى الارتفاع عن المقابلة بالمثل، توجهاً إلى الصفح والعفو ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ آمراً لهم بالمضي في طريقتهم المختارة:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾:

فلا يزعزعهم ذلك الخطر الحادق عن ركني الإيمان عملياً: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وبصورة عامة تقديم كلّ خير عقائدي وعملي لهذه الأنفس الطيبة المطمئنة بالله، الناظرة لأمر الله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ إذ يبقى ولا يفنى، لا أصوات الأقوال ولا صور الأعمال ولا سير النيات والأحوال ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه خافية.

فلا تعني ﴿تَجِدُوهُ﴾ - فقط - وجدان الثواب، بل وحضور نفس الأعمال الخيرة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾[2].

ثم إن في إقام الصلاة بشروطها صلة وثيقة بينهم وبين ربهم، كما في إيتاء الزكاة مادياً وروحياً وثيق الصلة بينهم أنفسهم، فلا يبقى فيهم مَنفَذ من تشكيكات العدوّ وعرقلاته كما إن ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ تحلّق على الصلتين في كافة الخيرات المأمور بها في شرعة الحق، وفي تطبيقها ضمان اللّانفوذية من الكتلة المضللة.

(١) تفسير الفخر الرازي ٣: ٢٣٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

ومن قيلات أهل الكتابين، الغيلات الويلات، التي طمأنتْهم كما يزعمون فلا يحيدون عن أية خاطئة:

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾:

وإذا انحصرت الجنة فيهما - كما يدعيها كلٌّ لنفسه - فانحسرت عمن سواهم طول تأريخ الرسالات، فأين - إذاً - مؤمنو الشرائع السابقة على شرعة التوراة والإنجيل؟ أفهم في النار على إيمانهم! أم لا في جنة ولا نار!.

فيا للحقد من طيش قاحل وحكم جاهل أن ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ كما يدعيه اليهود و﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ كما تدعيه النصارى، فلكي يطردوا المسلمين - ككّل - عن الجنة لأنهم على شرعة جديدة يطردون معهم كافة المؤمنين في كل أدوار الرسالات قبل موسى والمسيح عليهما السلام.

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ كلٌّ أمانيهم، على ما هم عليه من تخلفات عقائدية وعملية، فمجرد الجنسية اليهودية أو النصرانية تكفي لدخول الجنة فوضى جزاف! ولكن الإيمان والعمل الصالح في غيرهما لا يكفيان لدخولها! ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ فطرياً أم عقلياً أم كتابياً، أم في أيٍّ من الأعراف البشرية السلمية ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أمانيكم.

وترى كيف تكون ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ جمعاً فضلاً عن كل أمانيهم؟ ولم تأت هنا إلّا واحدة ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾!

لقد ذُكرت هنا أماني عدة هذه أخيرتها، ثم وهي تجمع كلّ أمانيهم الساقطة فإنها كخلفيَّة شاملة لها كلها.

أترى القرآن هنا يعارض دعواهم بالمثل، معاكساً تلك القولة الخاوية

أن «لن يدخل الجنة إلّا من كان مسلماً» كجنسية إسلامية تكفيها النسبة كيفما كانت؟ كلّا! وإنما:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

﴿بَلَىٰ﴾ هنا تزييف لـ﴿لَن يَدْخُلَ﴾ - ﴿بَلَىٰ﴾ يدخلها غير اليهود والنصارى، وكضابطة عامة رافضة لحواجز الجنسيات والطائفيات ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ﴾.

فإنما هو إسلام الوجه لله بكلّ الوجوه ظاهرة وباطنة، عقائدية وعملية، فردية وجماعية، ﴿أَسْلَمَ... وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إسلام الإحسان وإحسان الإسلام وهما الإسلام عقائدياً وعملياً، ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ على قَدْرِ إسلام وجهه وإحسانه ما هو مسلم محسن ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فقد يسلم مسلم وجهه لله في وجهيه وهو غير مُحْسنٍ، كالعقيدة غير الصالحة والعمل غير الصالح، أم يُحْسِن في وجهٍ واحدٍ، عقيدة أو عملاً ولا يُحْسنِ في الآخر، فهو أيضاً غير محسن، إذاً ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ يعمّ إحسان وجهي الباطن والظاهر لله دون اختصاص بوجه، أم ترك الإحسان في إسلام الوجه.

فلا بدَّ - إذاً - من إحسان وجه العلم والعقيدة والنية وسائر الطوّية، إلى إحسان وجه الأعمال، المنبثقة من الوجه الأول.

﴿بَلَىٰ﴾ هذا هو كفيل الجنة، دون أية جنسية أو طائفية أو عنصرية أو إقليمية في ذلك الإسلام، فإنما الإسلام المحسن لا سواه، سواء أكان إسلاماً في شرعة نوح وإبراهيم، أم موسى وعيسى، أم محمد صلوات الله عليهم أجمعين، بل وإسلام التوحيد المزيج، أم وغير الكتابي ما دام صاحبه مسلماً وكما يقول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ

ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١) وهم كلهم موحدون، بين مسلم وهود ونصارى - وهم كتابيون - أم عوان وهم الصابئون، أم وموحد غير كتابي كالمجوس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾(٢) فما لم يدخل فيهم ﴿ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ كان ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ثم إذ دخلوا فيهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾!.

أجـــل ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾(٣) ﴿بَلَىٰ﴾ إنما هي حكمة واحدة ثم «لا وكلا»! ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ لا للأُمنيات والهوسات الجهنمية، إنما «لله» ثم ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في إسلام وجهه، يسلمه لله كما أمر الله، مهما كان قاصراً دون تعمدٍ ولا بطّال أو متبتل في شرعة الله ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ حيث إن إسلام الوجه لله محسناً هو العروة الوثقى، مصدراً لكلٍّ خيرات الإيمان مهما اختلفت مراتبها بمراتبه حسب مختلف الحالات والاستعدادات: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ﴾(٤).

فالمسلم الذي يُسْلِم وجهه لله محسناً، له أجرهُ عند ربه، والكتابي الذي يُسْلِمُ وجهه لله مُحْسناً له أجره عند ربه، فـ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٢.
(٢) سورة الحج، الآية: ١٧.
(٣) سورة آل عمران، الآيات: ١١٣-١١٥.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[1].

أجل وإنها ضابطةٌ ضابطة كلَّ التخلفات والطاعات دونما فوضى جزاف، ضابطة في طرفي السلب والإيجاب: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2].

هذا الحبيس بخطيئته المحيطة به، فهو أعزل عن كلِّ وجهة وواجهة ربانية، إلّا وجهات الهوى الهاوية، ثم ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فأخلص ذاته وكل تعلقاته في وجهاته وواجهاته لله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في إسلامه ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ثم بينهما عوان متوسطات ولا يظلمون نقيراً.

هذا - ثم نرى بين اليهود والنصارى أنفسهم تناحراً في الكيان وتهافتاً في سند الأمان:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

تلك هي قالة كلٍّ من أهل الكتابين مناحراً لواقع الحق في البين ﴿لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الحق ولا حق من الجنة، كما ﴿لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الحق ولا حق من الجنة[3] ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ توراةً وإنجيلاً،

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨١.

(٣) تفسير الفخر الرازي ٤: ٧ روي أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله ﷺ أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين وكفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل، وقالت النصارى لهم نحوه وكفروا بموسى والتوراة.

القائلان قول الحق، وأنه الإيمان والعمل الصالح، دون طائفية قاحلة وعنصرية جاهلة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ البعيد عن ميزان الحق ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهم الأميون الذين لا يعلمون الكتاب إلّا أماني وإن هم إلّا يظنون، والمشركون الناكرون لكتاب الوحي قالوا ﴿مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾ رغم الفرق الفارق بين حكم الكتاب واللّاكتاب، فهم نزَّلوا أنفسهم منزلة الذين لا يعلمون، تجاهلاً بحق الكتاب لأهل الكتاب، أن ليسوا سواءً مع من لا يدين بكتاب ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أياً كان مما حكم به الكتاب وحياً أم حرفوه عن جهات أشراعه.

فحين يتقاذف أهل الكتاب فيما بينهم - وهم يتلون الكتاب - كيف يرجى من الذين لا يعلمون ألّا يقذفوهم أنهم - ككل - ليسوا على شيءٍ؟ وقد قذفوا كل أهل الكتاب - بمن فيهم المسلمون - أنهم ليسوا على شيءٍ!.

فليوحد أهل الكتاب كلمتهم على حق لهم أم حقايق، كيلا يرفضهم المشركون بما يتقاذفون فهم سواءٌ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾(١) - ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٦٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٩﴾(٢).

ولندرس هنا نحن المسلمين - وبأحرى من غيرنا - ألّا ننجرف في

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ٦٨، ٦٩.

منجرفات الخلافات العارمة بين الفرق الإسلامية، فكلٌّ يرمي أصحابه في الشرعة الواحدة أنهم ليسوا على شيء، ولقد سمعت مغفلاً من إخواننا في المدينة المنورة، يُسمى عميد الجامعة الإسلامية فيها يقول: إن الشيعة الرافضة شرّ من اليهود، كما سمعت مغفلاً آخر منّا في مكان آخر يقول: إن الفلسطينيين شرٌّ من اليهود! «وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ أَفَلا يَعْقِلُونَ»؟!

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾:

نرى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ - الدالة على قمة الظلم - هنا وفي ثلاث صيغ أخرى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾[١] - ﴿... مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[٢] - ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾[٣] مما يدل على أن هذه الأربع أظلم الظلم على النفس والحق وعلى الآخرين، وعلّها خاصة بالمظالم العملية لا والعقائدية.

وليس يختص بالذين منعوا الرسول ﷺ عن المسجد الحرام أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها - لمكان الجمع - مهما كان أصدق مصاديقه ممنوعاً وهو الرسول وممنوعاً عنه وهو المسجد الحرام، وممنوعاً منه وهو ذكر الله فيه[٤].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٧.
(٤) وبمناسبة الآيات السابقة المندّدة باليهود قد تعمّ اليهود، فقد كانوا يمنعون المسلمين عن الصلاة إلى المسجد الحرام بعد تحويل القبلة، أم وسعوا في تهديم الكعبة وما استطاعوا.
كما وتعمّ هدم البيت المقدس بواسطة بخت نصر وسواه من الطغاة، أم أي منع من أي مسجد أو مسجد أو سجدة وتهديم أي منها طول زمن التكليف على مدار الرسالات الإلهية.

﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ هما يحدّدان أظلم المنع، الناحيان منحى الصدِّ عن سبيل الله، وأن يُترك ذكر اسم الله، وهم - بطبيعة الحال - المشركون والملحدون أمّن نحى منحاهم في منعهم وسعيهم.

مساجد الله هي المختصة بذكر اسم الله فكيف يمنع ان يذكر فيها اسم الله؟ وإنما تعمر بذكر اسم الله والدعوة فيها إلى الله فكيف يُسعى في خرابها في حقل الذكر؟ ولا يسعى في خرابها إلّا المكذبون بالله وآياته.

فكم من ساعٍ لعمران مساجد الله في بنيانها وهو ساعٍ في خرابها من حيث إنها مساجد الله، ويمنع أن يذكر فيها اسم الله، ولا فارق بينه وبين من يهدم بنيانها، حيث المعني من خرابها تهديمها من حيث إنها مساجد الله ومحال ذكر اسم الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعيدون عن الله ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ حين كانوا أذلّاءَ صِغاراً، كما ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ حين كانوا أعزة وكباراً، فإن شرعة الحق لا تسمح لهم أن يدخلوها، وعلى أهل الحق ألّا يسمحوا لهم أن يدخلوها، إذاً فـ ﴿مَا كَانَ﴾ نهي عن أن يدخلوها على أية حال، وقد صرح المنع بالنسبة للمشركين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾(١).

﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ في شُرْعَةِ الحق وميزانه، ومنه عدم السماح لدخولهم فيها ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا أعظم منه إذ لا أظلم منهم، وإنما يقدر العذاب بقدر الظلم.

وتعني ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ إضافة إلى محال السجدة: المساجد - نفسَ السجدة وأزمنتها، اعتباراً أن ﴿مَسَٰجِدَ﴾ جمع لمثلث المسجَد والمسجِد،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

اسم مكان وزمان ومصدراً ميمياً، إذاً فهو المنع عن عبادة الله في أصلها وفي أزمنتها وأمكنتها، مهما اختصت ﴿أَن يَدۡخُلُوهَآ﴾ بأمكنتها.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿١١٥﴾﴾:

لقد تُطمئِن هذه الآية المؤمنين أنهم إن مُنعوا عن مساجد لله، فكلُّ الأرض مساجد لله، و﴿ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ بما هما الجهتان الأصيلتان تشملان كلّ الجهات ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ﴾ وجوهكم إلى الله في مساجد وسواها ﴿فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ إذ لا يختص وجهه بالمساجد مهما كانت أفضل من سائر بقاع الأرض، ولا يعني وجه الله هنا إلّا المتوجّه اليه في العبادة والدعاء، والوجه - ككلّ - هو ما يواجِه الشيءَ أو يواجَه به، وكل الكائنات مواجِهةٌ ربَّهم بكلِّ الوجهات والوجوه التكوينية، وهو مواجَه لهم فيها، وكذلك التشريعية لمن هو متشرع بشرعة من الله.

فليست الآية لتعني أن القبلة الخاصة ساقطة عن وجوب الاستقبال إليها في الصلوات، بل هي - بمناسبة آية المنع عن المساجد - توسعةٌ في أمكنة السجدة لله وقد يشهد له ﴿فَأَيۡنَمَا﴾ دون «إلى أين» وليس فرض القِبْلةِ تضييقاً لدائرة وجه الله، إنما هو مصلحة جماعية وَحْدويّة للجماعة المسلمة أن يوجهوا وجوههم إليها لوجه الله الذي ليس له زمان ولا مكان، فكما أن الوجهة المعرفية والعقائدية ثم العملية للمسلمين واحدة، فلتكن قِبْلَتَهُم في صلاتهم - كذلك - واحدة، كشعيرة ظاهرة من مشاعر الوحدة، أم إن تولي الوجه إلى الله يعمّ الصلاة وسواها من وجوه الاتجاه إلى الله، وشرط القِبْلَةِ خاص بالصلوات بدليل خاص، وهنا أيضاً يسقط شرطها عند الضرورة، فهي - إذاً - ضابطة عامة لكلّ الاتجاهات إلى الله صلاة واحدةٌ وصلات واحدة ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾، في مساجد الله وسواها، إلى القِبْلةِ وسواها، مهما كانت القِبْلة شرطاً مصلحياً في قسم من الاتجاهات إلى الله

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾ الاتجاهات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمضايقات والضرورات التي تمنعكم عن مساجده، أم عن القبلة.

فإذا صلّى لغير القبلة إذ لا يعرفها ولا يسطع، ثم تبيّن له أنه صلاها إلى غير القبلة أعادها ما لم يفت الوقت وكانت القبلة خلفه ولا يعيدها إذا فات أو كانت بين المشرق والمغرب[1].

---

(١) تدل عليه صحيحة عبد الرحمن بن أبي عبد الله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا صلّيت وأنت على غير القبلة واستبان لك أنك صليت وأنت على غير القبلة وأنت في وقت فأعد وإن فاتك الوقت فلا تعد، أقول: وقد خصّص ذلك بما كانت القبلة على ظهره في صحاح عدة. وفي التهذيب عن محمد بن الحصين قال كتبت إلى عبد صالح: الرجل يُصّلي في غيم في فلاة من الأرض ولا يعرف القِبْلة فيُصلي حتى فرغ من صلاته بدت له الشمس فإذا هو صلّى لغير القِبْلة يعتد بصلاته أم يعيدها؟ فكتب يعيد ما لم يفت الوقت أولم يعلم أن الله يقول - وقوله الحق - ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، وفي تفسير العياشي عن الباقر عليه السلام في الآية قال عليه السلام أنزل الله هذه الآية في التطوع خاصة ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، وصلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إيماناً على راحلته أينما توجهت به حين خرج إلى خيبر وحين رجع من مكة وجعل الكعبة خلف ظهره.

أقول: هذا الإطلاق يناسب التطوع كأصل كسائر الاتجاهات غير الواجب فيها الاستقبال إلى القبلة وكما يناسب الفرض عند الضرورات، وهو على آية خاص مخصوص بغير فرض الصلاة، أم مطلق على الوجه الأول في ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ [البَقَرَة: ١١٥].

وفي الدر المنثور ١: ١٠٩ - أخرج البخاري والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنمار يصلي على راحلته متوجهاً قبل المشرق تطوعاً، وعنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلّي على راحلته قبل المشرق فإذا أراد أن يصلي المكتوبة نزل واستقبل القبلة وصلى.

وفيه عن عامر بن ربيعة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ليلة سوداء مظلمة فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً فيصلي فيه فلما أصبحنا إذا نحن قد صلينا على غير القِبْلة فقلنا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقد صلّينا ليلتنا هذه لغير القِبْلة فأنزل الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البَقَرَة: ١١٥] فقال صلى الله عليه وآله وسلم: مضت صلاتكم، وفيه أخرج الدارقطني وابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سرية كنت فيها فأصابتنا ظلمة لم نعرف القبلة فقالت طائفة منا: القبلة هاهنا قبل الشمال فصلّوا وخطّوا خطاً وقال بعضنا: القبلة هاهنا قبل الجنوب فصلّوا وخطّوا خطاً فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسكت فأنزل الله، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾. =

وعلى أية حال فالآية ضابطة تعمُّ الكون كلّه لأمكنة الصلاة، واتجاه المصلي فيها، مهما خصت في خاصة الموارد بنص الكتاب أو السنة، وهي ما أمكن الاتجاه فيه إلى القبلة حيث الأمر بتولي الوجوه شَطْرَ المسجد الحرام في آيته يخص المتمكن، ثم تعم غيره ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟﴾.

وقد تكون صلتها بالآية السابقة أن اليهود كانوا يعترضون على الرسول ﷺ والمسلمين هامَّةَ تحويل القبلة من القدس إلى المسجد الحرام، وإن صلاتهم - إذاً - باطلة إذ لا يتجه إليهم ربهم إلّا إلى القِبْلَةِ التي كانوا عليها، فرد الله عليهم بما رد، أن له تحويل القبلة ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[1] [2] وطبعاً كما يأمر الله.



= أقول: وقد استفاض الحديث عن الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته عليهم السلام أن «بين المشرق والمغرب قبلة» وطبعاً هذه التوسعة لمن لا يعرف القبلة ولا يستطيع أن يصلّي مرات إلى جهات، أو تأكد من القبلة وهو خاطئ وقد خرج الوقت.

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

(٢) نور الثقلين ١: ١١٨ في الاحتجاج للطبرسي قال أبو محمد عليه السلام قال رسول الله ﷺ لقوم من اليهود: أو ليس قد ألزمكم في الشتاء أن تحترزوا من البرد بالثياب الغليظة وألزمكم به في الصيف أن تحترزوا من الحرّ فبدا له في الصيف حين أمركم بخلاف ما أمركم به في الشتاء؟ فقالوا: لا فقال رسول الله ﷺ: فكذا لكم الله تعبدكم في وقت بصلاح يعلمه بشيء ثم تعبدكم في وقت آخر لصلاح آخر يعلمه في شيء آخر فإذا أطعتم الله في الحالتين استحققتم ثوابه فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البَقَرَة: ١١٥] يعني: إذا توجهتم بأمره فثم الوجه الذي تقصدون منه الله وتأملون ثوابه.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾:

﴿وَقَالُوا﴾ كلّ مَن قالوا من مختلف صنوف المشركين واليهود والنصارى ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ وظاهر الاتخاذ هنا هو التبنّي و﴿سُبْحَانَهُ﴾ أن يتبنّى ولماذا؟ ألكي يكون أزراً له ومعيناً؟ ولا يحتاج إلى أَزْرٍ ولا معينٍ! ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مِلكية حقيقية، فماذا يفيده اتّخاذ ولد؟ ثم و﴿كُلٌّ لَّهُ

قَـٰنِتُونَ﴾: مطيعون لسلطته التكوينية وخاضعون، فما هو دور اتِّخاذ الولد - لو أمكن - لربنا؟ وهو مستحيل في نفس الذات!.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾:

الخلقُ البديعُ هو ما ليس له مثال يُحتذى، فكما المادة الأولية لا مثال لها قبلها، كذلك ولائدها المتطورة من سماوات وأرض، فإنها خُلِقَتْ من غير مثال، والولد - متَّخَذاً أو حقيقياً - له مثال على أية حال، فالوالد بأجزائه الروحية والبدنية مثال للولد المنفصل عنه، فليس بديعاً منه و«إن الله عَزَّوَجَلَّ ابتدع الأشياء كلها بعلمه على غير مثال كان قبله فابتدع السماوات والأرض ولم يكن قبلهن سماوات ولا أرضون...»[١].

والمتبنِّي غير ولده يتبنّاه بمثال له من أولاد آخرين، وهو في الحالتين بحاجة اليه فـ ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ برهان أوّل على أنه تعالى ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ من اتخاذ الولد فضلاً عن أن يلد، ثم ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ برهان ثان على أنه لم يلد ولن يلد، وعلى هامشه استحالة اتخاذه ولداً.

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ فليس ليلده أو يتخذه ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وقوله فعله!.

والقضاء هنا يعني إرادة التكوين «فإرادته للفعل إحداثه لا غير ذلك لأنه لا يروِّي ولا يهمُّ ولا يفكر وهذه الصفات منفية عنه وهي من صفات الخلق، فإرادة الله هي الفعل لا غير ذلك، يقول له كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف لذلك كما أنه لا كيف له»[٢].

---

(١) نور الثقلين ١ : ١١٩ في أصول الكافي بسند عن سدير الصيرفي قال: سمعت حمران بن أعين يسأل أبا جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ عن قول الله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: ١١٧] أما تسمع لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هُود: ٧].

(٢) تفسير البرهان ١ : ١٤٦ عن الكافي عن صفوان بن يحيى قال قلت لأبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: =

فقضاء أمره في الخلق الأوّل خلقه لا من شيء، ثم في سائر الخلق خلقه مما خلقه، وفي كلا الخلقين ليس منه إلّا الإرادة، دون حاجة إلى ما يحتاجه خلقه من محاولات ومساعدات.

ومن شؤون اتخاذ الولد لله سبحانه خرافة وحدة حقيقة الوجود - الإغريقية، التي نشبت في الفلسفة الإسلامية وترسبت فيها، فإن الفلسفة الإسلامية - ومع الأسف - تأثرت بأصداء الفلسفة الإغريقية في أصول لها وهذه منها، والبراهين العقلية ونصوص الكتاب والسنة معسكرة على أن الخلق غير الخالق فإنه ليس كمثله شيءٌ، باين عن خلقه وخلقه باين منه، لا هو في خلقه ولا خلقه فيه، فليس الكون إشعاء ذاتياً من خالق الكون فإنه ولادة وليس خلقاً بديعاً، ولا هو صورة مرئية لكونه أو تجلٍّ منه، فإن هذه ولادة مهما اختلفت صورها، تبدلاً للخالق - بكلِّه أو جزء منه أو مرتبة من كيانه - إلى المخلوق، حيث الولادة - ككل - هي التبدل - ككلّ - سبحانه وتعالى عما يشركون.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾:

فلقد كذب الله وشتمه من اتخذ له ولداً وكما يروي الرسول ﷺ عن الله: «كذبني ابن آدم ولم ينبغ له أن يكذبني وشتمني ولم ينبغ له أن يشتمني، أما تكذيبه إيّاي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أوّل الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتّخذ الله ولداً وأنا الله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»[١].

= أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق؟ فقال: الإرادة من المخلوق الضمير وما يبدو بعد ذلك من الفعل، وأما من الله فإرادته.

(١) الدر المنثور ١: ١٠٩ - أخرج البخاري وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن =

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ علّهم هنا هم المشركون المنقطعون عن وحي السماء، أم وكلّ المجاهيل في معرفة الله ووحيه، فقالتهم الأولى: ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ لو أنه يكلم بشراً كما يدعيه محمد والمرسلون قبله، فلماذا هذه التكلُّفات بوساطات الوحي، المعرقلة مسير الكثير ومصيرهم، فلو أنه كلَّمنا دون وسيط لكنا مؤمنين(١)، والثانية كتنزل التنازل عن الأولى: ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٌۗ﴾ كما أرسل الأولون، وما نقترحه عليه من آية؟.

«كذلك» البعيد البعيد ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ على مدار الزمن الرسالي ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ المقلوبة كلمة واحدة في القالة الأولى، وطلباً لما يشتهون من آيات الرسالة في الثانية، والجواب كلمة واحدة ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الرسالية في كلِّ أدوارها ﴿لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ بها فمن لا يوقن بآيات الله إذا جاءَت، لا تتبين له آية، وحتى لو كلمه الله، وكما كلم الله قائدهم الشيطان الرجيم بما كلم، فرد عليه وإبليس عن أمره إلى هواه!.

وتراهم كيف يصدقون كلام الله لو أنه كلمهم الله، وليس ليريهم ذاته،

= أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ يقول الله: . . . وفيه عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً يشرك به وهو يرزقهم ويعافيهم.

وفي نور الثقلين ١ : ١١٩ في العلل بإسناده إلى سفيان بن عيينة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لم يخلق الله شجرة إلّا ولها ثمر تؤكل فلما قال الناس: اتخذ الله ولداً - ذهب نصف ثمرها، فلما اتخذوا مع الله ولداً شاك الشجر.

(١) المصدر ١١٠ عن ابن عباس قال قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ: يا محمد! إن كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله في ذلك ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قال: هم كفار العرب ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ قال: هلا يكلمنا الله ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ يعني اليهود والنصارى وغيرهم ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [البَقَرَة: ١١٨] يعني العرب واليهود والنصارى وغيرهم.

ثم لا يتم الاختيار لو أن الله أوحى إلى كلٍّ ما يوحى!: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[1].

فالذي يَجِدُ رياحة اليقين وراحته في قلبه، مفتوحاً إلى آياته بمنافذه، يَجِدُ في آيات الله مصداق إيقانه وإيمانه، فليست الآيات لتُنْشِئَ اليقين بأنفسها، وإنما ينشئُ في قلوب صافية ضافية، مهما كانت الآيات بعيدة الدلالة في مقياس الآخرين.

ولقد أصبحت كفار اليهود والنصارى، الناكرون لهذه الرسالة السامية، متشابهي القلوب مع الذين لا يعلمون، بل وأنكر وأنكى وهم يتلون الكتاب، عارفين طبيعة الوحي وشاكلته، فإذا جاءهم الوحي القمة أنكروه قضية العصبية القومية والعنصرية.

لقد تشابهت قلوب المشركين الذين لا يعلمون، وأهل الكتاب الذين يعلمون، إذ أصبحت مقلوبة عن الهدى، مليئة بالهوى، فابتليت بأمثال هذه الأسئلة الجاهلة.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾:

﴿إِنَّا﴾ بجمعية الصفات الربانية ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ بجمعية العطيات جمعيةَ الميِّزات الرسالية ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ مزوداً ببينات الآيات، فإذا حققت البشارة والنذارة كما حقّت ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ الرافضين لآياتك ودعواتك الرسالية، فلا تحزن عليهم لولا يؤمنون، ولا على نفسك لأنهم لا يؤمنون، فلست أنت - كرسول بشير نذير - مسؤولاً عن أصحاب الجحيم، لماذا لم يؤمنوا؟ وإنما تسأل لو كنت مقصراً في دعوتك، على تقصيرهم في قبولها والإقبال إليها، وقد بلغت القمة في دعوتك، ثم لا عليك أن يصبحوا من أصحاب الجحيم.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٣.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾:

قد تلمح ﴿وَلَن تَرْضَىٰ﴾ أن الرسول ﷺ كان يدأب محاولاً ترضية اليهود والنصارى حتى يؤمنوا، فآيسه الله أولاً بإحالة رضاهم إلّا أن يتحول إلى ملتهم، وثانياً ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾ بتهديد شديد، فليس الحق ليَقبل أنصاف حلول ولا جعل البلد بلدين، أو الشطر شطرين، فـ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الحماقى الأنكاد، المحاولين لتحويلك إلى ملتهم ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ وليست هي الهوى، فامض في صراط الحق، وامش في دعوتك صارحة ناصحة ناصعة، ولا تتحول عن هدى الله قيد شعرة، وإن وعدوك - إذاً - اتّباعك في ملة الحق، فليس الباطل - أيّاً كان - ليُتذرّع به إلى الحق، فإمّا حقاً وإمّا باطلاً ولا عوان في مِلّةِ الحق!.

وكيف تتبع أهواءَهم ليتبعوك وهم عارفوك بما عرَّفهم إياك في كتب السماء:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾:

هناك باطلُ تلاوة الكتاب، كالتي للأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلّا أماني وإن هم إلّا يظنون، والتي للمحرفين الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم، فهم لا يؤمنون بالقرآن ونبيه وهم يعلمون.

ثم الذين ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ كما أنزله الله وقصده، إيماناً به خالصاً دونما شائبة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ لا سواهم منهم ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾[1]

(١) سورة هود، الآية: ١٧.

شركية وكتابية فإن تلاوة كتاب الوحي تحمل على الإيمان بالقرآن من زاويتين اثنتين، زاوية الأُنس بالوحي فوحي القرآن آنس، وأخرى هي البشارات القرآنية المحمدية في كتابات الوحي، وفي كلٍّ منهما كفاية للإيمان بهذه الرسالة السامية.

ولأن التلاوة - لا سيّما المجردة عن حروف جارّةٍ كما هنا - هي المتابعة، فهي هنا «يتبعونه حق اتباعه»[1] وما حقُّ اتباعه إلّا بعد حق معرفته وتدبره إيماناً به فـ«إنما هو تدبر آياته والعمل بأحكامه»[2] والقصر هنا في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ نسبي في الحقل الكتابي، إذ يؤمن به من غير أهل الكتاب من يتحرون عن الحق.

ثم ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ كما تعني أهل الكتابين حيث يؤمنون بالقرآن على ضوء تلاوة كتبهم حق التلاوة، كذلك تعني أهل القرآن حيث يزيدهم حقُّ تلاوته إيماناً به.

كما ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾ تعمُّ كفار أهل الكتاب والمشركين، وكذلك كفار المسلمين وهم الذين لا يتلونه حق تلاوته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ككل ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ إذ خسروا الحق وهم على نبعته.

---

(١) الدر المنثور ١: ١١١ - أخرج الخطيب في كتاب الرواة عن مالك عن ابن عمر عن النبي ﷺ في الآية قال: يتبعونه حق اتِّباعه.

(٢) تفسير بيان السعادة ١ : ١٤١ نسب إلى الباقر عليه السلام أنه قال: يتلون آياته ويتفقهون فيه ويعملون بأحكامه ويرجون وعده ويخافون وعيده ويعتبرون بقصصه ويأتمرون بأوامره وينتهون بنواهيه، ما هو والله حفظ آياته ودرس حروفه وتلاوة سوره، ودرس أعشاره وأخماسه، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، إنما هو . . . قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، فالذين آتاهم الكتاب وشرفهم بذلك يحزنهم ترك الرعاية، والقصور والتقصير في مراعاته، والذين آتاهم الشيطان الكتاب أو أخذوه من الآباء بحسب ما اعتادوه أو تلقفوه من الرجال بحسب ما تدارسوه فإنهم يعجبهم حفظ الرواية ولا يبالون بترك الرعاية.
وفي إرشاد الديلمي عن الصادق عليه السلام مثله باختلاف يسير، مثل «يرتلون» بدلاً عن «يتلون» وليس فيه ذيله من قال الله. .

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾:

ذلك هو الهتاف الأخير ببني إسرائيل بعد طويل المجابهة في الحجاج على طول اللجاج، وهم على أبواب الإهمال والإغفال والتدجيل والإدغال، متورطين في التجرُّد النهائي عن شرف الأمانة العظمى بالنسبة للرسالة الأخيرة الكبرى.

يذكِّرهم هنا مرة أخرى بـ ﴿نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بشرف الرسالات والكتابات الإسرائيلية.

ثم ويحذِّرهم ﴿يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي﴾ وتكفي ﴿نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ على الإطلاق في نفس أو شيء سواها.

﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ بديل «ولا شفاعة» ككفيل ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ بعد هذا المثلث السليب بأيّ من الأساليب، فلا كافي ولا عدل ولا شفاعة ولا نصرة، إلّا كفاية الإيمان، وعَدلُ عمل الإيمان، وشفاعة الصالحات إيماناً وعملاً، ونصرة الله - إذاً - فيما يتبقّى من لممٍ وعصيانات.



﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

قطاعات من هذه السورة مضت بشأن الجدال مع أهل الكتاب، أكثرها مع بني إسرائيل، منذ موسى إلى محمد ﷺ، بإشارات إلى المشركين بما يلتقون فيها مع أهل الكتابين.

وفي هذه الآيات رجعة إلى مرحلة تاريخية أسبق من عهد موسى عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام فإنه الأصل الذي يتبنّاه أهل الكتابين فيما يدعون، كما وأن قريشاً كانوا إليه يرجعون، فهو المحور المرجع لذلك المثلث الكتابي

والشركي، فأحرى أن يرجع إليه إصلاحاً لما أفسدوا زعم الانتساب إليه في شرعتهم وطقوسهم.

هنا يبدأ بشريطة الإمامة الإبراهيمية، وهي الابتلاء العظيم، إمامة لها شروطها وظروفها الخاصة كنبراس شامل لإمامة الرسالة ورسالة الإمامة على طول الخط.

ذلك - وليعلم بنو إسرائيل، ألّا يرثوا الإمامة من إبراهيم كسائر الميراث الذي لا شرط فيه إلّا قرابة الدم واللحم على شروطها، فإنما هي على شرط التوفية الشاملة لكلِّ الابتلاءات الربانية وترك المظالم كلها مهما لم يكن من ذريته، أم كان منهم من إسرائيل، أم كان من بني إسماعيل حين تنقرض شروطات الإمامة في بني إسرائيل:

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾:

﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ مذكورة في سائر القرآن (٦٩) مرة في (٢٥) سورة وهي لغة سُريانية قد تعني أب الجماعة الكثيرة وقد قُرئت بأشكال تسعة[1] أثبتها وأضبطُها ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ حسب متواتر القرآن.

---

(١) والثمانية الأخرى هي: «إبراهام - إبرَهِم - ابرَهَم - ابراهِم - ابراهَم - ابراهُمُ - ابرَهوم» والظاهر أن هذه كلها إلّا لفظ القرآن سريانية أم عبرانية، والمعربة الصحيحة هي «إبراهيم»، وقد فُسّرت بتفاسير عدة كـ «أب رحيم» بريء من الأصنام هام إلى ربه - الشديد النظر - والأولان بعيدان لأنها سريانية لا تفسّر بتجزئات عربية، رغم أن ذلك خلاف التجزئة أيضاً، فأين أب من أب واين راهيم من رحيم! مهما عنت الأب الرحيم من غير هذا التحليل، وقد يعني الأب العالي كما في قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست، يعني أب الجماعة الكثيرة (التكوين ١٧ - ٤ و٥): «أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم (٤) فلا يدعى اسمك بعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأني أجعلك أباً لجمهور من الأمم (٥) وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً». وهنا نعرف أن «أب» في السريانية هو الأب و«راهم» هو جمهور الأمم.

ولماذا هنا ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ تقديماً للمفعول وهو مفضول؟ علّه اختصاصاً له بذلك الابتلاء، أم ولأن ﴿رَبُّهُۥ﴾ لا مجال له أدبياً لولا تأخيره إلّا تحريراً له كـ«ابتلى رب إبراهيم إياه» فنقصان في أدب اللفظ، أم «ابتلى ربّ العالمين - أو - الله - إبراهيم» فنقصان في حدب المعنى حيث القصد بيان ربوبية خاصة في ذلك الابتلاء.

وهنا ابتلاء رباني خاص لإبراهيم الخليل يبتليه به ربه في أُخريات حياته كما تلمح له ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فقد كانت له ذرية بعد الإياس: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾[1] فلما وهب له ذريته قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[2].

ثم ومن أهم الكلمات التي ابتلي بها فأتمها بعد نفس الإمامة هي قصة ذبح إسماعيل وهو بكر ذريته: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ... إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾[3] [4].

إذاً فقد كان ابتلاؤه بكلمات فأتمهن، وكان ذلك في أُخريات حياته النيرة، مهما شملت «كلمات» طول حياته النيرة التي كانت كلها ابتلاءات بكلمات مهما كانت درجات فـ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ تشمل ذريته من إسماعيل كما من إسحاق.

والابتلاء الرباني هو الامتحان الاختبار ليظهر بإتمامه مكنون اللباقة واللياقة، إما للمبتلي والمبتلى أمامه كما في الخلق، أم دون الأوّل كما

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٥٤.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٩.
(٣) سورة الصافات، الآيات: ١٠٢-١٠٦.
(٤) ومن ذلك ابتلاؤه بأبيه آزر ونمرود وسائر المشركين، ومن أبرز بلائه هنا إلقاؤه في النار وقول جبريل له: ألك حاجة؟ وجوابه: أما إليك فلا، وعلّ فوقه بلاءً ابتلاءه بذبح اسماعيله عليه السلام.

للخالق فإنه يعلم السرَّ وأخفى، وقد يكون الابتلاء من خلفيات اعتداء الناس قضية إيمانك أو سواه، أو من نتائج تخلفك عن شرعة الله.

ثم وليس الابتلاء الرباني الإيماني إلّا في أمور صعبة ملتوية معقدة، لا يسطع لها إلّا الأشداء الأقوياء، ويسقط دونها الضعفاء.

وإذا كان المبتلي هو الرب فالبلية هي الأشد حسب مختلف الأهداف منها بدرجاتها، ولأن الإمامة الرسالية هي القمة المرموقة من درجات الكمال، فالابتلاء الهادف إليها، المحضِّر لها، هي أصعب البليات وأنسبها لهذه الدرجة العليا.

وهنا ﴿رَبُّهُۥ﴾ دون «رب العالمين» أمّا شابه، مما تلمح صارخة أن هذه البلية بكلمات هي بلية ربانية كما تناسب الساحة الإبراهيمية وسماحتها وكما يسطع له ويليق به دونما إطاقة تزيل الطاقة.

وهي مناسبة لتلك الإمامة الخاصة التي هي فوق الرسالة والنبوة حيث جُعلت له بعدهما.

أترى - إذاً - ما هي الكلمات؟ أهي - فقط - كلمات لفظية حمِّلت عليه ليقولها؟ وليست فيها تكلُّفات وبليات! فكثير هؤلاء الذين يُكثرون من كلمات طائلة - أية كلمات - وليس لهم فيها ابتلاء، ولا هم آهلون لمعانيها ومغازيها، ولا أنهم مطبقوها! ثم التلفظ بهذه الكلمات ليس إتماماً لها: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ بل هو «قالهن» أمّا شابه.

أم هي - فقط - أعمال شاقة لا يسطع لها إلّا أقوياء بالإيمان؟ وصحيح التعبير عنها وفصيحه هو «الأعمال» أو «الصالحات» أما شابه دون «كلمات»!.

علّها هي كلمات الله التشريعية: الآمرة والناهية، الخاصة بموقف

الابتلاء الإبراهيمي، التي يخلِّف إتمامها الإمامة بإذن الله؟ ولكن ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ بضمير جمع العاقل قد لا تناسبها!.

أم هي - فقط - تطبيق هذه الكلمات بما فيها تحمل الإمامة وذبح إسماعيل فتحقق ضمير العاقل؟ إضافة إلى مواد عاقلة في سائر ابتلائه فإنها من منتوجات كمال العقل واللب.

قد تعني «كلمات» هنا كلا الأمرين الإمرين، فاستماع تلك الكلمات التشريعية ولا سيّما شرعة الإمامة، الحصيلة عن سائر الكلمات، إنه ابتلاء، وتقبلُّها دون تعنُّت وسؤال ابتلاء، وتطبيقها ابتلاء، كما وقصة أمره بذبح إسماعيل ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾[١] تشمل مثلث الابتلاء، الذي لا يخلد بخلد أي مبتلى.

فإبراهيم: كلمة الله، توجهت إليه كلمة الله - وهي أمر الله - أن يذبح إسماعيل كلمة الله، وذبحه هو كلمة الله، الدالة على قمة التسليم لله، كما وتحمل الإمامة من علياً هذه الكلمات، وهنا ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ لائقة بهذه الكلمات، فقد أتم استماع الأمر، والإيمان به، والتسليم له، ثم وتطبيقه.

ذلك! كما ومن الكلمات كلمات الله العليا الأربعة عشر المحمديون «أتمهن» إلى القائم اثنا عشر إماماً تسعة من ولد الحسين[٢].

والإتمام في ميزان الله - إن صح التعبير - هو إله الإتمام، الذي ليس فوقه إتمام.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٦.

(٢) نور الثقلين ١: ١٢٠ في الخصال عن المفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام قال: سألته عن الآية ما هذه الكلمات؟ قال: التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه وهو أنه قال: يا رب أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت علي فتاب الله عليه إنه هو التواب الرحيم، فقلت له: يا بن رسول الله فما يعني عزّ وجلّ بقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾؟ قال: أتمهن إلى القائم . . .

إذاً فكلّ الابتلاءات الإبراهيمية طول حياته النيرة تشمله «كلمات» وهي الدالات على العناية القمة التربوية الربانية فيما أمره ربه ونهاه، والدالات على قمة التسليم قلبياً إذ سلم له، والدالات على تمام التسليم وكما له إذ طبقها، و«أتمهن» هنا كما تعني أن الله أتم هذه الكلمات في إبراهيم تأييداً وتسديداً، كذلك تعني أن إبراهيم أتمهن حسب الطاقة البشرية مزودة بعصمة ربانية، ويقابله تركهن، أو انتقصهن، لا! بل «أتمهن» كما أراده الله منه، وأتمهن الله تتميماً لناقص الإرادة البشرية بعصمة إلهية.

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾:

هنا ﴿قَالَ﴾ دون «فقال»: تفريعاً للإمامة على إتمام الكلمات، لأن إتمامها ليس إلّا ظرفاً صالحاً لجعل الإمامة، لا نتيجة ضرورية مفرّعة عليه، أم ولأن من هذه الكلمات هي كلمات جعل الإمامة: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ - ومنها قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، ثم جوابه: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

فإن الإمامة ولا سيّما هذه الكبرى ابتلاء عظيم بمسؤوليتها الكبرى، ثقيلة على من يُحمّلها، عظيم حِملها بحَملها، ولكن إبراهيم عليه السلام أتمها وأتى بها كما أريد منه.

ثم ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ مما يدل على انحصار جعل الإمامة بالله، وانحساره عمن سواه، و﴿جَاعِلُكَ . . . إِمَامًا﴾ حيث اسم الفاعل عامل في مفعوليه هنا، دليل أنه جعل في الحال، حيث الفاعل الماضي لا يعمل، وأما الاستقبال فهو مجاز يحتاج إلى دليل وصدق المشتق بمادته ليس إلّا بصادق واقعها في الحال.

والإمامة بإطلاقها هي القيادة الحقة كما هنا أو الباطلة كما ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ

أَيِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[(١)] وليس المعني منها في ذلك الجعل ما دون العصمة من القيادة فإن إبراهيم معصوم حينه بأعلى درجات النبوة، وإن الله لا يجعل قيادة روحية بانتصاب لمن هو دون العصمة، فإنه قد يُخطئ أو يقصِّر أو يقْصُر، فكيف يأتمنه الله على قيادته للناس؟!.

بل وليست هذه الإمامة هنا هي الرسالة أو النبوة، فإنهما مجعولتان له ماضيتان، ونفس ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ وحياً دليل على حاضر الوحي رسالة ونبوةً، فكيف يجعله صاحبَ وحي وهو رسول، كما وهو الآن في مختتم عمره وقد آتاه الله الحكم والنبوة في شبابه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[(٢)] - ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ...﴾[(٣)] وذلك حين كان فتىً وهو يحارب الآلهة المزيفة وعُبّادها: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾[(٤)].

فلأن الإمامة هنا هي بعد كامل العبودية والنبوءة والرسالة والنبوّة والخلقة[(٥)] حيث تخطّاها إلى القمة مرحلياً كلًّا تلو الأخرى، إذاً فهي الإمامة بين المرسلين دون سائر الناس فحسب، حيث الإمامة الرسالية على الناس كانت له سابقة، فلتكن الإمامة الحاصلة بعد إتمام كلماتها هي الإمامة على المرسلين كما هم على سائر الناس.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٤١.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٣.
(٣) سورة مريم، الآيتان: ٤١، ٤٢.
(٤) سورة مريم، الآية: ٤٩.
(٥) تفسير البرهان ١: ١٤٩ عن الكافي بسند متصل عن زيد الشحام قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً وإن الله اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً وإن الله اتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً وإن الله اتخذه خليلاً قبل أن يتخذه إماماً، فلما جمع له الأشياء قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال: فمن عظمها في عين إبراهيم ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٢٤] قال: لا يكون السفيه إمام التقي.
أقول: «نبياً» هنا تؤول إلى النبوءة فبعدها الرسالة ثم لم يذكر النبوة بعدها اكتفاء بالخلة.

فكلّ رسول - غير أولي العزم الذين دارت عليهم الرحى - هو إمام أمته، وولي العزم فوقه هو إمامه، مهما كان في زمنه أم يأتي بعده، فقد جعل الله كلًّا من أولي العزم إماماً لسائر الرسل والنبيين.

فموسى إمام وكتابه إمام، وطبعاً لكافة الرسل الإسرائيليين إلّا المسيح عليه السلام: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾[1].

ثم الرسل الإسرائيليون بين الإمامين: موسى والمسيح، هم كذلك أئمة لمن دونهما: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾[2]، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[3].

وهنا مرتبة ثالثة من الإمامة الرسالية تحلّق على ولاية العزم وما دونها من رسالات هي الإمامة المحمدية السامية، المنقطعة النظير بين ملاء العالمين، من الملائكة والجنة والناس أجمعين، كما يبيّنها هكذا أمثال قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[4].

محمد صلى الله عليه وآله وسلم إضافة إلى أنه إمام سائر المكلفين، كذلك هو إمام

---

(١) سورة هود، الآية: ١٧.
(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٧٢، ٧٣.
(٣) سورة السجدة، الآيتان: ٢٣، ٢٤.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

المرسلين والنبيين، وإمام على أولي العزم من الرسل نوح وابراهيم وموسى وعيسى، كما وهو إمام على الأئمة الاثني عشر من عترته المعصومين سلام الله عليهم أجمعين، وإمام على كافة الكروبيين.

فـ ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ تعني الإمامة الوسطى، دون العليا المحمدية، ولا الدنيا الرسالية لغير من دارت عليه الرحى من الرسل.

أجل! وإنها لا تعني أية إمامة رسالية بدرجاتها، لكي تطرد رسالة آدم عليه السلام إذ ظلم بما أكل من الشجرة فغوى ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ يعني عهد الإمامة الوسطى كما لإبراهيم، وبأحرى العليا كما لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم دون سائر الإمامات في سائر الرسالات وأدناها رسالة آدم وقد ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾[١].

فـ ﴿عَهْدِي﴾ هنا هو ذلك العهد الخاص، دون أي عهد كان، فعهد الفطرة الإنسانية - المعبر عنها بفطرة الله - يناله كل إنسان، وعهد العقلية الإنسانية يناله كل عاقل، وعهد الشرعة الإلهية يناله كلّ مؤمن، وعهد الرسالة الإلهية لا يناله إلّا المصطفون مهما سبق لهم ظلمٌ مّا كآدم، ثم عهد الإمامة بين المرسلين لا ينال الظالمين، مهما كان ظلماً سابقاً مغفوراً.

وحتى إذا عنت ﴿عَهْدِي﴾ كل إمامة في مثلثها - شاملة لرسالة آدم - لم تكن ﴿الظَّالِمِينَ﴾ تعمّ ماضية الحال، بل هي حسب الوضع والاستعمال تعني الحال والاستقبال، فليكن من يُجعل إماماً غير ظالم حال جعله وحتى آخر عمره.

أترى آدم الذي ظلم بما عصى ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ هل هو طيّ هذه المراحل تشمله ﴿الظَّالِمِينَ﴾ وصفاً ماضياً بدّل إلى تمام العدل والاصطفاء؟!.

---

(١) سورة طه، الآيتان: ١٢١، ١٢٢.

إذاً فلتشمل «المشركون» كل الموحدين الذين كانوا مشركين، ثم آمنوا وأصبحوا من المقربين كسلمان أمن شابهه من أفاضل المؤمنين.

وكما ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حالاً عند جعل الإمامة خارج عن ﴿عَهۡدِي﴾ كذلك ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ استقبالاً، بمناسبة العهد الخاص الرباني الواجب ذكره على أية حال.

بل وكذلك ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ماضياً حين يكون فاحشاً كالشرك، أم أيّاً كان حين تكون الإمامة المطلقة التي تقتضي الاصطفاء المطلق بين ملإ العالمين.

فكما لا ينال عهد الإمامة الوسطى مثل آدم عليه السلام على عصمته حين اصطفائه بالرسالة، فبأحرى ألا ينال أمثال الخلفاء الثلاثة، أن يحملوا الإمامة القمة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

فالإمامة التي هي عهد خاص رباني هي القيادة الروحية، مهما حملت - واقعياً كما هو شرعياً - القيادة الزمنية.

فمهما عُنْوِن الخلفاء الثلاثة ثم الأئمة الأربعة بعنوان الإمام، فهم ليسوا أئمة يحملون شرعة الله بذلك الانتصاب الخاص بعهد خاص.

ثم ﴿عَهۡدِي﴾ هنا - وإن على القَدْرِ المتيّقن - هو عهد الإمامة الإبراهيمية وهي بعد المحمدية فضلاً عنها، و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بعد ﴿فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ هم المنتقصون الكلمات المبتلى بها، ولأن الابتلاء لإبراهيم بتلك الكلمات يحلق على كلّ حياته، فإتمامها كذلك حذو النعل بالنعل.

فكلّ من انتقص كلمة من هذه الكلمات طيلة حياته، انتقاصاً في عِدَّتها أم عُدّتها، في مادتها أم هيئتها، فقد يعد من ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين لا ينالهم ﴿عَهۡدِي﴾ هذا.

ومن أشرِّ الانتقاص هو الإشراك بالله، فكيف يجعل إماماً - بهكذا إمامة أم فوقها وهي المحمدية - من عبد وثناً ردحاً عظيماً من عمره.

فمهما لم تدل ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على الماضي، إلّا الانتقاص في تلكم الكلمات المحلِّقة على مثلث الزمان، يمنع منعاً باتاً عن جعل تلك الإمامة الكبرى.

ولم تقل «ينال عهدي العادلون» لأن العدل مهما كان ظرفاً لتأهل الإمامة لم تكن لزامه الإمامة، فقد اكتفى بالشرط السلبي وهو عدم انتقاص الكلمات في مثلث أزمنة الحياة، حيث يراد هذه الإمامة الخاصة.

إذاً فكيف يحل الإمامة المحمدية وهي المطلقة القمة، من عبد وثناً فيما مضى، لا وحتى آدم الذي عصى ربه فغوى، ولا ذا النون إذ ذهب مغاضباً...

فنادى في الظلمات ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١] ولا موسىَ ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾[٢] فضلاً عن الخلفاء الثلاثة الذين لا يسوون شسع آدم عليه السلام!.

ثم ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا يستلزم أنه يناله غير الظالمين بصورة مطلقة، وإنما هو سلب لأهلية هذه الإمامة عن الظالمين، لا وإثبات للزوم الإمامة لغيرهم، فهم إذاً من هو كإبراهيم أم فوقه، وقد تحققت الإمامة فوق الإبراهيمية لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وعترته المعصومين اللّهم إلّا لفاطمة عليها السلام حيث اكتُفي بعصمتها.

فإنما «أبطلت هذه الآية إمامة كلّ ظالم إلى يوم القيامة فصارت في الصفوة»[٣] وهم المصطفون حين جعْل الإمامة حتى الموت، مهما زادت

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

(٢) سورة النمل، الآية: ٤٤.

(٣) تفسير البرهان ١: ١٥٠ عن الكافي بسند متصل عن عبد العزيز بن مسلم في حديث فضل الإمامة قال: كنا مع الرضا عليه السلام بمرو - إلى أن قال عليه السلام: - إن الإمامة أجل قدراً وأعظم شأناً وأعلى مكاناً وأمنع جانباً وأبعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقولهم أو ينالوها بآرائهم ويقيموا إماماً باختيارهم، إن الإمامة لله عزّ وجلّ خصّ بها إبراهيم الخليل بعد النبوة والخلة=

الصفوة العليا صفوة في ماضيها، كما في حالها واستقبالها بأدلة أخرى.

أجل قد يمنع الظلم الماضي من عهد الإمامة إذا كان من كبائر الإثم والفواحش ومن أكبرها وأفحشها الإشراك بالله مهما كان مغفوراً بالإيمان، ولكنه ليس مغفوراً لمنصب الإمامة، فإن الاصطفاء، وقاعدة إمكان الأشراف، يمنعان انتصاب من كان مشركاً لمنصب الإمامة، مهما أصبح من أعدل العدول، كما والغضاضة الشركية السابقة تمنع المأمومين عن الائتمام بذلك الإمام، مهما صحت الصلاة خلفه، وصح قضاؤه وشهادته أمّا ذا سوى القيادة الروحية العليا وهي إمامة الأمة(١).

ثم ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾(٢) تنفي عن مثل آدم عهد الإمامة المعني بـ﴿عَهْدِى﴾ فليس يكفي في ذلك العهد حاضر

= مرتبة ثالثة وفضيلة شرّفه بها وأشاد بها ذكره فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فقال الخليل مسروراً بها: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأبطلت هذه الآية . . .

(١) روى الشيخ في أماليه بسند متصل عن عبد الله بن مسعود والشافعي ابن المغازلي في المناقب على ما في تفسير اللوامع ١: ٦٢٩ - بإسناده يرفعه إليه قال قال رسول الله ﷺ: وكيف صرت دعوة إبراهيم أبيك؟ قال: أوحى الله عَزَّوَجَلَّ الى إبراهيم ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البَقَرَة: ١٢٤] فاستخف إبراهيم الفرح فقال: يا رب ومن ذريتي مثلي، فأوحى الله عَزَّوَجَلَّ إليه أن يا إبراهيم إني لا أعطيك عهداً لا أفي لك به، قال: يا رب ما العهد الذي لا تفي به؟ قال: لا أعطيك عهداً الظالم من ذريتك، قال: يا رب ومن الظالم من ولدي لا ينال عهدك؟ قال: من سجد لصنم من دوني لا أجعله إماماً أبداً ولا يصلح أن يكون إماماً، قال إبراهيم: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۝٣٦﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦]، ومن ثم قال النبي ﷺ فانتهت الدعوة إلي وإلى أخي علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يسجد أحد منا لصنم قط فاتخذني الله نبياً وعلياً وصياً (تفسير البرهان ١: ١٥١).

وممن أخرجه عن ابن مسعود المير محمد صالح الترمذي الكشفي في مناقب مرتضوي ص ٤١، روى عن الحميدي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ ما ترجمه أنه قال: إن دعوة إبراهيم الإمامة لذريته لا تصل إلّا لمن لم يسجد لصنم قط ومن ثم جعلني الله نبياً وعلياً وصياً لي.

(٢) سورة طه، الآية: ١١٥.

العدالة، بل وماضيها كما في حاضرها، حتى تحل في ظرف ظريف طريف حفيف في مثلث الزمان لكلّ أبعاد العدالة.

مطلق الإمامة الشامل لإمامة الجماعة وإمامة القضاء وإمامة التقليد، لا يقتضي هذه المرتبة القمة من الاصطفاء، ولا تعني الإمامة في الآية مطلقها الشامل لها، بل هي الإمامة المطلقة لمكان «للناس» دون اختصاص بحقل أو ناس خاص، كما وأنها فيها بعد الرسالة والنبوة.

فمن يحمل قيادة الأمة الإسلامية ككلٍّ بعد إمام الأئمة محمد ﷺ ليس إلّا من أصفى الأصفياء كما محمد ﷺ في قمتهم على الإطلاق، فكيف يصح أن تشمل هذه الإمامة من عبد صنماً، كما و﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ تختص جعل ذلك العهد بالله، والخلفاء الثلاثة بعد الرسول لم يكونوا منتصبين من قبل الله، ولا هم أصفياء الأمة ككلّ، بإجماع الأمة الإسلامية ككّل!.

ثم النسبة بين هذه الإمامة والنبوة عموم من وجه، فقد يكون نبياً وليس هكذا إماماً، كآدم ومن فوقه من غير أولي العزم، أم يكون إماماً وليس نبياً ولا رسولاً، كالأئمة الاثني عشر المحمديين، أم هو إمام ونبي كالخمسة أولي العزم، أم هو إمام الأنبياء والأئمة ككلّ وهو محمد ﷺ.

ولأن أئمة أهل البيت عليهم السلام يحملون الإمامة فهم أفضل من سائر أولي العزم عليهم السلام وقد تدل على ذلك آية التطهير وما أشبه.

وترى الخليل تطلّب من ربه الإمامة المجعولة له للبعض من ذريته: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؟ علّها هي إمامة مطلقة لا مطلق الإمامة كما وأنها قضية الموقف: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾... إذاً فـ ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ تجتّث كلّ دركات الظلم، ناحية منحى كلّ درجات العدل في حياة الإمام كلها، وذلك منطبق على أئمة المرسلين بعده: موسى والمسيح ومحمد عليهم السلام، أمّن حذا حَذْوَهمُ من أئمة الإسلام المعصومين، فلا تشمل - ولأقل تقدير - مثل آدم،

الذي عصى ربه قبل رسالته فغوى، مهما اجتباه ربه - بعده - فتاب عليه وهدى.

ومن ميِّزات هذه الإمامة أن ليس يختص وحيها بالعلوم والمعارف بل وفعل الخيرات، كما والهداية بأمر الله تكوينياً وتشريعياً، فكما هم مهتدون بأمر الله فيهما، كذلك هم هادون بأمر الله فيهما، وهم عاملون الخيرات بوحي الله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[١].

وإطلاق القول ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ ضارباً إلى كلِّ أبعاد الماضي - وهي قبل الإمامة - ذلك الإطلاق يخرج كمثل آدم عليه السلام.

وفي رجعة أخرى إلى آية الابتلاء:

«و» اذكر يا إمام أئمة الهدى، الرسول المصطفى، «اذكر» ذكرى من إبراهيم الخليل عليه السلام كأفضل مَثَلٍ من أُمثولات الإمامة بالابتلاء، ولكي تكون على أهبة لابتلاء أشدّ وأقوى لإمامة هي أشمل وأنبل وأعلى، اذكر ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ فربُّك يبتليك بكلمات ويجعلك للناس إماماً على العالمين أجمع - كما جعله.!

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ إبراهيم و«أتَّمهُنَّ» ربه، وأين إتمام من إتمام، وكذلك الله يتم لك وتتمه أنت، وأين كلمات من كلمات؟

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقد جعلت أنت إماماً على النبيين ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾.

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ وكما قال موسى ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾[٢] ولكن الله

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.
(٢) سورة طه، الآية: ٢٩.

جعل لك من ذريتك أئمة يحملون أمانة إمامتك ككلّ وكما يبدو من آية التطهير، الجاعلة طهارتك القمة لأهل بيت رسالتك القدسية وهم الأئمة الاثني عشر عليهم السلام.

وقد تعني ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ قسماً منها يناسب الإمامة الإبراهيمية، ولمحمد صلى الله عليه وآله وسلم كلّ الكلمات لأن إمامته هي كلّ الإمامات: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ...﴾[1] إيماناً علمياً وعقيدياً وعمليّاً في كلّ الحقول المعرفية والعملية، دون إبقاء لكلمة يبتلى بها إلّا وأتمها كأتمّها حتى نال الإمامة الكبرى.

ولئن نال الخليل مرتبة الإمامة بعد العبودية والرسالة والنبوة والخلة كما تناسب إمامته، فقد نال الحبيب الإمامة الكبرى بعد أن أصبح أوّل العابدين: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[2] ثم أصبح آخر النبيين ورسولاً إليهم أجمعين: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[3] ثم حبيباً لرب العالمين لحدٍّ يحلف بعمره ربُّه ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[4] كما ويحلف بنفسه ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[5].

وترى الخليل - بعدُ - يتطلّب من ربّه إمامته للبعض من ذريته دون شرط إلّا أنهم من ذريته؟ وذلك بعيدٌ عن مقام الخليل أمام ربه الجليل، وقد ابتلي هو نفسه بكلمات، فكيف يدعو لذريته دون ابتلاءٍ!.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ ليست لتتعلق - فقط - بـ ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ﴾ بل وقبلها بـ ﴿ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ إذاً فلدعائه بُعدان اثنان، أن يبتلي ربه من ذريته - كما هو

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨١.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٧٢.
(٥) سورة النساء، الآية: ٦٥.

- بكلمات، ثم يجعله بإتمامهن إماماً، فأضاف ربه إليهما بعداً ثالثاً ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فلا يصلح الظالم أن يبتلي بكلمات تلك الإمامة حتى يُجعل إماماً.

وترى إبراهيم الخليل عليه السلام هو بعدُ كأضرابه من النبيين، حكمت عليه رغبة امتداد الإمامة في ذريته فسألها لهم ربه؟ ولا وراثة فيها، ولا تقدم لها فيهم لأنهم - فقط - ذرية!.

نقول هنا: إضافةً إلى أن امتداد الشخصية - زمنية أو روحية أماهيه؟ - هو رغبةٌ فطرية، أودعها الله في فطرة الإنسان، تنمية للحياة، ومضياً في طريقها المرسوم، وقد قرر الإسلام على أساسه شرعة الميراث وسائر الاختصاص في حقل التربية مادية ومعنوية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1] - ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[2] نقول إضافة إلى ذلك إنه استدعاء بشروط، دونما فوضى جزاف، ودون سلب لغير ذريته، ومن ثم فدعاؤه - كسائر فعله - إنما هو بإذن ربه ودعائه - قضيةَ التسليم المطلق لساحة الربوبية وقد عرف وحياً من ربه أن من ذريته من إسماعيل من يأهل لتلك الإمامة.

وكما في دعائه ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[3] وما البُعد الثالث لتحقيق ذلك الدعاء: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إلّا توضيحاً لسائر الأجيال في هذه الإذاعة القرآنية العالمية، وليس تفهيماً لإبراهيم، العارف شروطات تلك الإمامة الكبرى كما لمسها في نفسه.

فطالما يدعو إبراهيم إمامته للبعض من ذريته، ولكنه يشترط شرط إتمام نفس الكلمات، مما لا يحصره في ذريته، اللّهم إلّا بما أوحى إليه ربه، ألّا

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.
(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

يصلح لشروطاتها إلّا بعضٌ من ذريته كمحمد وعترته المعصومين عليهم السلام أجمعين.

وهنا ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ لا تعني إلّا البعض منهم، وهم بين عادل وظالم، فتراه أراد الظالمين منهم فقط ترجيحاً للمفضول على الفاضل! أم عنى الفريقين؟ و﴿وَمِن﴾ تبعض! فهو - إذاً - يعني العدول منهم - ولأقل تقدير - حالة الإمامة، و﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أخرجت كلّ ظالم منتقص كلمات الابتلاء، ماضياً أو مستقبلاً فضلاً عن الحال، فلم يشمل عهد الإمامة كلّ العدول حال الجعل، بل هم العدول في مثلث الزمان لقمة العدالة وهي عدم الانتقاص في الكلمات المبتلى بها هكذا إمام.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾:

﴿الْبَيْتَ﴾ هنا هو البيت العتيق: الكعبة المشرفة، والجعل هنا تشريفي تشريعي، وواقعي تكويني، في مثابته وأمنه، فما هي ﴿ مَثَابَةً﴾ وما هو «أمناً»؟

﴿مَثَابَةً﴾ هي في الأصل المثوبة اسم لمكان ﴿الْبَيْتَ﴾ أم ومصدراً ميمياً، أم وعلى هامشهما اسم زمان، فإن لإتيانه حجّاً زمان خاص، والتاء للمبالغة، فالبيت مصدر لكلّ صادر بكلِّ معاني ﴿مَثَابَةً﴾ كما هو ملجأ لكلّ حائر سادر، فهو ﴿مَثَابَةً﴾ مصدراً وزماناً ومكاناً.

ولقد أتت ﴿مَثَابَةً﴾ في مختلف المناسبات لمعانٍ عدةٍ، فلا تختصّ بواحدة دون أخرى، وقضيةُ الإفصاح البليغ في مذهب الفصاحة البالغة، أن يُؤتى باللفظ قدر المعنى المُرام، لا زائداً على المعنى ولا ناقصاً عنه، وخرافة استحالة استعمال لفظ واحد في أكثر من معنى واحد تنحل في ألفاظ الكتاب والسنة بأن للقائل مقام جمع الجمع فلا مشكلة له في هكذا استعمال

جامع بين شتات، وذلك من اختصاصات الكتاب والسنة، اختصاراً في التعبير، وعناية للمعنى الكثير.

كما وتنحل في اصطلاح من يقوم لما يستعمله من ألفاظ كلّ المعاني الصالحة في اللغة، دون حاجة إلى لحاظها ردف بعض حتى يُحيله قُوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾[1].

فمختلَف التفسير لمثابة مختلِف عن تفسيرها المعني منها دون أية حجة لواحد من معانيها، وهي:

١ - المَقام. ٢ - المرجع. ٣ - المجتمَع. ٤ - الممتَلئ. ٥ - المَلجأ. ٦ - المأتي متواتراً. ٧ - المُقبَل. ٨ - المتاب. ٩ - محل الثواب. ١٠ - المنتَبه. ١١ - المستقى. ١٢ - مجتَمع الماء... ويضرب مثلث الصيغة من ﴿مَثَابَةً﴾ إلى المعاني الاثني عشر تُصْبحُ معانيها المعنَّية ستة وثلاثين مهما اختلفت عنايتها في درجات، وأين هي من معنى واحد لا دليل له، وهو في نفس الوقت خلاف الفصيح بل وغير صحيح!.

أجل إنه ١ - مقام الإسلام ومنطلَقه، ومَقام المسلمين بكلّ انطلاقاتهم الحيوية السامية.

٢ - ومرجعهم حيث يرجعون اليه في مشاكلهم الروحية والجماعية أماهيه؟ «لا يقضون منه وطراً»[2].

٣ - ومجتمعهم ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ...﴾[3] اجتماعاً عن كلّ التفرُّقات والتفرِّقات.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

(٢) كما يروى عن باقر العلوم عليه السلام تفسيراً لمثابة: يرجعون إليه ...

(٣) سورة الحج، الآية: ٢٨.

٤ - وممتلئُ مجدهم بجمعه الحافل الكافل لحلّ كلّ المشاكل بتشاورٍ وتحاورٍ مليء بما يغنيهم.

٥ - وملجؤهم في مخاوفهم عن مفازاتهم في سياساتهم الزمنية والروحية، وسائر حاجياتهم الحيوية.

٦ - يأتونه متواتراً في حجِّهم وعُمْرتِهم دونما انقطاع، قطاعات عظيمة من مختلف الألسن والألوان من مشارق الأرض ومغاربها، من كلِّ فج عميق.

٧ - مقبلين اليه زيارةً له، واستقبالاً في صلواتهم وسائر عباداتهم، استقبالاً لقبلته الواحدة.

٨ - ومتابهم عن ذنوبهم فردية وجماعية، فإنهم فيه من ضيوف الرحمن وحاشاه أن يرجعهم خائبين!.

٩ - ومحل ثوابهم إذ يثيبهم الله بزيارته حقها كما وعد عباده الثائِبين إليه التائبين.

١٠ - ومنتبهاً لهم عن كلِّ غَفَلاتهم وغَفَواتهم، وليشعروا ماذا عليهم في مسؤولياتهم الإسلامية الهامة.

١١ - ومستقىً لهم من تروية ماءِ الحياة في كلّ حقولها الروحية والمادية، من مشارف بئره العظيم، بدِلاءِ التضامن والتعاضد الأخوي الإسلامي.

١٢ - ومجتمع مياه الحياة في كافة الجنبات: العلمية - العقيدية - الأخلاقية - العبادية - الاقتصادية - السياسية والعسكرية أماهيه.

ذلك هو كيان جعل البيت في الأساس، يجمعها ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾(١) ومباركاً وهدىً للعالمين: ﴿إِنَّ أَوَّلَ

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا . . . ﴾[١].

و«الناس» كلّ الناس هم المِحْوَر الأساس في مثابة البيت وأمنه والقيام فيه وبركته وهداه، مما يلمح أن الحج فريضة إنسانية تصلح الحيوية الجماهيرية.

«وأمناً» هنا دون ﴿ءَامِنًا﴾ كما لـ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ مما يدل على خالص الأمن والسلام فيه، أمناً في شرعة الله أكثر من كلِّ بيت، وأمناً واقعياً ليس في أيّ بيت، مهما يوجد فيه خلاف الأمن من متخلفين، ولكنه أقل بكثير من غيره على طول الخط.

والبيت هنا «مثابة وأمناً» لا يخص الكعبة المباركة - مهما كانت هي الأصل فيهما - بل والمسجد الحرام والحرم كله كما ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾[٢] و﴿حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾[٣] تشهد على هذه الشمولية.

ثم ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ تأمر الحجاج والمعتمرين - الطائفين والعاكفين والركع السجود - تأمرهم أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلّىً أمراً تشريعياً بعد أمنه تكويناً وتشريعاً، فما هو مقامه المأمور باتخاذ مصلّىً منه؟.

يأتي مقام إبراهيم في ثانية: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٤] مما تلمح - بين معانيها - وتلمع أن ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ كلها مقام إبراهيم، وقد ذكرنا في مسرحها اثنتي عشرة آية، من أبرزها - المعروف بينها عند الكلِّ - هو مقام

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٩٦، ٩٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٥.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

إبراهيم - موضع قدمه من الحجر الموجود في المقام حيث هو الآن، إذ أثرت قدمه المباركة حين كان يرفع القواعد من البيت، وحين أذن في الناس بالحج(١).

ذلك الحجَر نزل في مثلث الحجَر - كما يروى - من الجنة(٢) وكما لمقام إبراهيم أبعاد، كذلك اتّخاذ مصلّىً منه له أبعاد، أوسعها مقام البيت ككلّ، فإنه مصلّى لكافة المصلين في هذه المعمورة وسواها، مصلّىً واسع ابتداءً من البيت نفسه وإلى كلٍّ أنحاء العالم.

ثم في مقام الحجر فإن الصلاة فيه مفضلة على غيره من كلٍّ أنحاء البيت، ثم المسجد الحرام كله، ثم مكة كلها، ثم الحرم كلّه، ثم المشاعر كلّها، فإنها كلّها مقام إبراهيم.

ولـ ﴿مِن﴾ - في ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بالنسبة لخصوص المقام - موقعها الدلالي فقهياً لهندسة ﴿مُصَلًّى﴾ فلم يقل «في» لأنه لا يكفي مكاناً لصلاة، ولا لمصلٍّ واحد فضلاً عن مئات الآلاف، ولا ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ

---

(١) في حسنة ابن سنان أو صحيحه - على الأصح - قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ [آل عمران: ٩٧] ما هذه الآيات البينات؟ قال: مقام إبراهيم حيث قام على الحجر فأثّرت فيه قدماه، والحجر الأسود ومنزل إسماعيل.
وفي الدر المنثور ١: ١١٨ - أخرج ابن ماجة وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر قال: لما وقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة عند مقام إبراهيم قال له عمر: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا مقام إبراهيم الذي قال الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البَقَرَة: ١٢٥] قال: نعم.

(٢) المجمع روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: نزلت ثلاثة أحجار من الجنة مقام إبراهيم وحجر بني إسرائيل والحجر الأسود، وفي الدر المنثور ١: ١١٩ - أخرج الترمذي وابن حبان والحاكم والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة طمس الله نورهما ولولا ذلك لأضاء ما بين المشرق والمغرب، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الركن والمقام من ياقوت الجنة ولولا ما مسهما من خطايا بني آدم لأضاء ما بين المشرق والمغرب وما مسهما من ذي عاهة ولا سقيم إلّا شفي.

مُصَلًّى﴾ حتى يصبح كالبيت يصلَّى حوله من كلِّ الأطراف، مهما جعل البيت دبراً، ولا «إلى مقام إبراهيم» وكيف يُجعل خلف المُصلِّي؟.

وإنما ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فهي ابتدائية تبين مبتدأً لركعتي الطواف أنه حدّ المقام - وطبعاً حيث هو الآن وكما كان - وليست تبعيضية فإن كلَّ المقام لا يسع لمصلّ واحد فضلاً عن بعضه ولجموع المصلين!.

ذلك بيان ظريف لمبتدأ الصلاة الخاصة - دون كلّ صلاة - فقد يشمل خلف المقام وجانبيه حياله، ما صدق أنه ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ مهما كان خلفاً وحيالاً بعيداً لإطلاق ﴿مِن مَّقَامِ﴾ ثم المنتهى - طبعاً - هو منتهى المسجد الحرام، وإن كان الأقرب منه فالأقرب أقرب في تطبيق الأمر، إلّا أن مختلف الظروف والحالات لها مختلف الأبعاد لـ ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

ومستفيض النقل عن الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته عليهم السلام عنه، ليس إلّا «عند المقام» و«خلف المقام»[1] وهما بيانان لـ ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ﴾، فلا

---

(١) فمما روي في «خلف المقام» ما في الدر المنثور ١ : ١١٨ - أخرج مسلم وابن أبي داود وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في سننه عن جابر أن النبي ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعاً حتى إذا فرغ عهد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين ثم قرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البَقَرَة: ١٢٥] وفيه ١٢٠ - أخرج الحميدي وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : من طاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين وشرب من ماء زمزم غُفرت له ذنوبه كلها بالغة ما بلغت وفيه أخرج الأزرقي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله ﷺ : المرء يريد الطواف بالبيت أقبل يخوض الرحمة فإذا دخله غمرته . . . فإذا فرغ من طوافه فأتى قام إبراهيم فصلّى ركعتين دبر المقام خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه . . .
أقول: لا تجد فيما يروى عنه ﷺ إلّا خلف المقام أو دبره.

وفي التهذيب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ليس لأحد أن يصلّي ركعتين طواف الفريضة إلّا خلف المقام لقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى﴾ إن صليتهما في غيره فعليك إعادة الصلاة.

وفي الكافي ٤ : ٤٢٣ والتهذيب ١ : ٤٨٥ حسنة معاوية بن عمار أو صحيحته «إذا فرغت من طوافك فائت مقام ابراهيم عليه السلام وصلّ ركعتين واجعله إماماً . . .» وفي التهذيب عن أبي=

يُتجاوز المقامُ إلى البيت فإنه ليس ﴿مِن مَّقَامِ﴾ علماً أن البيت هو القبلة في المسجد الحرام، إذاً فـ ﴿مِن مَّقَامِ﴾ تعني الصلاة إلى البيت، فكيف تتجاوزُ قدام المقام إلى البيت؟.

ولأن خلف المقام أقرب مقاماً في ﴿مِن مَّقَامِ﴾ إلى المقام، فليقدم على جانبي المقام، ولكلٍّ منهما مقامات حسب مختلف المقامات.

ولقد رأوا «أبا الحسن موسى عليه السلام يُصلِّي ركعتي طواف الفريضة بحيال المقام قريباً من ظلال المسجد لكثرة الناس»[١]. وذلك ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ بعيداً عنه قضيةَ الضرورة، مهما بعد عن «عند المقام» فضلاً عن «خلف المقام» حيث المدار هو صدق ﴿مِن مَّقَامِ﴾.

وهو يشمل كلَّ أضلاع المقام سعة المسجد الحرام إلّا ضلعه القِبلي، ثم و«خلف المقام» يشمل كلّ مساحة الضلع الخلفي حتى آخر المسجد الحرام، مهما لم يشمل «عند المقام» كلّ السطح اليميني واليساري.

فخلف المقام نص في جعل المقام إماماً كإمام، وعند المقام يعمّه وحيال المقام برجاحة الخلف، إذاً فخلفه هو الأوّل ما صدق الخلف، ثم حياله ما صدق الحيال، وأجمل تعبير عنهما ﴿مِن مَّقَامِ﴾.

فمن الأضلاع الأربعة للمقام يبقى الضلع المواجه للكعبة حيث لا يصح

= عبد الله الأبزاري سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل نسي أن يصلي ركعتين طواف الفريضة في الحجر؟ قال: يعيدهما خلف المقام لأن الله يقول: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ يعني بذلك ركعتي طواف الفريضة.

(١) كما في الكافي ٤ : ٤٢٣ - في الصحيح عن الحسين بن عثمان رأيت أبا الحسن موسى عليه السلام يصلي . . . وفي التهذيب ١ : ٤٨٦ - «قريباً من الضلال لكثرة الناس». وقد يشملهما «عند المقام» مع رعاية الترتيب كما في خبر زرارة: «لا ينبغي أن يصلي ركعتي طواف الفريضة إلّا عند مقام إبراهيم» (الكافي ٤ : ٤٢٤ والتهذيب ١ : ٤٨٥).

أن يتخذ مصلى إذ يستلزم استدبار الكعبة، ثم الأضلاع الثلاثة الأخرى هي بين الأحرى فالأحرى كلها ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ في كونها مصلّى الأقرب منها فالأقرب إلى المقام حيث هو المبتدأ فيها، ما صدق أنه من مقام، والخلف والحيال البعيد عن المقام، مهما بَعُدا عن خلف المقام وحياله حسب النصين ولكنهما داخلان في ﴿مِن مَّقَامِ﴾ حيث المنتهى هو آخر المسجد الحرام إذ لم يذكر هنا منتهى آخر، فلو كان لذكر كالمبتدء!.

وترى إن نسي الصلاة خلف المقام حتى قضى مناسكه كلها أو بعضها، عليه أن يرجع فيصلي خلف المقام؟ طبعاً نعم إن أمكن «يرجع إلى المقام فيصلي ركعتين»(١) «وإن كان ارتحل فإني لا أشقّ عليه ولا آمره أن يرجع ولكن يصلِّي حيث يذكر»(٢).

ذلك لإطلاق الأمر ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ للناسي كما الذاكر، خرج موقف المشقة والحرج، إذ لا عُسْرَ في الدين ولا حَرَج، وإن كان الأحوط الجمع بين أن يصليهما حيث يذكر، وأن يستنيب(٣) لأدائهما عند المقام، أم وإذا رجع في سفرة أخرى يقضيهما.

فالأصل المرجع - ككلّ - هو على أية حال ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ

---

(١) كما في الكافي ٤ : ٤٢٦ والاستبصار ٢ : ٢٣٤ والتهذيب ١ : ٤٨٦ صحيحة ابن مسلم عن أحدهما عليه السلام قال: سُئل عن رجل طاف طواف الفريضة ولم يصلّ الركعتين حتى طاف بين الصفا والمروة ثم طاف طواف النساء ولم يصلّ أيضاً لذلك الطواف حتى ذكر وهو بالأبطح؟ قال: يرجع إلى المقام فيصلي ركعتين.

(٢) كما في التهذيب ١ : ٤٨٦ والاستبصار ٣ : ٢٣٥ صحيحة أبي بصير سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل نسي أن يصلي ركعتي طواف الفريضة خلف المقام وقد قال الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ حتى ارتحل؟ فقال: إن كان ارتحل . . .

(٣) في التهذيب عن ابن مسكان قال: حدثني من سأله عن الرجل ينسى ركعتي طواف الفريضة حتى يخرج؟ فقال: يوكل، قال ابن مسكان وفي حديث آخر: إن كان جاوز ميقات أهل أرضه فليرجع وليصلِّهما فإن الله تعالى يقول: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

مُصَلًّى﴾ ما أمكن دون عُسْرٍ ولا حرج، والجمع بين صلاة الأصيل والوكيل يجمع بين مختلف الدليل.

وهنا ويلات من مختلفات الروايات أن فلاناً وفلاناً سألوا النبي ﷺ لو اتَّخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾! وَيْكأَن الله يتبع في وحيه إلى رسوله أهواء فلان وفلان، فهما أحرى بالاتباع وأعرف من الرسول ﷺ استصلاحاً لركعتي الطواف[١].

وكما يُهرف فيما يُخرف «كان المقام إلى لزق البيت فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ﷺ لو نحَّيته عن البيت ليصلي إليه الناس ففعل ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[٢]»!

كلّا! إن المقام هو المقام الآن كما كان دون تحوّل ولا تحويل ولا تخويل في تحويل، كما البيت هو البيت، والمشاعر هي المشاعر، والحرم هو الحرم.

ولأن المطاف يتسع حسب اتساع الطائفين - والى خلف المقام بقليل أو كثير - فحتى لا تكون فوضى الصدام بين الطائفين والمصلين، قد تلمح ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ - دون «صلّوا» أو ما أشبه - تلمح بأن المصلّى من المقام مرحليّ لجمهرة المصلّين كما المطاف، فليتقدم المطاف على المصلّى، وعلى المصلّين أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلّىً إلى آخر المسجد الحرام بصورة مقررة محسوبة على الجميع، حيث لا يضيق المطاف على الطائفين.

---

(١) الدر المنثور ١: ١١٩ - أخرج الطبراني والخطيب في تاريخه عن ابن عمر أن عمر قال: يا رسول الله ﷺ لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ وفيه خرج عبد بن حميد والترمذي عن أنس قال: يا رسول الله ﷺ لو صلّينا خلف المقام؟ فنزلت . . .

(٢) المصدر ١١٩ أخرج ابن أبي دواد عن مجاهد قال: . . .

فالإسلام بكلِّ مقرراته نظام، ولا سيّما في القرارات الجماعية تحسّباً دقيقاً رفيقاً لسلامة التطبيق في كلِّ جليل ودقيق، ومؤتمر الحج هو من أدق التنظيمات الجماعية الإسلامية السلمية ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾[١] - ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[٢].

فليكن المطاف والمصلّى بحيث لا يكون صدام واحتدام بين الطائفين والمصلين، فليراعِ المصلون كتلَة الطائفين، كما على الطائفين رعاية كُتَل المصلين، مع تقدم الأوّلين حسب الحاجة الضرورية لصالح الطواف من متّسع المطاف.

ولو أن المطاف احتل - يوماً مّا - المسجد الحرام كله، وطبعاً في واجب الطواف، فليقرَّر لكلٍّ من الطواف والصلاة موعد يكفيه، باستثناء أمام المقام إلى البيت فإنه مطاف على أية حال، وليراعَ واجبُ كلٍّ من الطواف وصلاته، تقديماً على تطوُّعه، ولا يجوز إشغال المصلَّى خلف المقام مع الزحام - كما المطاف - تقديماً للفرض على النفل كما قدّمه الله[٣].

ثم وفي رجعة أُخرى إلى الآية مسائل:

الأولى: لو تحوَّل المقام إلى غير مقامه الآن، لم تتحول الصلاة خلفه عما خلفه كما كان حيث المقام لا يختص بذلك الحجر القابل للتحول، بل هو مقامه من أرض المسجد الحرام إلى تخوم السماوات والأرض، وكما الكعبة المباركة والمسجد الحرام، والحل والحرام، حيث الظاهرة الآن على الأرض هي علامات، وليست هي - فقط - الأصل في مسرح الأحكام.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

(٣) راجع كتابنا - أسرار. مناسك وأدلة حج - باللغة الفارسية، وفيما أوردناه من الفروع كفاية كأصول لأحكام صلاة الطواف.

الثانية: المأمور بالصلاة خلف المقام أم عنده هو هو المكلف بطوافها، فلا يستنيب فيها مهما كلف الأمر، إلّا إذا لا يستطع أن يأتي بالأمر، عذراً يسقط عنه أصالة الأمر، إذاً فإلى الاستنابة، كالمغشي عليه والميت ومن أشبه، فإجادة القراءة وسائر الواجبات والأركان وإن كانت مفروضة في تطبيق الأمر، إلّا أنها لا تسمح للاستنابة، قصوراً عن الإجادة أم تقصيراً فيها.

ثم الاستنابة في الواجبات هي خلاف الأصل حتى عند الضرورة حيث تسقط الفريضة عندها، اللهم إلّا بدليل، ولا دليل على الوجوب أو السماح في استنابة لصلاة الطواف إلّا لمن يعذر بنفسه عنها، في نفسه، أم لأنه خارج لا يسطع على العودة.

الثالثة: لا يجوز له طواف واجب ما لم يعرف واجبات ركعتيه كواجباته، إلّا إذا ضاق وقت الطواف، فإن طاف في سِعَةِ الوقت ولا يعرف واجب الصلاة أخّرها حتى يعرفها تعلماً، أم يقتدي في ركعتي الطواف، فإن صلاهما مخلًّا بصحتها أعادها بعد تعلمها إن أمكن، فإن كان خرج أم في تعلمه حَرَج، صلاهما حيثما كان واستناب.

فالأمر الذي لا بدَّ منه هنا كضابطة أن عليه نفسه ركعتي الطواف كما الطواف، فلا استنابة هنا أو هناك إلّا عند الضرورة، وليس منها عدم معرفته كيف تؤدى الصلاة؟.

الرابعة: لا تجب في ركعتي الطواف رعاية عدم تقدُّم النساء على الرجال، قضيةَ تضيُّقها مكاناً وزماناً، ففي رعاية المكان والزمان، إلى رعاية عدم التقدُّم حرج فلا وجوب.

وأخيراً ذكر مصلى المقام مما يدلّ على أن صلاة الطواف فريضة كسائر ما يذكر من فرائض الحج في القرآن، ولكنها ليست ركناً كسائر أركانه.

ثم والتفصيل إلى سائر المفصلات المخصصة لهذه الفروع، فإنما علينا أن نلقي إليكم الأصول وعليكم التفريع[١].

ثم ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ مفسّرة في نظيرتها: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٢].

فالرُّكع السجود فيهما هم المصلّون - ككلّ - طائفاً أو عاكفاً أو قائماً، ثم الطائفون هم المسافرون لقرنهم في آية الحج بالقائمين، أم هم أعمّ منهم ومن يطوف بالبيت وعلّه أصلح، حيث التعبير عن خصوص المسافرين بالطائفين هو أوسع من معناها، كما والعاكفين - علّه - أعمّ من المقيمين والمعتكفين في المسجد الحرام والقاعدين فيه، فقد شملت الآيتان كلّ عابد في المسجد الحرام، مسافراً أو مقيماً، معتكفاً أو طائفاً أو مصلياً أم جالساً فإنه أيضاً عبادة، والتطهير المأمور به هو - ككلّ - تعبيد الكعبة المباركة بما حولها لهؤلاء العباد، إزاحةً لمعالم الشرك، وإراحةً للموحدين بمعالم وطقوس التوحيد، فيعمُّ تطهيره عن كلِّ الأرجاس ظاهرة وباطنة.

وقد تلمح ﴿طَهِّرَا﴾ بأولى وأحرى إلى طهارة نفوس هؤلاء، وطهارة ملابسهم وأبدانهم، وطهارتهم عن الأحداث، فمثلث الطهارة قد تعني ضمن المعني من ﴿طَهِّرَا﴾[٣].

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٢٣ عن تفسير القمي في الآية قال الصادق عليه السلام يعني نحّ عنه المشركين، وقال: لما بنى إبراهيم البيت وحج الناس شكت الكعبة إلى الله تبارك وتعالى ما تلقى من أنفاس المشركين فأوحى الله إليها قرّي كعبتي فإني أبعث في آخر الزمان قوماً يتنظفون بقضبان الشجر ويتخللون.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٦.

(٣) المصدر في كتاب العلل بسند متصل عن عبيد الله بن الحلبي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام أيغتسلن النساء إذا أتين البيت؟ قال: نعم - إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، فينبغي للعبد ألّا يدخل إلّا وهو طاهر قد غسل عنه العرق والأذى وتطهر.

ولأن أظهر مصاديق ﴿بَيْتِيَ﴾ - الموسَّع إلى المسجد الحرام - هو نفس الكعبة المباركة، فقد يظهر من الآية جواز الصلاة في جوف البيت، وأما الطواف فلا يشرع إلّا حول البيت لنص آخر ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾(١) وكيفما توجهت في جوف البيت كنت متجهاً إلى القبلة لأنه كله قبلة من داخله كما هي من خارجه، اللهم إلّا من يقوم على أشراف سطح البيت فليست صلاته إلى القبلة فلا تصح، إلّا مستقبلاً لسائر الأشراف.

وليس يعني ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ إلّا الخارجين عن البيت والمسجد الحرام، حيث الشطر هو الجانب، وهي تعني شطر المسجد الحرام.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾:

هنا ﴿هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ لا تعني أنه لم يكن حينذاك بلداً، حيث المفعول الثاني ﴿آمِنًا﴾ يكفي لجديد الجعل، فـ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى البلد كما في إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾(٢) (٣).

فقد تطلّب أمنه في حَقْلَي التكوين والتشريع كما شرحناهما في آية ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ - ثم ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يُنضاف إلى أهله المؤمنين ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ولكن رزقه بدعائه ليس لينجيّه من عذاب الله حيث ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ وكلّ متاع الدنيا قليل!.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٩.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.
(٣) تفصيل البحث عن موقفي الدعائين نجده في تفسير آية إبراهيم.

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وقد يكون الطائف من ثمرات الحرم كما دعى الخليل فأعطاه الجليل الطائف لتكون من رِزْقِ الحَرَم[1].

ثم ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ تعمُّ ثمرات القلوب إلى ثمرات القوالب كما يروى عن أئمة الهدى عليهم السلام[2].

ولقد تصبغ دعاء إبراهيم لأهل البلد الحرام بما صبغه الله من قبل ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إفادةً له من هذه العِظَةِ البالغة، مُحْتَرِساً في دعائه مُحدّداً المرزوقين من أهله بمن آمن وقد تبرأ من قبلُ من المشركين ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[3].

ولكن يبقى هنا مجال السؤال: هل إن طلب الرزق للمشرك ضمن المؤمن، هو من الاستغفار له؟ طبعاً لا! ولكنه اسِتْرحامٌ قد يحومُ حَوْمَ الاستغفار.

---

(١) الدر المنثور ١: ١٢٤ - أخرج الأزرقي عن محمد بن المنكدر عن النبي ﷺ «لما وضع الله الحرم نقل له الطائف من فلسطين» أقول: قد يعني من ذلك النقل وضع مماثل لقرية فلسطين فيه حيث الطائف يشبهها في جوّها ومنظرها وثمارها، وفي نور الثقلين ١: ١٢٤ عن العلل عن ابن مهزيار عن الرضا عليه السلام في الطائف: أتدري لِمَ سُمي الطائف؟ قلت لا، قال: إن إبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يرزق أهله من كل الثمرات، فقطع له قطعة من الأردن فأقبلت حتى طافت بالبيت سبعاً ثم أقرها الله عز وجل في موضعها، فإنما سُميت الطائف للطواف بالبيت.

(٢) الدر المنثور ١: ١٢١ - أخرج أحمد عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ توضأ ثم صلى بأرض سعد بأرض الحرة عند بيوت السقيا ثم قال: اللّهم إن إبراهيم خليلك عبدك ونبيك دعاك لأهل مكة وأنا محمد عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة مثل ما دعاك إبراهيم بمكة، أدعوك أن تُبارك لهم في صاعهم ومدِّهم وثمارهم، اللهم حبّب إلينا المدينة كما حبّبت إلينا مكة، واجعل ما بها من وراء الخم، إني حرمت ما بين لابتيها كما حرمت على لسان إبراهيم الحرم.

وفيه أخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإني عبدك ونبيك وإنه دعاك لمكة وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة ومثله معه، وفيه أخرج الطبراني في الأوسط عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: . . . واجعل مع البركة بركتين.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٤.

فإنما حصر الخليل دعاءَهُ في المؤمنين حائطة على مرسوم الدعاء، ولكيلا يكون مطلقاً يقيّد كما قيّدت ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ وقد حَسَرَهُ عن حصره الجليلُ، ولأن هذا الرزق ليس ليختص بالمادي منه المؤمنين ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ ولكن كيف؟

إنما ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾، ثم الرزق الآخر وهو الروحي الإيماني يختصّ بالمؤمنين، وكما اختصّ عهد الإمامة بغير الظالمين، وقد يروى أن الرسول ﷺ دعى لأهل المدينة كما دعى إبراهيم لأهل مكة[1].

ذلك وإلى رسم راسم لمشهد تنفيذ الخليل بإسماعيل لأمر الجليل بإعداد البيت وتطهير ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾:

قد تعني ﴿ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ أن ليس البيت هو القواعد والبنيان، مهما كانت منه، إذاً فالبيت هو المربع الخاص من سطح الأرض، ثم مِن فوقها إلى السماء السابعة، وكذلك من تحتها، عمود مستقيم يربط أعلى النُّقُط من الكون إلى أدناها، وقد يصدقه ما يروى عن الرسول ﷺ:

«هذا البيت خامس خمسة عشر بيتاً سبعة منها في السماء وسبعة منها إلى تُخوم الأرض السفلى، وأعلاها يلي العرش البيت المعمور، لكلٍّ بيت منها حَرَمٌ كحَرَمِ هذا البيت لو سقط منها بيت لسقط بعضُها على بعضٍ إلى تُخوم الأرض السفلى، ولكلٍّ بيت من أهل السماء ومن أهل الأرض من يعمِّره كما يُعمّر هذا البيت»[2].

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٢٨ - أخرج الأزرقي عن ليث بن معاذ قال قال رسول الله ﷺ هذا البيت. . .

(٢) عن الصادق عليه السلام يعني من ثمرات القلوب أي جهنم إلى الناس ليثوبوا إليهم (تفسير البرهان=

وقد يعني البيتُ المعمورُ - حيث يلي العرش - سدرة المنتهى، التي انتهى إليها الرسول ﷺ في معراجه، مجتازاً ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾(١) - إلى سائر بيوت الله في السماوات والأرضين - ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾(٢) وهو البيت الأقصى في أقصى الكون في سدرة المنتهى.

وهكذا يحق لخاتم النبيين وأشرف الخلق أجمعين أن يطوف البيوت الخمسة عشر بأهليها، وكما قال ﷺ عن سفرته هذه: «رأيت في كلٍّ سماء ميادين فيها خَلْقٌ كثير...».

لقد رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل بما بوّأ له ربُّه مكان البيت: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾(٣).

بوّأه له بما أوحى إليه هندسة المكان ليرفع القواعد عليه كما هندسه ربُّه.

إذ لم تكن له - حينذاك - قواعد ولا أعلام، إلّا بذلك الإعلام من الله الملك العلّيم(٤).

= ١ : ١٥٤). وعن الباقر عليه السلام أن الثمرات تحمل إليهم من الآفاق وقد استجاب الله له حتى لا توجد في بلاد المشرق والمغرب ثمرة لا توجد فيها حتى حكي أنه يوجد فيها في يوم واحد فواكه ربيعية وصيفية وخريفية وشتائية (تفسير بيان السعادة ١ : ١٤٥).

(١) سورة الإسراء، الآية: ١.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١.
(٣) سورة الحج، الآية: ٢٦.
(٤) الدر المنثور ١ : ١٢٦ - أخرج الديلمي عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ في الآية قال: «جاءت سحابة على تربيع البيت لها رأس تتكلم ارتفاع البيت على تربيعي فرفعاه على تربيعها».
وفي نور الثقلين وعن الصادق عليه السلام أن إسماعيل عليه السلام لما بلغ مبلغ الرجال أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت فقال: يا رب في أي بقعة؟ قال: في البقعة التي أنزلت بها على آدم القبة، فأضاء لها الحرم فلم يدر إبراهيم في أي موضع يبنيه فإن القبة التي أنزلها الله على آدم كانت قائمة إلى أيام الطوفان فلما غرقت الدنيا رفع الله تلك القبة وبقي موضعها لم يغرق =

وإن هذا البيت المبارك - قبل أن يضع إبراهيم القواعد منه - كان بيتاً بأعلام أحياناً ودون أعلام أخرى، كيف لا و﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[1].

فإبراهيم عليه السلام ليس إلّا أوّل بانٍ لقواعده، بما بوأه ربه من مكان البيت، وقد كان بيتاً منذ آدم، مطافاً له ولذريته، بل ومنذ كانت خليقة على وجه الأرض ووجوه السماوات السبع والأرضين السبع.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ ما نرفع من قواعد البيت ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ دعاءنا سرّاً أو جهراً ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنياتنا وطوياتنا، و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ سُؤلنا، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أفطر قال:

«اللّهم لك صُمْنا وعلى رِزْقِكَ أفطرنا فتقبَّل منا إنك أنت السميع العليم»[2].

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾:

وتراهما لمّا يسلما بعدُ لربهما حتى يسألانه ﴿وَٱجْعَلْنَا﴾؟ إن الإسلام المسؤول هنا هو غاية التسليم، وهي لا تحصل إلّا بعد العروج إلى معارج

= ولهذا سُمي البيت العتيق لأنه أعتق من الغرق فبعث الله جبرئيل عليه السلام فخطّ له موضع البيت فأنزل الله عليه القواعد من الجنة وكان الحجر لما أنزله الله على آدم أشد بياضاً من الثلج فلما مسته أيدي الكفار اسودّ، فبنى إبراهيم عليه السلام البيت ونقل إسماعيل الحجر من ذي طوى فرفعه في السماء تسعة أذرع ثم دله على موضع الحجر فاستخرجه إبراهيم عليه السلام ووضعه في الموضع الذي هو فيه الآن فلما بنى جعل له بابين، باباً إلى المشرق وباباً إلى المغرب يسمّى المستجار ثم ألقى عليه الشجر والأذخر وعلّقت هاجر على بابه كساء وكان معها وكانوا يكتسون تحته.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

(٢) الدر المنثور ١ : ١٣٧ - أخرج الدارقطني عن ابن عباس قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم . . .

الإيمان، ومما استجاب لهما ربهما عن سُؤْل الإسلام: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾[١].

ولذلك الإسلام درجات تدرَّج إبراهيم إلى ما دون العليا منها، فإن محمداً أوّل من أسلم:

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾[٢] حيث الأوّلية هنا ليست لتكون زمنية وقد كان قبله مسلمون كإبراهيم وإسماعيل ومن أشبه، فهي أولية في الدرجة، و«الإيمان من الإسلام بمنزلة الكعبة الحرام من الحرم قد يكون في الحرم ولا يكون في الكعبة، ولا يكون في الكعبة حتى يكون في الحرم»[٣].

ولذلك الإسلام ميّزات عن مطلق الإيمان وسمات، فلا يلبس الإسلام بظلم أو مشرك مهما لبسهما الإيمان: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾[٤] ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٥].

ولقد قورن مطلق الإيمان بمقارنات الظلم والشرك والفساد والعصيان، ولم يقارن بشيء منها ذلك الإسلام، فلذلك يُعدّ من ميّزات المرسلين دون الإيمان فإنه لكلّ المؤمنين بدرجاتهم.

لذلك يطلب الخليل إلى ربه الجليل أن يجعله وإسماعيل مسلمَين له، بعد كلّ درجات الإيمان ودرجات من الإسلام.

ثم يتطلّب من ربه ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ ذريتي من إسماعيل ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٠٣-١٠٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤.
(٣) في الكافي عن سماعة عن الصادق عليه السلام: . . .
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.
(٥) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

وهم أهل بيت الرسالة المحمدية، فالرسول فيهم هو محور الدائِرة، وذووه المعصومين هم الأشعة، فلأن إبراهيم تطلَّب لهم أصل الإسلام لا درجته، لم يمنع سؤاله أن يكون محمد أوّل المسلمين.

ولقد أسلم إبراهيم لدرجة قبل هذا الوقت: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] ثم يتطلب بعده إسلاماً أرقى ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ فهو كما الإيمان درجات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾[2].

ولو أنه إسلام قبل الإيمان أم إسلام الإيمان، لم يكن يسأله من ربه، بل كان يفعلهُ لأنه من فعله، فإنما الإسلام المسؤول هنا هو قمَّة التسليم بما آمن وأسلم، توفيقاً من الله.

وهكذا نرى ذلك الإسلام أنه من خَصائِل الإيمان، كلٌّ درجة منه حصيلة درجة منه فإنهما كلًّا درجات: فـ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[3] ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[4].

كما ويوصي المُصطفين من عباده أن يكونوا من المسلمين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[5].

ثم ولا تسمع أحداً من النبيِّين يُؤمر بالإيمان، اللهم إلّا بالإسلام، اللهم إلّا شذراً في عرض إيمان المؤمنين بعرض الرسول تَلْفيقاً رفيقاً بينهما: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣١.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٦.
(٣) سورة الروم، الآية: ٥٣.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١١١.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾[١] على أن إيمانه هنا ليس بالله، بل بما أنزل إليه، طَمأنةً للمؤمنين.

ولا تجدُ الله يذكر أحداً منهم بخير أفضل من الإسلام ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾[٢] وتراهم - دوماً - يؤمرون بالإسلام ومرتبطون بالإسلام!.

فذلك بدرجاته إسلام، وقبله الإيمان بدرجاته، ثم قبلهما إسلام لمّا يصل إلى القلب فلم يصل لحدِّ الإيمان: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[٣] وأين إسلام من إسلام؟!.

وهنا ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ تختص دعاء الخليل بأمة مسلمة لله من ذرية إبراهيم من إسماعيل، فلا تشمل الأمة الإسرائيلية حتى المسلمة منهم لأنهم من إسحاق، دون إسماعيل، ولا كلّ المسلمين إذ ليسوا كلهم ولا جلُّهم من إسماعيل، أتراهم بعدُ هم كلّ بني هاشم فإنهم من ذرية إسماعيل، وكيف تعمّهم ذلك الدعاء لإسلام ردفَ إسلام إبراهيم؟ وفيهم عُصاة بُغاة طُغاة! ولئن خُصَّت بعدولهم فليس كلّ العدول مسلمين بذلك المعنى الرفيع، ثم لماذا تختص بهم وممّن سواهم مسلمون أرقى وأجلّ من جُلِّهم؟.

إذاً فهم مسلمون خصوص من ذرية إسماعيل، والمعصومين الأربعة عشر عليهم السلام[٤] أم هم أصدق مصاديقها، وسائر الأمة المسلمة من ولد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

(٤) نور الثقلين ١ : ١٣٠ في الكافي بإسناده إلى أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه... ثم أخبر عن هذه الأمة وممن هي وأنها من ذرية إبراهيم وذرية إسماعيل من سكان الحرم ممن لم يعبدوا غير الله قط الذين وجبت لهم الدعوة دعوة إبراهيم وإسماعيل من أهل المسجد الذين أخبر عنهم في كتابه أنه ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

إسماعيل هم على هامشها؟ إلّا إسلاماً أدنى ممّا لإبراهيم وإسماعيل والمحمديين المعصومين، هو إسلام يحصل على ضوءِ الصمود والرُّقي فلماذا يسأله لها ولهم من الله؟

فلا بدّ - إذاً - أنه إسلام العصمة القمة المرموقة ولمّا يصلا إليه إذ يرفعان القواعد من البيت.

وهكذا تكون ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ فإنها ليست توبة عليهم من عصيان، بل هي توبة رجوعاً عليهم برحمة خاصة تضمن لهم كامل الإسلام.

فقد يتوب الله على عبدٍ يتوب إليه عن ذنبٍ كما في آدم ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾[١].

أو يتوب على عبد رجوعاً برحمة خاصة تَعْصِمُه وتُسدِّده عما لا يحمد، لولاها لكاد أن يقترفها أو يقتربها حيث تكلّ الطاقات البشرية كما في يوسف ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[٢] وفي محمد ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[٣] وهكذا يكون - دوماً - توبة الله على أصفى المصطفين.

ثم ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ قد تعمُّ الإراءة المعرفية إلى إراءة فقهية، فحين يرينا الله مناسكنا كما هي، كان بإمكاننا تطبيقها كما هي، فتصبح حجة مقبولة مشكورة محبورة، وقد تعم ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ مصدراً ميمياً واسم زمان ومكان، والإراءة المعرفية تناسب الأولى.

وكأن ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ هي من الظروف الصالحة لـ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ إراءةً لملكوتها، بعد هذه التوبة التي توصّل إلى الملكوت.

---

(١) سورة طه، الآيتان: ١٢١، ١٢٢.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١٢٩)﴾:

هناك ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ كانت ظرفاً ظريفاً لبلورة هذه الرسالة السامية هنا بدعاء ثان، ولقد سمع الله دعاءه في إسماعيل كما في الأصل العبراني من تكوين التوراة:

(١٧ : ٢٠): «وُلِيشمَعيل شِمَعْتيخا هِينِّهْ برَختي أُوتوا وَهيفْرتي أُوتوا وهِيربْتي أُوتوا بمِئْدْ مِئْدْ شِنيم عاسارْ نِسيئِيم يُولِدْ وِنْتَتِّيو لِغُويَ غادُل»:

«ولإسماعيل سمعته: - إبراهيم - ها أنا أباركه كثيراً وأنمِّيه وأثمره كثيراً وأرفع مقامه كثيراً بمحمد واثني عشر إماماً يلدهم إسماعيل وأجعله أمة كبيرة».

وفي التكوين ٢١ : ١٢ «. . . وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك».

وقد سُمي إسماعيل به لأنه مسموع الرب في ولادته وفي نسل أمة مسلمة من ذريته.

وفي الأصل الانقلوسي من «نِبوئِت هَيِّلِدْ»: وحي الطفل: شَبُوياه شاباهْ بهَهْيا شَعْطاطابا لأرْعابِتيا وو رهَابَاه دعبدا تِشوباه ويرحم إباطابا علْ بُوخَرا حيبياً:

يأسر أعداءه - محمد المذكور قبل - في ساعة جيدة في أرض مرغوبة ويرحمه الله هناك إجابة لدعوة إبراهيم لإسماعيل.

ذلك - ثم نجد التوراة تبشر في آيات أخرى أن ذلك الموعود من ولد قيدار بن إسماعيل في عدة تصريحات[١].

---

(١) منها ما في اشعياء (١٤٢ : ١ - ٢٠) . . . لتشد البرية ومدنها والحظائر التي يسكنها قيدار=

. . . .

= وليرنِّم سكان الصخرة وليهتفوا من رؤوس الجبال (١١) ليؤدوا المجد لله ويخبروا بحمده في الجزائر (١٢).

هذه بشارة لنبي من قيدار و«هو الولد الثاني لإسماعيل» (تك ١٣ : ٢٥) و«أبوه من أشهر قبائل العرب وبلادهم الجزيرة العربية» (اشعياء ٢١ : ١٦).

فالصرخات التي تسمع من أهل قيدار وترنماتهم من الصخرة وهتافاتهم من رؤوس الجبال كلّ ذلك تصريحات لطيفة بشأن الرسول المبعوث من نسل قيدار بن إسماعيل، ترنمات من أعالي جبال مكة وعرفات ومنى والمشعر الحرام في حج البيت.

وفي الآية (١٠) منها: انشدوا للرب نشيداً جديداً تسبيحة له من أقاصي الأرض يا هابطي البحر ويا ملئه ويا أيتها الجزائر وسكانها.

والنشيد الجديد هو الشرعة الجديدة المحلقة على كل الجزائر من ذلك النبي الإسماعيلي، وفي بعض التراجم[1] تأتي هذه الآية هكذا: يسبحون الرب تسبيحاً جديداً ويبقى أثر سلطانه بعده واسمه «احمد» (٨٩).

وفي اشعياء ٦: ١ - ٢٢) توصيفات لمكة المكرمة بالكعبة المباركة وهذا الرسول المكي قائلاً:

«قومي استنيري فإن نورك قد وافى ومجد الرب أشرق عليك (١) ها أن الظلمة تغشى الأرض والد يجور يشمل الشعوب ولكن عليك يشرق الرب ويتراءى عليك مجده (٢) فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك (٣) ارفعي طرفك إلى ما حولك وانظري كلهم قد اجتمعوا وأتوا إليك. بنوك من بعيد يأتون وتحملين بناتك في حضنك (٤) حينئذ تنظرين وتتهللين ويخفق قلبك ويرحب إذ تنقلب إليك ثروة البحر ويأتيك غنى الأمم (٥) كثرة الإبل تغشاك بكران مدين وعيفة. كلهم من «شبا» يأتون حاملين ذهباً ولباناً يبشرون بتسابيح الرب (٦). كل غنم قيدار تجتمع إليك - وكباش نبايوت تخدمك. تصعد على مذبحي المرضي لدي وامجّد بيت جلالي (٧) من هؤلاء الطائرين كالسحاب وكالحمام إلى كواها (٨) إن الجزائر تنتظرني وسفن ترشيش مستعدة منذ الأوّل أن تأتي ببنيك من بعيد ومعهم فضتهم وذهبهم لاسم الرب إلهك ولقدوس إسرائيل لأنه قد مجدك (٩) وبنو الغرباء يبنون أسوارك وملوكهم يخدمونك لأني في غضبي ضربتك وفي رضاي رحمتك (١٠) وتنفتح أبوابك دائماً لا تغلق نهاراً ولا ليلاً ليؤتى إليك بغنى الأمم وتحفر إليك ملوكهم (١١) لأن الأمة والمملكة التي تتعبد لك والأمم تخرب خراباً (١٢) مجد لبنان يأتي إليك السرو والسنديان والشربين لزينة مقدسي=

---

(١) (هذه ترجمة القسيس اوسكان الأرمني في ترجمته لكتاب اشعياء المطبوعة ١٧٣٣ في مطبعة انتوني بورتولي وقد ألفها في ١٦٦٦ - أي قبل ٦٧ سنة من طبعها).

وقد يُروى عن النبي ﷺ قوله: «أنا دعوة إبراهيم»[1] و«إني عند الله في أمِّ الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينة وسأنبئكم بأوّل ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين يرين»[2].

﴿وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ﴾ هذه الأمة المسلمة من ذريتنا ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ وكلهم نور واحد فإن: أولنا محمد آخرنا محمد أوسطنا محمد وكلُّنا محمد صلوات عليهم أجمعين.

﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾ تكوينية: آفاقية وأنفسية، وتدوينية: قرآنية وكتابيات أخرى.

= وأمجد موطئ قدميّ (١٣) وبنو الذين عنّوك يفدون إليك خاضعين ويسجد لأخامص قدميك كل من ازدراك ويدعونك مدينة الرب (١٤) وبما أنك كنت مهجورة متروكة فلم يكن أحد يجتاز فيك سأجعلك فخر الدهور وسرور كلّ جيل فجيل (١٥) وترضعين لبن الأمم وترضعين ثدي المملوك وتعلمين أني أنا الرب مخلصك وفاديك عزيز يعقوب (١٦) آتي بالذهب بدل النحاس وآتي بالفضة بدل الحديد وبالنحاس بدل الخشب وبالحديد بدل الحجارة واجعل ولاتك سلاماً ومسخريك عدلاً (١٧) لا يسمع من بعد بالجور في أرضك ولا بالدمار والحطم في تخومك بل تدعين أسوارك خلاصاً وأبوابك تسبيحاً (١٨) لا تكون الشمس من بعد نوراً لك نهاراً ولا ينيرك القمر بضيائه ليلاً بل الرب يكون لك نوراً أبدياً وإلهك يكون فخرك (١٩) لا تغرب شمسك من بعد وقمرك لا ينقص لأن الرب يكون لك نوراً أبدياً وتكون أيام مناحتك قد انقضت (٢٠) ويكون شعبك كلهم صديقين والى الأبد يرثون الأرض. هم فرع غرسي وعمل يدي الذي أتمجد به (٢١) القليل منهم يصير ألفاً والصغير يصير أمة عظيمة. أنا الرب أعجل ذلك في ميقاته (٢٢).

(١) الدر المنثور ١: ١٣٩ - أخرج ابن سعد في طبقاته وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك أن النبي ﷺ قال: أنا دعوة إبراهيم، قال: وهو يرفع القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [البَقَرَة: ١٢٩] حتى أتم الآية.

(٢) المصدر أخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن العرباض بن سارية قال قال رسول الله ﷺ: إني عند الله . . .
وفيه أخرج أحمد وابن سعد والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن أبي أمامة قال قلت يا رسول الله ﷺ: ما كان بدء أمرك؟ قال: دعوة إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام.

ولماذا ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ هنا ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ في ثلاث أخرى(١) أترى تعليم الكتاب والحكمة هو المقدَّم على التزكية كما هنا، أم هي المقدمة عليها كما في الثلاث الأخرى، أم هما صنوان لا يتفاضلان، فهما متعاضدان مع بعضهما البعض متقارنان؟ فلماذا تتقدم التزكية ثلاثة أضعاف تقدم التعليم عليها؟.

علَّ الأضعاف في التزكية للتأشير إلى أهميتها، حيث التعليم ذريعة إلى التزكية فهي رأس الزاوية في مُحاولات الرسالة، فلو أمكنت التزكية دون تعليمٍ لما كان ضرورة، وهما صنوان مُتعاملان، كلما ازداد التعليمُ المعرفةُ ازدادت التزكية، وكلما ازدادت التزكية ازداد العلم والمعرفة فـ«العلم نورٌ يقذفهُ الله في قلبِ من يُريد أن يهديه».

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾:

﴿مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ﴾ هي توحيد الإسلام وإسلام التوحيد لوجه الله، ولا يرغب عنها إلّا من سفه نفسه: حملاً لها على خفة العقل والإدراك، فالنفس الإنسانية فطرياً وعقلياً راغب إلى هذه الملة المسلمة الحنيفة، فلا يرغب عنها إلى سواها إلّا من حمل نفسه على التنازل عن ذاتيتها، استخفافاً بها وتغرُّباً عنها.

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بقمَّة الاصطفاء فإنه من أصفى الأصفياء

---

(١) وهي: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١] و﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] و﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كما تطلّبه يوم الدنيا ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وسعى له سعيه، ومتى اصطفيناه في الدنيا؟:

﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾:

وعلّه إسلامه بفعله لما أُمِر به قبل إسلامه المطلوب من ربه حين دعا ﴿وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ﴾.

فهناك إسلام قضيةَ كمال الإيمان، وهنا إسلام قضية الأمر الخاص، وعلّه لأمر خاص كما ﴿أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ ثم إسلام بعدهما تطلّباه إذ يرفعان القواعد من البيت، وقد يجمع مراتب الإسلام حديث قدسي يذكر عيشاً أهنى وحياةً أبقى[1].

---

(١) في البحار عن إرشاد الديلمي قال الله سبحانه: يا أحمد هل تدري أي عيش أهنى وأي حياة أبقى؟ قال: اللهم لا - قال: أما العيش الهنيء فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكري ولا ينسى نعمتي ولا يجهل حقي، يطلب رضائي في ليله ونهاره، وأما الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتى تهون عليه الدنيا وتصغر في عينه وتعظم الآخرة عنده، ويؤثر هواي على هواه ويبتغي مرضاتي، ويعظم حق نعمتي، ويذكر عملي به، ويراقبني بالليل والنهار عند كلِّ سيئة أو معصية، وينقي قلبه عن كلّ ما أكره، ويبغض الشيطان ووساوسه ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبيلاً، فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حباً حتى أجعل قلبه وفراغه واشتغاله وهمه وحديثه من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبتي من خلقي وأفتح عين قلبه وسمعه حتى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي، وأضيق عليه الدنيا، وأبغض إليه ما فيها من اللذات وأحذّره من الدنيا وما فيها كما يحذّر الراعي على غنمه مراتع الهلكة، فإذا كان هكذا يفرُّ من النار فراراً وينقل من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن دار الشيطان إلى دار الرحمن، يا أحمد ولأزيننّه بالهيبة والعظمة فهذا هو العيش الهنيء والحياة الباقية، وهذا مقام الراضين فمن عمل برضاي ألزمه ثلاث خصال: أعرّفه شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبة لا يؤثر على محبتي محبة المخلوقين، فإذا أحبني أحببته وافتح عين قلبه إلى جلالي، ولا أخفي عليه خاصة خلقي، وأناجيه في ظلم الليل ونور النهار حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته معهم، وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي، وأعرّفه السرّ الذي سترته عن خلقي، وألبسه الحياء حتى يستحيي منه الخلق كلهم، ويمشي على الأرض مغفوراً له. وأجعل قلبه واعياً وبصيراً، ولا أخفي عليه شيئاً من جنة ولا نار، وأعرّفه ما يمر على الناس=

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾:

﴿بِهَآ﴾: لا مرجع صالحاً لها إلّا ﴿مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ دون الإسلام لذكوريته، ثم وهذه هي ملة الإسلام في توحيد العقيدة والعمل.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾:

هنا في ذكر إسماعيل في عداد آباء يعقوب دليل السعة في لغة الأب فهي تختلف عن الوالد، فأبوه آزر في آيات ليس والدَه، لا سيّما وأنه تبرأ من آزر ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[1] ثم نراهُ في أواخر عمره يدعو لوالديه ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾[2] إذاً فوالده غير أبيه.

وإنه لمشهد عميق التدليل - في لحظات الموت - على عُمْقِ عقيدة التوحيد بين آل إبراهيم، فيعقوب - وهو رأسُ الزاوية في بيت إسرائيل - لا يوصي عند احتضاره بمال، ولا يشغله بال، إلّا ذلك الأمر الجلل فهو المبتدأ وهو المآل، فهو - فقط - تَرِكَتهُ وتركةُ آبائه، قضية كبرى لا تشغله عنها سكرات الموت، بل هي تشغله عمّا سواها.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ اختبار حاسم تظهر فيه مدى الدعوة التوحيدية

= في القيامة من الهول والشدة وما أحاسب به الأغنياء والفقراء والجهال والعلماء، وأنومّه في قبره، وأنزل عليه منكراً ونكيراً حتى يسألاه، ولا يرى غمَّ الموت وظلمة القبر واللّحد وهول المطّلع، ثم أنصب له ميزانه وأنشر ديوانه، ثم أضع كتابه في يمينه فيقرؤه منشوراً، ثم لا أجعل بيني وبينه ترجماناً، فهذه صفات المحبين، يا أحمد اجعل همّك همًّا واحداً، واجعل لسانك لساناً واحداً، واجعل بدنك حياً لا يغفل أبداً، من يغفل عني لم أبال في أي واد هلك.

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٤.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤١.

لهم طول حياته الرسالية، يتلوه جواب حاسم ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَ. . .﴾ أن إلهنا جميعاً إله واحد، خلاف المشركين الذين لكلٍّ منهم إله أو آلهة، ثم ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ لا فقط مقرون وإنما إسلام له قلباً وقالباً.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ موحدةٌ مسلمةٌ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ فخلف من بعدها خلْف أضاعوا ملتها الوحيدة الموحدة المسلمة، وتخلفت عن شرعة الله المرسومة بينها، فـ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من خير ﴿وَلَكُم﴾ الخلف المتخلف ﴿مَّا كَسَبْتُمْ﴾ - ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ﴾ أنتم ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما وهم لا يسألون عما كنتم تعملون، كما ﴿وَلَكُمْ﴾ المسلمين ﴿مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أمم ثلاث لكلٍّ ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

وليست الأمة في ميزان الله أمة الجنس والإقليم والعنصر والتراب والدم، فإنها موازين لحيونة الأمم، أم وإنسانيتها المنفصلة عن شرعة الله، وإنما هي جماعة ذات قصد واحد: خيراً أو شراً، مهما اختلفت أجناسهم وأواصر الأنساب والقرابات فيما بينهم.

أجل - إنها أمة دينية وليست أمة طينية، وعلى هذا القياس فالكتلة الموحدة المسلمة من آل إبراهيم ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ ثم الكتلة الكافرة من آل إبراهيم أمة ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ وكذلك المسلمون، من آمن منهم حق الإيمان ومن لم يؤمن، فلكلٍّ حساب حسب الصالحات والطالحات، دونما فوضى جزاف بحساب القوميات والعنصريات أم سائر الصِّلات غير الروحية.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)﴾:

قالت اليهود: «كونوا هوداً تهتدوا» وقالت النصارى: «كونوا نصارى تهتدوا»[1] فكلٌّ يتمسَّك بطائفيةٍ خاوية عن ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ فمجرد كونك من أولاءِ أم هؤلاء يكفيك هدىً! ﴿قُلْ﴾: لا هذا ولا ذاك ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ لا نسل إبراهيم كإبراهيم - إسرائيل وسواها - وإنما ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هذه هي الهدى دون سواها، أيّاً كنت في أصلك ونسلك، في وصلك وفصلك، وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ قوله: بعثت بالحنيفية السمحة[2]، وترى الحنافة لمّا تكفي هدىً لأنها الإعراض عما يخالف الحق، ويقابله الجنف، فلماذا - إذاً - ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؟.

علّه لأنهم تمسكوا بظاهر الحنيفية وانتساب النسب إلى إبراهيم الحنيف، فلكي يسدّ عليهم كلّ ثغرات الجَنَفِ تحريفاً لمعنى الحَنَف يصرّح ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وقِسم من الهود والنصارى مشركون.

ولقد وصف ﴿حَنِيفًا﴾ وصف إيضاح بـ﴿مُّسْلِمًا﴾ في أخرى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[3] مما يلمِّح أنهم كانوا يتذرعون بصيغة ﴿حَنِيفًا﴾ لإلصاق أنفسهم إلى إبراهيم، وكأن ﴿حَنِيفًا﴾ لقب يلقب به نسل إبراهيم أيّاً كانوا، فجاء ﴿مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كإيضاح يخيّب آمال المشركين الحنفاء الجنفاء!.

---

(١) الدر المنثور ١: ١٤٠ عن ابن عباس قال قال عبد الله بن صوريا الأعور للنبي ﷺ: ما الهدى إلّا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتدي، وقالت النصارى مثل ذلك فأنزل الله فيهم...

(٢) الدر المنثور ١: ١٤٠ - أخرج أحمد عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ:، وفيه عن ابن عباس قال قيل: يا رسول الله ﷺ أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: الحنيفية السمحة، وعن سعد بن عبد الله بن مالك الخزاعي قال قال رسول الله ﷺ: أحب الدين إلى الله.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

فلأنَّ الملة الإبراهيمية هي الناصعة بين الغابرين في خالص التوحيد، المعروفة لدى الخواص والعوام، لذلك فليُعلن بملَّتهِ الوحيدة الكبرى بين أهل المِلَل الثلاث وسواهم من الموحدين - رفضاً لكلِّ الفواصل المختلقَة - من لدُن إبراهيم إلى موسى والمسيح وإلى خاتم النبيين ﷺ:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾:

﴿قُولُوٓاْ﴾ أياً كنتم من الملل، سلسلةٌ موصولة متواصلة من مِلَلٍ كتابية ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ كأصل هو رأس زوايا الإيمان، ومن ثم فروع: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ ككل الكتابيين، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ كمسلمين، والإيمان بكتابات السماء ذريعة للإيمان بالقرآن وكما يروى عن النبي ﷺ: «آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن»(١).

أم و«قولوا» أيها المسلمون ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾: القرآن - لا فحسب بل ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ... وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ﴾ قبل إبراهيم وبعده ككلٍّ.

وترانا كيف نؤمن بعد ما أنزل إلينا - وهو ناسخ - بما أنزل إلى سائر النبيين وهي منسوخة؟.

إنه إيمان تصديق بكلّ ما أنزل الله أنه من الله، ثم وإيمان تطبيق لكلٍّ في زمنه، فتطبيق لشرعة القرآن الناسخة للبعض من سائر الشرائع، وهو تصديق لها إذ تبشر بالقرآن، ثم ومحور الإيمان هو الإيمان بالله وبرسالاته واليوم

(١) الدر المنثور ١: ١٤٠ - أخرج ابن أبي حاتم عن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ: ...

الآخر، الأصول الأساسية لكلّ إيمان، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[(١)] في هذه الأصول، ولا سيّما رأس الزاوية وهو توحيد الله ﴿وَنَحْنُ﴾ ككلّ ﴿وَنَحْنُ﴾ المسلمين ﴿لَهُۥ﴾ لا لسواه ﴿مُسْلِمُونَ﴾.

كما و﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ في ضابطة الإيمان، أن نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فلا تفريق هنا أو هناك، وذلك كلمة الإيمان الجاسم الحاسم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ حيث ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[(٢)].

هذه هي قضية الإيمان المجرد عن انحيازات طائفية أم قبلية أما هي من امتيازات جاهلة قاحلة لا دور لها في حقل الإيمان الصالح.

وترى لماذا اختلاف التعبير لمنازل الوحي بـ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ أولاً و﴿وَمَآ أُوتِيَ﴾ ثانياً، وهذا أعم من الوحي كما ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾[(٣)] والوحي النازل إلى موسى وعيسى أعلى نازلاً ومنزلاً من النازل إلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط؟!.

علّه لأن أصل الوحي هو النازل على إبراهيم، ثم تبعاً له ولمن تبعه، ومن ثم أوتي موسى وعيسى والنبيون نفسَ الوحي مهما اختلف وحي عن وحي في درجات وبعض الطقوس، وذلك مُعاكسة لما كان يزعمهُ الهود والنصارى أنهم الأصل في الوحي.

وكما أن ﴿أُنزِلَ﴾ أعمُّ من الإيتاء والإعطاء، كذلك ﴿أُوتِيَ﴾ أعمّ من الوحي وسواه، فهذان التعبيران لسلسلة الرسالات الحاملة للوحي - علّها -

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.
(٣) سورة لقمان، الآية: ١٢.

للتدليل على أن النازل إلى المرسلين ليس عطية لهم فهم مالكوها، بل هو إيتاءٌ كأمانةٍ ووديعةٍ مرجوعة بعد تطبيقها، فتلك الوحدة الكبرى بين الرسل والرسالات في أصول الدعايات والاتجاهات، هي القاعدة المتينة الرصينة للتصور الإيماني المسلم السليم، السائرة في كلّ الدروب على هدى ونور، التي تجمع كلّ الشعوب - بلا تمييز - على درب الإسلام التام والسلام العام، مفتوحاً للناس جميعاً وكلّ العالمين في مودةٍ ووئامٍ، ذلك هو الإيمان الإسلام السليم أيّاً كان وأيان ومن أيٍّ كان:

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾:

﴿ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ﴾ دون «آمنوا بما آمنتم به» تنازلٌ في درجات الإيمان، فإنهم لم يكونوا مؤمنين بمثل ذلك الإيمان المجرّد عن حسابات دخيلةٍ فيه، فكيف يُدعون إلى نفس ذلك الإيمان المجرد، إلّا قفزة لا تناسب سليم الدعوة والدعاية.

فليؤمنوا أولاً ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ إيماناً بكلّ ما أنزله الله على رُسُلهِ دون تمييز، ثم وذلك الإيمان المجرد يجرهم بطبيعة الحال إلى نفس ما آمنتم به من رسالة الإسلام، حيث الإيمان السليم بالوحي الكتابي، يجذب إلى الإيمان بمحور الوحي: القرآن العظيم، ولا يعني ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ مثل الله الذي آمنتم به، حتى تسقط «مثل» عن لفظ القرآن[1] إذ «ليس كمثله شيءٌ» بل هو مماثلة في أصل الإيمان، لا الذي يُؤمَن به، إيماناً بالله كما آمنتم، وإيماناً برسالات الله كما آمنتم.

---

(١) الدر المنثور ١: ١٤٠ عن ابن عباس قال: لا تقولوا ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ فإن الله لا مثل له، ولكن قولوا: فإن آمنوا بالذي آمنتم به، وفيه عن أبي جمرة كان ابن عباس يقرأ: فإن آمنوا بالذي آمنتم به.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن مثل هذا الإيمان ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ تقسيم لبلد الإيمان إلى شقين: إسرائيلي وإسماعيلي، وذلك شقٌّ لوحدة الدين والإيمان، وخروج عن واقع الإيمان إلى اللّاإيمان، أم هو أنحس - أحياناً - من الكفر المطلق!.

إذاً ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ بعدما أديت واجب الدعاء وبالغ الدعوة، فالله هو الكافي لا سواه، فلا ترجُ في سدِّ ثغراتهم إلّا إيّاه ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لحواركم حول الدين، و﴿السَّمِيعُ﴾ لدعائك وسؤالك حفاظاً على الدين ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يصلحك ويصلح هذا الدين، فـ ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾(١) وكلّ ما في البين حقاً ولا حول عنه هو:

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾:

آية فريدة في صيغة التعبير، عرضاً جامعاً لما يتوجب الالتزام به على كلِّ العالمين، فما هي ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ حتى نصطبغ بها أو نلتزمها؟ وليست لله صبغة يمكن الاصطباغ بها، ولا أية صبغة!.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ هي من إضافة الفعل إلى فاعله، كخلق الله وروح الله وأخلاق الله وشرعة الله أم أي فعل لله، وهي كفطرة الله أدبياً ومعنوياً مهما كانت أعم منها ومن سائر الصبغة، تكوينية وتشريعية، فهي مفعول مطلق نوعي تعني صبغاً خاصاً إلهياً لقبيل الإنسان وسائر المكلفين، مما للإنسان في أصله خيار كمتابعة الفطرة والعقل والشرعة الإلهية، أم ليس له خيار كأصل الفطرة، أمّا يقدم سببه كتطبيق ما لَه خيار ثم الله يهديه كما اهتدى.

وإضافة الفعل إلى فاعله كما هنا تقدِّر «من» النشوية، أي: صبغة ناشئة من الله كسائر خلق الله.

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.

فليست من إضافة الصفة إلى موصوفة تقديراً لـ«في» أن تكون هذه الصبغة في الله كسائر صفاته الذاتية، أم «ل» حيث تعم ما تعنيه «من - و - في».

ففي ذلك المثلث من تقادير الجار المحذوف لا تصلح هنا إلّا ﴿مِنَ﴾ إذ ليست لذات الله صبغة وحتى المعنوية، حيث الصبغة حالة خاصة من الصّبغ وليست له تعالى حالة دون أخرى إذ لا حدّ لذاته وصفاته حتى تصبغ بصيغة! وإنما المعني منها ما صبغ به خلقه.

ولقد صبغ الله الناس كلهم بصبغة الفطرة، ثم العقلية التي تتبنّاها، ثم شرعة من الدين الهادية لهما، الشارحة لأحكامهما، الشارعة سبيلهما إلى الخير المُرام، ولقد اختصرت في: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ...﴾ ولها - ككل - حصيلة مزيد الهدى والتقوى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[1].

ثم وهي «الإسلام»[2] و«الولاية في الميثاق»[3]: إسلاماً لله ورسله وكتبه، وولاية توحيدية ورسالية أما هيه من ولايات إسلامية، كلّ على درجاته.

وقد تتعلّق ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ بكلّ من ﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ - ﴿ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ - ﴿نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ﴾ - ﴿بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ - ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ ﴿ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم﴾ والكلّ راجع إلى الإسلام والولاية في الميثاق في ذلك المثلث البارع الذي هو كيان الإنسان كإنسان: «فطرة الله - العقل - شرعة الله»!.

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٢) تفسير البرهان ١: ١٥٧ يروى تفسير ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ بالإسلام عن عبد الله بن سنان وحمران ومحمد بن مسلم وأبان وعبد الرحمن بن كثير كلهم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الصبغة هي الإسلام».

(٣) المصدر عن الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: صبغ المؤمنين بالولاية في الميثاق.

صبغة سابغة سابقة على كلِّ صبغة لأنها ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ كما صبغنا - في مثلث الفطرة والعقلية والشرعة - بعبادته السليمة عن كلِّ إشراك ودون أي عراك.

ويا له من تعبيرٍ مُنْقطِع النظير، يتصبغ أولاً بـ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ﴾ أمراً إلزامياً من الله، بمواصفة غالية تجعلها في أعلى قمم الحسن والجمال، وثانياً بإقرار المصبوغين بها ﴿وَنَحْنُ﴾ المسلمون المحمديون ﴿لَهُۥ﴾ لا لسواه ﴿عَٰبِدُونَ﴾ لا نعبد إلّا إياه، كحصيلة بارزة لصبغة الله.

فحذارِ حذارِ في دين الله وشرعته عن كلِّ صبغة غير إلهية في قالٍ أو حالٍ أو فعالٍ على أية حال، في تكوين أو تشريع أم أية صبغة ربانية.

وكما الصبغة المادية تظهر على المصبوغ كأولى المظاهر، كذلك الصبغة الروحية من طبعها الظهور في كافة المظاهر الحيوية الإنسانية، وقد سُميت بصبغة الله عناية بتلك الظاهرة في مظاهر الأقوال والأفعال، كما هي في كامنات العقائد والأحوال، فكلُّ إناءٍ بما فيه يرشح، فالفطرة - وهي أعمق أعماق الإنسان - لمّا تصبغ بصبغة الله، فلتُصَبِّق - على آثارها - النفس بكلِّ جنودها ومراحلها الخيِّرة: عقلاً وصدراً ولبّاً وقلباً وفؤاداً، ومن ثم في كافة الحواس ومظاهرها في كافة الحقول، والقلب الفؤاد هو المحور الأصيل كإمام الأئمة في مملكة النفس الإنساني، حيث «القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء».

وكلّ صبغةٍ دون صبغة الله هي صبغةٌ إبليسيةٌ مهما اختلفت دركاتها، كما والصبغة الإلهية - في حَقْلِ التكوين والتشريع والتكليف، والواقع الحاصل بينها - درجات.

أجل ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ لا الصبغة اليهودية والنصرانية[١] أمّا هيه من المختلَقات الزور والغُرور التي هي من صَبغ الغَرور ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[٢]!.

وكما أن ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾[٣] آية يتيمة، كذلك ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ وهي أعمّ منها وأتم وأطمّ حيث تعمّ كلّ صبغة ربانية تكوينية أو تشريعية، ما بالإمكان الالتزام له أو تحصيله حتى يصبح صاحبها من أهل الله وخاصته وخيرته وحزبه، اللهم اجعلنا منهم بحقهم.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾:

فلماذا المحاجة في الله: في ذاته وصفاته وأفعاله، في وحيه وآياته، لماذا المحاجة فيه بين من يربِّبه دون نكير حسب الأصل الكتابي وصبغة الله، ثم ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ دونكم ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ دوننا كما ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ دونكم؟.

---

(١) الدر المنثور ١: ١٤١ عن قتادة قال: إن اليهود تصبغ أبناءها يهود وإن النصارى تصبغ أبناءها نصارى وإن صبغة الله الإسلام ولا صبغة أحسن من صبغة الله الإسلام ولا أطهر وهو دين الله الذي بعث به نوحاً ومن كان بعده من الأنبياء.
وفيه أخرج ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: إن بني إسرائيل قالوا: يا موسى هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله فناداه يا موسى سألوك هل يصبغ ربك فقل نعم إن أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها في صبغتي وأنزل الله على نبيه ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أقول: ولكنها لا تعني صبغة الألوان اللهم إلّا هامشاً كخلق الله ومنه الأصباغ كلها، حيث الصبغة هيئة خاصة من الصبغ فلا تعني - مبدئياً - كلّ صبغ.
والنصارى يشتغلون بصبغ أولادهم في سابع الولادة مكان ختان المسلمين، بغمسهم في الماء الأصفر المسمى عندهم بالمعمودية، وهو اسم ماء غسل به المسيح عليه السلام، فمزجوه بماء آخر وكلما استعملوا منه جعلوا مكانه ماءً آخر.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

(٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.

إن المحاجة في الدين هي حصيلة أحد أمرين: الاختلاف فيمن يُعبد ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أو الاختلاف في: أيّ الأعمال أصلح وأقرب إلى الرب ﴿وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ لا فحسب حتى نستوي فيها بل ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ معرفياً وعبودياً دون إشراك، فلماذا - إذاً - تحاجوننا؟! ولقد كانت اليهود والنصارى - كلٌّ - يختص الرب بنفسه بآصرة النبوة الإلهية المزعومة أو النبوة الممتازة المدّعاة، فرد عليهم هذه التهوسةَ العمياءَ بأن ربوبيته - كأصل - هي بيننا وبينكم على سواء، ثم ونحن نختلف في مدارج الزلفى إليه حسب الأعمال والإخلاص فيها، فمن هو أخلص منا لله معرفياً وعملياً؟.

ثم إذا اختصت الهدى والزلفى بمن كان هوداً أو نصارى، فما بال إبراهيم الخليل أهو كما نحن - في زعمكم - بعيد عن الهدى وأنتم به تنتسبون وتفتخرون؟:

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِـۧمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُۥ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾:

لقد كان هؤلاء قبل اختلاق اليهودية والنصرانية، فهل كانوا - بعد - هوداً أو نصارى؟.

وعجباً من حمقهم في عمقهم أنهم كانوا يتفوهون بهذه الفرية الوقحة على هؤلاء الرسل الكرام! وتراهم ماذا يظنون بهؤلاء؟ أهم ضُلّال لأنهم ليسوا هوداً أو نصارى، أم هم هود أو نصارى؟ ثم الله مشتبه في أمرهم، وإنما يعرف الهدى هود أو نصارى! ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾؟

ولقد كتموا شهادة إلهية تحمل بشارة محمدية: كتماناً عن أسرها، أم

تحريفاً في لفظها ومعناها لحسرها عن معناها وأسرها عن محتواها فهم أظلم وأطغى.

﴿تِلْكَ﴾ الكتلة الرسالية والرسولية الصالحة، إسرائيلية وسواها ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت بإسلامها وأعمالها ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ دونكم ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ دونهم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ﴾ أنتم - أيّاً كنتم - ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(١) - ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(٢).



(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ

فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾:

جزءٌ ثان من القرآنِ يبدأ فيه بهامة تحويل القِبْلةِ، مما أحْدَث عِراكاً حاداً بين أهل القِبْلةِ وناس سفهاء من اليهود والمشركين ومنافقين من المسلمين، فريصة كفريسة حريصةً عليها هؤلاء السفهاء من الناس بمُلابسات أحاطت به، سفسطة عارمة تُواجهها حجة صارمة من رب العالمين:

﴿سَيَقُولُ﴾ المستقبل تستقبل تحويل قبلة إلى أخرى وقوله سفيهة بعد التحويل، و﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ تساؤل استنكار على ذلك التحويل بصورة التهويل والتسويل و«هم» يحتمل أنفسهم إلى جانب سفهاء غيرهم فـ «هم» تعم سفهاء من المشركين وأهل الكتابين وجهالاً من المسلمين، ولكنما الخطر الحادق الذي سفّه جهالاً من المسلمين هو سفاهة أهل الكتاب ولا سيّما اليهود الذين كانت قِبْلَتُهم قِبْلَةَ الإسلام لردح ابتلائي من الزمن.

لو كانت القِبْلَةُ المتولى عنها في ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ هي القدس إلى الكعبة، زعم أن القدس هي القِبْلَةُ المكية، لكان صحيح التعبير هو «وقال السفهاء» فإن سفاسف القول وسفاهته من المشركين وضعفاء المسلمين كانت أشدّ خطراً على الدعوة الجديدة الإسلامية في مكة.

فلتكُن الآية نازلة قبل أي تحّول عن القِبْلَةِ المرضية - وهي الكعبة المباركة - و﴿سَيَقُولُ﴾ توطئة لتحولها إلى القدس حيث يتبع قالة سفيهة من مشركين ويهود وضعفاء من المسلمين، ثم تحول القدس إلى الكعبة المباركة حيث يتبع قالة الآخرين وتقطع ألسنة المشركين.

فالتحويلُ الأوّل هو المحور لهذه السفاهة الثالوثية، وعلى ضوئه الثاني قضاء على سفاهة وبقاء الأخرى.

ثم ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ نازلة بعد التحويل الثاني فإن ﴿ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ التي يعتذر منها هي القدس، إذ لم يكن اتباع الرسول - كابتلاء للمسلمين - إلّا في التحولِ عن الكعبة إلى القدس، فإن التحوّل عن القدس إلى الكعبة كان مرجواً لهم ينتظرونه ليل نهار كما والرسول ﷺ كان يقلب وجهه إلى السماء.

ولم تكن الكبيرة الثقيلة عليهم إلّا قِبْلَةَ القدس المتحوَّل إليها من الكعبة المباركة، ثم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ طَمأنة لهم بالنسبة لفترة القِبْلَةِ الثانية، زعماً من بعضهم أن صلاتهم إليها كانت ضائعة.

فـ ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ من المسلمين، تعني - بطبيعة الحال - القِبْلَةَ المكية، وكذلك من غيرهم حيث القِبْلَة المتولى عنها هي قِبْلَة المسلمين، فهي - على أي الحالين - ليست القدس، بل الكعبة المباركة، مهما شملت ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ التحويل الثاني ضمنياً، وهو من القدس إلى الكعبة. ثم ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾ إجابة صارمة عن كافة المشاكل المزعومة حول النسخ والتحويل، سواء من أهل الكتاب أم سفهاء المسلمين... أترى بعد ﴿قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَاۚ﴾ هي القدس؟ وصيغتها الصحيحة - ولا سيّما من اليهود المتبجحين بقِبْلَتِهم ويكلٍّ ما لديهم -: «قِبْلَتنا» توهيناً للمسلمين أنهم ما كانت لهم قبلة في بزوغ إسلامهم إلّا قِبْلَتنا، و﴿قِبْلَتِهِمُ﴾ هي الكعبة المباركة

التي كانت قِبْلَةً لهم في العهد المكي، ثم حوّلت عنها بعد الهجرة لمصلحة وقتية مذكورة في آيات تالية، ثم رجعت إلى ما كانت للمصلحة الدائبة الخالدة في استقبال البيت العتيق، وقد دلت على ذلك أحاديث(١).

أم أنها القدس إذ كانت قبلتهم منذ بزوغ الإسلام وحتى أشهر بعد الهجرة ثم حولت إلى شطر المسجد الحرام كما تدل عليه طائفة أخرى من أحاديث(٢)، وعلّ التعبير عن القدس هنا بـ ﴿قِبْلَتِهِمُ﴾ يعني تعميق الشبهة في ذلك التحويل، أنها كانت قبلتهم منذ البداية، فهي - إذاً - قِبْلَتَهُم، مهما كانت كذلك قِبْلَتنَا، فهم لا يُعارضوننا - فقط - في شُرْعتنا، بل وفي شُرْعَتهم، معارضة ذات بُعْدَيْنِ بعيدين عن شرعة الحق التي لا تتحول - في قياسهم - نكراناً للنسخ - أيّاً كان - وهم في الوقت نفسه معترفون بالشرعة

(١) كما في الدر المنثور ١: ١٤٢ عن ابن عباس قال: أوّل ما نسخ في القرآن القبلة وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم . . . وفيه عن البراء بن عازب كان رسول الله ﷺ قد صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً . . . وعن ابن عباس أن محمداً كان يستقبل صخرة بيت المقدس وهي قبلة اليهود فاستقبلها سبعة عشر شهراً ليؤمنوا به وليتبعوه وليدعوا بذلك الأميين من العرب فقال الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١١٥] وقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٤]، وعن سعيد بن عبد العزيز أن النبي ﷺ صلّى نحو بيت المقدس من شهر ربيع الأول إلى جمادى الآخرة، وفيه عن أنس أن القبلة قد حولت إلى الكعبة مرتين. فمالوا كما هم ركوع إلى الكعبة.

(٢) كما في الدر المنثور ١: ١٤٣ - أخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب أن الأنصار صلت للقبلة الأولى قبل قدوم النبي ﷺ المدينة بثلاث حجج وأن النبي ﷺ صلّى للقبلة الأولى بعد قدومه المدينة ستة عشر شهراً.

وفي تفسير البرهان ١: ١٥٨ - أبو علي الطبرسي عن علي بن إبراهيم بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: تحولت القبلة إلى الكعبة بعد ما صلى النبي ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة إلى بيت المقدس وبعد مهاجرته إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس سبعة أشهر، قال: ثم وجهه الله إلى الكعبة . . .

الإبراهيمية المنسوخة في البعض من أحكامها بالشرعة التوراتية، وعارفون التناسخ في التوراة نفسها، وهم الآن ينددون بكلِّ نسخٍ وناسخٍ بعد التوراة!

وعلّ ﴿قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ تشمل القبلتين، حيث كانت هي الكعبة ثم تحولت إلى القدس، ثم من القدس إلى الكعبة، وكلاهما ﴿قِبْلَتِهِمُ﴾ إذ كانتا أمراً من شرعتهم، ولا صراحة في الآيات لإحداهما بل «سيقول» تعمّهما مهما اختلفت قولة عن قولة كما اختلفت قبلة عن قبلة، ثم الأحاديث القائلة أنه ﷺ أمر في العهد المكي أن يستقبل القدس من واجهة الكعبة[1] قد تجمع بين القبلتين في العهد المكي، ولكلٍّ من القِبْلَتَيْنِ ملامح في ذلك العهد من الآيات التالية، لا سيّما بالنسبة للكعبة المباركة.

ف ﴿سَيَقُولُ﴾ كقولة معترضة آتية من السفهاء، هي أَحْرَى أن تكون «قال» لو أن القدس هي القِبْلَة المكية، فإنها هي الأصيلة عند الموحدين والمشركين، فكون القدس - إذاً - هي القبلة المكية هو مثارٌ لسفاهة وسفاسفة القول أكثر من تحويل القبلة عن القدس إليها، ومن ثم فكلٌّ من إلّا

---

(١) المصدر عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يصلّي وهو بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه وبعدما تحول إلى المدينة ستة عشر شهراً ثم صرفه الله إلى الكعبة. وفي تفسير البرهان ١ : ١٥٨ - الإمام أبو محمد العسكري عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ إذ كان بمكة أمره أن يتوجه نحو بيت المقدس في صلواتهم ويجعل الكعبة بينه وبينها إذا أمكن لم وإذا لم يمكن استقبل بيت المقدس فكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك طول مقامه بها ثلاث عشرة سنة فلما كان بالمدينة وكان متعبداً باستقبال بيت المقدس استقبله وانحرف عن الكعبة سبعة عشر شهراً أو ستة عشر شهراً . . .

وفي الدر المنثور ١ : ١٧٥ - أخرج أحمد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن معاذ بن جبل قال: أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال وأحيل الصيام ثلاثة أحوال فأمّا أحوال الصلاة فإن النبي ﷺ قدم المدينة فصلى سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس ثم إن الله أنزل عليه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤] الآية فوجهه الله إلى مكة هذا حول . . .

لنعلم. . . قد نرى تقلب وجهك. . . لئلا يكون للناس عليكم حجة. . . كلٌّ ذلك إضافة إلى أن مكية القدس في القبلة هي من الموانع العظيمة لقبول الإسلام لذلك القول اللدّ - لدّاً إلى لدِّهم! - هذه الخمس هي من عساكر البراهين لكون القبلة المكية هي الكعبة المباركة، مهما اتَّجه الرسول ﷺ إلى القدس من قِبَلها ضمنها أم لم يتجه، وتفصيل الأربعة الأخيرة تجدهُ عند آياتها.

وعلى أية حال فلقد جاء قومٌ من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! هذه القِبْلَة بيت المقدس قد صلّيت إليها ثم تركتها الآن، أفحقًّا كان ما كنت عليه؟ فقد تركتهُ إلى باطل! فإن ما يخالف الحق فهو باطل، أو باطلاً؟ فقد كنت عليه طول هذه المدة! فما يؤمننا أن تكون الآن على باطل؟ فقال رسول الله ﷺ: بل ذلك كان حقاً وهذا حق يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إذا عرف صلاحكم يا أيها العباد في استقبال المشرق أمركم به وإذا عرف صلاحكم في استقبال المغرب أمركم به، وإن عرف صلاحكم في غيرها أمركم به، فلا تنكروا تدبير الله في عباده وقصده إلى مصالحكم. . .[1].

والمشرق والمغرب هنا هما تعبيران عن كافة الجهات الأرضية، لأنهما النقطتان الأصيلتان، فليس المشرق: القدس - فقط - لله، أو المغرب: قِبْلَة النصارى - فقط - لله، بل والجنوب الكعبة فلهُ الجهات كلَّها، يحوِّل عبادهُ في صلاتهم وكلّ صلاتهم أينما يُريد لمصالح وابتلاءات، كما وأن أصل تحوّل شُرْعة إلى شرعة ابتلاء: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

---

(١) هذا من تتمة الحديث السابق عن الإمام العسكري، ومكان النقط . . . أربع عشرة سنة، فهو من القسم الثاني الدال على أن القبلة في مكة كانت هي القدس، ولكن باتجاه الكعبة.

لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(١). فكما أن قِبْلَة القدس - في وقتها - صراط مستقيم لاتجاه الصلاة، كذلك الكعبة المباركة صراط مستقيم، بل هي الأصل المقصود على مدار الزمن الرسالي، ولا سيّما الإسلامي، وقِبْلَة القدس ابتلاء وقتي لمصلحة وقتية وقد مضت.

وقد اختلفت الروايات في عديد الأشهر المدنية لقِبْلَة القدس من خمسة إلى سبعة إلى سبعة عشر، ولأن عديد الأشهر ليس من صميم قصته التحويل، لم تشر إليها الآيات وكما لم تصرح للقبلة المكية، فإنما الأصل في مسرح البحث هو تحويل القبلة، وأن أصلها هو الكعبة المباركة.

ولقد انطلقت أبواق اليهود السفهاء - ومعهم سائر السفهاء من الناس مشركين ومنافقين ومسيحيين - تصرخ على المسامع ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ مرة أولى حين تحولت عن الكعبة إلى القدس، ومرة أخرى إذ تحولت عن القدس إلى الكعبة، انطلقت تلقي في صفوف المسلمين وفي قلوب السذج منهم بذور الريبة والقلقة، حيث النسخ - في زعمهم - دليل الجهل وهو لا يصدر عن مصدر الربوبية، دليلاً على أن محمداً لا يصدر عن ربه!.

ذلك! رغم ما سبق في ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾... إذ بيّنت أن النسخ - على أية حال - تحمل مصلحة مماثلة أو خيراً مما نُسخ، وقبلة الكعبة خيرٌ من قبلة القدس كأصل على مدار الزمن، كما وأن قبلة القدس كانت خيراً منها - مصلحياً وقتياً كاختبار - أو مثلها في أصل الاتجاه.

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾:

آية وحيدة تحمل صيغة الأمة الوسط، لا تشبهها إلّا آية الحج إلّا في لفظ الوسط: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ﴾(١).

فهذه وإن لم تحمل صيغة الوسط، ولكنها تواصفه تفسيراً له أنهم هم الوسط بين الرسول والناس، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التحويل للقبلة الأصيلة إلى قِبْلَة يهودية، خروجاً عن العنصرية والطائفية فيها، كذلك البعيد المدى، الوسيع الصدى، البليغ الهدى من صبغة الإسلام وإسلام الصبغة ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ فما هو الوسط لهذه الأمة، ومن هم المعنيون بـ «كم أمة؟» أهم الوسط بين إفراطِ الحياة الجسدانية وتفريطِ الحياة الروحية، حيث الوسط بينهما جامع لهما مهما كانت الحياة الروحية هي الأصيلة بينهما؟.

وهذا مهما كان صحيحاً في نفسه، ولكنه لا يُناسب خلفيته الصريحة هنا: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فإن هذه الوسطية تتطلّب مرجعية الأمة الوسط لطرفي الإفراط والتفريط، لا أن تكون شهيدة عليهم، إلّا بمعنى الرقابة على أعمالهم كشهادة خاصة! أم شاهدة عليهم في حقل الاعتدال، نِبْراساً لهم في ترك الأنانية والإنية الطائفية، وتحلُّلاً في شرعة الله عن الانحيازات غير الشرعية، اتباعاً لأمر الله كيفما كان وإن في ترك المجد القِبلي والقَبلي، كما وأن الوسط اليهودي والنصراني لا يمتُّ بصلةٍ لهذه الوسطية الإسلامية لأنهما من أهل الكتب السماوية وهي كلّها تحمل الشرعة

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

المعتدلة الوسط، اللّهم إلّا بالنسبة لإفراط اليهود في الاتّجاهات المادية، وتفريط النصارى فيها مبدئياً كنسيّاً - مهما تورطوا في الماديات وأكثر من اليهود، ولكن ﴿جَعَلْنَكُمْ﴾ يختصّ الوسط بجعلٍ ربانيٍّ وليس الإفراط والتفريط يهودياً ونصرانياً من جعل الله!... أم هم الوسط بين الرسول والناس، كما يُنادي به الانقسامات الثلاثة: شهداء على الناس - الرسول الشهيد على الشهداء، وناس، فطبيعة الحال قاضية هنا باختصاص للشهداء على الناس بهذا الرسول الشهيد عليهم.

فهل هم - بعدُ - كل الأمة الإسلامية؟ وفيهم بغاة وفساق طغاة! أم وعدول لا يصلحون للشهادة على الناس![1] اللّهم إلّا شهادة على حق الوسط الاعتدال.

إن نفس الشهادة على الناس كوسط بين الرسول والناس، يحدُّ موقف الأمة الوسط، فهنالك شهادة متعدية بنفسها: شهده، وهنا «شهد على» أم شهادة له لصالحه كدعاية ذاتية، أم تمثيلاً للكيان الرسولي؟ وهنا «شهد على».

فـ «شهده» تتطلّب حُضوراً عند العمل أياً كان، حُضوراً ذاتياً أم علمياً، ولا يتيسّر إلّا للرسول ﷺ والمعصومين من عترته عليهم السلام!

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٣٥ عن تفسير العياشي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال الله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ فإن ظننت أن الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحدين، أفترى أن من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاعٍ من تمرٍ يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟ كلّا! لم يعنِ الله مثل هذا من خلقه، يعني الأمة التي وجبت لها دعوة إبراهيم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠] وهم الأمة الوسطى وهم خير امة أخرجت للناس.

أقول: فكما الرسول شهيد على الأمة الوسط كذلك الأمة الوسط شهيدة على الناس، وقد تعني الشهادة هنا كل مراحلها ولكنها محصورة في الشهادة على، من شهادة على الأعمال لكي تكون وسطاً، وشهادة عليها إلقاء لها يوم يقوم الاشهاد فلا بدّ أولاً من تلقّيها.

و«شهد له» محصورة في بعديها بالعدول الصالحين من الأمة المسلمة.

ثم و«شهد عليه» هنا في الدعاوى، تتطلب العدالة، وليست الأمة - ككلّ - عادلة، ولا أن الآية تختص الشهادة بالدعاوى.

و«شهد عليه» هنا في الأعمال، تختص بالصالحين الداعين إلى الخير الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، دون كلّ الأمة ولا كلّ العدول، وتلك الدعوة - على شروطها - لا تختص بالأمة الإسلامية. و«شهد عليه» - إلقاء للشهادة على الأعمال يوم يقوم الأشهاد - يتطلب تلقياً لها هنا حضوراً ذاتياً أو علمياً بما يعلّمهم الله، وذلك مخصوص بالمعصومين! ثم ولا تختص تلك الشهادة بخصوص المعصومين من هذه الأمة!.

وعلى كلٍّ فلا تعني الآية كلَّ الأمة الإسلامية دون ريب، فقد تعني عُدول الأمة حيث يمثّلون الرسول ﷺ على قَدْرِ عدلهم بين الناس: مسلمين وسواهم، ثم وبأحرى العدول الدعاة من الأمة، الآمرة الناهية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1] [2]، فهي مهما عمّت كلّ المؤمنين، إلّا أن مؤمني هذه الأمة أعلى محتداً ممن سواهم.

ثم في القمة، الأئمة الاثني عشر المعصومون عليهم السلام، فإنهم القمة العليا بعد الرسول ﷺ من الشهداء بكلّ معاني الشهادة ومغازيها ومراميها ولا سيّما الشهادة على الأعمال والأحوال، فالوسط في الأمة هي العدل على مراتبه ومراتبهم[3] فلأن العدل في هذه الأمة أعدل منه في غيرها وأفضل،

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٩.

(٢) نور الثقلين ١ : ١٣٣ عن الكافي بإسناده إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام حديث طويل وفيه يقول: ولقد قضي الأمر أن لا يكون بين المؤمنين اختلاف ولذلك جعلهم شهداء على الناس ليشهد محمد ﷺ علينا ولنشهد على شيعتنا وليشهد شيعتنا على الناس.

(٣) الدر المنثور ١ : ١٤٤ - أخرج جماعات عدة عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عباس وجماعة آخرين عن النبي ﷺ أن ﴿وَسَطًا﴾ [البَقَرَة: ١٤٣] في الآية تعني «عدلاً» والعدل =

فكأنَّ العدول منهم هم الشهداء - فحسب - على الناس، سواء ناسُ المسلمين أو الكتابيين أو المشركين والملحدين، إلّا أن لكلّ شهادة أهلها الخصوص دونما فوضى جزاف.

فمؤمنو هذه الأمة شهداء على الناس شهادة ذاتية بأعمالهم وأحوالهم، وشهادة على كيان هذه الرسالة السامية، شهوداً منه ﷺ على محتده الرسالي.

والدعاة إلى الله منهم شهداء على الناس رقابة على أعمالهم وأحوالهم، ودعوة لترقيتهم عن نقائصهم ممثلين للرسول ﷺ في كلّ دعواتهم الصالحة.

والأئمة المعصومون منهم - إضافة إلى هذه وتلك - هم شهداء على أعمالهم وأحوالهم، بل وعلى كافة المكلفين على مدار الزمن الرسالي دون إبقاء[1].

فأعلى الوسط بين الرسول ﷺ وبين الناس هم هؤلاء الأكارم، تمثيلاً للرسول ﷺ، كما هو، وتبييناً لشريعة الحق كما هي «إلينا يرجع الغالي وبنا يلحق المقصر»[2].

= درجات كما بيناه في درجات الشهادات.

وفي نور الثقلين ١ : ١٣٥ عن كتاب المناقب وفي رواية حمران بن أعين عنه عليه السلام إنما أنزل الله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البَقَرَة: ١٤٣] يعني: عدولاً - لتكونوا . . . ولا يكون شهداء على الناس إلّا الأئمة والرسل عليهم السلام، فأما الأمة فإنه غير جائز أن يستشهدها الله وفيهم من لا تجوز شهادته في الدنيا على حزمة بقل.

(١) نور الثقلين ١ : ١٣٤ في تفسير العياشي عن أبي بصير قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: نحن نمط الحجاز، فقلت: وما نمط الحجاز؟ قال: أوسط الأنماط، إن الله يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البَقَرَة: ١٤٣] وثم قال: إلينا . .

(٢) نور الثقلين ١ : ١٣٤ عن أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: نحن الأمة الوسطى ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه، ورواه مثله بريد العجلي عن =

كما وأن الشرعة الإسلامية هي الوسط المعتدل بين كلِّ إفراطٍ وتفريطٍ مختلَقَين في كتابات السماء، فنفس تحوّل القِبْلة إلى القدس ردحاً من الزمن وسطية واعتدال حيث تزال به العصبية القومية في القبلة، رغم أن القِبْلة الإسلامية هي الكعبة المباركة، بل هي القِبْلة في كلِّ الشرائع الإلهية، فرغم كل ذلك يُؤمر المسلمون قضاء على الإنحيازية القِبلية والقَبلية أن يتجهوا إلى القدس شطراً من العهد المدني، حال أن أهل الكتابين ليسوا تابعين قبلة بعضهم البعض رغم وحدة الشرعة التوراتية بينهم، فقد تعني ﴿وَسَطًا﴾ كلّ هذه الأوساط، متمحورة الوسط المعصوم الرسالي المتمثل في الأئمة الاثني عشر عليهم السلام أجمعين.

ثم ذلك الجعل يعمّ حَقْلَي التكوين والتشريع، فكينونة هذه الأمة الأئمة ومَن دونهم من العدول، هي مجعولة بجعل رباني بما سعوا، كما وشرعتهم بما طبّقوها فيما سعوا: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] تمثُّلاً بالحقْلَيْن، جمعاً بين الجَعْلَيْن، فكما ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[2] بكلا الجَعْلَيْن ثم جعل القدس قِبْلة مؤقتة ابتلاء للمسلمين وإزالة للفوارق الطائفية ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ﴾ أهل القِبْلة الواجبة لهم دعوة إبراهيم عليه السلام.

ووسط الرأي في الأمة الوسط، بعيداً عن كلِّ الانحيازات إلّا في حوزة الوسط وحيازتها، إنها هي الوسط بكلِّ معاني الوسط مهما اختلفت درجاتها وصِلاتها:

= الباقر عليه السلام. وفيه عن المجمع روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني في كتاب شواهد التنزيل لقواعد التفضيل بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي عن علي عليه السلام: إن الله تعالى إيّانا عنى بقوله: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٣] فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شاهد علينا ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه ونحن الذين قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البَقَرَة: ١٤٣].

(١) سور النجم، الآية: ٣٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ كمَجْعولةٍ إلهيةٍ - في التصوّر والعقيدة، بعيداً عن غلوِّ التجرُّد الروحي، وحمأة الركسة المادية، معطية لكلٍّ من الروح والجسد حقه دون أي إفراط أو تفريط.

ووسطاً في المشاعر والإدراكات، دون تجمُّد على حاضرها لتغلق عليها كلّ منافذ المعرفة تجريبياً أماهيه، ولا اتِّباع أعمى لكلٍّ ناعق، بل هي منطلقة على ضوء الهدي القرآني والسنة المحمدية، قابلة كلّ ما يوافق هديها المعصوم وعقلها المقسوم وصراطها المرسوم.

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ في تنسيق الحياة، فلا تطلقها - فقط - للضمائر والمشاعر، ولا تدعمها - فقط - للتشريع والتأديب، وإنما ترفع ضمائرها بالتوجيه والتهذيب، فلا تكلّ الناس إلى سوط السلطان ولا - فقط - إلى وحي الوجدان.

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ في العلاقات الحيوية، لا تؤصِّل الفرد فالمجتمع كهامش له خادم، ولا تُلغي شخصية الفرد تأصيلاً للمجتمع، بل هما عندها أصلان، كلٌّ يخدم الآخر، ترجيحاً لكفة ميزان المجتمع لأنه مجموعة أفراد.

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ في كلِّ وسط وفي جميع الأوساط، خارجة عن حدَّي الإفراط والتفريط، فوسطاً في النهاية تتمحورها كلَّ الأمم حيث تُسدِّد البشرية بِسُلْطَتِها المهدوية في آخر الزمن.

فلا تعني وسطاً وسطاً بين الأمم في الواقع الزمني للأمم، حتى يتعلّق به مُتعلِّق ممن يُنْكِرُ خاتمية الأمة الإسلامية، إنها الوسط بين الأمم، فقد تأتي أممٌ رسالية بعدها.

فإن ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وكذلك ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ﴾ تنفيان ذلك، حيث الوسطية بين الرسول والناس هي غير الوسطية بين الأمم، فتلك الوسطية تقتضي الخاتمية لهذه الأمة، حيث الوسطية الزمنية ليست فخراً ولا مستلزمة لكونهم

وسطاً بين الرسول والناس، فإنما يعني من ﴿وَسَطًا﴾ هنا ما يناسب تحويل القِبْلة كشرعة معتدلة، أو يناسب الشهادة على الناس وسطاً بين الرسول وبين الناس.

فما من شُرْعةٍ حوِّلت فيها القِبْلة كما حوِّلت في شرعة الإسلام، ولا أمة وسط بين الرسول والناس، هم شهداء على الناس كما الرسول شهيد عليهم، اللهم إلّا شرعة الإسلام بأمتها.

فتلك الشرعة البعيدة عن كافة الانحيازات والامتيازات القبلية والعنصرية، هي الوحيدة بين كلّ شرائع الدين.

كما أن تلك الأمة الشهيدة على الناس هي الوحيدة بين كلِّ الأمم الرسالية على مدار الزمن الرسالي، والنظر إلى الآيات السابقة يوسع تلك الوسطية، فإنها تلتزم بصبغة الله دون الصبغة اليهودية أو النصرانية، وتلتزم بهدي الله تصديقاً بكلّ رسالات الله وكلّ ما أنزل الله دون التجمد على طائفية كتابية: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١).

وكما هو وسط في القبلة، لا خصوص الكعبة ولا خصوص القدس، بل هما معاً مهما كانت الكعبة هي الأصيلة الدائبة، وكما كانت قبلة لكافة الموحدين أحياء وأمواتاً طول الزمن الرسالي.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ فيها بيان الحكمة الحكيمة لجعل القبلة الابتلائية السابقة، بلمحة أنها كانت مؤقتة لمصلحة وقتية، وكأن الله يعتذر فيها إلى

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٥.

الرسول ﷺ من جَعْل تلك القبلة، وعلّه لم يسمِّها تخفيضاً لشأنها أمام الكعبة المباركة، ولمحة في لمحات أن لم يبتدأ الإسلام بها عند بزوغه، وإلّا كان الحق الصحيح والفصيح أن يعبر عن القدس كقبلة وإن في مرة يتيمة، ولا نجد في القرآن كله بيت عبادة ومتجَهٍ للصلاة إلّا الكعبة المشرفة، تارة كـ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾[1] - وطبعاً ليس للسكن، فإنما للطواف حوله والصلاة تجاهه - وأخرى ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[2] ومن مثابته: المُقْبل، إقبالاً إليه حجاً له، واستقبالاً للصلاة إليه، وثالثة يُؤمر الخليل بتطهيره ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[3] وهذه الثالثة المعبرة عن الصلاة تعم الصلاة فيه أم في المسجد الحرام، ثم في المعمورة كلها، ومن ثم الكون كله، أن يستقبلوا البيت الطاهر عن قذارات خبيثة، وعن الرجس من الأوثان.

ولا موقع لـ﴿لِنَعْلَمَ﴾ إلّا في ظرف التحول عن الكعبة إلى القدس دون العكس فإنّه مرغوب لكلٍّ من أسلم، والكبيرة إلّا على الذين هدى الله ليست إلّا القدس المتحول إليها من الكعبة، فهذه من اللمحات اللمعات كصراحة أن القدس هي ثاني القبلتين.

و«نعلم» هنا هي من العلم العلامة، كما تشهد له وحدة المفعول وللعلم مفعولان اثنان[4] فـ﴿ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وهي القدس، جعلناها قبلة بديلة عن القبلة الأصيلة، ردحاً مؤقتاً في بداية العهد المدني ﴿وَمَا جَعَلْنَا... إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ علامة واقعية ظاهرة باهرة لـ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ ﷺ حقاً ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ جاهلياً.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٤) في آيات عشر أو تزيد نجد هذه الصيغة مصوغة من العلم لا العلم، وفي الكلّ نجد مفعولاً واحداً لا يُناسب العلم المتطلبة مفعولين، فلا حاجة إلى تعليلات عليلة لها.

فلقد كانت العرب تعظِّم البيت الحرام عربياً جاهلياً، ولمّا آمن منهم من آمن وكانت قبلتهم إسلامياً هي قبلة مجدهم القومي، ولمّا يخلصوا ويتخلصوا عن آصرة القومية، أراد الله منهم أن يتجردوا في قبلتهم - كما في كلّ شيء - إسلامياً، تخليصاً حثيثاً من كلِّ تعلقة بغير المنهج الإسلامي، فابتلاهم في الفترة الأولى المدنية - وهم بين اليهود - أن يتحولوا إلى القدس ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ كرسول لا كعربي، اتباعاً مجرداً من كلِّ إيحاء غير إسلامي ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ صراحاً أم نفاقاً عارماً من هؤلاء الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم، أو لمّاً، فإن فيها رواسب من الجاهلية الجهلاء، ليسوا ليستقبلوا قبلة اليهود، تاركين بيت مجدهم القومي القديم! فإنه الآن على أشراف تأسيس دولة إسلامية، لا تصلح لها إلّا أعواد وأعضاد وأعماد صالحة، خالصة عن كلّ نزعة غير إسلامية، فلُيبتلوا بذلك البلاء العظيم، ليُعرف الغثُّ من الثمين والخائن من الأمين ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ ﴿ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ ﴿لَكَبِيرَةً﴾ ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ بما اهتدوا بهُدى الله، بعيدين عن كلِّ هوى إلّا هَوى الله وهُدى الله، و«إن ناساً ممن أسلم رجعوا فقالوا مرة هاهنا ومرة هاهنا»(١).

وهكذا تتجرَّد القلوب متخلصة من كلِّ رواسب الجاهلية ووشائجها، ومن كلِّ سِماتها القديمة ووصماتها، ومن كلّ رغائبها الدفينة، متعرية من كلِّ رداءٍ لبست في الجاهلية ولمَّا تخلعها مهما ادعت خلعها، فتنفرد هذه القلوب لشعار الإسلام وشعوره تاركة كلَّ شعور وشعار لغير الإسلام.

إن العرب كانت تعتبر - ولا تزال - أن الكعبة المباركة هي بيت العرب المقدس، والله يريد لها منهم أن تكون بيت الله المقدس «مثابةً للناس وقياماً

(١) الدر المنثور ١: ١٤٦ - أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: بلغني أن ناساً...

للناس - ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾[(١)] دون تميُّز لقوم، ولا تمييز بين عربي وأعجمي.

ومهما كان الانخلاع - وإن مؤقتاً - عن ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾[(٢)] الذي رفع قواعده الخليل وعظّمه الجليل - مهما كان «كبيرة» لكنها على من لم يهد الله ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾.

ثم ورداً على غيلة السفهاء من الناس - القائلة -: إذاً فصلوات الذين صلّوا إلى الكعبة طيلة العهد المكي باطلة - إذا كانت القبلة هي القدس - أم وصلوات الذين صلوا إلى القدس باطلة حين حوّلت القبلة عنه إلى الكعبة المباركة، وكما «قال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا من مات منا قبل أن نصرف إلى القِبْلة كيف بصلاتنا نحو بيت المقدس» فأنزل الله:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

هنا تُسمى الصلاة نحو القبلة الشرعية - كعبة أو قدساً - إيماناً، لأنها قاعدة الإيمان وعمود الدين، وأنها كانت بنزعة الإيمان، فالذين صلّوا نحو القدس تركاً لبيت مجدهم القديم لم يصلّوا نحوه إلّا إيماناً بالله واحتراماً لأمر الله، بل وصلاتهم أقرب إلى الله زلفى ممن صلّوا من قَبْلُ ومن بَعْد إلى المسجد الحرام، فكيف يضيع الله إيمانهم وهو الذي أمرهم باستقبالهم نحو القدس ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ فهل إن علامة اتّباع الرسول ضائعة عند الله؟!... هنا ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ هي ثاني التأشيرات بعد ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ تأييداً لكون القبلة المكية هي الكعبة المباركة، حيث العلامة هذه تحصل في بداية الفترة المدنية، دون حاجة إلى هذه الطائلة

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

المكية المزعومة بلا طائلة: أربع عشرة سنة، فلو أنهم أمروا في العهد المكي باتِّجاه القُدُس - ولم تكن فيه يهود ليزدادوا ابتلاءً بهم - لكان ذلك رادِعاً عن إسلامهم، وهم قوم لدٌّ ليسوا ليؤمنوا بكلّ الجواذب والتبشيرات، فكيف كان لهم أن يؤمنوا وهم يُفاجَؤون في بُزوغ الدعوة بترك القِبْلة المكية، وما هو الداعي لتكون القِبْلَة المكية هي القُدْس إلّا صداً عن دخولهم في دين الله بداية الدعوة؟ ثم ولم ينقل ولا مرة يتيمة أن جماعة من العرب امتنعوا عن الإسلام لأن قبلته متخلفة عن الكعبة المباركة، ولا أنه كان يصلي إلى القدس في مكة مُتحوّلاً عن الكعبة!... ولو كانت القِبْلة في العهد المكي هي القدس لشملت قصتها الكتب وتواترت في الألسن، ونقلت اعتراضات متواترة من عرب الحجاز على هذه القِبْلة!.

ثم وإن هوى أهل مكة كان في الكعبة فأراد الله أن يُبيِّن متبّع محمد ﷺ ممن خالفه باتِّباع القِبْلة التي كرهها ومحمد ﷺ يأمر بها[1] لا يُشْبِهُ حديث الحق، فإن مجال مخالفة الهوى في شرعة الحق - وبهذه الصورة القاسية - ليس في غضون الدعوة التي تتطلب لينة وجاذبية لهؤلاء القوم اللُّد!، والبداية بقبلة القدس هي من أعضل المشاكل صداً عن دخولهم في دين الله!.

نعم قد يُروى شطرٌ قليلٌ من العَهْدين لقِبْلَة القُدْس أن صلينا مع رسول

(١) نور الثقلين ١: ١١٤ في كتاب الاحتجاج قيل: يا بن رسول الله فلِمَ أمر بالقبلة الأولى؟ فقال: لما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا - وهي بيت المقدس - إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] إلّا لنعلم ذلك منه وجوداً بعد أن علمناه سيوجد، وذلك أن هوى... ولما كان هوى أهل المدينة في بيت المقدس أمرهم بمخالفتها والتوجه إلى الكعبة ليبين من يوافق محمداً فيما كرهه فهو يصدقه ويوافقه... فعرف أن الله يتعبد بخلاف ما يريده المرء ليبتلي طاعته في مخالفة هواه... أقول: تفسير ﴿لِنَعْلَمَ﴾ يشبه تفسير المتفلسفين، ثم وسائر مواضيع الحديث يشبه التقاطات ملفقة بين حق وباطل.

الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً وصرفت القِبْلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين. . .[١] وهو وسط بين الأمرين، وفيه محنة لأهلي البلدين في العهدين.

هذا - وأما القِبْلةُ المدنية في بداية الهجرة فالجوُّ اليهودي فيها كان يزيد ابتلاء لتحول القِبْلة إلى القدس، فبرزوا بارزين من الناجحين في ذلك الامتحان العظيم كأعضاد للدولة الجديدة.

ثم لا معنى لـ ﴿لِنَعْلَمَ﴾ في تحول القبلة، إلّا في تحولها عن الكعبة إلى القدس، حيث اتّباع من اتّبع الرسول ﷺ ليس علامة الإيمان إلّا هنا، وأما اتّباعه في التحوّل إلى الكعبة بعد القدس فهو رغبة المسلمين أجمع، وحتى أهل الكتاب الذين أسلموا فَضْلاً عن أهل الحَرَمِ!.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٤٤﴾:

لقد بلغت مِحْنةُ الامتحان في قبلة القدس لحدٍّ يتقلب وجه الرسول ﷺ في السماء، نظرة الأمر بتحوّل القِبْلة المُمْتَحن بها إلى القِبْلة الأصيلة التي يرضاها، فمهما يرضى كلما يرضاها الله من قبلة، ولكن الكعبة المباركة هي أوّل بيت وضع للناس مباركاً وهدىً للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم، وهي مثابة للناس وقيام، فهذه جهة من رضاه بها، وأخرى هي انتهاء أمد الابتلاء بِقْبلَةِ القدس، وثالثة أن اليهود يحتجون عليه وعلى المسلمين بهذه القبلة، إذاً فـ ﴿تَرْضَىٰهَاۚ﴾ لا تعني إلّا مرضاة الله، إذ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[٢] كما ولا تعني سُخطه لقِبْلَةِ القدس، فإنما هو سخط لاستمرارية

(١) الدر المنثور ١ : ١٤٦ - أخرج ابن ماجة عن البراء قال صلينا.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

الحجة اليهودية على المسلمين، زعزعة في إيمانهم، وزحزحة عن إيقانهم وكما قال الله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ ثم «التقلب» دون «التقليب» تلمح أنه ما كان يقلّب وجهه، وإنما يتقلّب وجهه أتوماتيكيّاً في السماء كما كانت تقتضيه الحالة الرسالية الأخيرة، الناظرة للقبلة الأصيلة... ثم ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ هي ثالثة التأشيرات لكون القِبْلة المكية هي الكعبة المباركة، إذ كان الرسول ﷺ يحبُّها منذ عرف نفسه ومنذ أرسل، فهل كان يتقلّبْ وجهه في السماء طيلة العهد المكي إضافة إلى ردحٍ من المدني: أربع عشرة سنة؟ وصيغته الصالحة «تقلبات وجهك» تدليلاً على التكرار والاستمرار، دون ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ اللّامح إلى مرة يتيمة جديدة جادَّة، عرف الرسول ﷺ فيها أن الامتحان حاصل، وأمر التحويل إلى المسجد الحرام على الأشراف، ولكنه لم يتفوه بدعائه واستدعائه لذلك التحوّل، فإنما إشارة الانتظار بتقلّب وجهه في سماء الوحي نَظِرةَ نَزول رسول الوحي حاملاً تحويل القبلة... ﴿قَدْ نَرَىٰ... فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ هي الكعبة المباركة التي أنا أرضاها، بعد الفترة الابتلائية المدنية لِقبْلَةِ القُدس ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

كلّ ذلك يشي بتلك الرغبة القوية الرقيبة الظروف المؤاتية لتحوّل القِبْلة بعد ما كثر حجاج اليهود ولجاجهم، إذ وجدوا في اتجاه المسلمين إلى قبلتهم في تلك الفترة الخطيرة، وسيلة للتمويه والتضليل والبلبلة والتجديل، فأخيراً - ولما أحسَّ الرسول ﷺ بخاتمة البلية، أصبح يقلب وجهه في السماء، دون أن يصرح بدعاء[1] حرمة لأمر ربه على إمره، وتحرُّجاً من

(١) نور الثقلين ١ : ١١٤ في تهذيب الأحكام الطاطري عن محمد بن أبي حمزة عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قوله عز وجل : ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ أمره به؟ قال: نعم إن رسول الله ﷺ كان يقلّب وجهه إلى السماء فعلم الله عز وجل ما في نفسه فقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ﴾.

اقتراح مبكَّر ليس في وقته، فأجابه ربّه فور تقلب وجهه: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ﴾[1] ولقد أمر بتلك التولية وهو يُصلّي في المسجد المسمى لذلك بـ«القِبْلتين»[2].

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ عن القِبْلة المؤقتة الابتلائية ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ كأمرٍ يختصُّه تشريفاً لسماحته وتعظيماً لساحته، ثم أمرٌ يعمُّ المسلمين كافة: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ﴾ فما هو شَطْرُ القِبْلة هنا، وهل هو قِبْلةٌ - فقط - للنائين، أم وللقريبين إلى المسجد الحرام، أم والكائنين فيه أمام الكعبة المباركة؟.

---

(١) فالروايات القائلة إنه دعى مقترحاً بوسيط ملك الوحي ترجع إلى رواتها، كما يروى عن الإمام العسكري عليه السلام ... وجعل قوم من مردة اليهود يقولون: والله ما ندري محمد كيف يصلّي حتى صار يتوجه إلى قبلتنا ويأخذ في صلاته بهدينا ونسكنا واشتد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما اتصل به عنهم وكره قبلتهم وأحب الكعبة فجاء جبرئيل فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا جبرئيل لوددت لو صرفني الله عن بيت المقدس إلى الكعبة فقد تأذيت بما يتصل بي من قبل اليهود من قبلهم، فقال جبرئيل عليه السلام: فاسأل ربك أن يحولك إليها فإنه لا يردك عن طلبتك ولا يخيبك من بغيتك، فلما استتم دعاءه صعد جبرئيل ثم عاد من ساعته فقال اقرأ يا محمد ﴿قَدْ نَرَىٰ﴾.

وفي المجمع عن القمي عن الصادق عليه السلام: ... ثم وجهه الله إلى مكة وذلك أن اليهود كانوا يعيّرون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولون: أنت تابع لنا تصلي إلى قبلتنا فاغتمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك غمّاً شديداً وخرج في جوف الليل ينظر إلى آفاق السماء ينتظر من الله في ذلك أمراً فلما أصبح وحضر وقت صلاة الظهر كان في مسجد بني سالم وقد صلّى من الظهر ركعتين فنزل جبرئيل عليه السلام فأخذ بعضديه وحوّله إلى الكعبة وأنزل عليه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِۖ﴾ فكان قد صلى ركعتين إلى بيت المقدس وركعتين إلى الكعبة فقالت اليهود والسفهاء: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَاۚ﴾ [البقرة: ١٤٢].

(٢) وفي نور الثقلين ١: ١١٤ عن أحدهما في حديث القبلة قال: إن بني عبد الأشهل أتوهم وهم في الصلاة وقد صلّوا ركعتين إلى بيت المقدس فقيل لهم: إن نبيكم قد صرف إلى الكعبة فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء، وصلّوا الركعتين الباقيتين إلى الكعبة فصلوا صلاة واحدة إلى قبلتين فلذلك سُمي مسجدهم مسجد القبلتين.

الشطر - لغوياً - هو نصف الشيء ووسطه، وهو نحو الشيء[1] وجهته، وهو بُعده، ويجمعهما جانب الشيء إما بجنبه داخلياً وهو نصفه، أم خارجياً وهو نحوه بعيداً عنه. فهل هو بعدُ: البعض؟ ولم تأت في اللغة كبعض! والمعنى - إذاً - بعض المسجد الحرام، فتراه أيّ بعض هو؟ أهو أي بعض منه؟ وتعبيره الصحيح ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ دون شطره، أم شَطْراً من المسجد الحرام، فإن ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني شطراً خاصاً منه!، ثم الشطر العام هو طبيعة الحال لمستقبله، إذ لا يمكن لأي أحد أن يستقبل كلَّ المسجد الحرام!.

أم هو شَطْرٌ خاصٌ ولا أخص من الكعبة؟ فلماذا - إذاً - شَطْرُ المسجد الحرام دون «الكعبة» وهي أصل القبلة! ثم وعين الكعبة لا يمكن أن تكون هي القبلة للنائي!.

أم هو نصف المسجد الحرام؟ فهل هو أيُّ نصف منه؟ فلماذا - إذاً - نصفه لا نفسه حيث تعني أي نصف منه ثم وتعبيره الصحيح «شطراً من المسجد الحرام» ثم وكيف يولي وجهه نصفه؟ ولا يولّى إلّا جزءَه قدرَ الوجه لو أمكن! ثم لا يتمكن البعيد أن يولي وجهه لا نصفه ولا بعضه!... أم هو منتصَفه «الكعبة» وهو غير النصف! ثم صالح التعبير عنه «الكعبة» دون منتصف المسجد الحرام، ثم ونفس الكعبة لا يمكن أن تكون قبلة النائين!.

أم هو نحوه وجانبه؟ وذلك هو الصحيح، وتعبيره ذلك الفصيح! فليس بإمكان النائي أن يولّي وجهه إلّا نحوه حيث يسع بين المشرق والمغرب وكما في الأثر المستفيض «بين المشرق والمغرب قبلة».

و﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ يعني خارج الحرم، أم - وبأحرى - خارج مكة، والسند ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ يعني من مكة، وليس ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾.

---

(١) عن تفسير النعماني بإسناده عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام في الآية قال: معنى شطره نحوه...

تكراراً، حيث الأول خطاب لخصوص الرسول ﷺ وقد يُظنُّ أن حكمه يخصه، والثاني يعمُّ عامة المسلمين، ثم ﴿فَوَلِّ﴾ لا تدلُّ على أن القِبْلة هي ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أينما كانوا و﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ تصريحة لشمولية الجهات، ثم الوجه - وهو ما يواجه أو يواجه - هو بأقل تقديره ثلث الدائرة، فالوجه المولّى وشطر المسجد الحرام المولى إليه، هما يصدِّقان «بين المشرق والمغرب قبلة» والكل مصدَّق بـ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾(١).

ثم الوجه هنا لا يخص خصوص الوجه، بل وكلَّ مقاديم البدن، فلتوجّه كلها نحو المسجد الحرام، فإن للوجه وجوهاً حسب المولّى إياه، فوجه القراءة هو البصر، ووجه الوضوء هو كلّ الوجه، ووجه الاتّجاه لجهة سفراً أو صلاة هو كلّ وجوه البدن، اللهم إلّا اليد فإنها لا وجه لها، أم لا وجه لتوجيه وجهها المسجد الحرام.

وليست هذه التوسعة إلّا رعاية للسعة في الاتجاه نحو الكعبة المباركة، فالمتمكن لاستقبال عين الكعبة يستقبلها، ثم المتمكن لاستقبال المسجد الحرام يستقبله، ومن ثم استقبال شطر المسجد الحرام، المحدَّد بما بين المشرق والمغرب باتجاه الجنوب من كلّ أنحاء الكرة الأرضية، كما وأن الكرة الأرضية ككلّ هي ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لسكان سائر الكرات!.

وهذه طبيعة الحال في زاوية الاتّجاه إلى قِبْلةٍ وسواها، فكلما ابتعد مكان الاتِّجاه عنها انفرجت زاويتها لحدٍّ يصدق أن «ما بين المشرق والمغرب قبلة» وهي الزاوية المنفرجة حسب انفراج المستقبل بُعْداً عن القبلة.

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

فـ ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهو ناحيته وجهته، ليس له حدٌّ خاص، بل هو حسب بعد الجهة يتشطر أكثر، كما في قُرْبها تنقلب منفرجة الزاوية إلى قائمة والى حادة، وكل ذلك حسب إمكانية الاتجاه كالعادة المستمرة، مهما هُندِست واجهة القِبْلة في عَصْرِ العلم بما يقرب شطر المسجد الحرام، إلّا أن رعاية الجهة المهندسة ثابتة شرط ألّا يكون عُسْرٌ أو حَرَجٌ.

ومن لطيف أمر السعة في القبلة إضافة سعة الوجه للمستقبل إلى سعة المواجهة للقِبْلَة، فالوجه هو ثلث الدائرة، وشطر المسجد الحرام هو الجهة التي فيها المسجد الحرام، فالاتجاه بجزء من الوجه في زاوية قدرها (٦٠) درجة، نحو المسجد الحرام كلما صدق عليه زاوية الاتجاه، ذلك هو فرض النائي، والنتيجة كما في المستفيضة «ما بين المشرق والمغرب قبلة» يعني جهة الجنوب وهي قرابة تسعين درجة، خارجاً عن نقطة الشرق والغرب، ما صدق أنه جهة الجنوب.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾:

﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ علّه ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ كقبلة، وبأحرى الكعبة المباركة كقلب القِبْلة، أم وهو الرسول ﷺ لسابق ذكره، إذاً فقبلته حقٌّ ضمن رسالته، أم هما معنيان على البدل والأصل هو الرسول ﷺ، وتراهم كيف يعلمون أنه الحق من ربهم؟ قد تعني أن السنة الكتابية هي النسخ ابتلاءً وتدريباً، فكما أن سائر كتابات السماء فيها نسخ ما قل أو كثر، فليكن كذلك القرآن!، أم أن معرفة كتابات الوحي تحمل على تصديق القرآن كواحد منها لأقل تقدير، فليصدِّق - من ضمنه - البيت كقبلة!.

أم ولأن في هذه الكتابات تأشيرات أم تصريحات بالكعبة المباركة كقِبْلةٍ إسلاميةٍ أم وأمميةٍ إلّا شطرات في تاريخ الرسالات.

ومنها ما في (أشعياء ٥٦ : ٨) حسب الأصل العبراني: «كي بِيتي بِيْت تَفيلا ييقارُء لِخالْ هاعَمِيْم» «بيتي بيت صلاة يدعى لجميع الشعوب».

مع العلم أن «بيتي» صيغة خاصة للكعبة المباركة، ولم تستعمل بهذا الاختصاص إلّا فيها.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ تعمّ كافة أهل الكتاب في الرسالات الكتابية على مدار الزمن، فالانحيازات الكتابية - ككلٍّ - من جهة - إلّا من آمن -.

والعنصرية الإسرائيلية بوجه خاص، ثم الطائفية الكتابية في الرسالة الإسرائيلية بوجع عام، هما من الموانع لأن يتّبعوا قِبْلَتَكَ - إلّا قليلاً منهم - وإن أتيتهم بكل آية بينة، ثم ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ سناداً إلى حجة الوحي الصارم، وقبلة القدس المؤقتة لم تكن متبوعة لك كقِبْلَةٍ يهودية، وانما ﴿لِنَعْلَمَ﴾... وليعلم أهل الكتاب أنك لست جامداً على قِبْلةٍ عنصرية أم طائفية فـ ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ تنفي هذه التبعية بأمر الله - فضلاً عن سواه - من الحال حتى آخر زمن التكليف، فهي عبارة أخرى عن أنها - بعد - لا تنسخ، قطعاً لآمال أهل الكتاب، وصدّاً عما يخلد بخلد الرسول ﷺ من التحول إلى قبلة القدس تقريباً لأهلها إلى الإسلام.

ذلك! وكما نفت - عما سلف من قِبْلَةِ القدس - اتّباعه لها لمجرّد هوى أهلها، فإنه اتِّباع لأمر الله في مصلحة وقتية، ثم هنا مقابلة بين حقّ القبلة وباطلها، فهم ﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ سلباً باطلاً ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ سلباً حقاً.

ثم وكيف بالإمكان اتِّباع قبلتهم وهي بين القدس والمشرق، فاتّباع كلٍّ رفضٌ للآخر، فليترك اتِّباع الأهواء المختلفة - المستحيل تحقيقها - إلى اتِّباع هدى الله.

ثم ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ فالبعض اليهود مستقبلون القدس على طول الخطِّ دون تحوّل إلى شرق المسيحي، والبعض المسيحي مستقبلون الشرق دون تحوّل إلى القدس، أفأنت تهوى - بعدُ - أن تتبع أهواءهم في اتِّباع قبلتهم لفترة أخرى حتى يتبعوا قبلتك؟.

فحتى ولو اتَّبع بعضهم قبلة بعض، وأصبحت القبلة الكتابية واحدة، فـ ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إذ قُضي أمر التحويل تمييزاً لأهل الحق عن غير أهله.

ثم اليهود والنصارى على وحدتهم في تكذيبك هم مختلفون في قِبْلَتِهم، فكيف يرجون أن تتبع قبلتهم؟!.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ في أيٍّ من الطقوس الكتابية ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ بحق الشرعة الإلهية، بعد ما كُنتَ من العادلين في استقبال القبلتين.

هنا ﴿وَلَئِنِ﴾ تلمح أن الرسول كان يودُّ - بعنوان ثان - التحوّل إلى قِبْلَةِ القدس فترة أخرى رغبة في تميُّل اليهود إلى الإسلام، إذاً فـ ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ لا تعني أنه لا يرضى القدس، وإنما هو لو خُلِّي ونفسه كان يرجِّح الكعبة المباركة، وهو - كضابطة رسالية - يحب ما أحبه الله ثم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ هنا هم العارفون بما في الكتاب من حقِّ هذه الرسالة الأخيرة، ثم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[(١)] لا وعوامهم المشتبهون باتِّباعهم إلّا الصامدون في تقليدهم الأعمى، ولا كلّ علماء الكتاب، فالذي يجحد

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

بالحق وهو على علم به بأدلته، ليس ليتحوّل عن نكرانه له بأدلته، فهو من الذين ﴿زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾[1] امتناعاً لاتباع هذه القبلة باختيار.

وهنا ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ تشديد على العلماء في مسؤولية الحفاظ على ما يعلمونه حقاً، وتنديد بهم إن تركوها كأنهم لا يعلمون، فالإقدام على أمر جَهْلاً هو أقل مسؤولية من الإقدام عليه بتخلف علماً.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾:

إيتاءُ الكتاب هنا هو الإيتاء معرفياً، دون مُجرَّد الانتساب أنه كتابي ولا يعلم الكتاب إلّا أماني.

و﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ بعد ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دليل أن الرسول ﷺ معروف لديهم في الكتاب كمعرفة الأبناء - وهي قمة المعرفة المعروفة - حيث الضمير راجع إليه دون القرآن، فإن تعبيره الصحيح - إذاً - كما يعرفون كتابهم، كما ونجد نفس الآية في الأنعام بنفس المعنى ونفس السند: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[2].

ولماذا ﴿أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ دون «آباءهم - أو - أمهاتهم»؟ لأن كلاً من الأبَوَيْنِ يعرف ما ولده دونما استثناء، وقد لا يعرف الولد مَن ولَّده، إذ وُلد بعد موته أم مات في صغره، إذاً فأعرف التعريف بهذا الرسول ﷺ في معرفة أهل الكتاب هو ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾.

ويا له من معرفة نظرية بمواصفة كتابية، تشبه معرفة حسية في قمَّتها، وهم له منكرون، مؤوِّلين اسمه المذكور في كتبهم تارةً بغير اسمه؛ وصفاً أو

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٠.

فعلاً، ومُسقطين له عن الترجمات أخرى، وناظرين محمداً غيره ثالثة دون حجة عليه إلّا أنه غير إسرائيلي، وقد جاء بما لا تهوى أنفسهم، وهو مذكور باسمه ورسمه ومولده ونسبه وحسبه ولكن لا حياة لمن تُنادي.

وجواباً عن سؤال: مهما بلغت البشارات الكتابية بحقِّ الرسول ﷺ واضحة، لم تأت بمعرفة له كما يُعرف الأبناء، فإن هذه حسية لا ريب فيها، وتلك بالاسم والمواصفة وقد تعترضها ريبة؟

نقول: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ دون «عرفوه» مما يدل على معرفة لاحقة بعد ظهوره بآيات صدقة فإنها كافية لتصديقه رسولاً مهما لم تكن هناك معرفة سابقة، وحين تجتمعان لأهل الكتاب في مثلث: البشارات الكتابية - مماثلة الوحي الكتابي في قرآنه - بينات رسالته، فهم - إذاً - يعرفونه كما يعرفون أبناءهم دون أية ريبة وشبهة ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ الناصع اللّامع ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه الحق وأنهم كاتموه.

وقد جاء في الأصل العبراني من كتاب هوشع الآية (٧): «بائوا يِمّي هَفِقوداه بائوا يمّي هَشِّلوم يِدعو ييسرائل إويل هنابي مَشوكاعْ إيش هَاروُحَ عَلْ رَبْ عَوُنِحا وِرَبّاه مِسِطْماه»:

«تأتي أيام التمييز، تأتي أيام الجزاء سيعلم إسرائيل أن النبي السفيه ورجل الروح مجنون لكثرة إثمك وشدة الحنق» - أجل ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾[1]! وقد جاءت في ترجمة أخرى عنها: «بنو إسرائيل يعلمون ويعرفون أن النبي الأُميّ المصروع صاحب روح إلهامي وصاحب الوحي» وقد قال ربي حييم ويطال في كتابه «عصحييم» إن القصد من النبي الأميّ هنا هو محمد بن عبد الله الذي بعث في زمن عبد الله السلام.

---

(١) سورة القلم، الآيتان: ٥١، ٥٢.

ويا لعبد الله السلام من سلام حين يُجيب السائل عن هذه الآية: «لقد عرفته حين رأيتهُ كما أعرفُ ابني إذ رأيتهُ مع الصبيان وأنا أشدُّ معرفةً بمحمد مني بابني...»[١].

أجل وهم «يعرفون محمداً والولاية في التوراة والإنجيل كما يعرفون أبناءهم في منازلهم»[٢].

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾:

وليس ذلك الخطاب - كأمثاله - يعني أن الرسول ﷺ - وعوذاً بالله -

(١) الدر المنثور ١: ١٤٧ - أخرج الثعلبي من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن سلام قد أنزل الله على نبيه ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ فكيف يا عبد الله هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام يا عمر: ... فقال عمر كيف ذلك؟ قال: إنه رسول الله حق من الله وقد نعته الله في كتابنا ولا أدري ما تصنع النساء، فقال له عمر: وفقك الله يا بن سلام.
وفيه أخرج الطبراني عن سلمان الفارسي قال: خرجت أبتغي الدين فوقعت في الرهبان بقايا أهل الكتاب قال الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ فكانوا يقولون: هذا زمان نبي قد أطل يخرج من أرض العرب له علامات من ذلك شامة مدورة بين كتفيه خاتم النبوة.

(٢) نور الثقلين ١: ١٣٨ في أصول الكافي عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه يقول: فأما أصحاب المشأمة فهم اليهود والنصارى يقول الله عزوجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ [البَقَرَة: ١٢١] وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون. ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [البَقَرَة: ١٤٧] أنك الرسول إليهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ وفيه في تفسير القمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ [البَقَرَة: ١٤٦] يعني رسول الله ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٤٦] لأن الله عزوجل قد أنزل عليهم في التوراة والإنجيل والزبور صفة محمد ﷺ وصفة أصحابه ومبعثه ومهاجرته وهو قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ [الفَتْح: ٢٩] فهذه صفة رسول الله ﷺ في التوراة والإنجيل وصفة أصحابه، فلما بعثه الله عزوجل عرفه أهل الكتاب كما قال جلّ جلاله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٨٩].

كان من المُمْترين في الحق من ربِّه، فإنما ذلك له تثبيت، وللمُمْترين من أهل الكتاب تتبيب، ولكلٍّ دعاية ضالة تمويت وتفويت.

﴿ٱلْحَقُّ﴾ كله ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الحق الرسالي بالقرآن الحكيم الذي هو كلّ الحق، المحلّق على كلّ حق، إنه ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ لا سواه ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ فيه، وذلك إيحاء صارم إلى مَن وراءَه من المسلمين تثبيتاً، والى الناكرين من أهل الكتاب تتبيباً، ثم ومتعلَّق الامتراء ليس يختص بأصل رسالته، أم وقبلته، بل وأنهم يكتمون الحق وهم يعلمون، إذ كانوا يرتابون فيه كأنهم لا يعلمون، أم هم شاكون ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أنهم يعرفونك كما يعرفون أبناءهم، وأنهم يكتمون حقَّك وهم يعلمون.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾:

هنا محتملات حسب عديد الاحتمالات أفضلها جمعها ما لم تُطارد أدب اللفظ والمعنى: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الناس: مُلحدين ومُشركين وكتابيين ومُسلمين - أم «الكلّ» من الثلاثة الآخرين، أو الآخرين، أم المسلمين.

﴿وِجْهَةٌ﴾ قَلْبية أو قالِبية، فالثانية هي القِبْلَةُ لدعاءٍ وصلاةٍ، والأولى هي لكلّ الحالات والصّلات.

﴿هُوَ﴾ الله ﴿مُوَلِّيهَا﴾ أياها، أم ﴿هُوَ﴾ صاحب الوجهة مولي نفسه إياها، وهذه ستة عشر وجهاً في الوجهة المولّاة، تضرب في استباق الخيرات مادة ومُدة وعِدة وعُدة فهي (٦٤) احتمالاً، والأصل في معارك الوجهات والاتجاهات هو ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ في كلّ المجالات، فمهما كانت وجهة المُلحدين الماديين هي المادة قَلْباً وقالِباً، ووجهة المشركين - كذلك - هي الآلهة المختلِفة المختلَقة، ووجهة الكتابين قبلةً هي القدس والمشرق، وروحيةً هي مختلف اتِّجاهاتهم في شرعة الله، ووجهة المسلمين كقبلة قدساً

لفترة وكعبة على طول الخطّ، وفي كلٍّ جهات حسب مختلف الواجهات في المعمورة وسواها، والوجهة الروحية حسب مختلف المذاهب والاجتهادات ﴿هُوَ﴾ الله ﴿مُوَلِّيهَا﴾ تكويناً وتشريعاً، و﴿هُوَ﴾ صاحبها ﴿مُوَلِّيهَا﴾ اختياراً دونما اضطرار...

﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ و﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(١) في ذلك المسرح الواسع الحافل بمختلف الوجهات والواجهات، و﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ هي التي يولِّيها الله إياكم دون سواه، فاجعلوا الحياة ميدان سباق في الخيرات كلِّها، في كلٍّ وجهة واتجاهة قلبية وقالبية، استباقاً في موادها ومُددها وعِددها وعُددها، فإن استباق الخيرات والمسارعة فيها هي بعدها كأصل أصيل في الحياة، فرضاً أو ندباً: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٢) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾(٣).

إن استباق الخيرات والمُسارعة فيها أصل حيوي تُحلِّق على كافة النشاطات الصالحة للصالحين، يتسابقون في الخيرات ما استطاعوا، ويُسارعون فيها ما استطاعوا، ومن أفضل الخيرات الصلاة، واستباقها يعمُّ ظاهرها وباطنها وقِبْلَتَها كما هو مولِّيها، وزمانها ومكانها كما أمر الله، مجردة عن كافة الصِّلات إلّا بالله، وعن كافة النزعات إلّا نزعة الله، وعن كافة الوجوه إلّا وجه الله.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٤.
(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٧-٦٢.

ذلك! ومن ثم يصرف الله المسلمين عن الانشغال بما يبثّه أهل الكتاب وسواهم من دسائس وفتن في أقاويل وأفاعيل، يصرفهم إلى استباق الخيرات حيث مصير الكل إلى الله:

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ مكاناً ومكانة ومُكنة وفعلية وفاعلية، وفي أية اتجاهة خيرة أو شريرة.

﴿يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ مع بعضكم البعض ليوم الجمع، و﴿جَمِيعًا﴾ مع كلّ أعمالكم واتجاهاتكم ليوم الحساب، ولا يعزب عنه منكم ومن أعمالكم شيء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ومن مجالات خاصة لـ﴿يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ حشر أصحاب ألوية القائم المهدي من آل محمد عليه السلام [(١)] وهو من تأويل الآية، فإن تنزيلها هو الحشر العام ليوم القيام، ومن تأويلها هو الحشر الخاص، ولا ينبئك مثل خبير.

---

(١) نور الثقلين ١: ١٣٨ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سهل بن زياد عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال قلت لمحمد بن علي بن موسى عليه السلام: إنّي لأرجو أن تكون القائم من أهل أبيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم - إلى قوله في وصفه وأنه غيره - يجتمع إليه أصحابه عدة أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من أقاصي الأرض وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البَقَرَة: ١٤٨] وفيه بإسناده إلى أبي خالد الكابلي عن سيد العابدين علي بن الحسين عليهما السلام قال: المفقودون عن فرشهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً عدة أهل بدر فيصبحون بمكة وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ [البَقَرَة: ١٤٨].

وبإسناده إلى محمد بن سنان عن المفضل بن عمر قال قال أبو عبد الله عليه السلام: لقد نزلت هذه الآية في المفتقدين من أصحاب القائم عليه السلام ليفقدون عن فرشهم ليلاً فيصبحون بمكة وبعضهم يسير في السحاب يعرف اسمه واسم أبيه وحليته ونسبه، قال فقلت جعلت فداك: أيهم أعظم إيماناً؟ قال: الذي يسير في السحاب نهاراً.

وفي تفسير القمي قال أبو جعفر عليه السلام مثله وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام: هم المفقودون عن فرشهم وذلك قول الله . . .

وفي المجمع قال الرضا عليه السلام في الآية: وذلك والله أن لو قام قائمنا يجمع الله إليه جميع شيعتنا من جميع البلدان.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾:

﴿حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ هو - لأقل تقدير - خروجه عن مكة ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ﴾[١] ﴿مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾[٢]، ولأكثر تقدير هو خروجه عن الحرم، فقد يصدق الخبر: «البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة للناس جميعاً»[٣] فإن الحرم هو شطر المسجد الحرام للخارج عنه، والضابطة إمكانية استقبال القبلة دون عُسْرٍ ولا حَرَج.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾:

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ تتكرَّر في مسرح التحويل ثلاث مرات، ثم ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ مرتين، فلماذا هذا التكرار والصيغة نفس الصيغة دونما زائدة؟ علّه ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ وفي كلّ مرة من الثلاث فائدة زائدة تثبيتاً للقبلة الجديدة، ففي الأولى ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ إخراجاً لذلك التحويل عن الباطل.

وفي الثانية ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ تثبيتاً لحقه كأنه هو الحق لا سواه، فالقبلة المكية أصيلة، وقبلة القدس ابتلائية فرعية.

وفي الثالثة ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ ثم وفي هذا التكرار بمختلف التلحيقات تأكيد أكيد لتداوم هذه القِبْلة، وكما في تكرار ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥١.
(٢) سورة محمد، الآية: ١٣.
(٣) وسائل الشيعة أبواب القبلة ب ٣ ح ١ و٣.

﴿تُكَذِّبَانِ﴾[١] عدّه مرات، تلحيقاً بها لكلّ مقطع من مقاطع البيان لذكر نعم الرحمان، ثم وفيها رابعة التأشيرات أن القبلة المكية هي الكعبة المباركة دون القدس، حيث الابتلاء يقدَّر بقدر الضرورة، ولا سيّما إذا كان فيه حجة على المبتلين، فالضرورات تقدَّر بقدرها، وما هي الضرورة الابتلائية أن يكون القدس هو القبلة منذ بزوغ الإسلام إلى أشهر في المدينة، خلقاً لجوٍّ الحجة على المؤمنين من قبل المشركين[٢] والكتابيين، وصدّاً عن دخول العرب - الهائمين إلى الكعبة المباركة - في هذا الدين؟! فابتلائية قبلة القدس - بما تخلِّف حجة على المسلمين - وعلى رسول الإسلام أيضاً إذ هم عارفون من كتبهم أن قبلة هذا الرسول هي الكعبة المباركة، فلما صلّى - لفترة - إلى القدس أخذوا يحتجون عليه أنه ليس هو الرسول الموعود! - هذه الابتلائية غير صالحة إلّا لقضاء الابتلاء، وظرفُه الصالح هو بداية العهد المدني، بلورة لصالح المؤمنين عن طالحهم، وما إضافة العهد المكي إلى أشهر الابتلاء المدني، إلّا زيادة لحجة اليهود، إضافة إلى حجة العرب في رفضهم لهذا الدين.

و«الناس» هنا كما الناس في ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ هم السفهاء من الناس، مشركين وكتابيين، فإن كلّاً كان يحتج على الرسول والمسلمين ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾.

وهنا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ استثناء لجماعة خصوص منهم استمراراً لحجتهم على المسلمين ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ فإن حجتهم داحضة عند

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

(٢) الدر المنثور ١ : ١٤٨ - أخرج ابن جرير من طريق السدي عن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا: لما صرف النبي ﷺ نحو الكعبة بعد صلاته إلى بيت المقدس قال المشركون من أهل مكة تحير على محمد دينه فتوجه بقبلته إليكم وعلم أنكم أهدى منه سبيلاً ويوشك أن يدخل في دينكم فأنزل الله ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

ربهم، وذابلة بعد تحوُّل القبلة إلى الكعبة المباركة. ثم وفي ذلك التحويل إضافةً إلى سلبية حجتهم إيجابيةُ إتمام النعمة والاهتداء.

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فقبلة الكعبة إتمام للنعمة، واهتداء كما قال الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾(١).

وقد تحمل «لأتم وتهتدون» بشارةً لفتح مكة كما تحملها آية الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ...﴾(٢).

ومن أهم النِّعم التامة الاعتصام بحبل الله جميعاً: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾(٣).

ثم ومن أهمها في مظاهر العبودية الاتجاه إلى قبلة واحدة هي أوّل بيت وضع للناس، مثابةً وأمناً وهدى وقياماً ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾(٤).

كلام فيه ختام حول القِبْلَة:

القِبْلَة هي هيئة خاصة للمقابلة، فهي تعم المستقبل اليه، فإن لكلٍّ هيئة خاصة للمقابلة، فشطر المسجد الحرام نص أم ظاهر كالنص في أن قِبْلَة النائي عن مكة المعظمة هي ناحية المسجد الحرام ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ تحلق على ذلك الاستقبال أولاً لسكنة المعمورة كلها، ثم سكان سائر المعمورات، إلّا أن شطر المسجد الحرام لهم هو الكرة الأرضية ككل، ولا يخص شطرهُ، الناحيةَ القاطعة له إلى الكعبة المباركة - فقط - سطح

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.
(٢) سورة الفتح، الآيتان: ١، ٢.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.
(٤) سورة الحج، الآية: ٢٨.

الأرضية، بل شطره في العمود الذي يربط الكون كلّه بسماواته وأرضيه، كما الكعبة المباركة ممتدة من ناحيتها فوق وتحت إلى أعماق السماوات.

ثم الداخل في مكة المكرمة، هل يستقبل - كما الخارج - شطر المسجد الحرام أم عينه؟ طبعاً عينه ما أمكن حيث الشطر قبلة النائين كضابطة، وإلّا فالأقرب إلى العين فالأقرب، دون شطره كضابطة[1]... والداخل في المسجد الحرام يستقبل الكعبة المباركة من جوانبها، وندب الصلاة جماعة أو فرضها يقتضي صحة صلاة الجماعة الدائرية حول البيت بإمام واحد، ولو كانت محظورة لورد فيها نهي، وهل الداخل في البيت يصلي كالعادة إلى أيٍّ من جوانبها؟ قد يقال: لا، لأنه هو القِبْلة من خارجه دون جوفه، وقد ورد في الصحيح: «لا تصلِّ المكتوبة في جَوْفِ الكعبة فإن رسول الله ﷺ لم يدخلها في حجٍّ ولا عُمْرةٍ ولكنه دخلها في الفتح وصلّى فيها ركعتين بين ميري العمودين ومعه أسامة بن زيد»[2]، وفي آخر: «لما

---

(١) في صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: يجزي التحري أبداً إذا لم يعلم أين وجه القبلة. (الوسائل أبواب القبلة ب ٦ ح ١).

وعن تفسير النعماني بإسناده عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٤] قال: معنى شطره نحوه إن كان مرئياً وبالدلائل والأعلام إن كان محجوباً، فلو علمت القبلة وجب استقبالها والتولي والتوجه إليها، ولو لم يكن الدليل عليها موجوداً حتى تستوي الجهات كلها فله أن يصلّي باجتهاده حيث أحبّ واختار حتى يكون على يقين من الدلالات المنصوبة والعلامات المبثوثة، فإن مال عن هذه الوجوه مع ما ذكرناه حتى يجعل الشرق غرباً والغرب شرقاً زال معنى اجتهاده وفسد حال اعتقاده. (الوسائل أبواب القبلة ب ٦ ح ٤).

(٢) الوسائل أبواب القبلة ب ١٧ ح ٣ و١ صحيحتان فالصحيحة الأولى عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام والثانية عن محمد بن مسلم عن أحدهما قال: لا تصلّ المكتوبة في الكعبة، وأورده مثله في صحيح البخاري حدثنا مسدّد قال حدثنا يحيى عن سيف قال سمعت مجاهداً قال: أتى ابن عمر فقيل له: هذا رسول الله ﷺ دخل الكعبة، فقال ابن عمر: فأقبلت والنبي ﷺ قد خرج وأجد بلالاً قائماً بين البابين فسألت بلالاً فقلت: أصلّى النبي ﷺ في الكعبة؟ قال: نعم ركعتين بين الساريتين اللتين على يساره إذا دخلت ثم خرج فصلّى.

دخل النبي ﷺ البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصلّ حتى خرج منه فلما خرج ركع ركعتين في قبل الكعبة وقال: هذه القِبْلة»[(١)].

ولكن النهي عن الصلاة فيها هو أعمّ من التحريم والتنزيه، وتحريمه أيضاً أعم من أن جوفها ليست قبلة، مع العلم أنها أصل القبلة، وقد يعني النهي رعاية حرمة البيت، ورعاية الجماعة القائمة حول البيت، وكما تدل عليه الموثقة: «إذا حضرت المكتوبة وأنا في الكعبة أفأصلّي فيها؟ قال: صلّ»[(٢)] إلّا أن «هذه القِبْلة» تُعارض نصاً «قال صلّ» فالأحوط إن لم يكن الأقوى ترك الفريضة في جوفها، وإن كان الأشبه صحة الصلاة فيها فإن «هذه القبلة» لا تنفي كَوْنَ جوفها أيضاً قبلة كما ظاهرها، كذلك والصلاة على سطح الكعبة، حيث العمود الأسطواني من مكان البيت قبلة في طرفيه إلى أعنان السماء، والاستلقاء على السطح استلغاءٌ لكون الأسطوانة قبلة، وتشكيك أو إلغاء لصحة صلوات الساكنين أو الكائنين في محلات أرفع من البيت!.

وترى إذا فقد العلم أو والظن بشطر المسجد الحرام، فهل يصلّي إلى أربع جهات لمرسلة يتيمة[(٣)] لا توافق الكتاب ولا السنة؟ مع العلم أنه ليست عليه إلّا صلاة واحدة حتى مع تقصيره في اجتهاد القبلة فضلاً عن قصوره! وحتى إذا أريد بذلك درك القبلة فصلوات ثلاث هي الكافية، فإن بين المشرق والمغرب قبلة!.

---

(١) موثقة يونس بن يعقوب قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام إذا حضرت الصلاة المكتوبة . . .

(٢) صحيح البخاري حدثنا إسحاق بن نصر قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا ابن جريج عن عطاء قال سمعت ابن عباس قال لما دخل . . .

(٣) هي مرسلة قريش عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت: جعلت فداك إن هؤلاء المخالفين علينا يقولون: إذا أطبقت السماء علينا أو أظلمت فلم نعرف السماء كنا وأنتم سواء في الاجتهاد؟ فقال: ليس كما يقولون، إذا كان ذلك فليصلّ لأربعة وجوه.
وعن الفقيه «وقد روي فيمن لا يهتدي إلى القبلة في مفازة أنه يصلي إلى أربعة جوانب» أقول: وأظنها هي نفس مرسلة خراش.

أم يصلي لجهة واحدة، لذلك، ولصحيحة الفاضلين عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «يجزي المتحير أبداً أين ما توجه إذا لم يعلم وجه القبلة»[1] و«المتحير» أعمّ من القاصر والمقصر.

ثم ولا ريب في إجزاء صلاة واحدة أم أقل من الأربع في تضيُّق الوقت مع الاحتمال الأوّل، وترى حين ينحرف عن القبلة قاصراً يميناً أو شمالاً أم بينهما ثم تتبيّن هل يعيد أم تجزيه؟ الظاهر «قد مضت صلاته وما بين المشرق والمغرب قبلة»[2].

وإذا زاد الانحراف كأن يستدبرها أمّا شابه أعادها في الوقت دون خارجه[3] حيث الميسور في الوقت لم يتجاوز ما أداه فلا إعاده خارجه، والمستدبر فيها والوقت باق لم يأت بما عليه مهما أخطأ.

---

(١) هي صحيحة زرارة ومحمد بن مسلم المروية في الفقيه عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: . . .

(٢) تدل عليه صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: الرجل يقوم في الصلاة ثم ينظر بعدما فرغ فيرى أنه قد انحرف عن القبلة يميناً أو شمالاً؟ فقال: «قد مضت صلاته وما بين المشرق والمغرب قبلة» وموثقة عمار عن أبي عبد الله عليه السلام رجل صلّى لغير القبلة فيعلم وهو في الصلاة قبل أن يفرغ من صلاته؟ قال: إن كان متوجهاً فيما بين المشرق والمغرب فليحوّل وجهه إلى القبلة ساعة يعلم، وإن كان متوجهاً إلى دبر القبلة فليقطع الصلاة ثم يحوّل وجهه إلى القبلة ثم يفتح الصلاة (الوسائل أبواب القبلة ب ١٠ ح ١).

(٣) تدل عليه صحيحة عبد الرحمن بن أبي عبد الله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا صليت وأنت على غير القبلة واستبان لك أنك صليت وأنت على غير القبلة وأنت في وقت فأعد وإن فاتك الوقت فلا تعد» وصحيحة سليمان بن خالد قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام الرجل يكون في قفر من الأرض في يوم غيم فيصلّي لغير القبلة ثم يضحي فيعلم أنه صلى لغير القبلة كيف يصنع؟ قال: «إن كان في وقت فليعد صلاته وإن كان الوقت قد مضى فحسب اجتهاده» (الوسائل أبواب القبلة ب ١١ ح ٥ و٦) أقول: وإطلاقهما مقيد بالأخبار رقم (١٢٦). أو يقال: بين المشرق والمغرب قبلة فلا انحراف - إذاً - عن القبلة في غير الاستدبار كما تدل عليه صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: لا صلاة إلّا إلى القبلة، قال قلت: أين حدُّ القبلة؟ قال: بين المشرق والمغرب قبلة كلّه، قال قلت: فمن صلى لغير القبلة أو في يوم غيم في غير الوقت، قال: يعيد.

وعلى أية حال فواجب القِبْلة - عيناً أو شطراً أما بين المشرق والمغرب - هو المستطاع، لا يجوز البعيد عنها ما أمكن القريب لها، وإذا كُنْتَ على راحلةٍ متحوّلةٍ عن القبلة إلى جهات، فلتتحوّل ما أمكنك، إلّا في عُسْرٍ أو حَرَجٍ فجهة واحدة، لا سيّما بين المشرق والمغرب فإنه قِبْلَة المقدور على أية حال.

ومن اللائح اللامع من الكتاب والسنة عدم وجوب الاجتهاد للقِبْلة إلّا حسب الميسور المتعود بين عامة الناس، دون الدراسات الهندسية والنجومية أمّا هي، التي لا تتيسر إلّا لجماعة خصوص، إلّا إذا شاعت نتائج هذه الدراسات بمتناول سائر الجموع، فهي - إذاً - تصبح من المَيْسور، فهي - إذاً - واجب كلّ الجموع، اللّهم إلّا من يهتدي على شياعها.

ولقد بُذلت مساعٍ عدة لتعيين القِبْلة لساكني المعمورة، بعد ما كان المسلمون يعتمدون على الظن والحسبان بأي نحو كان، فاستنهض الحاجية العامة في ذلك الحقل جمعٌ من العلماء الرياضيين تقريباً للقبلة إلى التحقيق[١] ثم وتسريعاً وتسهيلاً لذلك عملوا الآلة المغناطيسية المعروفة بالحكّ[٢] ولأنها لم تخلُ من الشبهة والنقصان، قام المغفور له السردار الكابلي باستخراج الانحراف القِبلَي بأصول حديثة، وحصل - من ضمنها - على استقامة كاملة للمحراب الخاص في مسجد النبي ﷺ بالمدينة المنورة[٣] ثم استخرجت

(١) فقد استفادوا من الجداول الموضوعة في الزيجات لبيان عرض البلاد وطولها، واستخرجوا انحراف مكة عن نقطة الجنوب في البلد، أي انحراف الخط الموصول بين البلد ومكة عن الخط الموصول بين البلد ونقطة الجنوب (خط نصف النهار) بحساب الجيوب والمثلثات، ثم عينّوا ذلك في كلّ بلدة من بلاد الإسلام بالدائرة الهندية المعروفة المعينة لخط نصف النهار، ثم درجات الانحراف وخط القبلة.

(٢) هذه الآلة بعقربها تعين جهة الشمال والجنوب فتنوب عن الدائرة الهندية في تعيين نقطة الجنوب، وبالعلم بدرجة الخراف البلد يمكن للمستعمل ان يشخص جهة القبلة.

(٣) ولأن هذه الآلة تبيّن فيها الاشتباه من الجهتين جميعاً - طولاً وعرضاً -: فإن المتأخرين من =

بعده قِبْلة أكثر بقاع الأرض[١] وأخيراً فيما يقرب من ألف بقعة من بقاع الأرض أدقّ منها[٢] شكر الله مساعيهم.

= الرياضيين عثروا على أن المتقدمين اشتبه عليهم الأمر في تشخيص الطول، واختل بذلك حساب الانحراف فتشخيص جهة الكعبة، وذلك أن طريقهم إلى تشخيص عرض البلاد - وهو ضبط ارتفاع القطب الشمالي - كان أقرب إلى التحقيق، بخلاف الطريق إلى تشخيص الطول، وهو ضبط المسافة بين النقطتين المشتركتين في حادثة سماوية مشتركة كالخسوف بمقدار سير الشمس حسًّا عندهم، وهو التقدير بالساعة، فقد كان هذا بالوسائل القديمة عسيراً وعلى غير دقة، لكن توفر الوسائل وقرب الروابط اليوم سهّل الأمر كل التسهيل فلم تزل الحاجة قائمة على ساق، حتى قام الشيخ الفاضل البارع الشهير بالسردار الكابلي - رحمه الله - في هذه الأواخر بهذا الشأن فاستخرج الانحراف القبلي بالأصول الحديثة وعمل فيه رسالته المعروفة بتحفة الأجلة في معرفة القبلة وهي رسالة ظريفة بيّن فيها طريق عمل استخراج القبلة بالبيان الرياضي، ووضع فيها جداول لتعيين قبلة البلاد.

ومن ألطف ما وفق له في سعيه - شكر الله سعيه - ما أظهر به كرامة باهرة للنبي ﷺ في محرابه المحفوظ في مسجد النبي ﷺ بالمدينة ٢٧٥ ٢٥ - وذلك أن المدينة على ما حاسبه القدماء كانت ذات عرض ٢٥ درجة وطول ٧٥ درجة و٢٠ دقيقة، وكانت لا توافقه قبلة محراب النبي ﷺ في مسجده، ولذلك كان العلماء لا يزالون باحثين في أمر قبلة المحراب، وربما ذكروا في الخرافة وجوهاً لا تصدقها حقيقة الأمر، لكنه - رحمه الله - أوضح أن المدينة على عرض ٢٤ درجة ٥٧ دقيقة وطول ٣٩ درجة ٥٩ دقيقة، وانحراف درجة ٤٥ دقيقة تقريباً، وانطبق ذلك قبلة المحراب أحسن الانطباق وبدت بذلك كرامة باهرة للنبي ﷺ في قبلته التي وجه وجهه إليها وهو في الصلاة، وذكر ان جبرئيل أخذ بيده وحول وجهه إلى الكعبة، صدق الله ورسوله.

(١) استخرجه المهندس الفاضل الزعيم عبد الرزاق البغائري رحمه الله ونشر فيها رسالة في معرفة القبلة، وهي جداول يذكر فيها ألف وخمسمائة بقعة من بقاع الأرض وبذلك تمت النعمة في تشخيص القبلة.

ولأن الجهة الثانية وهي الجهة المغناطيسية غير دقيقة، فإنهم وجدوا أن القطبين المغناطيسيين في الكرة الأرضية غير منطبقين على القطبين الجغرافيين منها، فإن القطب المغناطيسي الشمالي مثلاً، على أنه متغير بمرور الزمان، بينه وبين القطب الجغرافيائي الشمالي ما يقرب من ألف ميل، وعلى هذا فالحدّ لا يشخص القطب الجنوبي الجغرافي بعينه، بل ربما بلغ التفاوت إلى ما لا يتسامح فيه، لذلك:

(٢) قد أنهض هذا، المهندس الرياضي الفاضل الزعيم حسين علي رزم آرا في سنة ١٣٣٢ هجرته شمسية على حلّ هذه المعضلة واستخراج مقدار التفاوت بين القطبين الجغرافي والمغناطيسي=

وترى أن النبي ﷺ ولّى وجهه - عند تحوّل القبلة - شَطْرَ المسجد الحرام، دون عينه أو عين الكعبة، وجبريل ؑ هو الذي ولاه بأمر الله!.

إنه - بطبيعة الحال - ولّى وجهه الشطر الخاص الذي يوافي المسجد الحرام والكعبة، لكنْ المسلمون لهم أمر عام ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ وأين شطر من شطر؟ شطر يحوله الله إياه، وشطر يتحوّل إليه مَن سواه، كما ثبت بحساب العرض والطول الجغرافي أن محرابه ﷺ في المدينة مواجهٌ للقِبْلة بصورة دقيقة!.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ... وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ - ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾ من ولد باني القِبْلة، فإن هذه الرسالة السامية أصلٌ لتمام النعمة وكمال الهداية، كذلك فلتكن قِبْلَتها أهدى قبلة، وأَنْعَم نعمة على الأمة الأخيرة - إذاً:

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾:

وذكر الله ثلاثة، رأس الزاوية فيها هو الذكر الخفي بالقلب وبكلِّ مراحل الروح، ثم الجلي بالأعمال، ثم الجلي بالأقوال، إذاً فالذِّكر أحوالي وأعمالي وأقوالي: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ

= بحسب النقاط المختلفة، وتشخيص انحراف القبلة من القطب المغناطيسي فيما يقرب من ألف بقعة من بقاع الأرض، واختراع حدّ يتضمن التقريب القريب من التحقيق في تشخيص القبلة، وهو اليوم دائر معمول - شكر الله سعيد (الميزان لأستاذنا العلامة الطباطبائي قدس الله روحه (ج ١ : ٣٣٥ - ٣٣٧).

﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾(١). ولكلٍّ درجات حتى تصل إلى القمة العاصمة عن كلِّ عصيان ونسيان وخطأٍ وهي تختص بالمخلَصين المعصومين، وأفضل الذِّكر هو الجمع بين المراحل الثلاث، ثم أفضله الأوليان، ومن ثم الأولى، وأَعْدَلَهُ ما تساوى فيه الخفيّ والجليّ، اللهم إلّا ذوداً عن رئاء الناس، ثم و«أفضل الذكر لا إله إلّا الله»(٢).

والذِّكر - أيّاً كان - قد يقابل الغفلة: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾(٣) وأخرى يقابل النسيان: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾(٤) وقد يشتركان في غائب العلم فالغفلة عنه والنسيان، إذاً فأصل الذّكر هو للقلب وأصحابه عقلاً وصدراً ولبًّا وفؤاداً، ثم يتجلى في القالب أعمالاً وأقوالاً.

«...أما إني لا أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، وإن كان هذا من ذاك، ولكن ذكر الله في كلّ موطن، إذا هجمت على طاعته أو معصيته»(٥).

والعصيان أياً كان إنما هو من حصائل الغفلة والنسيان وكما يروى عن النبي ﷺ: «من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن، ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن»(٦).

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.

(٢) الدر المنثور ١: ١٥٤ - أخرج الخرائطي عن جابر بن عبد الله سمعت رسول الله ﷺ يقول: أفضل الذكر لا إله إلّا الله وأفضل الشكر الحمد لله.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٤.

(٥) في المعاني عن الحسين البزاز قال قال لي أبو عبد الله عليه السلام: ألا أحدثك بأشدّ ما فرض الله على خلقه؟ قلت: بلى - قال: «إنصاف الناس من نفسك ومواساتك لأخيك وذكر الله في كلّ موطن أما إني...».

(٦) الدر المنثور ١: ١٤٩ - أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن خالد بن أبي عمر قال قال رسول الله ﷺ: ...

وفي حديث قدسي: «إذا علمت أن الغالب على عَبْدي الاشتغال بي نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي، فإذا كان عبدي كذلك وأراد أن يسهو حُلت بينه وبين أن يسهو، أولئك أوليائي حقاً، أولئك الأبطال حقاً، أولئك الذين إذا أردت أن أُهْلِكَ أهل الأرض عقوبة ذويتها عنهم من أجل أولئك الأبطال»(١).

وقد خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقال: ارتعوا في رياض الجنة، قالوا: يا رسول الله ﷺ وما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر، اغدوا وروحوا واذكروا، ومن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله تعالى ينزل العبد حيث أنزل العبدُ اللهَ من نفسه، واعلموا أن خير أعمالكم عند مليككم وأزكاها وأَرْفَعَها في درجاتكم وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله تعالى فإنه تعالى أخبر عن نفسه فقال: أنا جليس من ذكرني... وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ بنعمتي، اذكروني بالطاعة والعبادة أذكركم بالنعم والإحسان والراحة والرضوان(٢).

ثم الذِّكر في ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ غيره في ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ فإن الله لا يغفل ولا ينسى، فإنما هو أثر الذِّكر، أن يَرْحَمَ عَبْدَهُ في مواقفه ومنها مغفرته، دفعاً عن العصيان حين اقترابه، أم رفعاً للعصيان بعد اقترافه، وكما يروى عن رسول الذكر ﷺ تفسيراً لآية الذكر: «اذكروني يا معاشر العباد بطاعتي أذكركم بمغفرتي»(٣) فـ «طاعتي» تعم فعل الواجب وترك الحرام، و«مغفرتي» تعمُّ الدفع والرفع، والأوّل للأولين في ذكر الله وطاعته، والثاني لمن بعدهم

(١) في عدة الداعي عن النبي ﷺ قال قال سبحانه: إذا علمت...
(٢) عدة الداعي قال: وروي أن رسول الله ﷺ قد خرج على أصحابه فقال:...
(٣) الدر المنثور ١: ١٤٨ - أخرج أبو الشيخ والديلمي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢] يقول:...

الآخرين، ثم العصيان حالة الغفلة والنسيان، هو أدنى من العصيان حالة الذكر فإنه طغيان «فحق على الله أن يذكر صاحبه بمقت»[(١)].

ثم ونسيان ذكر الله كفرٌ به وكفران، وذِكْرُهُ شكرٌ وشُكْران، فقد قال موسى: يا رب أخبرني كيف أشْكُركَ؟ قال: «تذكرني ولا تنساني فإذا ذكرتني فقد شكرتني وإذا نسيتني فقد كفرتني»[(٢)] «كفرتني» تعني سترتني عن نفسك ستراً لنفسك عني بُعداً معرفياً، وهي مختلفة عن «كفرت بي» فهذا كفر وذاك كفران.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ الظاهر في ذِكْرِ الله الدافع إلى طاعته تقوىً قد تشمل ذكره - أيضاً - حال معصيته طغوىً، فهي هنا أمر تعجيز وتهديد، كما الأوّل أمر تحجيز وتمديد، وكما يروى «أوحى الله إلى داود قل للظلمة لا يذكروني فإن حقاً عليّ أذكرُ من ذكرني وإن ذكري إياهم أن ألعنهم»[(٣)].

إذاً ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ كما تعني الكفران بالنسيان، كذلك تعني الكُفر بالذِّكر حالة الطغيان في العصيان، ولأن ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ هي كجزاء لـ ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ فلتكن أوسع من شرطها كما قال الله ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[(٤)] فكذلك الله في مسرح الذِّكر حيث يقول: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملاءٍ ذكرته في

---

(١) وفيه أخرج ابن لال والديلمي وابن عساكر عن أبي هند الداري عن النبي ﷺ مثله بزيادة: فمن ذكرني وهو مطيع فحق عليّ أن أذكره بمغفرتي ومن ذكرني وهو لي عاص فحق علي أن أذكره بمقت.

(٢) الدر المنثور ١: ١٤٨ - أخرج ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال: . . .

(٣) المصدر أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وأحمد في الزهد والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس . . .

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

ملاءٍ خيرٍ منهم وإن تقرّب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً وان أتاني يمشي أتيته هرولة»[١] ويقول: «لا يذكرني أحد في نفسه إلّا ذكرته في ملاءٍ من ملائكتي ولا يذكرني في ملاءٍ إلّا ذكرته في الرفيق الأعلى»[٢] ف«أحب الأعمال إلى الله أن تموت ولسانك رطب من ذِكْرِ الله»[٣] ف«ليس يتحسَّرُ أهل الجنة إلّا على ساعة مرت بهم لم يذكر الله تعالى فيها»[٤].

﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ وأوّل معرفة النعمة أنها من الله، ف«ما أنعم الله على عبده من نعمة فعلم أنها من عند الله إلّا كتب له شكرها قبل أن يحمده...»[٥].

ثم النظر الصالح في مسرح الحياة لمرضاة الله تعالى، ف«من نظر في الدين إلى من فوقه وفي الدنيا إلى من تحته كتبه الله صابراً شاكراً، ومن نظر في الدين إلى من تحته ونظر في الدنيا إلى من فوقه لم يكتبه الله صابراً ولا شاكراً»[٦].

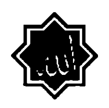
ثم أن يصرف كلّ ما أنعمه الله في مرضاته، وبالتالي كأرفع الشُّكر أن يعترف بعجزه عن شُكْرِ ربه كما قال موسى عليه السلام يوم الطور: يا رب إن أنا

---

(١) المصدر أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الله: ...
(٢) المصدر أخرج الطبراني عن معاذ بن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الله عز وجل ذكره: ...
(٣) المصدر عن مالك بن يخامر أن معاذ بن جبل قال: إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن قلت أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: أن تموت ...
(٤) المصدر أخرج الطبراني والبيهقي عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ...
(٥) الدر المنثور ١: ١٥٣ عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «وما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلّا غفر له ذلك قبل أن يستغفره إن الرجل ليشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له».
(٦) المصدر أخرج البيهقي عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ...

صلّيت فمن قِبَلِك وإن أنا تصدَّقت فمن قِبَلِك وإن أنا بلّغتُ رسالاتك فمن قِبَلِك فكيف أشكُركَ؟ قال: «يا موسى الآن شكرتني»[١].

ثم وترك كلّ مرتبة من الشكر كفرٌ حسبها بمعنى الكفران، اللّهم إلّا ذِكْراً لنعمته وكفراً بالمنعم فمكفرٌ بالله. وكما الذكر درجات كذلك الشكر درجات، والنسيان والكفران والكفر - أيضاً - دركات: ففي الشكر تبدأ بالاعتراف بفضل الله وإن كلّ النعم هي من الله، وتنتهي بالتجرُّد لشُكْرِه في كلّ حقول المعرفة والعمل والاعتراف بالعجز عن شكره، في كلّ حركة بدن، وكلّ لفظة لسان، وفي كلّ خفقة قلب، وفي كلّ خطرة جنان، وبين المبدأ والمنتهى متوسطات.



(١) المصدر أخرج الخرائطي عن أبي عمر الشيباني قال قال موسى . . .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾:

الصبر كاستقامة سلبية حفاظاً على كيان الإيمان هو الناحية السلبية من كلمة التوحيد، كما الصلاة قوامةٌ إيجابية - تَداوُمَ التكامل لحاصل الإيمان - هو الناحية الإيجابية لكلمة التوحيد، فالصبر ككلٍّ يعني الشطر الأوّل لهذه الكلمة، والصلاة ككلّ للشطر الثاني، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ تأكيد للمرحلة الأولى فإنها أهمّ من الثانية، وهذه المعية الربانية للصابرين كافلة لصالح المرحلتين.

هنا تُرجَّح ميزانية الصبر حيث المسرح يستقبل حكم الجهاد بُملاقاة الأهوال ومُقارعة الأبطال فالاهتمام بالصبر فيه أهم، وهناك في أخرى ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[1] ترجِّح ميزانية الصلاة لأنها كأصل وضابطة خير موضوع وهي عمود الدين، ونظراً إلى احتمال ثان «إنها» تعني الاستعانة بكلا الصبر والصلاة، فهما - إذاً - رِدف بعض ولصِق بعض في حظيرة الإيمان، مهما اختلفت مجالاته في تأثير أهم لأحدهما صبراً أو صلاة، وقد فصَّلنا القول فيهما على ضوء آية الخاشعين، وإن من الصبر ممدوح مأمور به، ومنه مقبوح منهي عنه كالصبر على الظلم والضيم.

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

والاستعانة بالصبر والصلاة في كلّ المجالات لها دور عظيم عميم لإدارة الشؤون الحيوية الإيمانية، فردية وجماعية في كلّ الحقول، ولا سيّما في حقل الجهاد، فإنه للمسلمين حياد ومهاد وسداد، فعلى الأنفس المؤمنة أن تكون مشدودة الأعصاب، شديدة الاعتصاب، مجندة القوى، يقظة للمداخل والمخارج، وللداخل والدخيل والخارج، والزاد الأوّل في كلّ ذلك هو الصبر، صبراً عن المعاصي وعلى الطاعات، وعلى جهاد المشاقين الله، والكائدين بشُرْعَةِ الله، وصبراً على بُطءِ النصر، وعلى بُعد الشقة وعلى كلّ مشقة في هذه السبيل الشاقة الطويلة، وعلى انتفاش الباطل وقِلَّة الناصر، وعلى التواء النفوس وضلال القلوب وثقلة العناد ومضاضة الأغراض، ومن «استقبل البلايا بالرحب وصبر على سكينة ووقار فهو من الخاص ونصيبه» ما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1] وحين يقلُّ الصبر أو يكلُّ فالصلاة، وإنها المعين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد، تُجدِّد الطاقة الكليلة، وتُزوِّد القلوب العليلة، فيمتد - إذاً - حبلُ الصبر دونما انقطاع، فـ ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ومن الصبر في المقال بعد الصبر في الحال والفعال:

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾:

هذه من الآيات الدالات على الحياة البرزخية، تختصّ هنا بمن يقتل في سبيل الله لمُناسبة المسرح والموقف، فـ ﴿أَمْوَٰتُۢۚ﴾ هنا يعني موت الفَوْت الذي ليس فيه ولا بعده حياة، فهو الموت المطلق، لا مطلق الموت الذي

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٤١ عن مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: . . . وفيه عن تفسير العياشي عن الفضيل عن أبي جعفر عليه السلام قال: يا فضيل! بلِّغ من لقيت من موالينا عنا السلام وقل لهم إني أقول: إني لا أغني عنكم من الله شيئاً إلّا بورع فاحفظوا ألسنتكم وكفوا أيديكم عليكم بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين.

قد تُصاحبه حياة تعنيها ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ فهم أحياء بعد موتهم ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ حسيّاً أنهم أحياء، فاشعروا معرفياً بما يعرّفكم الله أنهم ﴿أَحْيَآءٌ﴾.

وإنها ليست - فقط - حياة الذكر بعد الموت، فما هي الفائدة للميت دون حياة أن تكون له حياة الذكر وهو لا يشعرها، ثم الثانية النظيرة لها، الشارحة لحياتها أكثر منها ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ... فَرِحِينَ... وَيَسْتَبْشِرُونَ... أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] تصريحات لا حِوَلَ عنها لواقع الحياة بعد الموت دون حياة التخيّلات، وسوف نأتي على تفصيل القول عند تفسيرها.

إنهم يعيشون بعد موتهم «في الجنة على صور أبدانهم»[2] «في قالب كقالبه في الدنيا فيأكلون ويشربون فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت في الدنيا»[3]، وفي صيغة ثالثة «إن الأرواح في صفة الأجساد»[4].

وما أَقْبَحَها فريةً على رسول الهدى ﷺ أنهم «في صورة طير بيض تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش»[5].

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩، ١٧٠.

(٢) المصدر في المجمع عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أرواح المؤمنين؟ فقال: في الجنة على صور أبدانهم لو رأيته لقلت فلان.

(٣) المصدر عن المجمع عن يونس بن ظبيان قال كنت عند أبي عبد الله عليه السلام جالساً فقال: ما يقول الناس في أرواح المؤمنين؟ قلت: يقولون: في حواصل طير خضر في قناديل تحت العرش، فقال أبو عبد الله عليه السلام: سبحان الله! المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طائر أخضر، يا يونس! المؤمن إذا قبضه الله تعالى صيّر روحه في قالب كقالبه في الدنيا فيأكلون...».

(٤) في الكافي عن الصادق عليه السلام: ... في شجر من الجنة تعارف وتساءل فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول دعوها فإنها قد أقفلت من هول عظيم ثم يسألونها ما فعل فلان وما فعل فلان، فإن قالت لهم: تركته حياً ارتجوه، وإن قالت لهم: قد هلك قالوا: قد هوى هوى.

(٥) الدر المنثور ١: ١٥٥ قال ﷺ في صورة...، وفيه عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: إن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تعلق من ثمر الجنة أو شجر الجنة.

فلو أنَّها - فقط - حياة الذكر، فكيف «لا يشعرون؟» وحتى الماديين الناكرين للحشر يمشون وراءَ حياة الذكر، رغم أنها لهم خيال على خيال، فإن حياة الذكر إنما يشعرها ويعمل على تحصيلها من له حياة بعد الموت حتى يلتذ بحياة الذكر فيها.

وإن حب حياة الذكر - الفطري - هو من الأدلة الفطرية على استمرارية الحياة بعد الموت، وهو من الحجج الدامغة على ناكري الحياة بعد الموت، إذاً لو لم تكن بعد الموت حياة، فأي دافع لمن يبُطل حياته لبقاء آخرين، وأن يَحرم نفسه لذَّاتها ليتمتع آخرون، حيث العاقل - أيّاً كان - لا يعطي إلّا استعطاءً بديل ما يعطي، إما هنا أم في الحياة الأخرى، وليست حياة الذِّكر لها دور إلّا لمن يحيى بعد موته حتى يشعر تلك الحياة، وإذ لا حياة فلا شعور للذّكر حتى يجهد في تحصيله!.

وقيلة القائل: إن الخطاب في ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ موجه إلى المؤمنين الذين يعتقدون في الحياة بعد الموت كأصل ثالث من الدين، فكيف ينهاهم عن قالتهم هذه وهم مؤمنون؟ فلتكن ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ حياة الذِّكر!.

إنها مردودة عليهم، بأن الحياة البرزخية لم تكن باهرة لهم كحياة القيامة، وهذه هي الثالثة من أصول الدين، وأما البرزخية التي يَشك فيها حتى الآن جماعة من المسلمين، منهم قائل هذه القيلة - فلم تكن بذلك الظهور، فلتذكر لهم بمثل هذه الذكريات التي تحملها الآيات البرزخية الباهظة، الناهضة لما فوق العشرين![1].

ثم وحياة الذِّكر أيضاً - إضافة إلى أنها لائحة حتى للماديين - هي كذلك تتطلب حياة بعد الموت تُدرك فيها كلذّة من ملاذها! وإذا لا تُدرك إذ

---

(١) أخرجه مالك والشيخان عنه ﷺ.

لا حياةَ بين الدنيا والآخرة فكيف يرغِّب القرآن المؤمنينَ إلى حياة تخيلية لا واقع لها؟!.

فالقول إن ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ قد تعني الحياة الأخرى، يرده أن الاعتقاد فيها هو من أوّليات العقائد الإسلامية التي ابتدأ الإسلام بها، ثم العبارة الصالحة لخصوصها «بل هم يحيون» دون ﴿أَحۡيَآءٌ﴾ الدالة على استمرارية الحياة دون فوت، فلنستعن بالله صبراً - فيما نستعين - بالصبر على أمثال هذه الأقاويل، والردّ عليها بنصوص من القرآن كهذه وأضرابها.

وهنا احتمالات أخرى لا تحملها هذه الآية وأضرابها الصريحة في الحياة البرزخية[1]... وترى الآية - بعدُ - مختصَّةً بحياة الشهداء، نافيةً لحياة غيرهم من السعداء والأشقياء؟ كلّا! فإن هذه الحياة الخاصة رزقاً عند ربهم، هي للنبيين أخص، وليسوا كلّهم ولا جُلُّهم من الشُّهداء، كما وفي غيرهم من هو أفضل من بعض الشهداء، فلماذا تختص هذه الكرامة - فقط - بالشهداء! ثم وإثبات الحياة البرزخية للشهداء، ليس لينفيها عن غير الشهداء، لا سيّما وأن المجال هنا مجال الترغيب للقتال في سبيل الله، وجبر خواطر أهليهم أن افتقدوهم، فلكلّ مجالٍ قالٌ، كما لكلّ قالٍ مجالٌ.

ومن ثم فعشرات من الآيات الدالة على الحياة البرزخية لكافة المكلفين، مؤمنين وكافرين، إنها تدلنا دلالة قاطعة لا محيد عنها على شمولية الحياة البرزخية دونما استثناء! وسوف نوافيكم بقول فصل حول الحياة البرزخية على أضوائها في محالها حسب دلالاتها وأدلتها.

ثم وفي رجعة ثانية إلى الآية ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ نهي عن قولة الممات

---

(١) كالقول إنها حياة الهدى، الظاهرة في الأخرى، أم استمرارية الحياة الدنيا بنفس هذا البدن أم حياة روحانية محضة دون أي جسم، أم حياة أرواحهم في أجساد أخرى غير أجسادهم، امّا ذامت تقولات زور لا سند لها إلّا تطفلات!...

للشهداء، وطبعاً في حقل «مات وفات» ثم لا حياة بعد ما مات أبداً، ولا يقوله مسلم، أم لا حياة في البرزخ بين حياتي الأولى والأخرى كما كان يظنه المسلمون فيمن سواهم ولمّا يبين لهم برزخ الحياة، فهذا من البيان: ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ - هم - أموات» ﴿بَلْ﴾ قولوا ﴿أَحْيَاءٌ﴾ وإن لم تشعروا تلك الحياة، وقد يشعركم إياها حالة النوم: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[1] ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾[2].

إنهم قُتلوا في ظاهر الجسد الدنيوي، وما يشعركم أنهم - كذلك - قُتلوا في الروح وفي جسد آخر هما غير محسوسان، فحين يُخبِرنُا ربنا ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ نُصدِّقه كما نُصدِّق الحياة المحسوسة وأحرى، حيث الوحي أحرى بالتصديق من الحسن وأقوى.

أجل! ﴿أَحْيَاءٌ﴾ أحيا من قسم كثير من الأحياء في البرزخ، ولذلك لا يُغسَّلون كما يُغسل الموتى، ويُكفَّنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها، فالغُسل تطهير للجسد الميت وهم لا يُحكم عليهم - بقتلهم - حكم الميت، فثيابهم بعد قتلهم هي ثيابهم قبله! رمزاً إلى حياة لهم قوية فائقة.

وقد وردت في شأن الشهداء آيات وروايات، فتراهم يقرنون بالنبيين والصديقين قبل الصالحين: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾[3] ومن الشهداء هم القتلى في سبيل الله، لا سواه.

وفي حديث الرسول ﷺ: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.
(٣) سورة النساء، الآية: ٦٩.

الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلّا الشهيد ويتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»[١].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾:

في ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ تأكيدات ثلاثة في تحقيق ذلك البلاء، ثالثها جمعية الصفات الربانية المستفادة من صيغة المتكلم مع الغير، فلا بدّ في مسرح الإيمان من مصرع البلاء بشتى الألوان، نفسياً: ﴿مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ وبدنياً: ﴿وَٱلْجُوعِ﴾ ومالياً: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ ونفسياً لكم ومن هو مثلكم: ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ وكضابطة تشمل كلّ نفس ونفيس من غال ورخيص: ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

فـ ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ تعم ثمرات العقول والعلوم والقلوب، ومن الثالثة الأولاد الصالحون الذين هم من أغلى ثمرات الحياة، مهما شملت ثمرات الزرع والضرع، حيث الثمرات النفسية أنفَسُ وأغلى من ثمرات الجسم.

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على هذه البلايا المحلقة على المؤمنين فيما لَهم من حيويات روحية ومادية: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[٢].

أجل و«إن الله يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات وحبس البركات وإغلاق خزائن الخيرات ليتوب تائب ويتذكّر مُتذكّر»[٣]، ثم

---

(١) عن نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام.
(٢) سورة العنكبوت، الآيات: ١-٣.
(٣) عن نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام.

و﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[1] كما يبتليهم وهم صالحون، مخلِصون ومخلَصون: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾[2]. وكضابطة عامة: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[3] ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[4].

لا فحسب - بل والشُّرْعة الإلهية بتتابعها في مختلف طقوسها بأدوارها بلاء: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[5] ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[6].

بل والموت والحياة كلٌّ بلاء: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[7].

ثم «إن أشد الناس بلاءً النبيون ثم الوصيون ثم الأمثل فالأمثل، وإنما يُبتلى المؤمن على قَدْرِ أعماله الحسنة، فمن صحَّ دينه وصحَّ عمله اشتدَّ بلاؤه وذلك أن الله عزّوجلّ لم يجعلِ الدنيا ثواباً لمؤمن ولا عقوبةً لكافرٍ، ومن سخف دينه وضعُفَ عمله فقد قلّ بلاؤه، والبلاء أسرع إلى المؤمن المتقي من المطر إلى قرار الأرض»[8].

وحينما نرى أصحاب الغايات الدنيوية الدانية يتحمَّلون مُخْتلف ألوان

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٦٨.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.
(٧) سورة الملك، الآية: ٢.
(٨) نور الثقلين ١ : ١٤٣ في العلل بإسناده إلى سماعة بن مهران عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن في كتاب علي عليه السلام: ...

البلاء من أجل الحصول عليها، فبأحرى لأصحاب الغايات الأخروية أن يتحملوا خلفياتها وأعباءَها.

كما ولا يدرك الآخرون قيمة الإيمان إلّا حين يرون ابتلاء أهله وصبرهم على شديد بلائه، وعندئذٍ قد ينقلب المعارضون لعقيدة الإيمان باحثين عنها، مقدرين لها، مندفعين إليها.

فالشدائد تشجيش مكنونات القوى، ومذخورات الطاقات، فاتحة في القلوب منافذ ومسارب ما كان لِيَعْلَمَها المؤمن في نفسه إلّا تحت مطارق الشدائد، فـ «عند تَقلُّب الأحوال تعرف جواهر الرجال».

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على البلايا والرزايا «فمن سترها ولم يشكُ إلى الخلق ولم يجزع بهتك ستر فهو من العام ونصيبه» مما قال الله ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].

وإن أبلى البلاء للمؤمنين هو في الغيبة الكبرى لصاحب الأمر عجّل الله تعالى فرجه الشريف، وهو أصدق مصاديق آية البلاء[2].

ومَن هم الصابرون - ككلّ - حتى نعرفهم بأجمعهم في صيغة مختصرة؟:

---

(١) مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام في كلام طويل: . . .

(٢) نور الثقلين ١: ١٤٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن مسلم قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: إن لقيام القائم عليه السلام علامات يكون من الله عزّ وجلّ للمؤمنين، قلت: وما هي جعلني الله فداك؟ قال: ذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ [البَقَرَة: ١٥٥] يعني المؤمنين قبل خروج القائم عليه السلام ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ من ملوك بني فلان في آخر سلطانهم ﴿وَٱلْجُوعِ﴾ بغلاء أسعارهم، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ قال: كساد التجارات وقلة الفضل ونقص من ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ قال: موت ذريع ونقص من ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لقلة ريع، يزرع ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٥] عند ذلك بتعجيل الفرج، ثم قال يا محمد! هذا تأويله، إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عِمرَان: ٧].

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾:

﴿مُّصِيبَةٞ﴾ هي صفة لـ«رمية» وأصلها «رمية مصيبة» فتشمل كلّ رمية من أيٍّ رام تصيب الإنسان، في نفسه أو مالِه، أمّا لَه على أية حال، وهي تأتي لخير قليلاً ولشرّ كثيراً، ومن مصيبة الخير إقبال الدنيا على المؤمن بماله ومناله ورئاسته، فإنها بلاءٌ يصيب على المبتلى بها أن يتخلص عن أوزارها وأوضارها، ولكن ﴿إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ قد تختصها بمصيبة الشرِّ، أو يُقال إن الحياة العادية بين إقبال الدنيا وإدبارها هي قليلة البلاء أو خفيفتها، فإنما المُهم ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾[1] فالعوان بينهما خارج عن تلك البلية.

والمُصيبة - وهي - في الأكثر - التي توجع الإنسان قل أو كثر - قد تكون بما قدمت أيدي المصاب: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾[2] - ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾[3] وأخرى بما كسبت أيدي الناس ظُلماً: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾[4]، حيث تجب فيها الدفاع حسب المستطاع: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾[5]، ويجمعهما ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ أنفسكم أو سواكم: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾[6].

والمُصيبة إن كانت حسنة فمن الله وإن كانت سيئة فمن نفسك وكلٌّ من عند الله، حيث يأذن له تكوينياً مهما كانت غير مأذونة تشريعياً: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾[7] ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٢.
(٣) سورة النحل، الآية: ٣٤.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٤٦.
(٥) سورة الشورى، الآية: ٣٩.
(٦) سورة الشورى، الآية: ٣٠.
(٧) سورة التغابن، الآية: ١١.

مَوْلَىٰنَاۚ﴾[١]، وهي تعمُّ كتابة الجزاء هنا، وكتابة تَمْشِية الاختيار ممن يظلم بما يُصيب سواه، وكتابة الامتحان لمن يرتقي بما يُصاب صابراً عليه فـ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[٢]، وعلى أية حال ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾[٣] صدوراً بإذنه أياً كان: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ. . .﴾[٤].

فإذا كانت المصيبة السيئة من عند الله بما كسبت أيديكم أم بما كسبت أيدي الناس أم وابتلاءً من الله، فقضيةُ الإيمان بالله أن تقول عندها: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ مهما وجبت عليك الدفاع والانتصار، فإنها لا تطارد كلمة الاسترجاع.

وقد قال رسول الله ﷺ: «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عُقْباه وجعل له خَلَفاً صالحاً يرضاه» و«ما من نعمةٍ وإن تَقادَم عَهْدُها فيجدّد لها العبدُ الحمدُ إلّا جدّدَ الله له ثوابها، وما من مصيبةٍ وإن تَقادمَ عهدها فيجدّد لها العبدُ الاسترجاعَ إلّا جدَّد الله له ثوابَها» - و«إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قَبَضْتُم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم - فيقول: قَبَضْتُم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمد واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسمّوه بَيْتَ الحمد» -.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥١.
(٢) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢، ٢٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ٧٨.
(٤) سورة النساء، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

و«إن للموت فزعاً فإذا أتى أحدكم وفاة أخيه فليقل: إنّا لله وإنّا إليه راجعون وإنّا إلى ربنا لمنقلبون...». وليس فحسب مصيبة الموت التي يحق لها الاسترجاع، بل و«إذا انقطع شسع أحدكم فليسترجع فإنها من المصائب» - وقد «طُفئ سراج النبي ﷺ فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فقيل: يا رسول الله ﷺ أمُصيبة هي؟ قال: نعم وكلّ ما يؤذي المؤمن فهو مُصيبته له وأجر» وعلى الجملة «قسم الله العقل على ثلاثة أجزاء فمن كنّ فيه فهو العاقل ومن لم يكنّ فيه فلا عقل له، حسن المعرفة بالله وحسن الطاعة لله وحسن الصبر لله»[1].

هذا! ثم و﴿قَالُوٓاْ﴾ هنا تلك المهمة الكبرى التي يبشر الله فيها، ليست هي - فقط - لفظة القول، كما الصبر - أيضاً - ليس من هذه المقولة، فإنما ﴿قَالُوٓاْ﴾ باللسان إخباراً عن حالة واقعة في الجنان، فألسنتهم قائلة وأعمالهم - عند المصيبة - عما في القلب: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

أم ﴿قَالُوٓاْ﴾ بلسان قالهم وحالهم وأعمالهم، فهم - إذاً - بكلّ كيانهم استرجاع لربهم عند مصائبهم. ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ ككلّ - في ذواتنا وصفاتنا وأفعالنا وإدراكاتنا، فكلٌّ ما لنا ومنا وإلينا، مماليك لله دون أية حرية طليقة عن مشيئة الله، فحين تصيبنا مصيبته لسنا نتضايق أبداً ولا نتساءل، لأنها ليست إلّا بإذن الله، ثم ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ كيفما كنا وأين وأنّى.

---

(١) الدر المنثور ١: ١٥٦ - ١٥٩ - أخرج كلّا جماعة عن النبي ﷺ، ومنها ما أخرجه الديلمي عن عائشة قالت أقبل رسول الله ﷺ وقد لدغته شوكة في إبهامه فجعل يسترجع منها ويمسحها فلما سمعت استرجاعه دنوت منه فنظرت فإذا أثر حقير فضحكت فقلت: يا رسول الله ﷺ بأبي أنت وأمي أكل هذا الاسترجاع من أجل هذه الشوكة؟ فتبسم ثم ضرب على منكبي فقال: يا عائشة إن الله ﷻ إذا أراد أن يجعل الصغير كبيراً جعله وإذا أراد أن يجعل الكبير صغيراً جعله.

تُرى ما ذلك الرجوع؟ أرجوعٌ إليه عما كنا عنده؟ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[(١)] دون انفصال علمه وقدرته وإرادته!.

أم رجوعٌ إلى عالمه الأخير في الدار الآخرة؟ ولم نكن فيها حتى نرجع إليها! ثم الرجوع إليها ليس - بالتمام - رجوعاً إليه حتى وإن كنا من قبل فيها!.

قد يعني ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ رجوعنا إلى ما كنا في ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ ولكن أين؟

فهل رجوعاً إلى ما نحن الآن من ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ وهو تحصيل للحاصل؟!.

علّه رجوع إلى ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ قبل الاختيار والتكليف إذ كنا أجنّة في بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً حتى نعلم شيئاً فكنا ﴿لِلَّهِ﴾ لا لأنفسنا، إذ لم نكن نسطع على شيء من أمرنا، فكذلك نرجع إليه بنفس الحالة، حيث الحياة البرزخية ثم الأخرى، لا خيرة للأحياء فيها: ﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(٢)]. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(٣)]. فـــ ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ اعتراف باختيار ما اختار الله لنا يوم الدنيا، وكما كنا مسيَّرين فسوف نَرْجِعُ إليه كما بدأنا.

أم ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ عن كلا المرحلتين من ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ حيث الرجوع وإن اقتضى البدء، فالأولى بدؤه، ثم الثانية تنتهي إليه مصيراً للمسير، فقولنا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، اقرار على أنفسنا بالملك ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، إقرار بالهُلك[(٤)]... فإذ نحن في البدء «لله» اختياراً ودون اختيار، ثم في المصير ليس لنا اختيار، فأحرى لنا أن نختار في عالم التكليف والاختيار ما هو

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٢) سورة الروم، الآية: ١١.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢١.

(٤) نور الثقلين ١: ١٤٤ عن أصول الكافي ونهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام.

يختار، تصبُّراً على المصاب، وقولاً بالصواب: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ - ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

فعلى مَ تأسف وتجزع أيها الإنسان عند المصاب ولا يَمْلِكُكَ إلّا رب الأرباب، ثم وإليه المصير! فلا حَوْلَ لكَ ولا طَول في المصاب الذي ليس لك فيه ذهاب ولا إياب، اللهم إلّا الذي يأتيك جزاءً ليس لك عنهُ محيد.

ذلك! ولكن الصبر على المصاب حيث أصاب، لا يعني الصبر على كلّ ظلم وضيم، فإن واجب الدفاع عنده يحرِّض على كلِّ محاولة مستطاعة لدفع الظلم، فإنما الصبر على ما وقع منه دون جزع أو تساؤل على الله، ثم العمل الجادّ على دفع الإصابة المشرفة، وإزالة البقية من الواقعة.

﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾:

وعلّ هذه الثلاث - وأنعِم بها وأبشِر - هي المبشَّر بها في ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

فـ ﴿صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هي رحمات عدة، يرفعهم الله بها إلى المشاركة في نصيب نبيِّه حيث يُصلي عليه هو وملائكته، فهي صلوات زيادة على عامة الصلوات في ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[2]، ثم ﴿وَرَحْمَةٌۖ﴾ خاصة مع هذه الصلوات الرحمات ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ﴾ وكأنه لا سواهم ﴿ٱلْمُهْتَدُونَ﴾، فهنالك صلوات تعمُّ المؤمنين، ثم خاصة تخصُّ الشهداء منهم والصابرين، ومن ثم أخص تخصُّ النبي ﷺ وأهله المعصومين عليهم السلام، وكما أمرنا أن نصلي عليهم لمّا نصلي عليه.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٣.

وقد تعني ﴿صَلَوَٰتٌ﴾ هنا لقرنها بـ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ انعطافات ربانية عليهم تخلّف رحمة عظيمةً تلمح لها التنكير في ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وقد يدل عليه «يُصلّي عليكم ليخرجكم» حيث الإخراج من الظلمات إلى النور هو الرحمة، إذ فـ ﴿يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ انعطاف لذلك الإخراج عن ورطة الإحراج، وكما أن ﴿صَلَوَٰتٌ﴾ تخلّف ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ كذلك الرحمة تخلف الهداية، ثلاثة ردف بعض، كلّ تنتج الأخرى، مهما كانت كلٌّ صلاةً من الله ورحمةً وهدايةً، إلّا أن الاختلاف هو في الدرجة.

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾:

آية وحيدة في شعيرة الصفا والمروة و: «التطوف بهما»، وهو فريضة في الحج والعمرة، ورُكْنٌ فيهما، فترى كيف يعبّر عنه بـ«لا جناح» سلباً لحُرْمَتِه، ثم ﴿تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ إيجاباً لندبه، والفريضة هي فوق الوجوب المتعوَّد؟!.

«لا جناح» - بالنسبة لهذه الشعيرة الفريضة - تلمح أنه كان يخلدُ بِخَلَد المسلمين يومذاك جناحٌ في التطوُّف بهما، وكما تدل عليه أسباب نزول عدة: «أن المسلمين كانوا يظنون أن السعي بين الصفا والمروة شيءٌ صنعه المشركون» فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[1]، ولأن أصناماً

(١) في الكافي عن الصادق عليه السلام في حديث . . . وإن المسلمين . . . وفي الدر المنثور عن أنس أنه سُئل عن الصفا والمروة - قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله الآية، وفيه عن عمرو بن حبيش قال سألت ابن عمر عن قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا﴾ فقال: انطلق إلى ابن عباس فاسأله فإنه أعلم من بقي بما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم فأتيته فسألته فقال: إنه كان عندهما أصنام فلما أسلموا أمسكوا عن الطواف بينها حتى نزلت الآية.
وفيه عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام لقد سمعت رجالاً من أهل العلم يقولون: لما أنزل الله الطواف بالبيت ولم ينزل الطواف بين الصفا والمروة قيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنا كنا نطوف في الجاهلية بين الصفا والمروة وإن الله قد ذكر الطواف بالبيت ولم يذكر الطواف =

كانت على الصفا والمروة أو بينهما فكيف نسعى بينهما؟[(١)] فنزلت آية اللاجناح سلباً لذلك الجناح المزعون، ثم ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ تثبت فرض السعي فإنها - ككلّ - مفروضة على المسلمين في مجالاتها: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[(٢)] ومن تعظيمها تطبيقها بعد تعظيمها معرفياً وعقيدياً وقولياً، ومن أعظمها إذاعتها بين الجماهير، إذاً فترك تعظيمها هو من طغوى القلوب أم خلاف تقواها، والتقوى بصورة عامة ولا سيّما ﴿تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ المستطاعة واجبة على أصحاب القلوب: فـ ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[(٣)] - ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[(٤)] [(٥)].

= بين الصفا والمروة فهل علينا من حرج أن لا نطوف بهما فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا﴾ قال أبو بكر: فاسمع هذه الآية في الفريقين كلاهما فيمن طاف وفيمن لم يطف.

(١) في الدر المنثور ١: ١٦٠ عن عامر الشعبي قال: وثن بالصفا يدعى إساف ووثن بالمروة يدعى نائلة فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بالبيت يسعون بينهما ويمسحون الوثنين فلما قدم رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله ﷺ إن الصفا والمروة إنما كان يطاف بهما من أجل الوثنين وليس الطواف بهما من شعائر الله فأنزل الله الآية... وفيه عن عائشة أن عروة قال لها: أرايت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ فما أرى على أحد جناحاً أن لا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: بئسما قلت يا بن أختي إنها لو كانت على ما أوّلتها كانت فلا جناح عليه ألّا يطوف بهما ولكنها إنما نزلت أن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهللون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها وكان من أهلّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ قالت عائشة ثم قد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما.

وفي تفسير البرهان ١: ١٧٠ عن تفسير العياشي في خبر حماد بن عثمان قال أبو عبد الله عليه السلام: إنه كان على الصفا والمروة أصنام فلما أن حج الناس لم يدروا كيف يصنعون فأنزل الله هذه الآية فكان الناس يسعون والأصنام على حالها فلما حج النبي ﷺ رمى بها.

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٤) سورة التغابن، الآية: ١٦.

(٥) في فرض السعي أحاديث عدة منها ما في الدر المنثور ١: ١٦٠ - أخرج الشافعي وابن سعد =

وقد تقتضي طبيعة الحال نزول آية اللّاجناح عند أوّل فرضٍ لعمرة أو حج، وهو عمرة القضاء - سابع الهجرة -، أن رسول الله ﷺ شرط عليهم - فيها - أن يرفعوا الأصنام من الصفا والمروة فسُئل عن رجلٍ ترك السعي حتى انقضت الأيام وأُعيدت الأصنام فجاؤوا إليه فقالوا يا رسول الله ﷺ: إن فلاناً لم يَسْعَ بين الصفا والمروة وقد أُعيدت الأصنام فأنزل الله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ أي: «وعليهما الأصنام»[1].

ومن ثم حجة الوداع حين حج رسول الله ﷺ والمسلمون أجمع من استطاع إليه سبيلاً كما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام.

أم أنها نزلت قبلهما حيث كان يتفلّت بعض المسلمين لأداء حجٍّ أو عُمْرةٍ فرادى وفي خفيّة قبل عمرة القضاء وحجة الوداع، ممن كانوا - بعدُ - في مكة المكرمة، أم يقصدونها دونها، وعلّها نزلت مرات، أم تليت على المسلمين مرة بعد أخرى ولا سيّما في حجة الوداع وكانت أحرى بها، ولأن الطواف بهما - بعدُ - بسوء السابقة لهما لوجود الأصنام، كان تكلّفاً للموحدين الجُدُد، الباغضين الأصنام، لذلك يلحّق اللّاجناح هنا بـ ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ حيث التطوع هو تكلُّف في الطوع لكراهية قلبية أماهيه سواء أكان في ندبٍ لعدم فرضه، فالآتي به يتكلّف زيادةً على واجب التكليف، كما في تطوع الصوم على الذين يُطيقونه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ

= وأحمد وابن المنذر وابن قانع والبيهقي عن خيثة بنت أبي بحران قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول: واسعوا فإن الله عزّ وجلّ كتب عليكم السعي، وفيه أخرج الطبراني عن ابن عباس قال سئل رسول الله ﷺ فقال: إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا.

(١) نور الثقلين ١: ١٤٨ عن الكافي سئل أبو عبد الله عليه السلام عن السعي بين الصفا والمروة فريضة أم سنة؟ فقال: فريضة، قلت: أو ليس قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البَقَرَة: ١٥٨]؟ قال: كان ذلك في عمرة القضاء إن رسول الله ﷺ . . .

﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١) فالصوم لمن يُطيقه هو من تطوّع الخير لصعوبته في نفسه، كما أن قسماً من المندوب من تطوّع الخير صعوبة نفسية لأنه زيادة على الفرض.

أم هو تطوّع في فرض كما هنا إذ كانوا يتحرجون من الطواف بهما ظناً أنه سُنَّة جاهلية، وعلماً أنهما كانا محل الأصنام ومطافها، فهنا الله يشكر الطائفين بهما، علماً بهذه الكراهية، وعلماً بأنه من الشعائر التي لا تُترَك بحالٍ، وعلماً بأن في ذلك صلاح الجماعة المسلمة.

وهذه ضابطة سارية المفعول في كلّ الحقول أن تطوُّع الخير خيرٌ عند الله، وعلى ضوئها الحديث «أفضل الأعمال أحمزها».

فقد يكون تكلُّف التطوّع - فقط - بدنيّاً كصوم المطيق له، لإزالته الطاقة البدنية، أم - فقط - نفسياً، كالآتي بالمندوب أو المفروض، مستهل التطبيق، ولكنه مستصعب في وجه الحكمة.

أم هو متكلَّفٌ فيه نفسياً وبدنياً كالتطوف بالصفا والمروة، فاجتياز تلك المسافة البعيدة مرات سبع، بزحام بالغ، وحرّ حارق، وصدام في الجمع حانق، ذلك تكلُّفٌ بدني! ثم هو تكلُّفٌ نفسي في بعدين اثنين ثانيهما خفاء وجه الحكمة في ذلك الفرض الركن، إضافة إلى أوّلها، تحرجاً عن موقف الأصنام وسنة كأنها جاهلية.

فليس التطوّع - إذاً - ليدل على ندب المتطوع فيه كما لا يدل على فرضه، فقد يكون ندباً ولا تطوع فيه كالسواك والنكاح أمّا شابه، أو يكون فرضاً فيه تكلُّف كفرض الحج بكلّ مناسكه، فالتطوع في صيغة واحدة هو تكلُّف التطوع، سواءٌ أكان في فرضٍ أو ندبٍ، ولقد كانت الدعوة الجادة الجديدة الحادة ضدّ الشرك وطقوسه، هزت أرواحهم هزّاً، وتغلغلت فيها

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

إلى الأعماق، فأحدثت انقلاباً نفسياً حتى لينظرون بجفوةٍ وتحرّزٍ إلى ماضيهم الجاهلي، حيث انفصلوا عنه انفصالاً تاماً طاماً كلّ كيانهم، فلم يعُد منهم في شيء، ولم تعد دوامته في شيءٍ، فكيف يطوفون بالصفاء والمروة وهو من طقوس الجاهلية - بزعمهم - وهو موقف الأصنام في الواقع الماضي، ومدفنها بعد الماضي!.

هذا - ولكن شُرْعَةَ الحق تريد الإبقاء على بعض تلك الشعائر لأنها من شعائر الله، مهما اتخذتها الجاهلية الجهلاء من شعائرها، واستغلتها لحرمة الأصنام إذ كانوا يلمسونها في طواف البيت والسعي، نَزْعاً لها عن أصلها الجاهلي، وعوداً بها إلى أصلها الإلهي، فليست الشعيرة الجاهلية المتَّخَذة لتمحو الشعيرة الإلهية الأصيلة قبلها فـ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾! وترى ما هي شعائر الله بوجه عام؟.

لقد جاءت شعائر الله في ثلاث أخرى، كما ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾[1] بل والحج بمناسكه ككلّ من شعائر الله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[2] إذ هي تأتي بعد آية الحج بمناسك له: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ

(١) سورة الحج، الآية: ٣٦.
(٢) سورة الحج، الآية: ٣٢.

ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ...﴾[1]. فالحج ككلّ هي شعائر الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾[2]. فلأن تعظيم شعائر الله هو من تقوى القلوب، وهي مفروضة قدَرَ المستطاع، ثم إحلالها - ومنه تركها - منهي عنه هنا، إذاً نتأكد أن التطوّف بالصفا والمروة هو من تقوى القلوب الواجبة، لا يجوز إحلاله، وإنما «لا جناح» سلب لجناح مزعوم.

ثم الشعائر - لغوياً - هي جَمْع الشعيرة، وهي ما تُشعر وتعلن بدقة على كونها محسوسة باهرة ظاهرة، كما الشعار هو ما يشعر به الإنسان نفسَه أي يُعلم، فالمشاعر والشعائر هي المعالم الظاهرة المتظاهرة الإلهية التي تُعلِم وتُعلِن للناس حقائق جمّة بدقة وهمامة، فقد يكون شعار بلا شعور، أم شعور بلا شعار، ولكن شعائر الله تجمع إلى الشعار الشعور، والى الشعور الشعار، فهي مذياعات صوتية وصورية إلهية للإسلام تعريفاً به ككلٍّ، وتشريفاً له ككلّ، في مناسك هي في الأكثرية الساحقة أو المطلقة أعمال أم تروك بلا ألفاظ إلّا قلة قليلة هي التلبيات والصلاة، إذاً فليست الأعمال الجوانحية من شعائر الله، ولا كلّ الواجبات أو الفرائض الجوارحية هي من شعائر الله، وإنما هي مذياعات الشرعة الإلهية بطقوسها الجماعية المعلَنة، التي تدل بدقة ولطافة على حقائق رقائق في شرعة الحق.

وكما أن ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ﴾ في المائدة مصداق محوري للشعائر لأنه مسرح زمني لشعائر الحج، كذلك ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ هما مسرح مكاني لشعيرة السعي، فليس الزمان والمكان أيّاً كان شعيرة إلهية إلّا بما يحل فيهما من شعائر الله.

---

(١) سورة الحج، الآيات: ٢٧-٣٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢١.

ولأن كونهما من شعائر الله يتفرع عليه هنا ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ نعرف كضابطة سارية أن الشعائر الإلهية لا يصدّ عنها أي صادّ، فإنها ماضية على أية حال، قاضية على أي جناح مزعوم حين يُفسح لها مجال.

والجناح بمعنى المَيْلِ، مَيْلاً عنه وهو الأكثر استعمالاً كما هنا مَيْلاً بفاعله عن الحق، أم مَيْلاً إليه وهو الأقل استعمالاً وعلّه أيضاً مَيْلٌ إلى الباطل، أم هي معرَّبة عن «گُناه» الفارسية، وعلى أية حال فهي عصيان، والسعي فريضة في حج البيت وعمرته ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ سواءٌ أكان حجّ التمتع أو القران أو الإفراد، أو العمرة مفردة وسواها، فرضاً وسواه، فإنهما يُفرضان بالإحرام، والطواف هو الدوران حول الشيءِ إذا كان له حَوْل كالكعبة المباركة، وهو - ككلّ - السير الذي ينتهي آخره إلى أوّله، فهو يعم السعي والطواف، فالواجب فيه - ككلّ - الانتهاء إلى حيث بدأ.

وواجب البدءة في السعي هو من الصفا، وكما ينتهي السير إليها ثم إلى المروة، فـ«ابدأ بما بدأ الله به»[(١)] كضابطة عامة هنا وفي غيره.

والسعي من أهم المناسك وأحبِّها إلى الله، بل و«ليس لله منسك أحب إليه من السعي وذلك أنه يُذل فيه الجبارين»[(٢)].

بل و«جُعِل السعي بين الصفا والمروة مَذلَّةً للجبارين»[(٣)] هذا - ولكنه لا

---

(١) حديث مستفيض عن الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته عليهم السلام في مجالات عدة، منها ما في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال في حديث طويل: إن رسول الله ﷺ قال: ابدأ بما بدأ الله به فأتى الصفا فبدأ بها. وفي الدر المنثور ١: ١٦٠ - أخرج مسلم والترمذي وابن جرير والبيهقي في سننه عن جابر قال: لما دنا رسول الله ﷺ من الصفا في حجته قال: إن الصفا والمروة من شعائر الله، ابدؤوا بما بدأ الله به فبدأ بالصفا فرقى عليه. وعن الصادق عليه السلام ما من بقعة أحب إلى الله من السعي لأنه يذل فيها كلّ جبار عنيد.

(٢) نور الثقلين ١: ١٤٧ في الكافي عدة من أصحابنا عن سهل رفعه قال: ليس لله . . .

(٣) فيه عنه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جعل السعي . . .

يؤتى به إلّا ضمن حجٍّ أو عمرة كما قال الله ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ فالإتيان به دونهما جُناح وبدعة، وأما الطواف بالبيت فجائز في غيرهما لثابت السنة وعدم الحظر عنه في آيته، وهنا ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ قد يعتبره في غير حج أو عمرة جناحاً!.

ترى ومتى فرضت فريضة السعي بين الصفا والمروة، وما هي الصفا وما هي المروة؟ قد يكون سُمي الصفا صفاً لأن المصطفى آدم هبط عليه فقطع الجبل اسم من اسم آدم عليه السلام يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ وقد هبطت حواء على المروة، وإنما سُميت المروة مروة لأن المرأة هبطت عليها فقطع للجبل اسم من اسم المرأة[1].

كما وأن الصفيَّة هاجر قامت على الصفا - حين عطش إسماعيل - فقالت: هل بالوادي من أنيس؟ فلم يُجِبْها أحد فمضت حتى انتهت إلى المَرْوَة فقالت: هل بالوادي من أنيس؟ فلم تُجب، ثم رجعت إلى الصفا فقالت كذلك حتى صنعت ذلك سبعاً فأجرى الله ذلك سنة...»[2]

و«لأن الشيطان ترايا لإبراهيم عليه السلام في الوادي فسعى وهو منازل الشياطين»[3]: منازل الشياطين - تحت الأرضية - الأوثان، التي دُفنت في الصفا والمروة، والشياطين فوق الأرضية الملاحِقين الطائفينَ بالبيت، فقد نطأ الأوثان بسعينا عليها، ونفرُّ عن الشياطين الذين يلاحقوننا بعد الطواف،

---

(١) نور الثقلين ١: ١٤٥ في علل الشرايع بإسناده إلى عبد الحميد بن أبي الديلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ...

(٢) المصدر عن العلل بإسناده إلى معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن ابراهيم عليه السلام لما خلف إسماعيل بمكة عطش الصبي وكان فيما بين الصفا والمروة شجر فخرجت أمه حتى قامت على الصفا ...

(٣) المصدر عن العلل بإسناده إلى حماد عن الحلبي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام لِمَ جعل السعي بين الصفا والمروة؟ قال: لأن الشيطان ...

ليستلبوا عنا الروحية التوحيدية المخلَّفة عنه، فليس هو العدْو كيفما كان، فقد يعدو الساعي وقد يركض، فكم من عادٍ غير ساعٍ، أو ساعٍ غير عادٍ، إنما هو الجدّ الهادف في العمل الجادّ، والهرولة فيه هي سعي في سعي، كذلك والشياطين الداخليين، حيث السعي بهرولته تسقطهم عن قلبك، كما أسقطتهم عن قالبك، إذاً فثالوث الشيطنات تسقط بسعيك لو سعيت فيه كما أمرت. والسعي هو الجِدَّ الهادف، تفتيشاً دائباً عما يهمه، أم فراراً عما ينعمه، والساعي في السعي بين الصفا والمروة يفرّ عن الشيطنات الثلاث، وليجد ضالة التوحيد عقبى، وضالة العيشة دنياً، كما ونلاحقهم سعياً وراءَهم.

فآدم عليه السلام يسعى من الصفا إلى المروة - بعد طواف البيت - إنشاداً لضالته: المرأة، فقد ضلَّ عنها وضلَّت عنه في الطواف، انقطاعاً كاملاً إلى الله، وهنا ينشدها بأمر الله، فإن كلّاً من الأمرين هو في مجالته وحالته من أمر الله، رمزاً للجمع بين الدين والدنيا، الدين كأصل والدنيا كهامش لا تضربه بل وقد تؤيده، وهذا درس أوّل في السعي من آدم.

ودرسٌ ثانٍ من الصفيَّة هاجر حيث حلَّت محل الصفي على الصفا تُفتِّش عن ماءٍ وأنيس لإسماعيلها العطشان الوحيد، فلا يُؤيسها رَمَضاء الهواء وفاقد الماء، أو الاتكالية الفوضى - الفاضية - على الله دون سعي، بل تسعى سعيها مرات سبع، متكلة على الله بسعيها، فتفور فائرة الماء من آرتزية زمزم.

فَلْيَسْعَ الساعون للحصول على بغية الحياة الرامز إليها الماء، دون أن يصدَّهم صادٌّ، متكلين على الله بسعيهم ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

ودرسٌ ثالث من السعي أن نطأ مخابئ الأوثان «إساف ونائلة» أمّا

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

شابه، وذلك من شعائر التوحيد السلبية بعد إيجابية الطواف، فلأنّ السلب في كلمة التوحيد أطول من الإيجاب وأعضل، فليكن الإيجاب بين سلبين - فإنه أسهل -: أوّلهما سلبيات الإحرام أما شابه، وثانيهما سلبيات السعي، البادئة بوطء الأوثان الدفينة تحت الأرض، ثم الظاهرة عليها، ومن ثم الدفينة في النفس، فإن حركات السعي، ولا سيّما الهرولة كما الآبال، تُسقط عنك ما علّقته بنفسك ما هو أجنبي عنها من إنيات وأنانيات.

وكلّ ذلك - كما الطواف - في سبعة أشواط، سلباً لأبواب الجحيم السبعة، التي هي من شيطنات سبع، المنقسمة من أصولها الثلاثة: «الشيطان - البقر - النمر» وحْدوَيات ثلاث، واثنينيات ثلاث، وجمعية واحدة هي كلُّ الثلاث.

أوَ ليس الصفا والمروة - بعد - من شعائر الله، حيث يُشعِرُنا برموزٍ كهذه، وهو من إذاعات إلهية بارزة لِدَحْرِ الشياطين والشيطنات، وإثبات حق الحياة، والسعي في كلا النفي والإثبات في حيوية التوحيد الحق؟.

ثم بعد كلٍّ ذلك ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ ربنا يشكُرنا إن تطوّعنا خيراً وهو خيرٌ لنا لا له: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾[1]! لأن تطوّع الخير هو خير الخير، تكلفاً نفسياً وبدنياً في السعي أما شابهه ممّا يُتكلف فيه... ومن صِلات آية الصفا بما سبقها من آيات، أن السعي هو من الشعائر الإبراهيمية، ثم لـ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ موضع من صبره على إسماعيله الرضيع حيث وضعه وأمّهُ بوادٍ غير ذي زرعٍ، وصبرُ هاجر عليه حتى سعت لتجدَ له أنيساً أو ماءً، ثم وموضع من الصبر على تطوع السعي، نفسياً وبدنياً ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾!

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

ولنقف حائرين مختجلين أمام ذلك التعبير العبير ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ﴾ وكأنه أهديت إليه بهدية يشكر لها، والمُهدي في كلّ مجالات الهدايا هو الله!

وإذا كان الرب يشكُر عبده على واجب عُبوديته الصالحة له دون ربه، فماذا على العبد في شُكْرِه لربه وهو غريقٌ في خِضَمٍّ نعمه!.

مسائل فقهية أخرى في السعي:

١ - السعي رُكْنٌ في الحج بأقسامه الثلاثة وفي العمرة مفردة وتمتعاً، يبطل كلٌّ من الحج والعمرة بتركه عمداً، فإن تركه ناسياً يعيده حيثما ذكر إن أمكن، وإلّا فيُطاف عنه[1]، وهو بعد الطواف، ثم بعده التقصير - فقط - في عمرة التمتع، وفي المفردة بين الحلق والتقصير، وفي الحجِّ ليس بعده حلقٌ ولا تقصير.

٢ - واجب السعي هو الأشواط السبعة، ابتداءً من الصفا، واختتاماً إلى المروة بنيّة السعي للحج أو العمرة.

٣ - واجب الأشواط أن تكون بين الجَبَلَيْنِ حيث النص ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ دون «عليهما - أو - فوقهما» وكما في الأثر الصحيح «السعي بين الصفا والمروة فريضة» فلو انحرف عن الحدِّ بين الجبلين أجبره.

٤ - يبطلُ السعي بالزيادة عمداً كما «الطواف المفروض إذا زدت عليه

---

(١) الكافي ٤: ٤٣٦ والتهذيب ١: ٤٨٩ صحيحة معاوية بن عمار عن الصادق عليه السلام: «من ترك السعي متعمداً فعليه الحج من قابل» وأما الناسي ففي الحسن عن معاوية بن عمار عن الصادق عليه السلام قال قلت له: رجل نسي السعي بين الصفا والمروة؟ قال: يعيد ذلك، قلت: «فإنه خرج؟ قال: يرجع فيعيد السعي» (التهذيب ١: ٤٨٩ والاستبصار ٣: ٢٣٨) وفي صحيح ابن مسلم عن أحدهما عليهما السلام سألته عن رجل نسي أن يطوف بين الصفا والمروة حتى رجع إلى أهله؟ قال: يطاف عنه.

مِثْلَ الصلاة إذا زدت عليها فعليك الإعادة وكذلك السعي»[١] وسائر التفاصيل الخارجة عن مدلول آية السعي راجعة إلى فقه المناسك[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾:

الكتمان هو الستر على ما يجب إفشاءه أم هو فاش، سُئل عنه أم لم يُسأل، فإنما هو هنا الأمر المنزل لكافة المكلفين، فإنه لغوياً: ستر الحديث، وهو يعمّ الحديث الفاشي المستور بعد الظهور أو الذي لا يظهر، وهو بصيغة أخرى: ترك إظهار الشيء مع الحاجة إليه وحصول الداعي إلى إظهاره، وهذا أخفّ مراحل الكتمان، ثم ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾ يعمّ نازل الوحي من كتابٍ وسُنَّةٍ، و﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ هي الحجج الباهرة، سواءٌ أكانت بينات التوحيد أو الرسالة والمعاد، أم بينات لمادة الرسالة، فهي على أية حال بينات للهدى فإنها مادة الرسالة، حيث الشرعة مركبة - ككلّ - من بينات وهدىً، والثانية ناتجة عن الأولى، فقد تُكتم البينات كإخفاء لآيات الهدى تكوينية أو تشريعية، أم تُكتم الهدى الناتجة عن تلكم البينات كتماناً لدلالتها على هداها، تأويلاً لها إلى غير معناها.

ثم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ﴾ لها مرحلتان، من بينات وهدى بُيِّنت لناس أم لكلّ الناس ثم تُكتم بتدجيل وتجديف، وتلك هي الدركة السفلى من الكتمان.

ومن بينات وهدىً بُيِّنت لغرض أن تبيَّن للناس، فإنها ليست - ككلّ - مبيَّنةً دون وسيط لكلّ الناس، لأنَّ منهم أميين لا يعلمون الكتاب إلّا أماني

(١) التهذيب ١: ٤٨٩ والاستبصار ٣: ٢١٧ و٤٣٩ عبد الله بن محمد عن أبي الحسن عليه السلام.
(٢) راجع كتابنا (أسرار - مناسك - أدلة الحج) باللغة الفارسية.

فكيف بيِّنت لهم؟ ومنهم دارسون لا يقرؤون الكتاب فكيف بينت لهم؟ ومنهم من يتلون الكتاب ولا يعرفون كلّ بيناته وهداه، وهم كلُّهم من ضمن الناس الذين يقول الله عنهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ﴾، فسواءٌ بيِّن لناسٍ دون وسيط، أم بيِّن بوسيط يحمَّل تبيينَه لسائر الناس، وكما تُقسَّم الأرزاق قسمين ثانيهما أن يُرزق المرزوق بما يُنفِق عليه المنفقون بإذن الله تكويناً وتشريعاً، فإنه أيضاً من رزق الله، فقد تشمل الآية الكتمانين، كما تشمل الكاتمين كتابياً ومسلماً، كتماناً لأصول من الدين أم فروع منه[١].

فالله يُبيِّن ما أنزل من البينات والهدى للرسول بياناً للناس، والرسول يُبيِّنه لمن يأهل تعلماً لكلِّ ما أنزل وهم أئمة أهل البيت ﷺ، وهم يعلّمون العلماء على مراتبهم، ثم يعلمون سائر الناس، لأن النازل من الله ليس - فقط - للرسول أو الأئمة أو العلماء، إنما ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ﴾: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾[٢] و﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوۡعِظَةٌ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[٣].

فـ«شر خلق الله العلماء إذا فسدوا وهم المُظهرون للأباطيل، الكاتمون للحقائق وفيهم قال الله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾[٤].

---

(١) نور الثقلين ١: ١٤٩ في احتجاج الطبرسي عن أبي محمد العسكري ﷺ حديث طويل وفيه: قيل لأمير المؤمنين ﷺ من خير خلق الله بعد أئمة الهدى ومصابيح الدجى؟ قال: العلماء إذا صلحوا، قيل: فمن شرّ خلق الله بعد إبليس وفرعون وثمود وبعد المسمّين بأسمائكم وبعد المتلقبين بألقابكم والآخذين لأمكنتكم والمتأمرين في ممالككم؟ قال: العلماء إذا فسدوا، هم المظهرون للأباطيل . . .

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

(٤) الدر المنثور ١: ١٦٢ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: . . . وفي تفسير البرهان ١: ١٧٠ العياشي عن زيد الشحام قال: سئل أبو عبد الله ﷺ عن عذاب القبر قال: إن أبا جعفر حدثنا أن رجلاً أتى سلمان الفارسي فقال: حدثني فسكت عنه ثم عاد فسكت فأدبر الرجل وهو يقول ويتلو هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] فقال له: أقبل - إنا لو وجدنا=

وكما يُحرم على علماء الكتاب كتمان ما أنزل الله، كذلك يُحرم على الجُهال كتمان أنفسهم عن تعلّم ما أنزل الله، والحق الأوّل هو على العلماء، فإن من الجُهال من يجهل أنه يجهل، أم يعلم جهله ولكنه لا يجد سبيلاً إلى التعلم، فعلم الدين كالماء يجب إرساله إلى كلّ مكان لينتج نتاجه أيّاً كان وفي أيٍّ كان.

وليس يجب تعليم الدين - فقط - لمن يسأل، بل ومن لا يسأل أم لا يعرف كيف يسأل، بل هما أحرى ممن يسأل، والكتمان يشمل موارد السؤال وسواها، فـ«من سُئل من علم عنده فكتمه ألجمه الله بلجام من نارٍ يوم القيامة»، و«من كتم علماً مما ينفع الله به الناس في أمر الدين ألجمه الله بلجام من نار»[1]، و«مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يحدّث به كمثل الذي يكنز الكنز فلا ينفق منه»[2].

وقد تعني ﴿مَآ أَنزَلۡنَا﴾ - فيما عنت ـ: فطرة الله التي فطر الناس عليها، والعقل، فإنهما مما أنزل الله من البينات والهدى، مشمولة لـ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[3].

فمن الناس من يكتم فطرته وعقليته، صدّاً على نفسه منافذ الهدى، وآخرون يصدون على آخرين، وثالثة تجمع في الكتمان بين بينات نفسه

= أميناً لحدثناه ولكن أعدّ لمنكر ونكير إذا أتياك في القبر فسألاك عن رسول الله ﷺ فإن شككت أو التويت ضرباك على رأسك بمطرقة معهما تصير منه رماداً، فقلت له: ثم مه؟ قال: تعود ثم تعذب، قلت: وما منكر ونكير؟ قال: هما قعيدا القبر، قلت: أملكان يعذبان الناس في قبورهم؟ قال: نعم.

(١) المصدر عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: ... وفيه أخرج ابن ماجة عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كتم حديثاً فقد كتم ما أنزل الله.

(٢) المصدر أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ...

(٣) سورة طه، الآية: ٥٠.

وهداها، وما للآخرين فطرياً وعقلياً، ثم يكتم البينات الأخرى وهداها، فهو في ثالوث اللعنة العصيان!.

إذاً فـ ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾ تشمل المنزل تكويناً وتشريعاً، أنفسياً كالفطرة والعقلية الإنسانية وآفاقياً ككلّ البينات الكونية والشرعية، والفرق بين البينات وهي الآيات الربانية الباهرة - والهدى، أن الثانية هي نتيجة الأولى فالآيات البينات هي دالات على الهدى في كلِّ حقول الدلالات، فمن يكتم البينات عن دلالاتها، أو الهدى بعد واقعها بتلك البينات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ فكلّ ذلك كتمان مهما اختلفت دركاته حسب مختلف درجات البينات والهدى، ومختلف دركات الكتمان قبل البيان وبعد البيان وصدّاً عن التبيان، فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكاتمون ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ إبعاداً عن رحمته يوم الدنيا ويوم الدين ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ استبعاداً لهم من الله عن رحمتيه، وقد يشمل ﴿ٱللَّٰعِنُونَ﴾ - إلى جنب الملائكة والجنة والناس - الدوابّ[1].

وطبعاً هم ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ بحق، فإن هناك لاعنين بغير حق، وغيرُ لاعنين الكاتمين، فـ ﴿ٱللَّٰعِنُونَ﴾ هنا هم الذين يلعنون مع الله ويحكم الله وكما يلعن الله، فلأن اللعنة الناتجة عن كتمان ما أنزل الله تشمل المحرومين عنه، وتخلق جوَّ البعد عن رحمة الله، فكأن الكاتمين تحولوا بذلك الكتمان إلى ملعنة ينصبُّ عليها اللعن من مصادره، ويتوجه إليها بعد الله من كلِّ لاعن!.

ثم ﴿وَيَلْعَنُهُمُ﴾ ليس - فقط - إخباراً عن واسع اللعن، بل وهو إنشاءٌ أمراً لمن يأتمر أن يلعن الكاتمين، في مثلث الجنان والقال والفعال، خلقاً

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٦٢ - أخرج ابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن البراء بن عازب قال: كنا في جنازة مع النبي ﷺ فقال: إن الكافر يضرب ضربتين بين عينيه فيسمعه كلّ دابة غير الثقلين فتلعن كل دابة سمعت صوته فذلك قول الله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٩].

لجوِّ اللعنة عليهم حتى يحيدوا عن غيِّهم أن يذبلوا بعيِّهم، فإنهم ألعن الناس وأظلم الناس، قلوبهم آثمة وفي بطونهم نار، فما أنزل الله للناس هو شهادة لله عند العالمين به: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾(١) وهو من إثم القلب الذي هو قلب الإثم: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾(٢) وقد أخذ الله ميثاق العلماء على التبيين ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾(٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾(٤) ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾(٥).

وبيان ما أنزل الله واجب كفائي ليس على أعيان العلماء ككلّ، ويكفيه برهاناً أن ليس بعد بيان من فيه الكفاية أيّ خفاء فلا كتمان، ولكنما الكفاية قلّما تتفق أم لا تكون إمّا لعدم قيام من فيهم الكفاية، أم عدم الكفاية في العلماء الحضور، فيجب التعلم قدر الكفاية حتى يمكن التعليم ممن فيه الكفاية، فما دام في العالم جهّال فالعلماء الساكتون - غير المعذورين - لا يعذرون، وكذا الذين بإمكانهم التعلُّم حتى يعلموا ولا يتعلمون.

ثم البيان في كلِّ عصرٍ ومصرٍ يتطور حسب الحاجة والإمكان، دون جمودٍ على سنَّة خاصة متعوَّدة، فلكلِّ حالٍ مقالٌ، ولكلّ مجالٍ حالٌ، كما الأدواء تختلف حسب مختلف الحال.

فمن المجاهيل مَن هم بحاجة إلى كلتا البينات والهدى، ومنهم من

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٤.
(٥) سورة النساء، الآية: ٣٧.

تنقصه البينات وهو منجذبٌ إلى الهدى، ومنهم من تنقصه الهدى دون البينات، فـ ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[١].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾:

هنا استثناء عن اللعنة الناتجة عن الكتمان بتوبة عنه، ولا فقط قلبية بينه وبين ربِّه، بل ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدوا بكتمانهم ﴿وَبَيَّنُوا۟﴾ ما كتموا، ومنه كتمانهم كتمانَهم، إذ كانوا كاتمين أنهم كانوا كاتمين، فكلّ من فسد وأفسد بكتمانُهم لا بدّ وأن يصلحوه معرفياً وعملياً، فمن كان حياً فأصلحه وبيّن له فله، ومن مات على فساد الكتمان فعليه، وتوبة الله عليه تختص بما أصلح وبيّن دون سواه، قاصراً عنهما بموته أم مقصراً بتكاسله، فإنه على أية حال مُقصرٌ في كتمانه ولا عفو كلياً إلّا إصلاحه.

فحين يتوب ويستطيع الإصلاح عما كتم والبيان لحدٍّ يرجع المضلَّل عما ضل بكتمانه، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ وحين لا يتوب إطلاقاً فـ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ في الأولى والأخرى، وحين يتوب ولا يصلح أو يُبيّن على مكنته مقصراً، أم لا يتمكن لصمود المضلّل على ضلاله أم موته، فهو عوان بينهما، فالتوبة درجات كما الكتمان دركات و﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[٢]، ولأن قبول التوبة رحمة من الله وحنان، فهي غير مفروضة على الله إلّا كما كتب على نفسه، فهنا يسقط السؤال أنه حين لا يقدر على إصلاح ما أفسد ولا البيان فما هو ذنبه في قصور، حيث الجواب أنه معاقب على ما قصر اللهم إلّا فيما جَبر، فهو بالنسبة لما لم يجبر من كتمانه مستحق اللعنة قصر أم قصّر مهما بان البون بينهما.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة الطور، الآية: ٢١.

وإذا لم يستطع هو على الإصلاح بنفسه والبيان فليحاول فيهما بعلماء ربانيين بإمكانهم ما هو عنه قاصر، حيث إن واجب الإصلاح لا يختص بنفسه دون وسيط.

فهؤلاء المصلحون الذين بيّنوا بعد ما أفسدوا بما كتموا، يفتح لهم القرآن هذه المنافذ المضيئَة الثلاث، ذريعةَ الخلاص، يفتحها لهم فتنسِّم لهم نسمة الأمل على ضوء جادِّ العمل، في إعلان صارخ لكلّ التائبين المصلحين: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

فأما المصرُّون على كتمانهم فلا يزدادون إلّا لعنات على لعنات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أيّاً كان كفرهم، ولا سيّما كفر الجحود بالله أم برسالات الله، أم وكفر الكتمان لما أنزل الله من البينات والهدى ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ دون توبة وإصلاح ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ إبعاداً عن رحمته ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ إمساكاً عن إنزالها بإذن الله، واستمساكاً بالله في ذلك الإبعاد ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ قد تعني جمع الناس إلى الملائكة، ثم جمعهم في لعنتهم إلى الله استدعاء منه، مهما خرج ناس عن كونهم لاعنين كالملعونين أنفسهم وأضرابهم، أم وهم أنفسهم يلعنون أنفسهم بما حرموها عن رحمة الله، كلعنةٍ تكوينية إلى تشريعية لمكلفي المؤمنين ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1]، وهل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هنا تعمّ المرتدين عن إيمان؟ طبعاً نعم، مهما كان منهم الذين لم يؤمنوا وأمامهم دلائل صدق الإيمان، وكذلك الذين كفروا لا عن إيمان ولا عن دلائل الإيمان الحاضر، وإنما لم يفتشوا عن صالح الإيمان، فقد تشمل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ثالوثه مهما كانوا دركات كما الإيمان

(١) سورة هود، الآية: ١١٩.

درجات وهل إن الموت هنا - فقط - هو حتف الأنف، فإن جنّ على كفره ثم مات بعد ردحٍ لم يمت كافراً حيث المجنون لا مؤمن ولا كافر؟.

القصد من الموت هو انقطاع التكليف دونه، إن لم يكن يفيق في حياة التكليف عن جِنّة كفره، وليست النجاة عن وصمة الكفر إلّا بالتوبة الصالحة وهذا لم يتب حتى جنَّ ومات على جِنته، فقد مات وهو كافر، أم مات عن حياة التكليف على حاله، أم ولأقل تقدير لم يتب، والمستثنى من اللعنة هو التائب المصلح المبين!.

صحيح أن المجنون لا هو مؤمن ولا كافر، ولكن الذي كفر ثم جنّ ومات على جنونه لم يمُت وهو مؤمن فما هو السبب لتكفير عن كفره، بل مات وهو كافرٌ حيث استمر كفره إلى جنونه وهو مرحلة من موته، مهما لم يكن مكلفاً حال جنونه.

وهل إن أضرابهم من الكفار - أيضاً - يلعنونهم كما المؤمنون؟ وهم يستحسنون كفرهم! إنهم يلعنونهم هنا إبعاداً زائداً عن رحمة الله بما يستحسنون: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾(١) كما وكلّ كافر يلعن الكفار والظالمين زعماً منه أنه مؤمن جهلاً مقصّراً.

وقد تلمح آيتنا أن التوبة عن الكفر قبل الموت - أيّاً كان - مقبولة بشروطها، والقول الفصل حول أحكام الكفر والارتداد والتوبة راجع إلى محله الأليق كآل عمران: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٥.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾[1].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾:

والخلود - كما لمحنا له في مختلف المجالات - هو البقاء مدة طويلة، و﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ﴾ وما أشبه لا تدل على لا نهائية العذاب، بل هو دليل عدم تخفيفه ما داموا ودام العذاب قدر الاستحقاق، وأما إذا فنوا بفناء النار فليس ذلك تخفيفاً في أيٍّ من الأعراف إلّا إذا فنت النار قبل ذوقهم ما يستحقون من العذاب، أم خرجوا عن النار قبل كمال العذاب الذي يستحقون، فإنهما تخفيف عن مدة العذاب، أم خفَّف عنهم العذاب عِدّة لا مدّة، أم خفَّف فيهما، فكلٌّ ذلك تخفيف، وأما إذا ذاق مُستّحق العذاب كمّاً وكيفاً ثم فني بفناء النار، أم أخرج قبل فنائها باستحقاق، فما ذلك بتخفيف في العذاب.

فأُسطورة اللّانهائية في العذاب كشريطة تدار بين من لا يحسبون لحق الله وخلقه حساباً ولا يرجون لله وقاراً أم هم غافلون، إنه ظلم عظيم أن يُقابل العصيان المحدود بأثر محدود من عاصٍ محدودٍ، بعذاب غير محدودٍ فـ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]؟!.

وضمير التأنيث في ﴿فِيهَا﴾ راجع إلى اللعنة، فهم - إذاً - خالدون - ما هم أحياءٌ في النار - في لعنة مثلثة الزوايا، فهي تجنح إليهم وهم في النار بما خلّفوا من سنة الكفر والكتمان، كما ويعذّبون بهذه اللعنات في أمد الخلود أبدياً وسواه.

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٨٦-٩١.
(٢) سورة النمل، الآية: ٩٠.

ثم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ في خلود العذاب غير المخفَّف عنهم، حين يستنظرون، بل يقال لهم ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[1].

ذلك لأنهم أغلقوا على أنفسهم كلَّ منافذ الرحمة يوم الدين، فقد حملوا معهم لعنة مطبقة من كلّ لاعن لا ملجأ منها ولا صدر حنون، وتلك اللعنة هي أم العذاب وأساسه، والنار هي مؤله ومساسه، لعنة متسيطرة ما دام في حياة التكليف جِنّة أو ناس، حيث إن كفر الكتمان خلّف لعنة طولَ خط الحياة، على المؤمنين خلقاً لجوٍّ اللّاإيمان، مما شكَّل عليهم مصائب لتطبيق الإيمان، فأشكل عليهم حياةَ الإيمان، وعلى سواهم من قاصرين إذ ابتعدوا عن الإيمان، وعلى المقصرين إذ أوثق رباط كفرهم ضد كتلة الإيمان.

﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾:

هنا وحدة الألوهية مزودة بآيات سبع ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ حقّ العقل، وهي: «١ - خلق السماوات والأرض - عبارة أخرى عن خالقيته - ككلّ - لكلّ كائن، ٢ - واختلاف الليل والنهار، ٣ - والفلك...، ٤ - وما أنزل الله، ٥ - وبث فيها...، ٦ - وتصريف الرياح، ٧ - والسحاب المسخر».

و«إن الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول ونصر النبيِّين بالبيان ودلهم على ربوبيته بالأدلة فقال: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ...﴾[2].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٨.

(٢) نور الثقلين ١ : ١٤٩ في أصول الكافي بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: يا هشام ...

فإن «وجود الأفاعيل دلّت على أن صانعاً صنعها»[١] وهذه الأفاعيل السبعة دالة بإتقان على خالق ومدبر واحد ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ حيث الرحمة الرحمانية العامة والرحيمية الخاصة هنا وهناك نجدها بانتظام دون تفاوت واصطدام: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾[٢]؟!.

آيتنا تلك هي من أوسع الآيات التوحيدية دلالة على توحيده تعالى من جوانب شتَّى، وفي أسباب النزول أنها نزلت بديلة عما اقترحته قريش عليه ﷺ «أن يجعل لنا الصفا ذهباً...»[٣].

الآية الأولى من السبع:

١ - ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وترى أنه «خلْقُه السماوات...»؟ والناكر لربوبيته ناكرٌ لخلقه واحداً أو كثيراً، مهما اعترف المشركون أنه خالق!.

فكأن ﴿خَلۡقِ﴾ هنا بمعنى «مخلوق»: إن في مخلوقية السماوات والأرض، أو أنه ﴿خَلۡقِ﴾ دون فاعل مصرّح، يُصرِّح به الكون المخلوق،

(١) المصدر عن كتاب التوحيد قال هشام فكان من سؤال الزنديق أن قال: فما الدليل عليه؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: وجود الأفاعيل... ألا ترى أنك إذا نظرت إلى بناء مشيد مبني علمت أن له بانياً وإن كنت لم تر الباني ولم تشاهده.

(٢) سورة الملك، الآية: ٣.

(٣) الدر المنثور ١: ١٦٣ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال قالت قريش للنبي ﷺ: ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهباً نتقوى به على عدّونا فأوحى الله إليه إني معطيهم فاجعل لهم الصفا ذهباً ولكن إن كفروا بعد ذلك عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين فقال: ربّ دعني وقومي فأدعوهم يوماً بيوم فأنزل الله هذه الآية.

وفيه عن أبي الضحى قال: لما نزلت: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ عجب المشركون وقالوا: إن محمداً يقول: وإلهكم إله واحد فليأتنا بآية إن كان من الصادقين فأنزل الله ...

وفيه عن عطاء قال: نزل على النبي ﷺ بالمدينة: وإلهكم إله واحد لا إله إلّا هو الرحمن الرحيم - فقال كفار قريش بمكة كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ﴾.

وعلى أية حال فحدوث الكون بسماواته وأرضه دليل أن له محدثاً، وأصول الدلالة على حدوث الكون ككلٍّ هي: التركُّب - التغيُّر - الزمان والحركة، فإنها أدلة قاطعة لا مرّد لها على حدوث الكون بمادته الأولية الأم، إذاً فله محدثٌ.

ولأن الخلق على شتات أجزائه وخواصه منسجم كهيكلٍ واحدٍ ذي أجزاء مرتبطة مع بعضها البعض، فـ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[1] فذلك دليل وحدة الخالق، فإن من لزامات تعدد الخالق عديدُ الصنع المتفاوت، إضافة إلى استحالة التعدد في الكمال المطلق اللّامحدود، حيث العدد بحاجة إلى مايز بين أصحاب العدد مزيجاً بجهة الاشتراك وذلك تركّب وعجزٌ ونقصٌ في كيان الخالق.

٢ - ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ولنأخذ مثالاً ماثِلاً بين أيدينا ليلَ نهار، الليل والنهار الأرضيين، والاختلاف افتعال من الخَلف أن يتكلَّف الإتيان خلف الآخر، أو الخُلف أن يختلف عن الآخر تخلفاً عن مسيره أو مصيره، فالاختلاف - إذاً - منه رحمة ومنه زحمة، والأوّل هو المعني من اختلاف الليل والنهار، أن يأتي كلٌّ خلف صاحبه وفق نظام التدبير من الخلاق العظيم. فالليل والنهار كلٌّ مختلفٌ صاحبَه، وليس مختلفاً عن صاحبه متخلفاً عن مسيره، ولا مختلفاً «في» مع صاحبه، وذلك الاختلاف يأتي في أبعاد هي - إضافة إلى اختلاف كلٍّ صاحبه في الظهور - اختلافٌ في البعد الزماني والمكاني، فإننا نجد في كرتنا الأرضية على كلِّ حال ليلاً ونهاراً مع بعض في أفقين متقابلين اختلافاً مكانياً، ونجد كلّاً من الليل والنهار تختلف ساعاته، فأقصر الأيام هو نصف ساعة كما في سويسرا، وأطولها ستة أشهر كما في القطبين، وبينهما عوانٌ من ١٢ - إلى - ٢٠ - إلى ٢٤ ساعة،

---

(١) سورة الملك، الآية: ٣.

فالحركة اليومية الأرضية على محورها ترسم لها الليل والنهار بمواجهة نصف الكرة أو يزيد مع الشمس، اكتساباً من نورها وحرارتها فيسمى النهار، واستتار الشمس عن النصف الآخر أم يقل، فتدخل تحت الظلّ المخروطي وتبقى مُظلمةً فتسمى الليل، اختلافٌ دائب لكلٍّ من الفرقدين وراء بعضهما البعض حول الأرض.

وعاملٌ ثانٍ هو ميل سطح الدائرة الاستوائية أو المعدل عن سطح المدار الأرضي في الحركة الانتقالية شمالاً وجنوباً، وقضيتهُ ميل الشمس من المعدّل شمالاً أو جنوباً راسماً للفصول، وهو سبب استواء الليل والنهار في خطّ الاستواء في القطبين.

أما القطبان أنفسهما فلهما في كلّ سنة شمسية تامة يوم واحد وليلة واحدة كلّ منهما نصف سنة، والليل في قطب الشمال نهار في قطب الجنوب وبالعكس.

فالسنة في المنطقتين القطبيتين نصفها ليل ونصفها نهار على التساوي، ثم بينهما وخط الاستواء يختلف كلٌّ من الليل والنهار عن الآخرين من ١٢ ساعة إلى ٢٤، فـ ١٢ عند خط الاستواء، و٢٤ عند الدائرة القطبية، ثم تأخذ في الزيادة في الدائرة القطبية من ١٢ ساعة إلى ٢٤ وإلى شهر فشهرين إلى ستة أشهر، وأعجِب باختلاف زمنيٍّ بين نصف ساعة وستة أشهر!.

كما والسنة كلها حاضرة الفصول الأربعة في مختلف أيامها، فالصيف في الشمال كمصر وأوروبّا شتاء عند أهل الجنوب كـ«ناتال».

وكلُّ ساعات الليل والنهار كائنة حاضرة في كلِّ الساعات حسب مختلف الآفاق في كرتنا الأرضية، فالصباح عندنا مساءٌ عند آخرين وليلٌ عند ثالث وفجرٌ عند رابع وهكذا سائر الأوقات، قضيةَ الكروية لأرضنا، واختلاف أنحاء الأرض قُرباً وبُعداً.

اختلافات ثلاثة مُنضّدة مُنتظَمة، فأصل حدوث كلٍّ بعد الآخر دليل على محدثهما، ونضدُ المحدَث دون تفاوتٍ وتهافتٍ دليل وحدة المحدِث، سبحان الخلاق العظيم.

ذلك! وإن توالي الإشراق والعتمة - فذلك الفجر وذلك الغروب - يهتز له المشاعر الحيَّة، والقلوب النابهة، مهما فقد الإنسان وهلتها وروعتها مع التكرار، ولكن القلب المؤمن تتجدَّد في حسِّه هذه المشاهد، ويظلُّ دائباً في ذكر الله بهذه الآيات المكرورة.

٣ - ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ فإن جريانها هو برياح مسخَّرة بين الأرض والسماء، أم وبطاقات أخرى كشف عنها العلم وكلٌّ ذلك من نعم الرحمن ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾[1]. ولو أن هناك آلهة دون الله لكانت هناك رياح متضاربة مُتطاحنة كلٌّ تحمِل إلى جانب، لكن ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[2].

فجريُ الفلك في البحر آية، واتجاه القلب في أعماق الفطرة إلى ربوبية وحيدة في خِضِمِّ البحر الملتطم - شئت أم أبيت - آية ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾[3].

٤ - ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ففي ضمِّ

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٤، ٢٥.
(٢) سورة يونس، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.

ميْت الماء بميْت الأرض بما فيها من ميت الحبوب، نرى في مثلث الميتات حياةً، سبحان الخلاق العظيم.

٥ - ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ ومهما كان ضمير التأنيث في ﴿فِيهَا﴾ راجعاً إلى الأرض مبدئياً كظاهر التعبير لتقدم الأرض، ولكنه راجع - أيضاً - إلى السماوات لسبق ذكرها، ولأن ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[١].

فخلق الدواب وبثُّها دون تهافت وتفاوت آية لقوم يعقلون أنهما من إله واحد.

٦ - ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ و﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾ جمعاً هي في سائر القرآن رياح الرحمة، والريح - إلّا الموصوفة بالطيبة - هي ريح العذاب، وما هبت ريح قطّ إلّا جثا النبي ﷺ على ركبتيه وقال: «اللّهم اجعلها رحمةً ولا تجعلها عذاباً، اللّهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»[٢].

فهُناك أرياح خبيثة يُعبَّر عنها بصيغة الإفراد ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾[٣] ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾[٤] ﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾[٥] ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾[٦] ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[٧]

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

(٢) الدر المنثور ١: ١٦٥ - أخرج الشافعي وأبو الشيخ والبيهقي في المعرفة عن ابن عباس قال: . . . قال ابن عباس: والله إن تفسير ذلك في كتاب الله: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [القمر: ١٩] ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ. . .﴾ [الذاريات: ٤١] ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، ﴿يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦].

أقول: وهكذا نجد في القرآن كما في آيات الرياح العشر.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٧.

(٤) سورة يونس، الآية: ٢٢.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٦٩.

(٦) سورة الذاريات، الآية: ٤١.

(٧) سورة الحاقة، الآية: ٦.

﴿رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾[(١)] اللّهم إلّا ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[(٢)] لولا وصفها لكانت خبيثة، فهذه ست.

ثم رياح بصيغة الجمع كلّها طيبة كما هنا ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ و﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾[(٣)] ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[(٤)] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾[(٥)] وهذه أربع.

وتلك - إذاً - عشر كاملة من الرياح بين خبيثة وطيبة، كلها - فيما أراد الله - طيبة، فـ«الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فلا تسبّوها واسألوا الله من خَيْرِها وعوذوا بالله من شرِّها»[(٦)].

ولو أن هناك مصرّفين للريح والرياح لتفاوت التدبير والتقدير، و﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[(٧)].

ومن عجائب الرياح أنها تحصل وتفعل ما تفعل بين الأرض و/ ١٦٠٠٠ ذراعاً فوقها، والأغلب في تحصُّلها أن الأشعة الضوئية الواقعة من الشمس على الهواء تتبدل حرارة، فتعرضها خفة قضية الحرارة، فلا يستطيع الهواء على حمل ما يعلوها أو يجاورها من بارد الهواء الثقيل، فيتساقط على

---

(١) سورة الروم، الآية: ٥١.
(٢) سورة يونس، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٢٢.
(٥) سورة الروم، الآية: ٤٨.
(٦) المصدر - أخرج الشافعي وابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة والبيهقي في سننه عن أبي هريرة قال: أخذت لنا الريح بطريق مكة وعمر حاج فاشتدت فقال عمر لمن حوله: ما بلغكم في الريح؟ فقلت: سمعت رسول الله ﷺ ... وفيه عن ابن عباس أن رجلاً لعن الريح فقال له النبي ﷺ: لا تلعن الريح فإنها مأمورة وأنه من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه.
(٧) سورة الملك، الآية: ٣.

الحار الخفيف، فيجري الخفيف - إذاً - إلى خلاف سمت الدفع، وهذه هي الأغلب في ظاهرة الرياح.

٧ - ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والسحاب هو المسحوب من أبخرة الأرض، حيث تُركم وتُمطر ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾[1] وقد يعبَّر عنه بالمُزُن والمُعصِر، ولكن الغمام ما ليس فيه ماءٌ ويحسبه الناظر سحاباً.

ففي خلقِ السحاب بين السماء والأرض، وإرسالها بصورة منظمة دون فوضى أم تهافت دليلٌ أن صاحبها الساحب لها المطر بها إله واحد، سبحان الخلاق العظيم.

فترى هذه السبع مؤتلفة متآلفة غير متخالفة وأن فيها ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عقلَ فطرة وفكرة، وعقَلَ إحساس وعلمٍ لو كانوا يعقلون.

فلو أن الإنسان ألقى إلى عقله عقليته، وألغى عنه بلادة الغفلة وكرور الألفة، فاستقبل مشاهد الكون بإحساسات متجددة جادّة، ونظرات مستطلعة مستعلية على نزوات، كالرائد الذي يهبط إلى الكون أوّل مرة، فتلفت عينهُ كلّ ومضة، وسمعُهُ كلَّ نأمة، وحسُّهُ كلَّ حركة، وتهز كيانه تلك الأعاجيب التي تتوالى كدائرة الشريطات على الأسماع والأبصار فالقلوب، سبحان الله مُقلِّب القلوب.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾:

الأنداد هم الأمثال الأضداد، أمثال في الألوهية بعضاً أو كلًّا فأضداد

(١) سورة النور، الآية: ٤٣.

في شؤون الألوهية كلّاً أو بعضاً، و﴿يَتَّخِذُ﴾ هنا، لا سيّما بعد ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ لمحة صارحة أن لا أنداد لله ذاتياً أو متُخَذة من عند الله، وإنما ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ كما وأن تنوين التنكير تهوين لمكانة هؤلاء الأنداد.

وقد يخرج من الأنداد الأولياء المعبودون من دون الله إذ هم ليسوا بأضداد لله، مهما اتخذوا أنداداً.

وهنا تنديدٌ شديدٌ بمن يتخذون من دون الله أنداداً يحبونهم كحبِّ الله «فماذا تعني كحب الله؟» هل هو كحبهم الله؟ ونراهم يحبون أندادهم أكثر مما يحبون الله، بل وقد لا يحبون الله! أم هو كحبّ المؤمنين الله؟ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ تلمح بأشدها أن هؤلاء الأنداد يحبون الله كما يحبون أندادهم! أم كحب يليق بالله وهو توحيد الحب إلهيّا، وقد تعني ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ ككلّ المحتملات الثلاثة، أنهم يحبون أندادهم كحبِّهم الله، أو كحبِّ المؤمنين الله، أو كحبٍّ يليق بالله، وكلّ هؤلاء على دركاتهم تشملهم ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾.

ثم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ تعني أنهم أشدُّ حبّاً له منهم لله أو لآلهتهم، لأنهم يوحدون حبّهم لله وهؤلاء يقتسمونه بين أندادهم، وقد يحبون معهم الله، مهما كان الأشد لا يشمل الملحدين الذين لا يحبون الله حتى يكون حبّ المؤمنين أشدّ منهم، أو يحبونهم كحبهم لله في أصل الحب إلهياً حيث يحبونهم كآلهة كما المؤمنون يحبون الله لأنه الله، مهما اختلفت درجات الحب عندهم تسوية بين الله والأنداد، أم ترجيحاً لها عليه، ولكن ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ إذ لا يشركون في حبِّهم بالله أحداً كما لا يشركون بالله.

فكما يجب توحيد الله في كافة ميّزات الألوهية والربوبية، كذلك توحيده

في حبّه، ألّا يُساوى ولا يُسامى في الحبّ بسواه، لا كإله وإن في ذرة مثقال، ولا كمحبوب سواه اللّهم إلّا حبّاً في الله فإنه قضية حب الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾(١).

والحب الأشد من حبهم - للمؤمنين - ذو بعدين اثنين: أشدّ من حبّهم لله، وأشدّ من حبّهم لأندادهم، فإن ذلك حب موحِّد خالص دون أيِّ شريك وهذا حبّ فيه شركاء أو شريك، فقضية الإيمان الموحِّد هي الحبُّ الأشدّ الموحّد لله، لحدٍّ لا يبقي مجالاً لحب غير الله كإله ولا سواه.

وحين يُندَّد بمؤمنين ساقطين يحبون غير الله أحب من الله، فليس القصد منه هو الحبُّ الإيماني، بل حبًّا عمليًّا أنهم يعاملون غير الله كأحب من الله، غفلة أو تغافلاً عن حب الله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٢).

فإنهم لا يحبون هؤلاء - إذ يحبونهم - كأندادٍ لله فإنه إشراكٌ بالله، بل كأحباء اعتياديين قضيةَ العواطف والمصلحيات البشرية الحاضرة، التي قد يغيب معها حب الله المتفوق عليها، وذلك فسق في الحب وليس كفراً فيه.

وحب من سوى الله بين ممنوع وممنوح، فالأوّل هو حب الأنداد وهو إشراك بالله، وبعده حب أهل الله كما تحب الله - على سواه - دون إشراك لهم بالله ولا تأليه، وهو يتلو الإشراك بالله، ومن ثم حب من لا يحبه الله لا كإله ولا كأهل الله، وهو تخلّف عن شرعة الحب في الله.

والثاني هو حب الله والحب في الله، ثم التسوية في حب أهل الله على

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

اختلاف درجاتهم ضلال، كأن تحبّ سلمان كما تحبّ الرسول ﷺ في درجة واحدة، إفراطاً بحق سلمان وتفريطاً بحق الرسول ﷺ وكما الذين «اتخذوهم أئمة من دون الإمام الذي جعله الله للناس إماماً»[1] قد اتّخذوا لهم أنداداً يحبّونهم كما هم، فكفر الحب وإلحاده أن تحبّ غير الله ولا تحبّ الله، وإشراكه تأليهاً أن تحب مِن دون الله أنداداً كحب الله، وفسقه - دون تأكيد - أن تسوي في الحبِّ بين الله وأهل الله، أم أن تحبّهم أقلّ منه استقلالاً بجنبه، وإيمان الحبّ أن توّحد حبك لله كإله مهما تحب سواه، وأعلى منه ألّا تحب سواه إلّا في الله، وقمته أن تصبح بكلّ كيانك حباً لله.

إن دوافع الحب الموحد الأصيل لله حاضرة حاصرة، وهي في حبِّ غير الله كما الله غائبة خاسرة حاسرة، فبصيغة واحدة حب غير الله لا في الله إشراك في شرعة الحبّ بالله مهما اختلفت دركاته، فمطلق الكمال - أياً كان - محبوب فطرياً وعقلياً، فضلاً عن الكمال المطلق وهو الله تعالى شأنه فكيف نحبُّ من سواه كما نحبه؟.

ومُطلَق المُنعِم - أياً كان - محبوب كذلك، فضلاً عن المِنعم المطلَق وهو الله تعالى شأنه، ومطلق العلم والقدرة أما شابه من كمال محبوبٌ، فضلاً عن العالم القدير اللّانهائي في كلِّ كمال مرغوب وهو الله تعالى شأنه.

وقد خرف وهرف وانحرف من تقوّل ألّا يمكن حب الله، اللّهم إلّا حباً لنعمه وإكرامه ومن عباد الله مَن يحبونه لأنه الله، لا طمعاً في جنته ولا خوفاً من ناره.

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٥١ في أصول الكافي بسند عن جابر قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية قال: «هم والله فلان وفلان اتخذوهم . . . هم والله يا جابر أئمة الظلمة وأشياعهم» أقول: هذا من باب الجري والتأويل إلى مصداق أدنى، فإن حرمة التسوية بين غير المتساوين جارية على كلِّ حال.

والحب هو أول تعلُّق فطري بين المنعَم ومنعمه، وله درجات حسب درجات النعمة والمنعِم والمعرفة به ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ هم درجات في ذلك الأشَد لحدّ الشغف، ألّا يبقى في قلبه وفي كلّ كيانه إلّا حب الله أمّن يحب الله طول حب الله وطَولِه، بحوله تعالى وقوله، وإنهم تجسّدٌ لحب الله وكأنهم هم حب الله، لا كون لهم ولا كيان إلّا حب الله وطاعته، وأفضلهم رسول الله محمد ﷺ فإنه أوّل العابدين والعارفين بالله، ومن أسمائه الحبيبة «حبيب الله» وهو أفضل أسمائه وسماته كما «الله» أفضل أسماء الله.

وترى ﴿أَندَادًا﴾ هنا هي كلّ ما سوى الله من أوثان وطواغيت؟ ولا مرجع لضمير العاقل في ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ إلّا ذوو العقول الذين قد اتخذوا من دون الله أنداداً! ولا يُعقل حب الأصنام كحب الله! ولا أن الأصنام متبَّعون مهما هم معبودون، وهنا تبرُّءُ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ إذا فهم كلّ من يُعبد من دون الله اللهم إلّا الصالحين إذ ليسوا أضداداً لله مهما اتُّخذوا له شركاء، ولا هم متَّبعون إذ لا يدعون إلى أنفسهم.

ومن أندّ الأنداد وألدِّها الهوى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1] وقال ﷺ: «أبغض إله عبد في الأرض الهوى»! فمن يحب هواه كما يحب الله، حباً لها كإله أم سواه، فقد ضلّ عن شُرْعة الحب مهما اختلفت دركاته إشراكاً بالله وفسقاً عن شرعة الله.

وقضية حبِّ الإنسان نفسه أن يحبَّ ربّه المستكمل لها الخالق إياها، فليحبّ نفسه إذا أحبها الله حبًّا في الله، وليبغضها إذا أبغضها الله بغضاً في الله، وليقدِّر نفسه متعلقة - ككلّ - بالله يروّضها بتقوى الله، ويمحور الله بمرضاته في حياته كلّها دون سواه، وهذا هو من حق توحيد الله.

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

حبّ كلّ شيءٍ راجع إلى حبّ النفس، وليرجع حبّ النفس إلى حبّ الله، لا أن يحب الله لأنه من حب النفس، بل يحب نفسه لأنه من حب الله، موحداً في الحب دون إشراكٍ بالله حتى نفسه على إيمانه، فضلاً عنها على كفره وإشراكه!.

كلٌّ منا يحول في كلِّ حياته حول نفسه في كلِّ حركاته الآفاقية والأنفسية، ولتكن نفسه طائفة حول ربه، فهو في كلّ حركاته وسكناته الحائرة فيها حور نفسه، حائر في العمق حور ربِّه، لا يبتغي إلّا مرضاته، تطوافاً على طول خط الحياة بخطوطها وخيوطها حول ربه، حَوْلاً معرفياً وحُبّياً وعملياً، مبتعداً عن كلِّ محور سوى الله حتى نفسه المؤمنة بالله، وذلك هو التوحيد الحق.

وللحب مراحل خمس هي الودُّ والعِشْقُ والهَيمَان والخلة والشَّغف والخامسة هي البالغة مبالغ الحق ومراحلها إذ بلغت شغاف القلب ولبه وفؤاده.

إن حبَّ الشغف والخلة هما المعتمد عليهما في شرعة الحب، أن ليس معلّلاً بما يرجع إلى منتفعات النفس أو الابتعاد عن مضارها فإنهما حب العبيد والتجار، وذلك الحب غير المعلَّل هو حب الأحرار، أن تحب الله لأنه الله، لا - فقط - لأنه الرحمن الرحيم، بل لأنه الكمال والجمال والجلال اللانهائي، وهو المحبوب فطرياً دون سبب إلّا هو، فإنه هو حظه ذاتياً، فكما الإنسان يحب نفسه لأنه هو، فليحبّ ربه لأنه أكمل مما هو، بل وهو بكلّ ما له ومنه، يكون منه، فلا محبوب له - إذاً - إلّا هو.

إذاً فذات الله عين حظه، ثم ذوات أخرى محبوبة لله هي على الهامش، حبّاً في الله ولله لا سواه، وذلك الحب لا يتغير إلّا تقدماً كما الله لا يتغير، وأما الحب المعلّل فهو متغير بتغير أسبابه أمام صفات الجمال والجلال للحق المتعال.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾:

«لو» هنا في موقف التحسر ومسرح التأثر التكسُّر للذين ظلموا في شرعة الحب، فـ «لو» مدوا بأبصارهم إلى مسرح العذاب ومصرح القوة لله جميعاً، و﴿وَلَوْ﴾ تطلعوا ببصائرهم إلى حين يرون العذاب، لرأوا حينذاك ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ دون سواه، ورأوا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾.

لو يرون ذلك المسرح المصرح، الحاسم الموقف، القاصم الظهر، لانتبهوا عن غفوتهم ولكن لا حياة لمن تُنادي!... لو يرون.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾:

أجل ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾[1] ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[2] ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[3]، بل ورأس الأنداد ورئيسهم إبليس يتبرأ من تابعيه: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[4]! فهناك ويلات الحسرات للذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحبِّ الله.

فهنالك الأسباب بينهم كلّها متقطعة بهم، إذ ينشغل كلٌّ بنفسه عن سواه، وتسقط كافة الصّلات غير الأصيلات، اللّهم إلّا صلة التقوى، وظهرت أكذوبات الأنداد وكلّ القيادات الضالة وخوت، وهنالك يتحسر التابعون:

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾:

أتراهم ليس لهم أن يتبرأوا منهم هناك كما تبرأوا منهم حتى هم ناظرون ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾؟ نعم! ولكن لا يفيدهم - فقط - التبرؤ منهم هناك، وإنما هو التبرُّؤ في حياة التكليف: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾[1].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ البعيد المدى، العميقة الأسى ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ رؤية لملكوت أعمالهم، التي هي جزاؤهم يوم الحساب فـ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]: - ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[3].

﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ما دامت النار، وأما إذ لا نار ولا أهل نار، فما هو - إذاً - بخروج عن النار، وإنما خروج عن الحياة بخروج النار عن حياتها!، فلا تدل - إذاً - على البقاء اللّامحدود في النار، وإنما الخلود الأبدي فيها، إنهم في النار ما دامت النار.



(١) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

(٢) سورة النمل، الآية: ٩٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

بعدما بينَّ الله حقّ وحدة الألوهية ووحدة الحب إلهياً لنفسه، هنا يُقرِّر حق التشريع له وحده، مُناحراً لما كان يفعله المشركون من تحليلٍ أو تحريمٍ لا يرجع إلى دليل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾:

الحلال فَعال من الحِلّ والحَلّ مقابل العقد، فالشيء غير المعقود ولا المحظور حلال، سواءٌ سبقه عقد الحظر أم لم يسبقه، وليس للمأكول مما في الأرض سابق حظر كأصل، إلّا أنه لله، فلا يحل أكله إلّا بمرضاة الله، وهو يُحِلّه في أمثال هذه الآية كأصل وضابطة عامة تُحِلُّ الحظر عما يؤكل.

والطيب - هنا - هو كلّ ما تستطيبه النفس أكلاً، وطبعاً النفس الباقية على الطبع الإنساني الأولى، دون المنحرف عنه، المنجرف إلى دركات الحيونة الوحشية التي تستطيب أكل كلّ ما يمكن ابتلاعه، مهما كان حشرة، كما في الطباع الأوروبية المنحرفة عن إنسانيتها.

ثم هي النفوس ككلّ، دون كلّ نفس، فقد يُستطابُ أكل شيءٍ عند أشخاص خصوص متخلفة عن الجماهير، أم يُستقذر كذلك، والمعيار هو الاستطابة الجماهيرية بالطباع الأوّلية، حيث الأحكام الشرعية يُراعى في تشريعها جمهرة الناس دون الخواص.

أترى ﴿مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تبعيض لمأكولات الأرض، أن: كلوا بعض المأكولات، ثم ﴿حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ بيان لذلك البعض؟ فهما - إذاً - حالان لـ﴿مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أم مفعولان لـ ﴿كُلُوا۟﴾؟ فالآية - إذاً - مجملة بالنسبة لـ ﴿حَلَـٰلًا﴾ إذ لم يبيّن الحلال مهما عرف ﴿طَيِّبًا﴾ بما تعرفناه!.

فلنعرف خصوص الحلال مما في الأرض، الطيب، حتى يُسمح لنا أكله، فحين نشكّ في حلّه الخاص لا يحل أكله، وهذه هي أصالة الحظر، المطرودة بنصوص كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[1] وقد تُنافي - أيضاً - سماحة هذه الشرعة وسهولتها!.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

أم إن ﴿مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تبعيضٌ لما في الأرض، فإن منه مأكولاً ومنه غير مأكول، ولم يقيد النص ﴿مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمأكول، حتى يبعِّض بأداته، فمطلق النص ﴿مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يشمل كلّ ما في الأرض، ثم ﴿مِنَ﴾ تبعِّضه بالبعض المأكول.

إذاً فـ ﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سماح عام لأكل كلِّ ما يؤكل، فهل إن ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ هما مفعولان لـ﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تقييداً لسماح الأكل؟

فكذلك الأمر! حيث الآية - إذاً - مجملة في الحلِّ، ثم ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ دون قيد الحل، و﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ الحاصرة الحرمة فيما حصرت مهما كان نسبياً هما لا تساعدان على أصالة الحظر، أم إجمال الآية في الحِلِّ!.

أم أنهما حالان لـ ﴿مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كما لـ ﴿كُلُوا۟﴾ كلوا أكلاً حلالاً طيباً، مما في الأرض حلالاً طيباً، حلّاً عاماً كضابطة لأصل الجواز، وطيباً تقييد لذلك الحل كأوّل ما يقيد الأكل والمأكول، وكما تؤيده ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ...﴾ إذاً في ﴿حَلَٰلًا﴾ حال لواقع الأكل والمأكول على أية حال، ثم ﴿طَيِّبًا﴾ حال ثانٍ أو وصف تقييدي لـ﴿حَلَٰلًا﴾ يخرجه عن إطلاق الحلّ، أم إن ﴿طَيِّبًا﴾ لها دور ﴿حَلَٰلًا﴾ بياناً لأصالة الطيب، ألّا يسمح باستقذار مأكولٍ ممّا في الأرض إلّا ما ترفضه الطباع الإنسانية، فتُصْبِحُ ﴿طَيِّبًا﴾ أوسع مجالاً مما كان تقييداً، إذاً فيكفي في حلِّ المأكول عدم استقذاره نوعياً واقعياً، لا واستطابته كذلك.

وقد يقيد الأكل عن حلّه العام بعد طيباً بـ ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ و﴿مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[1] ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٩.

طَيِّبًا﴾[1] تقييداً للحلِّ بكونه مما ملكته من مشروعه: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[2].

إذاً فكلٌّ مأكول طيّب يحل أكله بغير باطل، كضابطة عامة، إلّا ما استُثني من حلِّ الأكل مادةً أو مدة، كماً أو كيفاً، فالمشكوك جواز أكله داخل في ضابطة الحل إلّا ما ثبت الحظر عنه بدليل من كتابٍ أو سُنَّةٍ.

ومن القُيود العامة لحل الأكل في آيتنا ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وكخطوة الإسراف والتبذير فإنهما من الشيطان، وخطوة التحريم لغير المحظور أكله والتحليل للمحظور أكله، وكخطوة أصالة الحظر، مهما اختلفت هذه الدركات في الخطوات، وعلى أية حال فاتِّباع خطوات الشيطان هو الانجذاب في قياده، أن تكونوا سيقةً للشيطان فيما يخطوه.

ولأن الخطوة هي ما بين القَدَمَيْنِ من المسافة حالة المشي، فقد تعني خطواتُ الشيطان وسائله وذرائعه إلى بغيته الأخيرة وهي الإشراك بالله والإلحاد في الله، فليس الشيطان ليورد الإنسان إلى أخيرة المهالك إلّا بخطوات من صغيرة إلى كبيرة إلى كبرى، فعند ذلك الطامة الكبرى وكما قال الله:

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾:

فالسوءُ هنا هو ما دون الفحشاء، كما الفحشاء هنا هي دون ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وبصيغة أخرى الفحشاء هي أقبح أنواع السوء، ﴿وَأَن تَقُولُوا۟﴾ هي أقبح أنواع الفحشاء، فالفحشاء هي المعصية المتجاوزة حدّها إما في نفسها أم إلى غير العاصي، أم تجمعهما، ثم العقيدة السيئة، والفاحشة هي أفحش من عملية السوء والفحشاء.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١١٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٩.

فاتِّباع خطوات الشيطان محظور في كلّ الحقول، أكلاً كما هنا، أمّا سواه من أفعال وتروك كما: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[1] - ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ... قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ...﴾[2] - وعلى أية حال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...﴾[3]: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، هنا ﴿وَأَنْ تَقُولُوا﴾ هي قولة الفرية على الله في تحريم أو تحليل ما لم يأذن به الله، وأفحش منه المشاقة الصريحة لحكم الله، أنني أُحرّم مهما أحلَّ الله، أم أُحلِّل مهما حرّم الله.

وقبلهما سوء وفحشاء عملي وعقيدي، فمن سوء عملي أكل الحرام الخفيف مادة وحرمة، ومنه عقيدياً تحليله افتراءً على الله، ومن فحشاء عملي الحرام المغلظ والعقيدي منه فريته على الله، والسوء والفحشاء العقيديان هما أسوأ وأفحش منهما عملياً، فلذلك يفرد العقيدي بالذكر بعد مطلق السوء والفحشاء: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا﴾.

فقد يعصي العاصي مُعْتَرِفاً أنه عاص، وأخرى محللاً له تقصيراً في التفتيش عن دليل، فتوى بغير علم، أم افتراءً على الله بمعارضة الدليل، أم مشاقة لله بمصارحة أنني أحلل وأحرم، رغم ما حكم الله، وذلك ثالوث منحوس بدركاته الثلاث قد تعمه ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أم قد يفلت الأخير من نصها داخلاً في الأولوية.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.
(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ١٤٢، ١٤٣.
(٣) سورة النور، الآية: ٢١.

فالقول على الله بغير علم - بدركاته - هو أسوأ من السوء وأفحش من الفحشاء العمليين، مهما كان القسم الأوّل من الثالوث سوءً أمام الثاني، وهذا فحشاء أمام الثالث من الناحية العقيدية.

فمن السوء عملياً في ظلال آيتنا ترك أكل ما لم تثبت حرمته، اللّهم إلّا حائطة ثابتة بدليل، ومنه عقيدياً أصالة الحظر.

كما من الفحشاء عملياً أكل الثابت حرمته، ومنها عقيدياً القول بحليته دون علم، ثم بعلم، ثم فوقهما عمليّاً التورط في المحرمات الكثيرة الكبيرة، وعقيدياً تحليلها افتراءً على الله، أم مشاقة علنية لحكم الله، وكما منه الاستناد إلى القياس والاستحسان أما شابه مما ليس دليلاً شرعياً، بل الأدلة الشرعية تعارضه، كل هذه قد تشمله ثالوث خطوات الشيطان بمختلف دركاتها.

فحذارَ حذار من ويلات خطوات الشيطان، فإنه لا يحمل المؤمن المتقي على ثالثة الدركات إلّا أن يخطو به أولاها ثم ثانيتها، عمليّاً أو عقيدياً، حتى يورده في مسيره إلى مصير الهلاك الأخير «جهنم يَصْلَوْنَها وبئس المصير».

وإنها ثالوث الخطوات في حصر ﴿إِنَّمَا﴾ وليست وراءها خطوة، وهي بين آفاقية عملية ﴿بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ وأخرى أنفسية ﴿وَأَن تَقُولُواْ﴾ قولاً بغير علم!.

أترى الشيطان يأمر - فقط - بالسوء و. . .؟ ونراه قد يأمر - فيما يأمر - بالخير! إنَّ أمره بغير السوء هو في الحق أمر بالسوء فأمر سوء، إذ يتذرعه إغراءً إلى سوءٍ، كمن يأمره بقراءَة القرآن، ثم يجمده على حروفه ويصرفه عن أحكامه فيصبح صاحبه تالياً للقرآن والقرآن يلعنه.

ففي الحق لا يأتي من الشيطان إلّا عملية الشيطنة وعقيدتها مهما أمر في

ظاهر الحال بخير، ثم لا يتمكن الشيطان - أم أيٍّ كان - أن يأمر بسوء وفحشاء بمقدمات كلها شريرة، وإنما يخلط حقاً بباطل وباطلاً بحق وهو بدء وقوع الفتن كما يروى عن قاطع الفتن علي عليه السلام: «إنما بدء وقوع الفتن أهواء تُتبّع وأحكام تُبْتَدَعْ يُخالَف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجالٌ رجالاً فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضِغثٌ ومن هذا ضِغثٌ فيُمزجان فيجيئان معاً فهنالك استَحْوَذَ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى».

فخير الشيطان شرٌّ إذ يبوء إلى شرٍّ، وشرُّ الرحمن خير إذ يبوء إلى خيرٍ ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

وقد يجرّ الشيطانُ الإنسانَ من الأفضل إلى الفاضل ليتذرع به لإخراجه إلى غير الفاضل وإلى الشرّ، أم يجرُّه من الفاضل الأسهل إلى الأفضل الأشق ليشق عليه فيترك الفضل عن بكرته!.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾:

وذلك هو الدرك الأسفل من الخطوات العقيدية الإبليسية، مشاقَّةُ الله في حكمه بحكم الآباء القدامى التقليديين، معارضة الدليل بالتقليد الخاوي عن الدليل، وقبله خطوة الحكم غير التقليدي خلاف حكم الله، وقبله القول على الله بغير علم دون أية حجة من كتاب أو أثارة من علم قياساً أو استحساناً أما شابه، وقبله الفتوى دون تفتيش صالح عن دليل، دركات أربع عقائدية في خطوات الشيطان، وقبلها أو معها خطوات عملية من سوء إلى فحشاء.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

هنا ﴿قَالُوا بَلْ﴾ رفض لاتِّباع ما أنزل الله إلى ﴿مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ اتِّباعاً عملياً وعقيدياً، في تقليد جاهلٍ قاحلٍ ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

فـ «لو» الامتناعية هنا تنازلٌ إلى سماح التقليد لو أنهم عقلوا شيئاً واهتدوا، ثم مُماشاة معهم في استحالة ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ولكن على فرضه - وكما هو الواقع الملموس - أفتتبعون آباءكم ضدَّ ما أنزل الله حتى إذا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، تقليداً جاهلاً في أصله وفصله ونسله، بعيداً عن كلِّ الأعراف في التقليد مَخبوراً ومَحْظوراً[١].

فقد يجوز تقليد من يعلم ويهتدي، وترك اتباع ما أنزل الله خلافٌ صارح صارخ للعلم والهدى، فإنه تعالى مصدر العلم والهدى فكيف يُعارَض فيهما بتقليد أعمى؟.

وترى كيف بالإمكان للآباء - أياً كانوا - أنهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وهم يعقلون أشياء ويهتدون إلى أشياء يحتاجونها في حياتهم؟

﴿شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ هنا هو شيءُ الحق، فمن عرف شيئاً من الحق اتبع ما أنزل الله، وكذلك شيءُ الهدى، ثم «لو» قد تلمح إلى أن ذلك فرض أخير لحالة الآباء، ويه تلحق سائر فروض التقليد الجاهل في مسرح اللّايعقل واللّايهتدي وإن قليلاً، حيث التقليد العاقل بحاجة إلى عقل كامل عن شرعة الله، وهدىً شاملة إليها، والتقليد الجاهل هو نفسه من خطوات الشيطان.

وفي تعقيب ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ بـ ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ عطفاً بعد رَدف، لمحة

(١) الدر المنثور ١ : ١٦٧ عن ابن عباس قال دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذرهم عذاب الله ونقمته فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم وخيراً منا فأنزل الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ [البَقَرَة: ١١].

بارعة أن الاهتداء هو من خلفيات العقل، مُقدّراً بقدره، فحين لا يعقلون شيئاً من الحق، فهم لا يهتدون إليه بطبيعة الحال، فالعقل ذريعة الهدى كما الهدى حصيلة العقل وكما يروى «العقل ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان».

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾:

علّ ذلك مَثَل للذين كفروا في ثالوث تقليد الآباء، وعبادة الأصنام، وترك قبول الدعوة الإلهية، فالذي ينعق بما لا يسمع - هو في الأخير - الدعوةَ الرسالية، فإنهم لا يسمعونها إلّا دعاءً ونداء كما الأنعام، وفي الأوّلين هو الأوّلان، في نعقهم بآبائهم القدامى وهم أموات، بل وهم عند حياتهم أيضاً أموات عن إجابة صالحة لأبنائهم إذ لا يسمعون إلّا دعاءً ونداءً، وفي نعقهم بأصنامهم أم وطواغيتهم هم بين اللّاإجابة أصلاً إذ لا يسمعون حتى دُعاءً ونِداءً، أو اللّاإجابة حيث إجابتهم لا يحمل سؤالاً لعابديهم.

ولأن ﴿لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ تتضمن السمع، فدُعاء الأصنام - إذاً - هو ضمن المعني من الدعاء، والأصل هو دعوة الرسول ﷺ إياهم ودعوتهم آباءهم، ولأن الآباء القُدامى أموات لا يسمعون حتى دُعاءً ونِداءً، فالأصل هو - فقط - دعوة الرسول إياهم، كما وتؤيده ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ صمٌّ عن سماع كلمة الحق إذْ أصمهم الله بما صمّوا، بكمٌ عن الإفصاح بالحق إذ أبكمهم الله بما خرسوا عن الحق وبكموا، عميٌ عن مشاهدة الحق إذ أَعْماهم الله بما عموا، وبالنتيجة ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فإن عقل الحقائق بحاجة إلى سمعها والإفصاح بها والإبصار إليها، وهم صدّوا عن أنفسهم منافذ العقل ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ بما صمّوا وأبكموا وعمّوا.

فمن أهم منافذ العقل عن الحقائق السمع والبصر واللسان الإنسانية، فالصمُّ البكم العُمي لا يعقلون فلا يهتدون، فهم في ثالوث الضلال بما ضلوا والزيغ بما زاغوا ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

إذاً فمثلك في دعاء الذين كفروا، أم ومثل الذين كفروا في دعائك إياهم ﴿كَمَثَلِ الَّذِي﴾(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾:

فلما لم يؤثر «يا أيها الناس...» أثره إلّا في الذين آمنوا، فليُكرِّر لهم الخطاب تشريفاً بلقب الإيمان، ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وهنا تركه ﴿حَلَالًا﴾ يؤيّد حِلّ ﴿حَلَالًا﴾ في آية الناس عن تقيُّد ﴿مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى ضابطة الحل، مهما زاد قيداً بعد ﴿طَيِّبَاتِ﴾ هو ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وليس رزق غيرك رزقك كما ليس رزقُك رزقَ غيرك، فقد تقيّدت أصالة الحل بما رزقك الله، وليس رزقك إلّا ما حصلت عليه من حِلّه، أم هو رزق جماعي لا مالكَ له شخصياً كالأملاك المشتركة قبل خروجها عن الاشتراك، مثل الغابات والبحار والأنهار حسب الضوابط المقررة في الشرع.

وترى أن الله يرزُقنا مع الطيبات غيرها ثم ينهاها عن غيرها، فلماذا - إذاً - يرزُقنا؟ إنه قد يرزُقنا من غير الطيبات أكلاً ولكنها من الطيبات لغير الأكل كالأصباغ أما شابه! ثم ومن الطيبات ما يُصنع منها غير الطيبات وهي

(١) نور الثقلين ١: ١٥٢ عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [إبراهيم: ١٨] في دعائك إياهم، أي مثل الداعي لهم إلى الإيمان كمثل الناعق في دعائه المنعوق به من البهائم التي لا تفهم وإنما تسمع الصوت، فكما أن الأنعام لا يحصل لهم من دعاء الداعي إلّا السماع دون تفهم المعنى فكذلك الكفار لا يحصل لهم من دعائك إياهم إلى الإيمان إلّا السماع دون تفهم المعنى. لأنهم يعرضون عن قبول قولك وينصرفون عن تأمله فيكونون بمنزلة من لم يعقله ولم يفهمه...

رزق غير حسن بما أساء الإنسان: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[١] فثمرات النخيل والأعناب هي كأصلها رزق حسن، وقد يُتَّخذ منها سَكَرٌ وهو غير حسن.

وقد تعني ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ فيما عنت، أن ما رزقناكم للأكل هي كلها طيبات، إضافةَ الصفة إلى الموصوف: كلوا من الطيبات التي رزقناكم، ولكنه كمعنى خاص يخرج الرزق عن عمومه، الشامل لغير الطيبات التي نصنعها من الطيبات.

﴿كُلُوا﴾ ﴿وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فمن يحرم نفسه أكل الطيبات المرزوقة فقد عبد هواه دون الله، ومن لم يَشْكُر الله على الطيبات، فقد عبد هواه دون الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٢].

أجل - وإن تحريم ما أحلّه الله عملياً أو عقيدياً أو جميعاً، هو من الإشراك بالله وكفر به، كما وترك شكر الله فيما أنعم من الطيبات هو كفران، أم كفر وإشراك بالله.

يقول الله في حديث قدسي يرويه عنه الرسول القدسي ﷺ: «إني والجن والإنس في نبأٍ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري»[٣].

و«إن الله طيِّبٌ لا يقبل إلّا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: يا أيها الرسول كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم» وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[٤].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.
(٣) تفسير الفخر الرازي ٥: ١٠ عن أنس عن النبي ﷺ ...
(٤) الدر المنثور ١: ١٦٨ - أخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي=

وقد تكفي ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ معونة تقييدات وتحديدات، حيث المؤمن لا يستطيب بطبيعة الإيمان مال غيره، أو محاصيل الظلم، أو الإسراف والتبذير، وهناك بجنبه وفي مرآه ومنظره بطون غرثى لا عهد لها بالشبع ولا طمع لها في القُرَص.

فـ ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ هنا هي ما تَسْتَطيبُها الأنفس المؤمنة نفسياً بجنب ما تستطيبها جسدياً، كما أنها هناك ما تستطيبها الأنفس الإنسانية، وهنا ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ في ميزان الاقتصاد الإسلامي، والأخلاق والعواطف الإسلامية السامية، فهذه أضيق دائرة من ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ في خطاب الناس، قضية أن الإيمان قيد الفتك، فالمؤمن يفتش عن طيب أُكُلِه وحِلِّه وأن يكون بمرضاة ربه، فيحتاط عن المخلوط أو المشتبه بالحرام.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾:

حصرٌ نسبيٌ في نطاق الأنعام التي حرَّم المشركون أقساماً منها افتراءً على الله كما قال الله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[(١)].

وقد تحمّل ذلك الحصر ثلاث أخرى، فاثنتان من الأربع مدنيتان، هذه وآية المائدة (٣) وأخريان مكيتان هما آية الأنعام (١٤٥) والنحل (١١٥) وتجد القول الفصل فيها في آية النحل والمائدة.

ومجمل القول فيها لا سيّما آية الأنعام - وهي نص في الحصر - أنها

= هريرة قال قال رسول الله ﷺ: . . . ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنّى يُستجاب لذلك!.

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٣.

تنفي الحرمة في نطاق الأنعام إلّا ما يتلى عليكم، اللّهم إلّا لحم الخنزير خارجاً عن الأنعام لتعوُّد أكله بين المشركين.

ثم ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ ضابطة لحلِّ المحرمات، شرطَ أنه ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ والباغي هو الطالب لا عن اعتدال، فهو الظالم في هذه الورطة، أن يكون في معصية الله فاضطر إلى أكل شيء من ذلك، والعادي يشمل المتجاوز عن حدّ الاضطرار إذاً فلا اضطرار، والعدْو إلى حالة الاضطرار، فهو إذاً اضطرار باختيار، فمن كان له صنع لخلق جوِ الاضطرار، أم كان ظالماً فيه، فهو آثم رغم اضطراره، مهما وجب عليه اقتراف الحرام حفاظاً على الأهم وهو نفسه[1] وعلّ ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ حالان عن الاضطرار والأكل معاً، ألا يكون الاضطرار ببغي أو عدو، أم في حالهما، وألّا يأكل بغياً وعدواً، بغياً على صاحب المال، وعدواً عن قدر الاضطرار.

والقول الفصل في كلّ أطراف الآية وزيادة شاملة تأتي في آية المائدة إن شاء الله تعالى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾:

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٥٥ في الفقيه في رواية محمد بن عمرو بن سعيد رفعه أن امرأة أتت عمر فقالت: يا أمير المؤمنين إني فجرت فأقم عليّ الحدَّ فأمر برجمها وكان أمير المؤمنين عليه السلام حاضراً فقال: سلها كيف فجرت؟ فسألها فقالت: كنت في فلاة من الأرض فأصابني عطش شديد فرفعت لي خيمة فأتيتها فأصبت فيها رجلاً أعرابياً فسألته ماء فأبى أن يسقيني إلّا أن أكون أمكنه من نفسي فولّيت منه هاربة فاشتد بي العطش حتى غارت عيناي وذهب لساني فلما بلغ مني العطش أتيته فسقاني ووقع عليّ فقال علي عليه السلام: هذه التي قال الله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البَقَرَة: ١٧٣] هذه غير باغية ولا عادية فخلى سبيلها فقال عمر: لولا علي لهلك عمر، وفيه عن التهذيب عن سماعة قال سألته عن الرجل يكون في عينه الماء - إلى قوله - فقال: وليس شيء مما حرّم الله ألا وقد أهله لمن اضطر إليه.
نور الثقلين ١ : ١٥٦ عن الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال عليه السلام: ...

قدَّمنا شطراً من الكلام حول الكتمان في آيته الأولى، ثم ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هو تطلُّب ثمن عما يكتمون، وكل ثمن بديلَ ذلك الكتمان قليلٌ مهما كان مِلءَ الأرض ذهباً، فكما أن كلَّ شيء أمام الله ضئيل، كذلك كلّ ثمن قبال ما أنزل الله قليل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعيدون عن كلِّ هدىً، المتورطون في كلِّ ردى ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ حيث الأكل المحرم هو يوم الدنيا نار ولكنها اليوم خامدة، ثم يوم القيامة تضطرم: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[(١)] - ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[(٢)] ولماذا ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ وليس الأكل إلّا بالأفواه إلى البطون؟ علّه لأن فاعلية البطون للمأكول هي أصل الأكل وغايته، فقد يأكل بفمه ثم يرجع دون أن ينتقل إلى بطنه، أو ينتقل ولكنه يرجع كما أكل من فمه أم سواه، إذاً فـ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ تحديد للأكل والمأكول استقراراً في بطونهم، مع أنه أفظع سماعاً وأشدّ إيقاعاً!.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حين يكلم المؤمنين، والمعني هنا هو تكليم الرأفة والعناية: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾[(٣)] دون تكليم التنديد والنكاية كما ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[(٤)].

وأما ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾[(٥)] فخاصة بيوم الدنيا، فقد يُكلِّم عباده

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٨.
(٥) سورة الشورى، الآية: ٥١.

المؤمنين دون وسيطٍ يوم القيامة نظراً إليهم، ويكلم غيرهم تنديداً بهم دون سماح لهم أن يكلموه.

ثم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ قد تعمُّ النشأتين، وهي في الأخرى تزكية الشفاعة والغفران، وفي الأولى تزكية العقائد والأعمال ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الأخرى، وقد حملوه معهم من الأولى.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾:

وهل كانت لهم هُدى ومغفرة حتى يشتروا بهما الضلالة والعذاب؟ أجل وهي هُدى الفطرة والعقلية الإنسانية، ثم وهدى الرسالات الإلهية الحاضرة لديهم، وبالنتيجة كانت لهم أسباب المغفرة حاضرة، ولكنهم ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ تجاهلاً وتغافلاً عن الهدى والمغفرة ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ هنا وهي أرواحهم النارية، وبأحرى يوم القرار.

وَيكأنما هي صفقة يدفعون فيها الهدى ويقبضون الضلالة، ويؤدون المغفرة ويأخذون بديلها العذاب، فما أخسرها من صفقة وأغباها، فقد كانت الهدى لهم مبذولة في الآفاق وفي أنفسهم فتركوها واعتاضوا بها الضلالة، وكانت المغفرة لهم متاحة فتركوها إلى النار ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾: «ما أصبرهم على فعلٍ ما يعلمون أنه يصيِّرهم إلى النار».

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾:

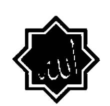
﴿ذَٰلِكَ﴾ العظيم العظيم من اللعنة والعذاب على هؤلاء ﴿بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾: بسبب الحق وغايته ومصاحباً للحق الناصع الدال على وحيه دون أية ريبة، وحاملاً لكلّ حق يحق نزوله للعالمين، وبـ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ

﴿ٱخۡتَلَفُواْ فِي﴾ ذلك ﴿ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ﴾ مع الله ﴿بَعِيدٖ﴾ في الأعماق، وبعيد عن كلِّ آفاق الشقاق، فإنه شقاق مع الله الذي نزل الكتاب، وشقاق مع الرسول الذي أنزل عليه الكتاب، وشقاق - ككل - مع الحق الذي لا يشتهونه، فهم - إذاً - في ثالوث الشقاق، بعيداً بهذه الأبعاد.

وقد يعني ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هنا بجنب القرآن سائر كتابات السماء، وقد اختلف الكاتمون ما أنزل الله في كل كتاب، لا سيّما في البشارات الخاصة بالرسول محمد ﷺ كما اختلف فيه المشركون و﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ﴾ تشملها جميعاً.

هنا صلة بين هذا البيان وبين تحويل القبلة وما أثاروا حوله من جدل، بياناً للحقيقة الكبرى، الحقيقة بالجدل حولها، دون شكليات الشعائر من تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب، كشعارات فاضية عن شعورات، وإنما فائضة بشعورات وواقعيات إيمانية.

فالإيمان الصالح هو نقطة التحول في حياة الإنسان أيّاً كان وإلى أية قبلة اتّجه، إنه - فقط - هو نقطة التحول من الفوضى إلى النظام، ومن التيه إلى البلد الأمين، ومن التفكك إلى وحدة الاتجاه.



﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢)﴾

فقد تلمح أولى الآيات هنا أن هناك وجوهاً من الناس كانوا يولون وجوههم قبل المشرق والمغرب صلاةً ودعاءً ويحسبون أنه البرُّ - فقط - في حظيرة الإيمان، فتبادر بتعريف البرِّ ابتداءً بالإيمان ثم أهم أعمال الإيمان، دون طقوسٍ جافةٍ خاويةٍ عن الإيمان الحق وحق الإيمان في عشرة كاملة من بنود الإيمان.

١ - ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، ٢ - ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، ٣ - ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾، ٤ - ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ ٥ - ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، ٦ - ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ﴾ ٧ - ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ٨ - ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ٩ - ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ ١٠ - ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾ في دعوى الإيمان ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ دون المولِّين وجوههم قِبَلَ المشرق والمغرب، بل المولّون وجوههم - ككلّ - الظاهرة مع الباطنة، وجاه مرضاة الله، ومنها وجوه الأبدان قِبَل القِبْلَة التي يوليهم الله إياها، رمزاً إلى الاتِّجاه - ككلٍّ - إلى الله.

وفي ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ﴾ تعريض عريض على اليهود المولِّين وجوههم قِبَلَ المغرب والنصارى المولين وجوههم قبل المشرق، وهم خاوون عن الإيمان بالله واليوم الآخر وسائر العشرة كما يجب، كما وهو تعريض هامشي على المسلمين من الذين يشابهونهم في تلك التولية القاحلة عن حق الإيمان.

أجل وليست ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾ في ذلك الخطاب - فقط - وجوه أهل الكتاب، بل والأصل هنا هو وجوه المخاطبين - أصالة - بالقرآن، وهم المؤمنون، مهما كان التنديد الأكثر اتّجاهاً إلى أهل الكتاب، فالخطاب إذاً - كأصل - من باب: إياك أعني واسمعي يا جارة، ثم و«إياك» مندّد به على هامش الخطاب، وعلى أية حال ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ...﴾[1].

هذا، وكما سُئل الرسول ﷺ عن الإيمان فتلاها ثم ثانية فتلاها ثم ثالثة فتلاها وقال: «وإذا عملت حسنة أحبَّها قلبك وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك»[2] وقال ﷺ: من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

(٢) الدر المنثور ١: ١٦٩ - أخرج ابن أبي حاتم وصححه عن أبي ذر أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان... وفيه عن القاسم بن عبد الرحمن قال: جاء رجل إلى أبي ذر فقال: ما الإيمان فتلا عليه هذه الآية فقال الرجل: ليس عن البِّر سألتك، فقال أبو ذر جاء رجل إلى رسول=

.. وفي هذه العشرة الكاملة من زوايا البرِّ نجد كلَّ الأصول الإيمانية وفروعها الأصيلة، إيماناً بالمبدأ: «الله» وباليوم الآخر:

«المعاد» وما بين المبدأ والمعاد من وسائط الرسالات: «والملائكة» وموادها: «والكتاب» وحملة الرسالات: «النبيين» وهذه خمس تتبنَّى الأصول الإيمانية، ثم خمس أخرى تتبنّى فروعها العملية، من صلات جماعية اعتيادية بين الجماهير: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ومن صلة عبودية بالله تتوسطها: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ثم صلة ذات بعدين بالله وبخلق الله: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ... وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وترى كيف يكون ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ برّاً مصدراً وهو بارٌّ فاعلاً؟ علّه لأن حامل هذه العشر يجسِّد البر نفسه، إذاً فكأنه نفس البرّ وكما و﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[1].

= الله ﷺ فسأله عما سألتني فقرأ عليه هذه الآية فأبى أن يرضى كما أبيت فقال له رسول الله ﷺ: ادن فدناه فقال: المؤمن إذا عمل الحسنة سرته رجاء ثوابها وإذا عمل السيئة أحزنته وخاف عقابها.

وفيه أخرج جماعة عن عمر بن الخطاب أنهم بينا هم جلوس عند النبي ﷺ جاء رجل يمشي حسن الشعر عليه ثياب بياض فنظر القوم بعضهم إلى بعض ما نعرف هذا وما هذا بصاحب سفر ثم قال: يا رسول الله ﷺ آتيك؟ قال: نعم، فجاء فوضع ركبتيه عند ركبتيه ويديه على فخذيه فقال: ما الإسلام؟ قال: شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت، قال: فما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والجنة والنار والبعث بعد الموت والقدر كله، قال: فما الإحسان؟ قال: أن تعمل لله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فإذا فعلت ذلك فأنا محسن؟ قال: نعم، قال: صدقت، قال يا محمد! متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل قال: فما أشراطها؟ قال: إذا العراة الحفاة العالة رعاء الشاة تطاولوا في البنيان وولدت الإماء أربابهن، ثم قال رسول الله ﷺ: عليّ بالرجل فطلبوه فلم يروا شيئاً فمكث يومين أو ثلاثة أيام ثم قال: يا بن الخطاب أتدري من السائل عن كذا وكذا! قال: الله ورسوله أعلم، قال: ذاك جبرئيل جاءكم ليعلمكم دينكم أقول وأخرج مثله البزار عن أنس، وابن مردويه عن أبي هريرة وأبي ذر، عنه ﷺ ولكن ليس فيها أشراط الساعة.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

فالبرُّ عقيدياً وإيمانياً فعملياً يأتي بسائر البرِّ كتولّي الوجوه قبل القِبْلة التي يرضاها الله ولا عكس إلّا لمن آمن حقاً.

إذاً فليس سلب البرِّ عن تولية الوجوه سلباً مطلقاً لأنها أيضاً من طقوس البر، وإنما هو سَلْبٌ لأصالة البرِّ عنها، والتولية حسب الشرعة هي فرعه.

إذاً فالإقبال على القشور المصلحية تغافلاً عن الألباب ليس من البرِّ، كما الإقبال على الألباب تغافلاً عن القشور المأمور بها ليس كلَّ البرّ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ﴾ جامعاً بين اللباب والقشور قضية برّ الإيمان والإيمان البر.

هنا ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ تعني حبَّ المال إلى حبِّ الله وحبّ إيتاء المال جمعاً بين المراجع الثلاثة، مهما كان المال أقرب لفظاً، فإن الله هو أقرب معنى وبينهما الإيتاء فـ ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ إذاً لها تعلقات ثلاث أدبياً ومعنوياً،: «آتى المال على حبِّ الله» و«آتى المال على حبِّ المال وعلى حب إيتائه» إذ ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾[1] وكما «قيل يا رسول الله ﷺ ما آتى المال على حبه؟ فكلنا نحبه! قال رسول الله ﷺ: تؤتيه حين تؤتيه ونفسك تحدثك بطول العمر والفقر»[2].

ودرجة عليا من ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أن تكون عنده أموال يفضّلُ بعضها على بعض، كما ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾[3] إذ كان مفضّلاً على سواه مما كان عندهم، وأما الإنفاق من رذيل المال أم في رذيل الحال

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

(٢) الدر المنثور ١: ١٧١ - أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن المطّلب أنه قيل . . . وفيه أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن حبان عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح تأمل البقاء وتخشى الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا لفلان كذا إلّا وقد كان لفلان.

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٨.

«كالذي يُنفق أو يتصدّق عند الموت فمثله مثل الذي يهدي إذا شبع»[(١)].

إذاً فـ ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ لها درجات، ثم ما لا يحبه، ثم ما يترذَّله، والآية تخص الإنفاق بدرجات الحب، حب المال وحب إيتاء المال على حب الله.

ثم «الفقير هو هدية الله قَبِل ذلك أو ترك»[(٢)] فـ«ردوا السائل ولو بظلف محترق»[(٣)].

وهنا المؤتَون المال على حبِّه ستة حسب ترتيب الاستحقاق والحاجة، يتقدمهم ﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ وهم الأقرب إليك نسباً فالأقرب، من الوالدين والأولاد، وطبقات القربى هنا هم كطبقات الميراث لأنها أصدق الطبقات إذ قرّرها الله تعالى[(٤)].

ثم ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ المنقطعين عمن يعولهم، وأدنى يتيم هو اللطيم المنقطع عن أبويه، ثم اليتيم المنقطع عن أبيه، ثم الفطيم المنقطع عن أمه، وعلّ الأخير خارج عن اليتيم مهما كان له يُتم، أم هو بعد الأولين، فدوره هو الدور الأخير.

والمساكين هم من أسكنهم العدم، وهي تعم الفقراء الذين أَفْقَرَهمُ العدم، فإنهم أسوءُ حالاً من المساكين، كما ويقدَّمون عليهم حين يذكران

---

(١) المصدر أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي والحاكم وصححه عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: مثل الذي يُنفق أو يتصدّق عند الموت مثل الذي يهدي إذا شبع.

(٢) المصدر أخرج ابن شاهين وابن النجار في تاريخه عن أُبيّ بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: ألا أدلّكم على هدايا الله عَزَّ وَجَلَّ إلى خلقه؟ قلنا: بلى - قال: الفقير...

(٣) عن حواء قالت سمعت رسول الله ﷺ - يقول:...

(٤) الدر المنثور: ١٧١ - أخرج الخطيب في تالي التلخيص عن ابن عباس أن ميمونة استأذنت رسول الله ﷺ في جارية تعتقها فقال رسول الله ﷺ: أعطها أختك ترعى عليها وصلي بها رحماً فإنه خير لك.

معاً: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾[(١)] وهو مسكين ذا متربة (٩٠: ١٦) ومطلق المسكين يشمله وغيره المتوسطة حاله، ثم ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وبالطبع هو ابن سبيل الله، المنقطع عن ماله وذويه في الله وكما جاء ابن السبيل بعد سبيل الله في آية التوبة ﴿... وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[(٢)]، وأدناه من ليس في معصية الله وسبيل الشيطان.

ثم ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ تعنيهم ككل: فقراء أو مساكين أم سواهم، فـ «للسائل حق وإن جاء على فرس»[(٣)] وأما ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ دون «الرقاب» فقد تعني صالح الرِّقاب أن يُشتروا من أصحابهم كلّاً أو بعضاً، دون أن يؤتَوا هم أنفسهم مما يؤتى، فإن ذلك أصلح لهم، إضافة إلى أن الرِّقاب ليسوا - بطبيعة الحال - في حاجات شخصية إذ يتحملهم أصحابهم بواجب النفقة وإنما هم بحاجة إلى تحرُّرهم، إذا فـ ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ تعني في سبيل تحررهم قدر المقدور كلاًّ أو بعضاً.

ذلك الترتيب السداسي - بما في كلٍّ ترتيب - يُراعى في إيتاء المال، ثم يُقدَّم من يحمل عنوانين من الستة أم زاد وكما قال رسول الله ﷺ: «على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم اثنان صدقة وصلة»[(٤)].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

(٣) الدر المنثور ١: ١٧١ - أخرج ابن عدي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ... وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن سالم بن أبي الجعد قال قال عيسى ابن مريم: للسائل حق وإن جاء على فرس مطوق بالفضة.

(٤) الدر المنثور ١: ١٧١ - أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجة والحاكم والبيهقي في سننه عن سلمان بن عامر الضبي قال قال رسول الله ﷺ: ...
وفيه أخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت سألت رسول الله ﷺ: أتجزي عني من الصدقة النفقة على زوجي وأيتام في حجري؟ لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة.

وهنا ﴿وَءَاتَى﴾ دون «أنفق - أو - أعطى» لأنها أعمُّ من الإعطاء والإنفاق، فكما الصدقة والهبة إيتاء، كذلك القرض إيتاء، فمثلاً ابن السبيل ليس إيتاءه المال لفقره، إذ قد يملك أكثر منك في بلده، فأنت تؤتيه الآن قرضاً ثم تأخذه منه بعد الآن، كما والهبة المعوضة والهدية إيتاء.

ذلك الإيتاء بمراتبه واجب كما الصلاة والزكاة، فليس يعني الزكاة فإنه هنا يقابلها متقدماً عليها، فهو إذاً من الضرائب الواجبة قدر المقدور، إضافة إلى ضريبة الزكاة.

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾ الله أم خلقَه كما يصحّ أو يجب، وقد تحدّد ﴿إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾ مدى شمول ﴿بِعَهْدِهِمْ﴾ أن ليس منه عهد الفطرة وعهد العقل وعهد الشرعة الإلهية، فإن ذلك المثلث من العهد لزام على المكلفين، لا يقبل زماناً دون زمان حتى يحدد وجوب الوفاء به بـ ﴿إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾.

﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ ولماذا ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ نصباً، وقضيتُه عطفها على ﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾ بمن قبلهم، هي «الصابرون»؟

علّها منصوبة على الاختصاص لاختصاص الصبر في ذلك المراس قضيةَ الاحتراس على الإيمان ببنوده عقيدياً وعملياً، فالصبر في البأساء والضراء وحين البأس - إنه في ذلك المثلث البارع - تربية للنفوس وإعداد لها، كيلا تطير شَعاعاً مع كلِّ نازلة، ولا تذهب حسرة مع كلِّ فاجعة، ولا تنهار جزعاً أمام الشدة، تجملاً وتماسكاً وثباتاً حتى تنقشع الغاشية وترحل النازلة، رجاءً في الله، وثقة بالله واعتماداً على الله.

فلا بدّ لأمة تُناط بها القوامة على البشرية أن تتهيأ لِوَعثاء الطريق ومشاقِّ السفر على أية حال، في كلِّ حلّ وتر حال، في البأساء والضراء وحين البأس، لكي تنهض بواجبها الضخم، وتؤدي دورها المرسوم.

فالصبرُ في مثلثه رباط عن التفسخ في كلّ زوايا الإيمان وقضاياه،

ورزاياه من كتلة اللّاإيمان، ولذلك يختصُّ هنا بتقدير الاختصاص، وأخص ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بين كلِّ المؤمنين، وأخصّ الصبر بين كلِّ سمات الإيمان، لاختصاصه في مراس الإيمان واحتراسه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾:

﴿ٱلْقِصَاصُ﴾ لغوياً هي المقاصة من القص: تتبع الأثر، أو القصة: مُحاكاة الواقع كما هو، فهي - إذاً - تتبع الأثر كما أثّر دون إفراط عليه ولا تفريط عنه، نفساً بنفس كما هنا ﴿فِى ٱلْقَتْلَى﴾ أم جرحاً بجرح: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾(١) ومالاً بمال، ومماثلةً بين الأمرين على أية حال، محلّقة كضابطة ثابتة على كافة الحرمات: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

فالقصاص بوجهٍ عام هي ملاحقة المجرم كما أجرم وقَدَره أم تقل، دون اعتداء عليه - لأكثر تقدير - إلّا كما اعتدى، كماً وكيفماً، عَدداً وعُدداً، تسوية عاقلة عادلة بين الجرم وقصاصه.

وهل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هنا هم أولياء الدم - فقط - لأنه حقهم؟ وحقه - إذاً - لكم، لا عليكم، حيث القصاص هي لصالح أولياء الدم وليس عليهم!.

أم هم القاتلون، حيث القصاص عليهم هي كحقٍّ خاص لأولياء الدم؟ - و﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ﴾ يُخرِجُهُ عن كونه حقاً ثابتاً عليهم!.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

أم هم حكام الشرع؟ فكذلك الأمر، فإن حكمهم تابع لما يختاره أولياء الدم! اللهم إلّا شذراً[1].

علّهم هؤلاء أجمع، مكتوب عليهم القصاص، فعلى أولياء الدم لأنه حق لهم خاص كضابطة مهما جاز لهم التنازل عنه إلى دية أم لا إلى بدل، كتبصرة على الضابطة، وعلى القاتلين لأنه حق عليهم، وعلى حُكّام الشرع، لأن عليهم ملاحقة المجرمين حسب اقتراح أولياء الدم، وملاحقة أخرى حفاظاً على الحياد العام للكتلة المؤمنة.

ف ﴿عَلَيْكُمُ﴾ هي كأصل تعني القتلة، وهي كواجب التطبيق بملاحقة، على حُكّام الشرع، ثم كواجب الحق وثابتة على أولياء الدم، لا سيّما إذا كان العفو أم والانتقال إلى الدية محظوراً جماعياً.

إذاً فـ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في هذا المثلث، أم هم ككل، مسؤولون في القصاص، ملاحقة فيه وراء المجرمين، فإن ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ حياةٌ تعمّ الكتلة المؤمنة ككلّ، وترى كيف تكون قصاص الدم - والدماء تختلف في قيمها -؟ إنها كما هنا: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾.

فقد يستفاد من نصّ الآية في الجمل الثلاث شريطة المساواة الثلاثية في القصاص، فـ ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ مُساواة في الذكورة، وأخرى في الحرية والرقية، ثم ﴿وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾ مُساواةً في الأنوثة، وهذه الثلاث هي بصيغة أخرى مُساواةٌ في الجنس وأخرى في القيم الاقتصادية، بل والأولى أيضاً راجعة إلى الثانية، حيث الذكر أثمن من الأنثى، كما الحرّ أثمن من العبد.

وذلك نصٌّ خلفي على رفض المُساواة - في حق القصاص - في سائر

---

(١) كما في القاتل الساعي في الأرض فساداً، فإنه خارج عن خصوص الحق إلى عمومه.

القيم روحية وسواها، اللّهم إلّا العددية فهي من أحق المساواة وأعمقها وأعدلها، المستفادة من آية المائدة كضابطة ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾[1] وآية الإسراء ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ إضافة إلى كل من هذه الثلاث حيث يقابل الواحد في كلّ واحداً.

والمحور الأصيل في زماننا ومنذ أمدٍ بعيدٍ هو تُساوي الجنس فيأتي السؤال - إذاً - عن «الأنثى بالذكر والذكر بالأنثى»؟.

فلأنَّ الذكر أثمن من الأنثى فلا يُقتل بالأنثى كأصل وضابطة، إلّا أن يجبر نقص الأنثى القتيلة - لقتل الذكر - بردّ نصف ديته إلى ورثته، كما يدل عليه صحيح الأثر، ثم الأنثى الأرخص من الذكر تقتل بالذكر بأحرى أولوية قطعية وليس بعد شريطة المساواة في الجنس شريطة أخرى في شرعة القصاص من ميزات معنوية أماهيه، حيث النص مقتصر على ما اقتصر.

ولا تزال ضابطة ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ مرعية عَدداً، وعُدداً اقتصادية، بِجَبْرِ النقص في اختلافهما في الثانية - فقط - رداً على ورثة الذكر قاتلين ومقتولين.

وترى آية القصاص هذه ناسخة لآية ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ في المائدة؟

والمائدة كآخر ما نزلت هي ناسخة غير منسوخة!.

آية المائدة لا تتحدث عن شرعة قرآنية - ككلّ - بل هي حاكية عن شرعة القصاص التوراتية: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ كضابطة عامة، وآية البقرة تنسخ عمومها بشريطة المساواة في الجنس والحرية، فتبقى الباقية تحت عموم المائدة بلا ناقصة ولا زائدة، اللّهم إلّا نسخاً ثانياً في ﴿فَمَنْ عُفِيَ﴾.

فآية البقرة ترسم حكماً عدلاً عواناً بين اليهودية في ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ باختصاص القصاص في القتلى بالقتل، ودون شريطة تساوي الجنسين، وبين

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

النصرانية القائلة بالعفو، والهمجية المشركة المتعدية في القصاص كلّ أطوار العدالة والأعراف العاقلة الإنسانية، فقد كانت تَقتل قبيلة عن بكرتها بقتيل واحد، أم لا تَقتل واحداً قتل قبيلاً، فالأشراف كانوا يقولون: لنقتلن بالعبد منا الحرّ منهم، وبالمرأة الرجل منهم، وبواحد قبيلاً منهم، ويجعلون جروحهم أضعاف خصومهم، فقد يروى أن واحداً قتل واحداً فاجتمع أقارب القاتل عند والد القتيل قائلين: ماذا تريد؟ فقال: إحدى ثلاث، قالوا: وما هي؟ قال: إما تُحيون ولدي، أو تملأون داري من نجوم السماء، أو تدفعوا إليَّ جملة قومكم حتى أقتلهم عن بكرتهم، ثم لا أدري أني أخذت عوضاً! وكانوا يظلمون في أمر الدية كما في القود، فدية الشريف شريفة ودية الوضيع وضيعة!.

وقد خالف الإسلام كلَّ هذه الثلاث المفرِطة والمفرَّطة في أمر القصاص، قصراً للتفاضل في القيم الاقتصادية جنسية وسواها، ثم التفاضل بالتقوى وسواها من القيم، مجاله غير هذا المجال، والأثر المستفيض عن الرسول ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم» مخصص كآية المائدة بآية البقرة، فقيمة الأنثى نصف الذكر، إذاً فـ ﴿وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ والذكر بالذكر، أمّا يدل عليه ثابت الأثر.

وقيمة العبد أقلّ من الحرّ فـ ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ﴾ فضابطة التفاضل محصورة في اختلاف الجنسين، وفي الحرية والرقية، دون سائر الميِّزات روحية وسواها.

فـ ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ﴾ ضابطة كما ﴿وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ﴾ وكذلك ﴿وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ فقد تُقتل الأنثى بالأنثى، والذكر بالذكر، وبأحرى الأنثى بالذكر، ثم لا يقتل الذكر بالأنثى إلّا برد فاضل ديته إلى أوليائه[1] إحرازاً للمساواة بين النفسين،

(١) كما في صحيحة الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال في الرجل يقتل المرأة متعمداً فأراد أهل=

وتطبيقاً لضابطة ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ عدلاً لأولياء الدم كيلا يتصبروا على ضيم الدم، وعدلاً إلى أولياء القاتل برد فائض ديته عليهم، ففاضل الدية - إذاً - يجبر النقص ويحقق السماوات.

ثم وفي عكس القضية وهو الأنثى بالذكر، قد يؤخذ ناقص الدية من أوليائها رداً على أوليائه بنفس السند، على تأمل فيه، إذ هي لا تملك إلّا نفسها و«الجاني لا يجني على أكثر من نفسه» وقد جنت عليها فلا فاضل - إذاً - يرد عنها، ولكنها هدرت بقتلها إياه ضعف نفسها، فليجبر الناقص بما تركت، فمثلها كمثل رقّ هدر ضعف ثمنه.

ذلك حكم بنفس بنفس، فهل يقتصّ من جماعة قتلوا واحداً؟ هنا روايات عدة[1] ودعاوى الإجماع تقول لأولياء الدم قتل الجميع بردِّ دية الزائد عن الواحد إلى أوليائهم!.

لكنه تطارده الضابطة العامة في آيتي البقرة والمائدة ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ وهذه نفوس بنفس، وكذلك ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ﴾ هذه أحرار بحر، أم إناث بأنثى، أم عبيد بعبد، ولم تنسخ آية المائدة إلّا في غير المتماثلين في الجنس والحرية.

= المرأة أن يقتلوه؟ قال: «ذاك لهم إذا أدوّا إلى أهله نصف الدية» (الاستبصار ٤ : ٦٥ والكافي ٧: ٢٩٨).

(١) كما في خبر ابن يسار على المحكي قلت لأبي جعفر عليه السلام في عشرة قتلوا رجلاً؟ فقال: إن شاء أولياءه قتلوهم جميعاً وغرموا تسع ديات وإن شاؤوا تخيروا رجلاً فقتلوه وأدى التسعة الباقون إلى أهل المقتول الأخير عشر الدية كلّ رجل منهم، قال: ثم إن الوالي بعدُ يلي أدبهم وحبسهم (الكافي ٧: ٢٨٣)

وفي صحيحة عبد الله بن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام في رجلين قتلا رجلاً؟ قال: إن أراد أولياء المقتول قتلهما أدّوا دية كاملة وقتلوهما وتكون الدية بين أولياء المقتولين وإن أرادوا قتل أحدهما فقتلوه وأدى المتروك نصف الدية إلى أهل المقتول وإن لم يؤدوا أحدهما ولم يقتل أحدهما قبل دية صاحبه من كليهما وإن قبل أولياءه الدية كانت عليهما. (التهذيب باب الاثنين إذا قتلا واحداً تحت رقم ٣ والكافي ٧: ٢٨٣ تحت رقم ٢).

ثم وذلك اعتداء بغير المثل، إذ لا مماثلة بين واحد وجماعة، وهو إسراف في القتل وقد منعته آية الأسرى ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾[1] وقد يستدل بها الإمام المعصوم في معتبرة[2].

ذلك، اللّهم إلّا فيما يقتل امرأتان رجلاً حيث تقتلان به بضابطة المساواة في القيمة، فليس إسرافاً في القتل ولا اعتداءً بأكثر مما اعتدى، وكما يؤيده صحيح الأثر[3].

فلا حجة في إجماعات تُدّعى أو روايات تُروى، هي مُعارضة بمثلها ومُعارضة للكتاب، فالقوي قولاً واحداً عدم جواز قتل الأكثر من واحد، بل وفي الواحد منهم أيضاً تأمل لأنه لم يستقل في القتل، فلا تصدق في قتله ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ بل هو اعتداء عليه أكثر مما اعتدى! تأمل.

هذا! وأما إن قتل نفس نفسين أو زاد، فهل يقتص من القاتل لواحدة ثم ولا ديّة لسواها حيث الثابت في القتلى إنما هو القصاص؟ و﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ تقتضي هنا قود النفس عن واحد ويديله عن آخرين، وكما في المعتبرة «لا يبطل دم امرئٍ مسلم»[4]. أم أنه بديلٌ عنهما اقتساماً لقوده

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٣.

(٢) هي ما رواه ابن أبي عمير في الحسن أو الصحيح على الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا اجتمع العدة على قتل رجل واحد حكم الوالي أن يقتل أيهم شاؤوا وليس لهم أن يقتلوا أكثر من واحد إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] (الكافي ٧: ٢٨٤ والاستبصار ٤: ٢٨٢).

(٣) هي صحيحة محمد بن مسلم على المحكي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن امرأتين قتلتا رجلاً عمداً؟ قال: «تقتلان به ما يختلف فيه أحد» (التهذيب في باب القود بين الرجال والنساء رقم ١٣).

(٤) الكافي ٧: ٣٦٥ معتبرة أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل قتل رجلاً متعمداً ثم هرب القاتل فلم يقدر عليه؟ قال: «إن كان له مال أخذت الدية من ماله وإلّا فمن الأقرب فالأقرب وإن لم يكن قرابة أداه إلى الإمام فإنه لا يبطل دم امرىء مسلم».

بينهما، ثم اقتساماً في دية الفائض بينهما وهذا هو الأشبه الأصح، ثم إن عُفي عن القود فدية كاملة كبديل، إلّا أن يُعفى عنها فلا شيءَ على الجاني، وترى إن عُفي بعض أولياء الدم عن نصيبه من القود فهل للباقين رفضه بدفع نصيبه من الدية ثم المطالبة بالقود؟ الروايات هنا متضاربة[١] فتعرض على الآية وتضرب المعارضة لها عرض الحائط.

فنص الآية: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فإطلاق ﴿شَيْءٌ﴾ يشمل بعض القود كبعض الدية، ثم ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ تفرض - فيما تفرض على الباقين - اتّباعَه، عفواً عن نصيبهم من القود انتقالاً - ككلّ - إلى الدية حيث القود لا يتبعض في واقعه، اللهم إلّا عفواً يظهر في تبعُّض الدية، ثم ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ و﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ ولا راد لرحمته وتخفيفه ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ ومنه مطالبة القود مع العفو عن بعضه ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾!

ف ﴿أَخِيهِ﴾ هنا استثارة لحنان الأُخوّة الإسلامية في أولياء الدم كما تدل على بقاء الأُخوّة الإيمانية بين القاتل وولي الدم رغم قتله، و﴿مِنْ﴾ هم القاتلون، و﴿عُفِيَ لَهُۥ﴾ عفوٌ عن مكتوب القصاص قوداً أو دية، و﴿لَهُۥ﴾ دون

---

(١) الرواية المعارضة هي رواية جميل بن دراج عن بعض أصحابه يرفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام في رجل قتل وله وليان فعفا أحدهما وأبى الآخر أن يعفو؟ فقال: إن الذي لم يعف إذا أراد أن يقتله قتل وردّ نصف الدية على أولياء المقتول المقاد منه (الكافي ٧: ٣٥٦ رقم ١).
وتعارضها وفقاً للآية روايات منها صحيحة أبي ولاد قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل قُتل وله أولاد صغار أرأيت إن عفا الأولاد الكبار؟ قال فقال: لا يقتل ويجوز عفو الأولاد الكبار في حصصهم فإذا كبر الصغار كان لهم أن يطلبوا حصصهم من الدية (الوسائل ب ٥٣ من القصاص ح ١) ومنها قول أمير المؤمنين عليه السلام في خبر إسحاق: «من عفا عن الدم من ذي سهم له فيه فعفوه جائز ويسقط الدم وتصير دية وترفع عنه حصة الذي عفى»، وفي الفقيه روي أنه إذا عفا واحد من الأولياء ارتفع القود.

عنه لأن الثانية عفو مطلق لا يبقى معه شيءٌ، والأولى هي مطلق العفو الذي يبقى معه شيء، فـ ﴿شَيْءٌ﴾ تعم أي حق في هذا البين، سواء أكان كلَّ القود من مستقل في ولاية الدم أم شركاء فيها، أم يعفو واحد منهم عن نصيبه، أم أيّاً كان من أيّ كان، دون العفو المطلق المعبر عنه بـ ﴿لَهُۥ﴾ إذ لا مجال - إذاً - لـ ﴿شَيْءٌ﴾!

فهنا اتِّباع بالمعروف ضابطةً صارمة في حقل العفو، اتِّباع العافي عفوه دون نكولٍ عن كمِّه أو كيفه أو أصله، واتِّباع المعفو له في أداءِ ما عليه حين ينتقل القود إلى الدية، مادة ومدة وكيفية، واتباع شركاء الدم - غير العافين - عفوَ العافي، واتِّباع حكام الشرع ذلك العفو.

فـ «ينبغي للذي له الحق أن لا يعسر أخاه إذا كان قد صالحه على دية، وينبغي للذي عليه الحق أن لا يمطل أخاه إذا قدر على ما يعطيه ويؤدي إليه بإحسان»[١].

ثم وحين الانتقال، ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ كما عُفي له من أخيه بإحسان، إحساناً في أصل الأداء، وإحساناً فيما قرّر من الأداء مادةً ومدةً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ البعيد الغور من أصل القصاص العدل خروجاً عن قَسْوَة الفوضى، ومن سماح العفو والإحسان في الأداء، ومن واجب الاتِّباع ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عما كان في الجاهلية من قسوة، وفي شرعة التوراة من عدم السماح عن القود وفي شرعة الإنجيل - خلافاً لشرعة الله! - سماحاً واجباً عن القصاص، فإنه عبءٌ ثقيل كزميليه: الجاهلي واليهودي.

ففي سفر الخروج (٢١: ١٢) «من ضرب إنساناً فمات يُقتل قتلاً»[٢].

---

(١) نور الثقلين ١: ١٥٧ في الكافي في الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿فَمَنْ عُفِيَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٨] قال: . . .

(٢) وفيه «ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلاً (١٥) ومن سرق إنساناً وباعه أو وجد في يده يقتل قتلاً=

«ولا تأخذوا فدية عن نفس القاتل المذنب للموت بل إنه يقتل أم ولا تأخذوا فدية ليهرب إلى مدينة ملجئه... وعن الأرض ولا يكفر لأجل الدم الذي سفك فيها إلّا بدم سافكه» سفر الأعداد ٣٥: (٣١ - ٣٤).

وفي سفر التكوين (٩: ٦) «سأسفك دم الإنسان بالإنسان اسفك دمه».

فآية المائدة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾[1] - إنها تتحدَّث عمَّا في التوراة الحالية، إلّا في ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ ثم آية البقرة تنسخها في شيءٍ من إطلاقها وعمومها.

ثم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ هنا بعد ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ علّها هي رحمة التخفيف، في رحمة بين الإخوة، رحمةً على المجرم النادم، أو الذي يتندَّم بعفوه، ورحمةً على القتيل حين يُعفى عن القاتل صدقة على القتيل.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ اعتداءً على حكم الله، واعتداءً على القاتل، واعتداءً بعد العفو، وعلى الجملة اعتداءً من العافي أو المعفوّ أم شركاء وليّ الدم، أو اعتداءً من حكام الشرع، تجاوزاً على أية حال عن حكم الله كما حكم ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إما هنا أم وفي الآخرة.

= (١٦) ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلاً (١٧) وإن حصلت أذية تعطي نفساً بنفس (٢٣) وعيناً بعين وسناً بسنٍ ويداً بيدٍ ورجلاً برجلٍ (٢٤) وكياً بكيٍّ وجرحاً بجرحٍ ورضٌّ برضٌّ (٢٥)».
وفي سفر الأعداد ٣٥ «إن ضربه بأداة من حديد فمات فهو قاتل إنّ القاتل يقتل (١٦) وإن ضربه بحجر يد مما يقتل به فمات فهو قاتل إن القاتل يقتل (١٧) أو ضربه بأداة يد من خشب مما يقتل به فمات فهو قاتل. إن القاتل يقتل (١٨) ولي الدم يقتل القاتل حين يصادفه يقتله (١٩) وإن دفعه ببغضه أو ألقى عليه شيئاً يتعمد فمات (٢٠) أو ضربه بيد بعداوة فمات فإنه يقتل الضارب لأنه قاتل، ولي الدم يقتل القاتل حين يصادفه... فتكون لكم هذه فريضة حكم إلى أجيالكم في جميع مساكنكم (٢٩) كل من قتل نفساً فعلى فم المشهود يقتل القاتل (٣٠) - ولا تأخذوا فدية...

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

أجل ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم العدل في القصاص تخفيف عن ثقل الجاهلية واليهودية والنصرانية إلى سهولة الاختيار قصاصاً بعدل، أو انتقالاً إلى دية، أم عفواً كاملاً، كلٌ كما تقتضيه المصلحة إسلامياً، فردياً وجماعياً، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بين الجماعة المسلمة.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾:

هذه كأصل وضابطة، والعفو تبصرة صالحة في مواردها حيث تقتضي الحكمة والرحمة و﴿ٱلْقِصَاصِ﴾ معرفاً تعريف بها كما شرعت، إيجابياً حين تقتضيه التقوى، وسلبياً حين تقتضيه تقوى أخرى، فـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تعمُّ المرحلتين، ﴿وَلَكُمْ﴾: الكتلة المؤمنة ككلّ ﴿فِي ٱلْقِصَاصِ﴾ بكلِّ حقولها في الأنفس والأطراف والأعراض والأموال ﴿حَيَوٰةٌ﴾ صالحة في كلِّ الحيويات النفسية والعِرضية والاقتصادية أماهيه ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ والعقول العميقة الخارجة عن قشورها الخاطئة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الممات في مختلف مسارحه المخلّفة من ترك ملاحقة المجرمين.

فمهما كان في عفو المجرم وترك ملاحقته أو التخفيف عنه ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ كأحوال جانبية مرهونة بمصالحها، ولكنما القصاص، كأصل وضابطة فيها حياة لأولي الألباب بل وسواهم: حياةٌ لأهل الحق كيلا يموت الحق وشفاءٌ لصدورهم من حقد فاتك ورغبة في الثأر الذي لم يكن يقف عند حدٍّ وكما نراه في واقعنا اليوم حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية في أجيال ولا تكف عن المسيل إذ لا تجد إلى القصاص السبيل.

وحياة للمجرمين كيلا يُكرِّروا إجرامهم حين لا يقتلون بقصاص، ففي القصاص تنبثق حياة من كفّ الجُناة عن الاعتداء ساعة الابتداء، فالذي يُوقن أنه يدفع حياته ثمناً لحياة من يقتله، جدير به أن يتروى ويكفر ويتردد فيرتد إلى عقله ولبه، وحياةٌ لهم أخرى في الأخرى حين يُقتلون أن يُصدَّ عن

إجرامهم، وحياةٌ لسائر المسلمين كيلا يجرموا أم يتخاذلوا أمام المجرم، وحياة لحكام الشرع إزالة للفوضى وإحياءً لروح الأمن والطمأنينة، وعلى الجملة حياة للمسلمين ككل[1] اللّهم إلّا فيما كان في ترك القصاص أو التخفيف عنه حياةٌ فـ ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

فالقشريون الذين لا ألباب لهم يفضلون ترك القصاص زعَم أنه رحمة وعاطفة إنسانية وذلك تفريط بحق القصاص، وآخرون مُفْرِطون يعملون الفوضى في القصاص، أم يجعلون عدل القصاص أصلاً لا يستثنى، وشريعة القصاص القرآنية عوان بين الإفراط والتفريط بشأنها، أصلاً كقانون حقوقي عام ﴿فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ وفرعا كتبصرة حين تقتضيها المصلحة فوق مصلحة القصاص: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾!

وهذه شرعة أولي الألباب، الذين يراعون كلّ جوانب المصلحة، فردية وجماعية.

فأين هذه البلاغة الأدبية والمعنوية البارعة على اختصار الآية وسائر تعبيرات البلغاء كـ: قتل البعض إحياءٌ للجميع - أكثروا القتل ليقل القتل، ومن أبلغها عندهم وأفصحها: القتل أنفى للقتل!

فـ ﴿الْقِصَاصِ﴾ هي أعمُّ من القتل، و﴿حَيَاةٌ﴾ تعمُّ كلّ مراحلها، ﴿وَلَكُمْ﴾ تعمُّ كلَّ المسلمين، و﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ تربط تلك الحياة العظيمة كحصيلة للقصاص بِحُكْمِ الألباب، خارجاً عن قشرية الرحمة وهمجية الهجمة غير العادلة، ولا تجد عبارة كهذه البالغة المدى، البليغة المعنى على

(١) نور الثقلين ١: ١٥٨ في الاحتجاج للطبرسي بإسناده إلى علي بن الحسين عليه السلام في تفسير الآية: ولكم يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في القصاص حياة لأن من همّ بالقتل يعرف أنه يقتص منه فكف لذلك عن القتل الذي كان حياة للذي كان همّ بقتله، وحياة لهذا الجاني الذي أراد أن يقتل وحياة لغيرهما من الناس إذ علموا أن القصاص واجب لا يجسرون على القتل مخافة القصاص ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البَقَرَة: ١٧٩] أولي العقول ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٩].

إيجازها طول تاريخ الحقوق وعَرضه، مما يجمع بين جمال التعبير وجلال المعنى وشموله لكافة المتطلّبات العادلة في حقل القصاص... وهنا ﴿فِى﴾ تعني ظرف القصاص وجوّه لا نفسه، فإن نفسها ليس حياةً وإنما فيها حياة، ثم وتنكير حياةٌ تفخيم لها وتوسعة لحقولها، و﴿ٱلْقِصَاصِ﴾ المعرف تعريف بما يقصه القرآن من قصاص عادلة يسمح فيها بالعفو بعضاً أو كلاًّ، ولا ينبئك مثلُ خبير بهكذا التعبير العبير.

فليس القصاص في شرعة القرآن انتقاماً جافاً جافياً وإرواء للأحقاد، بل هي في سبيل الحياة، واستحياء للقلوب واستجاشة لتقوى الله.

فليست لتقوم شرعة ولا حكومة أخرى بغير القصاص الخاص المنتهي بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ولا يفلح قانون ولا يتحرج متحرج، ولا تكفي التنظيمات الخاوية من روح التقوى صداً عن الطغوى.

فالتقوى هي التي تحمل القاتل على الاعتراف بالجريمة في محكمة الشرع كما حصل كراراً زمن الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام، فلقد كانت هنالك التقوى هي الحارسة اليقظة داخل الضمائر المؤمنة وفي حنايا قلوبهم، إلى جانب الشرعة النيرة البصيرة بخفايا القلوب.

فهل إن شرعة القصاص - بعدُ - همجية وجفاوة خلاف الحفاوة الإنسانية، كما تقول الحضارة المادية المتفرنجة: إذا كان القتل الأول فقداً فالثاني فقد على فقد، ثم وهو من القسوة وحب الانتقام، البعيدة عن ساحة الإنسان العطوف الرؤوف، وبالإمكان تأديب القاتل بما دون قتله.

ثم إن جريمة القتل ليست إلّا خلفية أوتوماتيكية لانحراف الروح ومرض النفس، فقضية الرحمة والحكمة - إذاً - أن يحوّل القاتل إلى مستشفيات الأمراض النفسية.

والجواب عن كلّ هذه الأقاويل الزور الغرور نجدهُ في آيات القصاص

﴿فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ - فـ ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

وهل إن فقداً واحداً على فقدٍ أفقد، أم فقد جماعةٍ إبقاءً للمجرم سجيناً أم سواه، ولا سيّما إذا اختلق له عذر المرض النفسي، مما يسمح لأي أحد أن يخوض في هذه الجريمة لغايات رديئة ثم يؤخذ في كل مرة إلى رياحة المستشفى النفسي؟.

وهل إن في قصاص القاتل المُتعمِّد جفاوة وخلاف رحمة، وليس في إبقائه يخوض في قتل آخرين جفاوة وخلاف رحمة؟.

إن في شرعة القصاص حفاظاً على حقوق الناس فُرادى وجماعات، ثم في العفو بموارده الصالحة تربية لنفوس مستهترة تقبل التربية والرجوع إلى عقلية صالحة، ولكن لا يجبر أولياء الدم على العفو فإنه سماح عن الحق الثابت لهم، مهما ينصح القرآن بالعفو في مصالحه.

ثم وهؤلاء المتحضِّرون الناقدون شرعة القصاص هل يتوقفون عن حروب مستأصلة لجماهير دفاعاً عن كيانهم في صالح الحيوية المادية، فهم أولاء يفتون بعدم سماح القصاص حفاظاً على أصل الحياة بمختلف حقولها، التي هي أم النواميس الواجب الحفاظ عليها بكلِّ الطاقات والإمكانيات.

أم هل يتوقفون عن إبادة جمع ظنوا أنهم يعزمون الثورة على الحكم؟ حتى يفتوا بحرمة قتل القاتل الفاتك حُرَم حياة الإنسانية!.

أم إنهم - على حيادهم المدّعى المزعوم لحياة الإنسان، بسنِّ مختلف القوانين - هل استطاعوا القضاء على جريمة القتل، وهي تزداد يوميّاً بينهم

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

بمختلف الأساليب الخبيثة الوحشية اللّاإنسانية! أفهم رُحماء على حياة الإنسان والإسلام من الأشداء عليها، الألدّاءِ لها، لأنه يسمح أن يُعتدى على المعتدي بمثل ما اعتدى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[1] فكما العفو مسموح بغيةَ الإصلاح، كذلك الجزاء لا يعني إلّا الإصلاح، أم ولأقل تقدير عدم إماتة الحق.

وهنا ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ لمحةٌ إلى حكمة الوقاية عن الجرائم المتوقَعة لولا القصاص، حصراً لها بحالة الوقاية عن تكرر الإجرام، وهذه طبيعة الحال في المجرم أنه حين يأمن الملاحقة بالمثل يتجرأُ على متابعة الإجرام، فلولا شرعة القصاص كضابطة لأصبحت الحياة بكلّ شؤونها متأرجفة، ولولا رحمة العفو كهامش على هذه الشرعة لما ظهرت التقوى في النفوس الأبيَّة السمحة، ولا استفاد المجرمون التائبون الآئبون من تلك السماحة الإيمانية، ففي القصاص أصلاً وفرعاً حياةٌ للجماعة المؤمنة، لعلهم يتقون محاظير تركها، أو السماح فيها، حيث ﴿ٱلۡقِصَاصِ﴾ المعرّف هنا هي التي تقبل العفو والسماح في مصالحه.

إذاً «ففي القصاص» إيجابياً كأصل وسلبياً كهامش وفرع ﴿حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠﴾:

الوصية هي التوكيل فيما لا يستطيع عليه الموكِّل، أم لا يناسب محتده وكيانه كوصايا الله سبحانه ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾[2] - ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١.

﴿أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾[١] فالوحي إلى كلِّ مكلف لا يناسب محتد الربوبية كما لا يليق به كلّ مكلف، فهنا الوصية إلى المرسلين ليبلغوا رسالات ربهم إلى كلِّ المرسل إليهم.

وهي في غير الله ظاهرة في وصية الموت حيث الحيّ لا يحتاج إليها في حياته لإمكانية تصرفه بنفسه إلّا شذراً، أم فيما يختص بآخرين كالوصية بالتقوى وما شابهها، ثم وهنا ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ تجعلها صريحة في وصية الموت.

وللوصية رباطات ثلاث بالموصي والموصى له والموصى إليه، ففي ذلك المُثلَّث تتحقق الوصية على شروطها، و﴿كُتِبَ﴾ هنا مما تفرض هذه الوصية فإنها صريحة في فرضها، متأبية عما يحوِّلها عنه إلى ندب أمّا شابه، من غير الفرض، ثم ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تؤكد فرضها، وليست التقوى راجحة حتى تلمح برجحان الوصية دون فرض، بل هي واجبة على أية حال، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ و﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٢].

ثم وآيات الفرائض تعبِّر عن الوصية بما يؤكِّد فرضها ثالثة، فقد تتكرر ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾[٣] ﴿يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾[٤] ﴿تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾[٥] بعد أصول الفرائض، فـ ﴿يُوصِى بِهَآ﴾[٦] دون «إن أوصى بها» مما تلمح كصراح.

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ١١.
(٤) سورة النساء، الآية: ١١.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٢.
(٦) سورة النساء، الآية: ١١.

«إن الوصية حق على كلِّ مسلم»[١] فكيف تنسخ آية الوصية بآيات الفرائض؟ و«نَسَختها»[٢] في بعض الروايات لا تعني إلّا نسخ الإطلاق، وكما نسخت ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ آيةَ الوصية[٣]، أي استثنت عنها الوصية

---

(١) وسائل الشيعة ١٣ : ٣٥١ ح ٢ صحيحة أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الوصية فقال: هي حق على كلّ مسلم، وعن أحدهما عليهما السلام أنه قال: . . . ومثله ما عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام وح ٦ محمد بن محمد بن النعمان المفيد في المقنعة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : . . . قال صاحب الوسائل والأحاديث الواردة في أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوصى وأن الأئمة عليهم السلام أوصوا كثيرة متواترة من طريق العامة والخاصة.

وفيه ٣٥٥ ح ٣ عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: من لم يوص عند موته لذوي قرابته ممن لا يرثه فقد ختم عمله بمعصيته، أقول: اختصاص من لا يرثه بالذكر لأنهم أحوج حيث يحرمون الإرث.

وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من لم يحسن وصيته عند الموت كان نقضاً في مروّته وعقله، قيل: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكيف يوصي الميت؟ قال: إذا حضرته وفاته واجتمع الناس إليه قال: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم، اللهم إني أعهدُ إليك في دار الدنيا أني أشهدُ أن لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك، وأن الجنة حق وأن النار حق وأن البعث حق والحساب حق والقدر والميزان حق وأن الدين كما وصفت وأن الإسلام كما شرعت وأن القول كما حدثت وأن القرآن كما أنزلت وأنك أنت الله الحق المبين، جزى الله محمداً وآل محمد بالسلام، اللهم يا عدتي عند كربتي وصاحبي عند شَدتي ويا ولي نعمتي إلهي وإله آبائي لا تَكِلْني إلى نفسي طرفة عين أبداً فإنك إن تكلني إلى نفسي أقرب من الشر وأبعد من الخير، فآنس في القبر وحشتي واجعل لي عهداً يوم ألقاك منشوراً. ثم يوصي بحاجته وتصديق هذه الوصية في السورة التي يذكر فيها مريم في قوله عزّ وجلّ : ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريَم: ٨٧] فهذا عهد الميت، والوصية حق على كلّ مسلم أن يحفظ هذه الوصية ويعلمها، قال أمير المؤمنين عليه السلام علمنيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علمنيها جبرئيل.

(٢) نور الثقلين ١ : ١٥٩ عن تفسير العياشي عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام في الآية قال: هي منسوخة نسختها آية الفرائض التي هي المواريث . . . أقول وهذا نسخ لإطلاقها ألا تصح الوصية بكلِّ ما ترك أم بما زاد عن ثلثه؟.

(٣) المصدر ٥٤٢ عن الكافي بسند متصل عن محمد بن سوقة قال: سألت أبا جعفر عليهما السلام عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ [البَقَرَة: ١٨١] قال: نسختها الآية التي بعدها قوله: ﴿فَمَنْ خَافَ=

المجانفة، فالنسخ وهو الإزالة قد تحلّق على المنسوخ ككلّ كما هو المصطلح، أم يقيِّد إطلاقه أو يخصِّص عمومه وهذا هو الأكثر استعمالاً في الأحاديث التي تحويه، والرواية اليتيمة المروية عن رسول الله ﷺ أن «لا وصية لوارث»(١) مختلَقة أو مؤولة بالوصية بما زاد على الثلث(٢)، ولكنه لا يختص بوارث! فهي لا توافق القرآن، وتعارضها المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وهم رواة رسول الله ﷺ الصادرون عنه دون خطأٍ ولا تجديف(٣).

ولقد احتجت بآية الوصية - فيمن احتج - الصديقة الطاهرة جمعاً بينها وبين آيات الإرث، فهل هي بعدُ منسوخة وبعد ارتحال الرسول ﷺ! دون أية حجة إلّا إجماعاً يدَّعى وروايات يتيمة تُروى لا حجة فيها أمام القرآن الناطق بفرض الوصية؟

فحتى لو تواترت الرواية على غير فرضها كانت مضروبة عَرْضَ الحائط،

= ﴿مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ [البَقَرَة: ١٨٢] فيما أوصى به إليه فيما لا يرضي الله به من خلاف الحق فلا إثم على الموصى إليه أن يرده إلى الحق والى ما يرضى الله به من سبيل الخير.

(١) الدر المنثور ١: ١٧٥ - أخرج أحمد وعبد بن حميد والبيهقي في سننه عن أبي أمامة الكابلي سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع في خطبته يقول: إن الله قد أعطى كلَّ ذي حق حقه فلا وصية لوارث، وفيه عن عمرو بن خارجة أن النبي ﷺ خطبهم على راحلته فقال: إن الله قد قسَّم لكلّ إنسان نصيبه من الميراث فلا تجوز لوارث وصية، وفيه أخرج عبد بن حميد عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ: لا وصية لوارث إلّا أن تجيزه الورثة.

(٢) الوسائل ٣٥٦ عن أبي حمزة عن بعض الأئمة عليهم السلام قال: إن الله تبارك وتعالى يقول: ابن آدم تطولت عليك بثلاثة: سترت عليك ما لو يعلم به أهلك ما واروك، وأوسعت عليك فاستقرضت منك فلم تقدم خيراً، وجعلت لك نظرة عند موتك في ثلثك فلم تقدم خيراً.

(٣) كما في صحيحة محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليهما السلام قال: سألته عن الوصية للوارث فقال: تجوز، قال: ثم تلا هذه الآية، وصحيحته الأخرى عنه عليه السلام قال: «الوصية للوارث لا بأس بها» ورواه صحيح أبي ولاد الحناط قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الميت يوصي للوارث بشيء؟ قال: نعم - أو قال: جائز له. (الكافي ٧: ٩).

فضلاً عن آحاد معارَضة بأكثر منها وأصح سنداً! وجواز الوصية في بعض الأحاديث يعني عدم الحظر عنه لأنها بوجود الوارث في مظان الحظر، أو يعني مضيَّها جوازاً وضعياً يضم جوازه تكليفياً، أم يعني رجحانها قبل حضور الموت، فإن فرضها حسب الآية خاص بما إذا حضر أحدكم الموت.

وبعد كلّ ذلك فآية المائدة في إشهاد الوصية - وهي آخر ما نزلت - تثبت الوصية بشهود لكي لا تفلت، وهل الوصية هذه المهمة إلّا للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين.

فقبل نزول آيات المواريث بفرائضها كانت الوصية في كلٍّ ما ترك من خير، ثم اختصت بقسم قدر في السنة بالثلث، وكما تصرح آيات الفرائض ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾.

فحقاً إنها تفرض الوصية كما آيات الفرائض تفرض الفرائض وتلمح - أيضاً - إلى فرض الوصية، والجمع بين الفرضين أن الأولى لا تعدو الثلث والثانية تخص الثلثين عند الأولى، أمّا زاد حين تنقص الوصية عن الثلث، أم الأثلاث الثلاثة إذ لا وصية وكلّ ذلك من بعد دين.

وترى ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ تعم قبيلي النساء والرجال؟ أجل وبطبيعة الحال فإن ترك خير وترك الوالدين والأقربين وأوامر الإنفاق، لا تختص بقبيل الرجال، إضافة إلى عموم التكليف حتى لو اختص اللفظ بقبيل الرجال، وأنّ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ تخاطب الذين خاطبهم من ذي قبل وهم كل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

ثم ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ لا تعني حالة الاحتضار لأنها حالة الغفوة والاستتار، والميت فيها منهار لا يستطيع أمراً عاقلاً باختيار! إنها تعني الحالات التي تُعتبر في كلٍّ الأعراف أنها حالات حضور الموت، لمّا قل الرجاء بالبقاء، دون الموت اليقين لأنه مجهول حتى حالة الاحتضار، فحين ينقطع الرجاء من الحياة فالوصية - إذاً - مكتوبة.

ولماذا الوصية مكتوبة هي خاصة بما إذا حضر أحدكم الموت؟ إذ إنه قبل حاضر الموت مسؤول شخصياً عن الوالدين والأقربين في نفقات واجبة وإنفاقات أخرى تحملها آيات، فلما يحضر الموت فلا يقدر شخصياً أن يعمل بواجبه تجاه الوالدين والأقربين فليوص لهم بما يجبر واجبه في حياته، ولا سيّما إذا هم ليسوا ممن يرث لحجب من كفر أو ارتداد أمّا شابه! لمكان الأمر ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[(١)] ومنه الوصية لهما، وكذلك من يرث ولا يكفيه نصيبه، أو يوفّر عليه لمرجح آخر ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وفرض الوصية هذه هو بطبيعة الحال خاص بما ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ من أموال وحقوق مالية أمّاهيه من خير كان يملكه وهي محسوبة من التركة، وخير عبارة عن التركة الموصى فيها هو ﴿خَيْرًا﴾ لشمولها الحقوق إلى جانب الأموال، واختصاصها بما تحصل عليها من حِلّه، وما تبقى عندك بعد إخراج الحقوق الواجبة فيه، وبعد إخراج الديون منه، فلا وصية - إذاً - في كلِّ ما ترك إذ ليس له إلّا خيره في نطاق الشرع، فكيف يوصي بما لا يملكه؟.

فهل إنه كلّ ما يتركه مما قلّ منه أو كثُر؟ وقليل المال ليس شيئاً يُذكر، كما وأن في الوصية به للأقربين ممن يرثُ فضلاً عمن لا يرث إضراراً بسائر أهل الفرائض، أو تقليلاً لميراث من هو خارج عن الوصية من الورثة[(٢)]، إذاً فـ ﴿خَيْرًا﴾ هنا هو المال الواسع الذي لا يؤول بوصيته إلى شرٍّ وضرٍّ، كما هو الحال في مُطلق الإنفاق زائداً على الفرض حال الحياة، أن يُنفق على الوالدين والأقربين بقدَر يقدِر به رزقَ عياله ويضيِّق عليهم، إذاً فـ ﴿خَيْرًا﴾

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٥.

(٢) الدر المنثور ١ : ١٧٤ عن عروة أن علي بن أبي طالب دخل على مولى لهم في الموت وله سبعمائة درهم أو ستمائة درهم فقال: ألا أوصي؟ قال: لا! إنما قال الله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ وليس لك كثير مال فدع مالك لورثتك.

تختلف من زمان إلى زمان، ومن بيئة إلى بيئة، ومن عائلة وارثة إلى عائلة، ليس يُحدَّد بحدٍّ خاص كضابطة سارية لما تصح فيه الوصية، فهو المال الذي يتحمل الوصية وهنالك وراث، دون أي مال توصي به وتَحرم الورثة المحاويج، إكثاراً على غيرهم أو توفيراً لبعضهم على بعض في غير ما حق ولا رجحان.

ثم ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ بعد الوالدين هم بطبيعة الحال الأولاد فنازلاً إلى سائر طبقات الوارثين وسواهم، و﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ إخراج عن حدَّي الإفراط والتفريط فلا تظلم فيها الورثة ولا تُهمل، وحدُّه في متواتر السنة الثلث، يوصي به أم أقل منه حسب العدل والنصفة، رعاية للأقرب والأحوج الأليق في ميزان الله، فإنهما من الموازين الثابتة في كافة الإنفاقات واجبة وراجحة.

وما شُرْعة الوصية بالثلث إلّا رعاية لأحوال المحاويج من الوالدين والأقربين، وارثين منهم وغير وارثين، فإن الورثة درجات حسب الحاجيات، والموازنة الصالحة بينهم في قدر الحاجات مقدرة في الثلث، والوصية بالمعروف هو العدل فيها حسب القرابة والحاجة، فكما الواجب على من عنده خير الإنفاق بالعدل على الوالدين والأقربين في حياته، كذلك عليه الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف، تسهيماً بالعدل من ثلث ماله أو ما لَه من حق، فإن الورثة وسواهم من الأقارب ضروب شتّى في الحاجة، فيسد ثغور الحاجات بالوصية الصالحة.

فقد شاء الله بفرض الوصية للوالدين والأقربين ألّا يُحرموا النصيب العدل، وليست سهام المواريث لهم ككلّ، لموانع أصيلة أو طارئة تحول دون الإرث، ثم وليست السهام المفروضة تحلق على مختلف المحاويج منهم، اللّهم إلّا ضابطة ثابتة روعي فيها الأحقية من حيث القرابة، وأما هي من حيث الحاجة فلا ضابطة فيها حيث الحاجات لا تنضبط تحت ضابط، ولا بدّ للموصي النظر الثاقب إليها والوصية الصالحة بحقها.

إذاً فالتقسيم العادل هو بين وصية الله بسهام المواريث ووصية المكلفين كما أمر الله للوالدين والأقربين بالمعروف، وهو صالح التقسيم سداً للثغور وتسوية من حيث الحاجات، إذاً فهذه الوصية واجبة كواجب سهام المواريث على سواء، ثم عن الوصية المحرمة في شرعة الله، ثم عن الوصية الفوضى غير المراعى فيها درجات القرابة والحاجة.

﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ حقاً على عواتقهم للوالدين والأقربين، فرضاً واجباً، كما ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾[1].

وقد تلمح صارحة بوجوب الوصية لهم، أنها إذا تركت أبدل عنها برزقهم إذا حضروا القسمة، وهم غير الوارثين، فضلاً عن الوالدين وأولي القربى الوارثين.

فهنا واجبات ثلاثة: واجب تطبيق السهام كما فرض الله، وواجب الوصية للوالدين والأقربين كما أمر الله بالمعروف، ثم واجب الرزق من الميراث لمن يحضر من أولي القربى واليتامى والمساكين.

كلُّ ذلك حفاظاً على حقوق المحاويج الذين كان لهم نصيب طول حياة الموصي، ما أمكن له من إنفاق عليهم، تقديماً لجانب الأقربين ثم سائر القرباء على مراتبهم، ثم اليتامى والمساكين وابن السبيل.

فـ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ في حقل الوصية هو نفسه المعروف في كلّ حقول الإنفاق.

وترى أن الأقربين هم فقط أقارب النسب؟ والأزواج هم من أقرب الأقربين مهما كانت قرابتهم بالسبب؟ إطلاق الأقربين يشملهم دون ريب

(١) سورة النساء، الآيتان: ٨، ٩.

حيث القرابة السببية قرابة كما النسبية، فمهما كانت القرابة النسبية أثبت، فإن القرابة السببية أربط، فهما إذاً قرابتان مهما اختلفتا في الثبت والربط.

ثم ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ تحصر فرض الوصية بحضور الموت، ولا تمنع عن رجحانها قبلَه كما تظافرت به الروايات، كما ولا تحصر أصل الوصية بالوالدين والأقربين، وإنما هم يقدَّمون على من سواهم، أم أنهم أعمّ من قرابتَيِ النسب والسبت، أن يشملوا قرابة الأُخوَّة الإسلامية، مع رعاية الأقرب والأحوج، ثم الإشهاد على الوصية واجب في واجب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)﴾[١].

ثم في الوصية أحكام أخرى قد تأتي بطيّات آياتها الأخرى كما تُناسبها إن شاء الله تعالى.

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)﴾:

أترى ضمير الذكر إلى مَ يرجع؟ أهو الوصية لأنها مؤنث مجازي جائز الوجهين؟ ولا وجه للمذكورة لسابق المرجع المؤنث المجازي! ولا أن الوصية تبدّل في نفسها إثماً لأنها فعل الموصي وله تبديلها إذا شاء وفق

(١) سورة المائدة، الآيات: ١٠٦-١٠٨.

المصالح المتجددة! إنه حكم الله في الوصية أن يبدل من واجبها إلى ندبها، وأصل الوصية أن تترك، ومادة الوصية الحاصلة أن تبدل، أماذا مما فرضت في هذه الآية.

فـ ﴿بَدَّلَهُۥ﴾ تعمُّ كلّ تبديل موضوعي أو حكمي، بعضاً أو كلّاً، كتابةً أم شهادة أم واقعية، سواءٌ أكان مبدِّله - أياً كان المبدَّل - وصيّاً أو شاهداً أم ثالثاً، أو جلَّهم أم كلَّهم، فهو - إذاً - تبديل مطلق أو مطلق تبديل، فالمعنى فمن بدل ما ذكر من الأمر بالوصية ومن مادتها ومن تطبيقها فإنما. . .

فمن ذلك التبديل تبديل الحكم المكتوب في الوصية ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ إلى الندب، فتوى فالإثم - إذاً - على المقلَّد حين لا يعلم المقلّد خطأه.

ومنه تبديله عملياً ممن يعرف وجوب المكتوب ثم لا يوصي، كما منه تبديل كتاب الوصية تمزيقاً أو تغييراً من أيٍّ كان.

كلّ ذلك تشمله ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ مهما اختلفت دركاته كما تختلف درجات الوصية بالمعروف!.

﴿بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ كذلك تعمُّ سماع حكم الله في بُعدي فرض الوصية وتنفيذها، أم سماع الوصية، والسماع هنا لا يُحدَّد بنفسه، إنما هو الذريعة المتعوّدة للعلم، إذاً فهو العلم كيفما حصل بأيٍّ من حلقات الوصية حكماً وتنفيذاً ومادة وكيفية، فلا تبديل في ذلك الحقل لأيٍّ من جنبات الوصية، اللّهم إلّا من الموصي وهو خارج عمن بدّله.

ثم ﴿فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ تحصر إثم التبديل على من بدّل، فقد يحاول الوصي تطبيق الوصية كما هي والشاهد يبدلها، أو الشاهد يشهد لها كما الوصي ثم الوكيل أو الورثة أمّن هو ممن له مدخل إلى حقل الوصية، هو الذي يبدله، فلا إثم - إذاً - على من سبقه حيث طبَّقه، ولا على الوصي حين أوصى كما يجب.

و﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ الوصيةَ والشهادةَ، وسميع قول من بدلّه ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يُخفي أو يُعلن، فتبديل الوصية الصالحة في كلٍّ مواقفها إثم مهما اختلفت دركاته حسب مختلف التبديل، حتى إن أوصى بمالٍ له ليهودي أو نصراني(1) ما لم يكن في أصل الوصية محظور.

---

(1) نور الثقلين ١ : ١٦١ عن الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن الريان بن شبيب قال: أوصت ماردة لقوم نصارى بوصية فقال أصحابنا: أقسم هذا في فقراء المؤمنين من أصحابك فسألت الرضا عليه السلام فقلت: إن أختي أوصت بوصية لقوم نصارى وأردت أن أصرف ذلك إلى قوم من أصحابنا المسلمين فقال: امض الوصية على ما أوصت به قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ [البَقَرَة: ١٨١] وفيه عن أبي سعيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سُئل عن رجل أوصى بحجة فجعلها وصية في نسمة؟ فقال: يغرمها وصية ويجعلها في حجة كما أوصى به فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ [البَقَرَة: ١٨١] وفيه عن حجاج الخشاب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن امرأة أوصت إلي بمال أن يجعل في سبيل الله فقيل لها: أيحج به؟ فقالت: اجعله في سبيل الله، فقالوا لها نعطيه آل محمد صلى الله عليه وآله؟ قالت: اجعله في سبيل الله فقال أبو عبد الله عليه السلام: اجعله في سبيل الله كما أمرت، قلت: مرني كيف أجعله؟ قال: اجعله كما أمرت إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ [البَقَرَة: ١٨١] أرأيتك لو أمرتك أن تعطيه يهودياً كنت تعطيه نصرانياً؟ قال: فمكثت ثلاث سنين ثم دخلت عليه فقلت له مثل الذي قلت له أوّل مرة، فسكت هنيئة ثم قال: هاتها، قلت: من أعطيها؟ قال: عيسى شلقان أقول: في سبيل الله في عرف ذلك الزمان - كما هو ظاهر الحديث - تعني الجهاد، وصحيح محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل أوصى بما له في سبيل الله؟ فقال: أعطه لمن أوصى به وإن كان يهودياً أو نصرانياً إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ [البَقَرَة: ١٨١].

أقول: كل ذلك إذا كانت الوصية لغير المسلم من المعروف تأليفاً لقلوبهم أو مودّة إليهم كما قال الله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ - إلى قوله - أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ [المُمتَحنَة: ٨] والوصية برّ، وهو يعمّ الموت والحياة. ذلك! فضلاً عمن لا يعرف هذا الأمر موصى إليه أو موصياً كما رواه المشايخ الثلاثة عن يونس بن يعقوب أن رجلاً كان بهمدان ذكر أن أباه مات وكان لا يعرف هذا الأمر فأوصى بوصية عند الموت وأوصى أن يُعطى في سبيل الله فسُئل عنه أبو عبد الله عليه السلام كيف يفعل به؟ فأخبرناه أنه كان لا يعرف هذا الأمر فقال: لو أن رجلاً أوصى أني أضع في يهودي أو نصراني لوضعته فيهما إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ [البَقَرَة: ١٨١] فانظر إلى من يخرج إلى هذا الوجه - يعني بعض الثغور - فابعثوا به إليه. (الوسائل ٦٧٠ من الوصايا) أقول: والأحاديث الواردة في المنع عن إشباع كافر محمولة =

ولماذا ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ ومن يقبل ذلك التبدل أو لا يُعارض المبدل وهو عارف بالوصية هما أيضاً آثمان؟ لأن إمكانية المعارضة وواقع القبول، أنهما ليسا في كلِّ الأحوال، ثم إثم القابل وغير المعارض هو على هامش إثم المبدل، فهو - إذاً - آثم لقبوله الإثم أو تركه النهي عنه، كما تدل عليه ادلة وجوب النهي عن المنكر.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾:

الجَنَف خلاف الحَنَف هو الميلُ عن الحق، والإثم هو التباطؤ عن الخير، ثم ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ ليس إلّا خوفاً عن واقعهما، لا الذي يخاف أن يقع، فإن خوف وقوعهما لا يُفسد حتى يصلح بينهما، فهي كخوف نشوز الزوجين: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ...﴾[(١)] ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾[(٢)].

فالوصية ثلاث: وصيةٌ بالمعروف فلا تبديل فيها، ووصيةٌ بجنفٍ أو إثمٍ أو غير مخيف، فالواجبة هي الأولى ﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والمحرمة هنا هي المخيفة بجنفها أو إثمها، فلا إثم في ردِّها إلى المعروف بل هو مفروض فإن تطبيق الإثم إثم، وترك تطبيق الوصية عن بكرتها إثم، فلتحول إلى غير ما إثمٍ أو جنف.

ثم عوان بينهما هي بجنف أو إثم لا خوف فيهما من اختلاف بين الورثة أو تخلُّف منهم عن شرعة الله، وهي بين تضييع لحق الورثة ولكنهم يوافقون

= على موارد الحظر، فإن من المؤلفة قلوبهم كفاراً تُمال قلوبهم إلى الإسلام ولهم نصيب من الصدقات حسب النص في آيتها!.

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٨.

فتُمضى، أم تضييع لحق الله كالوصية بما لا يجوز فعله، فهي إثم يخيف على أية حال فلا تُمضى، إذاً فكلُّ وصية بالمعروف تُمضى، وسواها بين ما تمضى - كما في حق الورثة المتوافقين - أم لا تمضي كما في كلِّ عصيان في غير حقوق الناس.

هنا ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ يرتكن على ما فيه جنف أو إثم يُخيف بالنسبة للورثة من اختلاف عارم غير محمول، وليس ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ﴾ فقط سلباً لإثم، بل هو إيجاب للإصلاح، و﴿فَلَآ إِثْمَ﴾ كـ ﴿لَّا جُنَاحَ﴾[1] في آية الصفا واردٌ موقف الحظر السابق ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ فلأن فرض الإصلاح وارد لا ريب فيه، وإنما يخيَّل فيه إثم لسابق الحظر، فيرجع ذلك الإصلاح - بعد أن لا إثم فيه - إلى أصله المفروض.

فمن الجَنَف المخيف «إذا اعتدى في الوصية إذا زاد على الثلث»[2] ومن الإثم «أن تأمر بعمارة بيوت النيران واتخاذ المسكر فيحل للوصي أن لا يعمل بشيء من ذلك»[3]، وكضابطة عامة إذا كان في الوصية جَنَف بحق الناس يُخيف فلا بدّ من الإصلاح بينهم، وإلّا فهي ممضاة حين يوافق

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٦.

(٢) نور الثقلين ١ : ١٦١ في العلل بسند عن يونس بن عبد الرحمن رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: إذا اعتدى . . .

(٣) المصدر في الكافي عن محمد بن سوقة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ [البَقَرَة: ١٨١] قال: نسختها الآية التي بعدها قوله: ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٢] قال: يعني الموصى إليه إن خاف جنفاً فيما أوصى به إليه فيما لا يرضى الله من خلاف الحق فلا إثم على الموصى إليه أن يرده إلى الحق وإلى ما يرضي الله به من سبيل الخير.

وفيه عن تفسير القمي قال الصادق عليه السلام: إذا أوصى الرجل بوصيته فلا يحلّ للوصي أن يغيرّ وصيته يوصيها بل يمضيها على ما أوصى، إلّا أن يوصي بغير ما أمر الله فيعصي في الوصية ويظلم، فالموصى إليه جائز أن يرده إلى الحق مثل رجل يكون له ورثة فيجعل المال كله لبعض ورثته ويحرم بعضاً فالوصي جائز أن يرده إلى الحق وهو قوله ﴿جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ [البَقَرَة: ١٨٢] فالجنف الميل إلى بعض ورثتك دون بعض والإثم أن تأمر . . .

أصحاب الحق، وإذا كان فيها إثم وهو الجنف بحق الله، فهو على أية حال مخيف، فكما الإثم - أياً كان - لا يُمضى، كذلك الوصية بالإثم ليست لتمضي.

إذاً ﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ﴾ في ﴿جَنَفًا﴾ هو الإصلاح بين أهل الحق، إما ردّاً إلى الحق أو حملاً لهم على أصل الوصية، وأما الإصلاح في ﴿إِثۡمًا﴾ فلا يعني إلّا رد الوصية، فإنها على أية حال تعمل خلافاً بين الموصى له والورثة، ويختص الإصلاح بينهم برد الوصية، مهما كان بإرضاء الموصى له بإثم، أن يُعطى مالاً يرضاه.

إذاً فضابطة الوصية الممضاة ألا تخيف بجنف أو إثم، وهنا يأتي دور الإصلاح بين الموصى له وسائر الورثة، وحين لا إفساد ولا يُخاف منه فلا موقع لإصلاح فلا ردَّ للوصية، اللهم إلّا في الإثم فإنه مخيف على أية حال، أو يقال ليس خوف جَنَف أو إثم إلّا مصداقاً بارزاً هنا لواجب الإصلاح، إصلاحاً بين الورثة أنفسهم أو بينهم وبين الموصي في إثم الوصية بحقهم، وأما الجنف فإصلاحه محوه[١].

فحتى إذا لم يكن الجنف مُخيفاً - وهو مُخيفٌ بطبيعة الحال للمؤمن - فواجب النهي عن المنكر يفرض إصلاح الوصية.

إذاً فـ ﴿جَنَفًا أَوۡ إِثۡمًا﴾ تحلقان على كلِّ جنفٍ وإثمٍ حيث يخاف منهما إيمانياً، وبين الجنف والإثم عموم من وجه يتلاقيان في الوصية بالمحرم الذي فيه إثم وتبعة الخلاف بين الورثة، ثم قد تكون الوصية جنفاً غير إثم لا تبعة فيه بين المعنيين بالوصية، أو إثماً غير جَنَف كما أوصى بِحِلٍّ ولكن دون رعاية الأقربية والأحوجية ولا مرجح غيرها كمزيد الإيمان.

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٧٥ - أخرج أبو داود في مراسيله وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عائشة عن النبي ﷺ : . . .

فروع حول الوصية:

١ - إذا أوصى بمال لمن يرثه دون تسهيم، أم لمن لا يرثه لحاجب الطبقة الوارثة ولكنهم وارثون أصالة لأنهم من طبقات الإرث، فكيف يُقسَّم الموصى به؟.

هنا التقسيم كما فرض الله في الفرائض: للذكر مثل حظ الأنثيين، أمّاذا من تسهيمات مستفادة من الكتاب والسنة، فإن الوصية في الثلث تقدَّر بقدرها تسهيماً إن قررّ لكلّ من الموصى لهم، أم إلى ما فُرض لهم إن ورثوا، إن كانوا من غير الطبقة، كما في صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في رجل أوصى بثلث ماله في أعمامه وأخواله؟ فقال: لأعمامه الثلثان ولأخواله الثلث[1].

أقول: ذلك إلّا أن يظهر من كلامه التسوية بينهم، فإنه يقدم على مقدرة السهام.

٢ - هل تجوز الوصية بمالٍ دون قبول من الموصى له؟ ظاهر الآية هو الجواز والمضي، اللهم إلّا أن يُرد الموصى به، لأنه هبة تحتاج إلى قبول، أم ولأقل تقدير إن لم يُردّ، وإطلاق الآية لا يقتضي إلّا عدم شرط القبول، وأما جوازها مع الردّ فلا، والصحيحة السابقة مما تدل على عدم اشتراط القبول، فقد تكون الوصية بين عقد وإيقاع، إيقاع لجوازها دون قبول، وعقد

(١) الفقيه ٥٣٠ رقم ١، ويؤيده ما روي عن سهل عن أبي محمد عليه السلام في حديث: وكتبت اليه: رجل له ولد ذكور وإناث وأقر لهم بضيعة أنها لولده ولم يذكر أنها بينهم على سهام الله عزّ وجلّ وفرائضه، الذكر والأنثى فيه سواء؟ فوقع عليه السلام ينفذون فيها وصية أبيهم على ما سمّى فإن لم يكن سمّى شيئاً ردّوها إلى كتاب الله عزّ وجلّ إن شاء الله تعالى، (الكافي ٧: ٤٥ والتهذيب ٣: ٣٩٣ والفقيه ٥٣٠).

لردِّها بالردِّ، فهي - إذاً - برزخ بينهما، حيث الآية والصحيحة تدلان على جوازها دون شرط القبول، ثم لا دليل على اشتراط القبول وإنما هو على نفاذ الردِّ إن ردَّها الموصى له، ومما يؤكد عدم اشتراط القبول صحيح عباس ابن عامر قال: سألته عن رجل أوصى بوصيته فمات قبل أن يُقبضها ولم يترك عقباً؟ قال: اطلب له وارثاً أو مولى نعمة فادفعها إليه، قلت: فإن لم أعلم له ولياً؟ قال: اجهد على أن تقدر له على ولي فإن لم تجده وعلم الله منك الجدّ فتصدق بها[1]، فإن عدم الاستفصال في قبول الموصى به وعدمه دليل عدم اشتراطه.

٣ - هل تجوز وصيته في الثلث بعد ما جرح نفسه أو فعل ما فيه موته؟ ظاهر الآية نعم لإطلاق ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ بل إن المقصر في مصيبة موته أحرى من القاصر فيها أن يوصي لعله يجبر من تقصيره، والصحيح في عدم جواز وصيته لا يستطيع على تقييد الآية بهذه الطلاقة الطليقة[2].

٤ - هل يجوز أن يرجع عن وصيته صحيحاً أو مريضاً، في مرض الموت وسواه؟ طبعاً نعم لأنها ليست عقداً لازماً لا رجوع فيه، اللّهم فيما وهب لقريب له بالمعروف فلا يجوز الرجوع عنه، وفي سواه يجوز الرجوع إلى الأقرب معروفاً، وأما إلى غير المعروف أو أن يترك الوصية المعروفة إلى تركها عن بكرتها فلا لأنه خلاف واجب الوصية وقد فعله، فكيف يصح

(١) الفقيه ٥٣٠ - ٤ والاستبصار ٤: ١٣٨ والتهذيب ٣: ٣٩٧.

(٢) هو صحيح أبي ولاد سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من قتل نفسه متعمداً فهو في نار جهنم خالداً فيها قيل: أرأيت إن كان أوصى بوصية ثم قتل نفسه متعمداً من ساعته تنفذ وصيته؟ قال فقال: إن كان أوصى قبل أن يحدث حدث في نفسه من جراحة أو فعل لعلّه يموت أجيزت وصيته في الثلث وإن كان أوصى بوصية بعدما أحدث في نفسه من جراحة أو فعل لعلّه يموت لم تجز وصية (الوسائل كتاب الوصايا ب ٥٢ ح ١) أقول: علّه بطلّ وصيته لحكمه عليه بخلود النار فهو إذاً كافر ووصية الكافر غير نافذة.

تحويل الواجب عما حصل؟ والمعتبرة في سماح الرجوع عن الوصية مخصوص بما سوى هذه الموارد[١].

٥ - هل تجوز الوصية بما زاد عن الثلث إن لم يجزها الورثة؟ آية الوصية الطليقة قد تحمل الجواز، ولكن «بالمعروف» فيها تقيد الوصية بما يتحمله الورثة، ثم الجنف والإثم تقيد أنها بغيرهما، ومن ثم آيات الفرائض تفرض ميراثاً بعد الدين والوصية، فلا تجوز الوصية في المال كلِّه، ومُتواتر الروايات تُحدِّدها بما لم تزد على الثلث، فالرواية القائلة بجوازها في المال كله[٢] خلاف الكتاب والسنة، وإن كانت تجوز في كلِّ المال أو جلّه بإجازة الورثة كما في المعتبرة، ولأن المال حقهم فلهم التنازل عنه قدر ما يسمحون.



(١) كما في موثق بريد بن معاوية عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لصاحب الوصية أن يرجع فيها ويحدث في وصيته ما دام حياً» وصحيح محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام المدبر من الثلث وقال: «للرجل أن يرجع في ثلثه إن كان أوصى في صحة أو مرض» (الكافي ٧: ٢٢) ورواه مثله عبيد بن زرارة عنه عليه السلام.

(٢) هي رواية عمار الساباطي عن الصادق عليه السلام قال: «الرجل أحق بماله ما دام فيه الروح إن أوصى به كله فهو جائز له» (الفقيه ٥٢٧).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

آيات خمس تتكفل بيان فرض الصوم بشروط وجوبه أو السماح له، وكذلك حرمته في غيرها، اللّهم إلّا آية الدعاء، ولكنها أيضاً لها صلة وثيقة بزمن الصيام سؤالاً ودعاءً في أيامه ولياليه، ولقد كان فرض الصوم - على هذه الأمة المفروض عليها مختلف الجهاد في سبيل الله - كان فرضاً طبيعياً لزاماً عليها لتقرير المسير الشائك الطويل الطويل، تقريراً لعازم الإرادة وثابت الجزم انفصالاً عن شهواتها وأريحيَّاتها!، واتصالاً روحياً بربها، فإنه مجال الاستعلاء على ضرورات الجسد، واحتمال لضغوطها وأثقالها، إيثاراً لما عند الله، واتقاء عما لا يرضاه الله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٨٣﴾:

أترى فرض الصيام هو «للمؤمنين خاصة»؟[1] حيث الخطاب هنا يخصهم، أم «تجمع الضُّلّال والمنافقين وكل من أقر بالدعوة الظاهرة»؟[2] وصفة الإيمان خاصة بمن دخل الإيمان قلبه: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾[3]!

إنه لواقع الاتّباع فرض المؤمنين خاصة حيث المنافق وسواه، ممن أقرّ بالدعوة الظاهرة، ليس ليتبع أمر الله إلّا أحياناً مصلحيَّة الحفاظ على ظاهرة الإسلام، أو نَظِرَة أن يُسلم ولمّا.

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٦٢ عن تفسير العياشي عن البرقي عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزّ وجلّ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣] قال: هي للمؤمنين خاصة.

(٢) المصدر عن المصدر عن جميع بن دراج قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الآية قال فقال: «هذه كلها تجمع . . ».

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

ثم إنه لعموم التكليف فرضٌ على كل من أقرّ بالدعوة الظاهرة، بل ومن لم يقر بها، حيث الكفار، مكلّفون بالفروع تكليفهم بالأصول، وخطاب الإيمان - إذاً - ناظر إلى مختلف مراحله حيث يعم المسلم الذي لمّا يدخل الإيمان في قلبه، والمنافق المشرك في باطنه، وقد سماهم كلهم ربهم بسمة الإيمان: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1] حيث تعم شرك النفاق إلى جانب شرك الرياء.

فـ ﴿ءَامَنُوا﴾ هناك كما هنا تشمل كل مراتب الإيمان، إقراراً باللسان وتصديقاً بالجنان وعملاً بالأركان، و«لم تؤمنوا» ردّاً على مسلمي الأعراب، سلب لإيمان القلب دون مطلق الإيمان، فالمؤمن بقلبه يتأثر بخطابه قضية الإيمان، والمسلم البدائي ولمّا يدخل الإيمان في قلبه يتأثر به حباً للإيمان ومغبة دخوله في قلبه، والمسلم المنافق يتأثر ظاهرياً رغم أنفه بغية التحسب من المسلمين، وقد يتقدمهم في مظاهر الإيمان تثبيتاً لدعواه، فحين يقرن الإيمان بالإسلام أو بما هو قرينة لخاصة الإيمان فهو إيمان القلب ثم الجوارح، وأما حين يطلق دون قرين ولا قرينة فهو شامل لمثلث الإيمان، حيث الجامع بينها الإيمان باللسان، ومهما غلب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في الذين آمنوا بقلوبهم - وهم الذين يتطوعون عمل الإيمان - ولكنه يحلّق على كل من أقر بالدعوة الظاهرة.

ثم المماثلة هنا في ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ لا تعني إلّا المماثلة في أصل الكتابة في مطلق الصيام أم هو القدر المعلوم منها، حيث النص «كتب كما كتب» لا أنه صيام كصيام، فضلاً عن أيامه المعدودات، فقد تصدق الرواية القائلة باختصاص فرض صيام الإسلام بأمته وكل الرسل قبل رسول الإسلام ﷺ

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

دون أممهم، مهما كان لهم صيام بكيفية أخرى وأيام أخَر، و«أولهم آدم عليه السلام»[١].

فـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ تعم كافة الرسل والمرسل إليهم طول تاريخ الرسالات، فرضاً للصيام عليهم ككل، مهما اختلفت شكلياته بين الأمم، واتحدت بين الرسل كما لهذه الأمة المرحومة برسولها: «ثم آثرتنا به على سائر الأمم واصطفيتنا دون أهل الملل، فصمنا بأمرك نهاره وقمنا بعونك ليله»[٢].

وليس ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ هم الرسل فقط، حيث التنظير كما هو بين

(١) تفسير الكشاف ١: ١٦٩ قال علي عليه السلام أوّلهم آدم.
(٢) نور الثقلين ١: ١٦٣ عن الصحيفة السجادية تعريفاً بصوم رمضان، وفيه عمن لا يحضره الفقيه روى سليمان بن داود المنقري عن حفص بن غياث النخعي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن شهر رمضان لم يفرض الله صيامه على أحد من الأمم قبلنا، فقلت له فقول الله عز وجل: ﴿... كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣]؟ قال: إنما فرض الله صيام شهر رمضان على الأنبياء دون الأمم ففضل الله به هذه الأمة وجعل صيامه فرضاً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى أمته.
وفيه عن الخصال عن علي عليه السلام قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأله أعلمهم عن مسائل فكان فيما سأله أن قال: لأي شيء فرض الله الصوم على أمتك بالنهار ثلاثين يوماً وفرض على الأمم أكثر من ذلك؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة بقي في بطنه ثلاثين يوماً ففرض الله على ذريته ثلاثين يوماً ففرض الله على أمته ثلاثين يوماً الجوع والعطش والذي يأكلونه فضل من الله تعالى عليهم وكذلك كان على آدم ففرض الله تعالى ذلك على أمتي ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية قال اليهودي صدقت يا محمد.
وفيه عن الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لما حضر شهر رمضان وذلك في ثلاث بقين من شعبان قال لبلال: ناد في الناس فجمع الناس ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن هذا الشهر قد خصكم الله به وحضركم وهو سيد الشهور.
أقول في الرواية الثانية مجالات من النظر والنقد منها كيف يؤخذ ولد آدم أو أمته وأمة الإسلام فقط بما عصى في أكله من الشجرة، ثم كيف استثنيت أمة آدم مع أمة الإسلام دونما فضل لهم على الأمم الوسطى، وكيف يكون «الذي يأكلونه فضل» ونفس الصيام من أفضل الفضل لمكان ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ...﴾ [البَقَرَة: ١٧٩] وكذلك الأولى تفسير للذين من قبلكم بالأنبياء.

الكتابتين كذلك هو بين المكتوب عليهم، ثم ولا يطلق ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ على الرسل إلّا باتحاد التكليف، فهم - إذاً - مؤمنوا الأمم السابقة ومعهم رسلهم، ففرض الصيام يشملهم كلهم مهما اختص رسلهم بصيامنا تشريفاً لهم كما هو تشريف لنا.

والصيام في ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ هو مطلق الصيام وليس هو الصيام المكتوب علينا، فإنما كتابة ككتابة، وصيام كصيام في أصله، وأما في كمه وكيفه فلا كما وتدل عليه: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

ثم الصوم لغوياً هو مطلق الكفّ عن مشتهيات، وليس الكفّ المطلق عنها فضلاً عما سواها فإنه كفّ عن الحياة، فكل إمساكٍ عن أي مشتهىً صوم، فصوم اللسان إمساكه، وصوم سائر الجوارح والجوانح إمساكها عما يتعوّده من حاجيات، فـ «صامت الريح» إذا ركدت، وصام الفرس إذا قام على غير اعتلاف، وبكرة صائمة إذا قامت فلم تَدُر، ومصامُّ الشمس استوائها في منتصف النهار، وهكذا كل سكون عن حراك هي لزام الكائن هو صومه، ولم يرد منه في القرآن إلّا صوم الإسلام، وصوم الصمت في شرعة التوراة: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[1].

هذا! ولكنه لا يكفي تنظيراً لكلفة الصوم المفروض على المؤمنين في هذه الشرعة الأخيرة، فإن كلفة الكف عن مشتهيات البطن والفرج أكثر من كلفة الصمت، ثم «صوماً» دون «الصوم» قد تلمح أنه كان من صومهم الذي قد يفرض بنذر أمّا شابه، أما أن صومهم محصور فيه فلا، فليكن لهم صوم هو في كلفته كصومنا أو أكثر منه فإن شريعتنا سهلة سمحاء.

هذا ولكن تفريع «فلن أكلم اليوم» على الصوم لا يدل على أكثر من أن

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢٦.

من صومهم ما فرض عليهم الصمت عن كلام البشر، لا إنه صوم خاص، فقد يكون صوماً فيه واجب الصمت عن كلام البشر كما الإمساك عن الأكل والشرب وما أشبه، ولا يهون التكليف على أمة إلّا بما كُلِّفت أمم قبلها مثلَه أم زاد، فلنفتش عن صيام الذين من قبلنا؟ فإليكم خاصراً غير حاصر من صيام العهدين:

«إنه كان من الطقوس المتعوَّدة بين كافة المليين معمولاً عندهم في البأساء والضراء غير المترقبة (يونس ٥: ٣) ولقد صام موسى وإيليا والمسيح عليهم السلام أربعين يوماً (تث ٩: ٩ - ١ ملوك ١٩: ٨ مت ٤: ٢) واليهود كانوا يصومون إظهاراً للمسكنة وتخضعاً عند الله واعترافاً بخطاياهم وتوبة إلى الله بغية مرضاة الله (داود ٢٠: ٢٦ واسمو ٧: ٦ و٢ سمو ١٢: ١٦ نح ٩: ١ - ١، ٣٦: ٩) ولا سيما عند المصائب كانوا يصومون ويصوِّمون الرضَّع بل والحَيَوان (يوئيل ٢: ١٦ - دا ١٠: ٢، ٣) بداية الصوم عندهم إمساكاً عن الأكل والشرب كان منذ غروب الشمس إلى غروب ثان وذلك هو الصوم الأعظم لكل سنة مرة مرسومة عندهم (اع ٢٧: ٩) وكانوا يصومون أياماً كذكرى لانهدام أورشليم (ار ٣٩: ٢ و٥٢: ١٢ - ١٤ زك ٧: ٣ - ٥) وكان الأتقياء منهم يصومون كل أسبوع يومي الثاني والخامس (لو ١٨: ١٢) ولقد قال المسيح عليه السلام إن تلاميذه سوف يصومون بعده (لو ٥: ٣٤ و٣٥) فحياة الحواريين - إذاً - والمؤمنين كانت حياة نكران اللذات والمشتهيات، والصيامات (٢ قر ١١: ٢٧) ولقد كان السيد المسيح يصوم، والحواريون عند اللزوم (مت ٦: ١٦ - ١٨ - اع ١٣: ٣) فالصوم عونٌ للتوبة والقدسية والتقوى (اش ٥٨: ٤ - ٧)...» ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ذلك هو المذكور في العهدين دون ضمان لصحتها بخصوصياتها، اللّهم إلّا أصلاً شاملاً هو الصيام المكتوب على اليهود والنصارى بأسباب عدة

واجبة أو مستحبة وصيغة «الصيام» دون «الصوم» هنا مما تدل على زائد المعنى المُرام، فإنها فِعال مصدراً للمفاعلة، وأصلها «الصِوام» وصيغتها الأخرى «المصاومة والصِوام».

فهي مصاومة بين الصائم وصومه، فالصائم يكف عن نفسه ما يكف، ونفس الكف يكفه زائداً عما يكف، فهو تعبير آخر عن «تتقون» فما حافظت على صيامك يحافظ عليك صيامك.

فالصيام هو قضية الإيمان حيث يخاطَب به المؤمنون، يعم كل حقول الإيمان طول الزمن الرسالي، ومن قضيته المرموقة العالية هي التقوى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ذلك الاتقاء كخلفية مرجوّة للصيام يعم كل المحاظير روحية وجسدية، فردية وجماعية، دنيوية وأخروية أمّاهية من حقول التقوى المفروضة على المؤمنين، وقد نجدها ككلٍّ في الأحاديث المستعرضة لحِكَم الصيام وفوائده وعوائده فـ: «صوموا تصحوا»[١] صحة في الأرواح والأبدان فـ«لكل شيء زكاة وزكاة الأجساد الصيام»[٢] و«ليجد الغني مضض الجوع فيحنو على الفقير»[٣] و«لكي يعرفوا ألم الجوع والعطش فيستدلوا على فقر الآخرة وليكون الصائم خاشعاً ذليلاً مستكيناً مأجوراً محتسباً عارفاً صابراً على ما أصابه من الجوع والعطش فيستوجب الثواب مع ما فيه من الإمساك عن الشهوات ويكون ذلك واعظاً لهم في العاجل ورائضاً لهم على أداء ما كلفهم ودليلاً لهم في الآجل، وليعرفوا شدة مبلغ ذلك على أهل الفقر والمسكنة في الدنيا فيؤدوا إليهم ما افترض الله لهم في أموالهم»[٤].

---

(١) الدر المنثور ١: ١٨٢ - أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «اغزوا تغنموا وصوموا تصحوا وسافروا تستغنوا».

(٢) وسائل الشيعة ٧: ٣ عن الفقيه عن الصادق عليه السلام.

(٣) المصدر عن حمزة بن محمد عن أبي محمد عليه السلام.

(٤) المصدر عن العلل عن الفضل بن شاذان عن الرضا عليه السلام قال: إنما أمروا بالصوم...

كل هذه بيان لأطرافٍ لـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ حيث تحلِّق على كل ما يجب أن يُتقى قضيةَ الإيمان أم هو راجح، فالصيام كسياج عام على كافة المحاظير الروحية والجسدية دون إبقاءٍ، وذلك كله إلى جانب كل ما يتكشف على مدار الزمن من آثار صحية للصيام، ومن ذلك فرض الحِمية على قسم من المرضى حيث تنفعهم أكثر من كافة الأدواء.

فالفوائد الصحية هي لزام الصوم شاء أم لم يشاء، وفائدة التقوى عن المعاصي تحضيرية وباختيار، لأن الصائم أطلق لنفسه وأردع لها من مواقعة السوء، فـ «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءَة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء»[(١)] «وقال ﷺ: خصاء أُمتي الصيام والقيام»[(٢)] فإنه يميت الشهوات ويشغل عن اللذات ويكسر النزوات.

ولقد «بني الإسلام - فيما بني - على خمس شهادة ألّا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج»[(٣)].

ولأن الصيام مطلق في الكف فلا بدّ له من بيان لحدوده في هذه الشرعة كما حددت للذين من قبلنا، ولم يُذكر في هذه الآيات إلّا ثلاثة هي الأكل والشرب والرفث إلى النساء، مما يؤكد أنها هي الأصيلة في الكف لصيام الإسلام، ثم هنالك فروع تبيّنها السُّنة.

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٧٥ - أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي والبيهقي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: بني الإسلام على خمس...

(٢) كما في المنتقى ٦: ١٠٦ نيل الأوطار عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: يا معشر الشباب...

ورواه أصحاب الصحاح الست وأحمد وأخرجه البيهقي ٤: ٢٩٦ و٧: ٧٧ والمنذري في الترغيب والترهيب ٣: ٤٠ والمحدث النوري في المستدرك عنه ﷺ.

(٣) فيض القدير ٣: ٤٤٠ عن أحمد والطبراني الكبير.

فروع واجبة الرعاية في فقه الشرعة، المذكورة في محلها، وأخرى تراعى في فقه السرِّ والمعرفة، فـ «إذا صمت فليصم سمعك وبصرك وشعرك وجلدك و.. لا يكون يوم صومك كيوم فطرك»[١] فـ «إن الصيام ليس من الطعام والشراب وحده، قالت مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾، أي: صمتاً، فإذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم وغضوا أبصاركم ولا تنازعوا ولا تحاسدوا»[٢] فـ «إذا صمت فليصم معك سمعك وبصرك من الحرام والقبيح ودع المراء وأذى الخادم وليكن عليك وقار الصيام ولا تجعل يوم صومك كيوم فطرتك»[٣].

وثالث هو الصيام عن كل ما سوى الله، دون اتجاه في الحياة كلها إلى غير الله، فالأول صيام المؤمنين البسطاء، والثاني للأتقياء الوسطاء، والثالث للأولياء والعرفاء، فهم جامعون بين هذه الثلاثة، فليكن المؤمن دائم الصيام في المرحلة الثانية ثم الثالثة، مهما اختص فرض الصيام الأول برمضان.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾:

آية فرض الصيام فرضته - كضابطة - على الذين آمنوا دونما استثناء ولا بيان لأيامه المعدودات، وهذه تستثني عن فرضه جماعة وعن السماح له آخرين، إذاً فهنا تكاليف ثلاثية في حقل الصوم، وهو أيام معدودات هي في الآية التالية بين ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ كأصل، وعدة من أيام أخر قضاءً عما فات.

وقيلة القائل: إن أياماً معدودات هي ثلاثة أيام من كل شهر ويوم

(١) الفقيه ٣: ٦٧ والتهذيب ٤: ١٩٤ والكافي ١: ١٨٦.
(٢) التهذيب ٤: ١٩٤ والكافي ١: ١٨٧.
(٣) الفقيه ٤: ٦٨ والتهذيب ٤: ١٩٤ والكافي ١: ١٨٧.

عاشوراء فقد كان رسول الله ﷺ والمسلمون يصومونها ثم نزل ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ...﴾ فنسخ ذلك واستقر الفرض على رمضان.

إنها غيلة وغائلة على شرعة القرآن! فإن ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ بيان لـ ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ وكونها ناسخة لها تقتضي استقلالها، وهي تتمة بيان لمفروض الصوم زمناً وشروطاً أخرى، فـ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف معروف من ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ هو هي، والأحاديث المروية في ذلك النسخ منسوخة بمخالفة القرآن.

وهل المستثنى هنا عن فرضه في رمضان هو مطلق المريض والمسافر؟ ومن المرضى من ينفعهم الصيام لفرض الحِمية عليهم صحياً أم رجحانه، كمرضى ثقالة الأكل، والمبتلين بثقل المعدة، فقد يكون عليهم فرضان في الصيام، فرض أول قضية تكليف الإيمان، وفرض ثان صحة في الأبدان، فقد هرف وخرف وانحرف القائل بإطلاق المرضى في سماح الإفطار سناداً إلى الإطلاق المزعوم من «مريضاً» كما ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾![1]، ذلك كما إن من المسافرين مَن لا يعسره الصوم، فـ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ تخرجهما عن ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾!.

هنا فرضان هما الصيام، وأن يكون في رمضان، وعاذرة المرض أو السفر لا تعذر إلّا الثاني قدَرهما، فالمعذور مرضاً أو سفراً في رمضان يصومه بعد رمضان، كلّاً إذا حلّق العذر كله، أم بعضاً حين يختص أحدهما ببعضه ثم ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ...﴾ بعد زوال العذر، فإذا بقي المرض فلا

---

(١) ذهب إلى الإطلاق بعض إخواننا فأباح الإفطار بمطلق المرض قائلاً: إن الله لم يخص مرضاً دون مرض كما لم يخص سفراً دون سفر، وإليه ذهب ابن سيرين، روي أنه دخل عليه قوم في شهر رمضان وهو يأكل فاعتل بوجع إصبعه، واعتبر بعضهم أن يجهده الصوم جهداً لا يحتمل، وأصحابنا توسعوا بين طرفي النقيض كما قلناه فأجمعوا عليه وتظافرت به أخبارهم.

بديل كما لا أصيل، والمستفاد من الحكمة الحكيمة العامة في كافة التكاليف الشرعية ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أن المرض المعسر في صيام رمضان أو السفر المعسر فيه، هما يقضيان على فرض صيامه وعلى سماحه، فإن ظاهر التعبير أو نصه تعيُّن التكليف إذاً بعدة من أيام أخر، دون تخيير بينهما أو سماح لصيام رمضان في عسر مرض أو سفر.

وقد تعني ﴿كَانَ مِنكُم﴾ تعميقَ المرض فهو - إذاً - معسر يزداد بصيام أم يتعسر علاجه أو يتأخر، فلا تشمل المرض المستجد أو الذي يحصل بصيام إلّا بحكمة عسره دون يسره.

والعسر عسران، عسر في مرض أو سفر فترك الصيام فيه عزيمة لا رخصة لظاهر النص: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وعسر في غير مرض ولا سفر وهو إطاقة الصوم أن يستأصل الطاقة دون حرج فصيامه رخصة، وعسر هو حرج و﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(١) فهو كعسر المرض والسفر إذ لا رخصة - إذاً - في صومه.

إن المرض العَسِر عُسرٌ والسفر العَسِر عُسرٌ، فلا يسمح الله لعُسر الصيام في عُسْر المرض أو السفر، ومن المرض الذي يعسر معه الصوم هو المعلوم أو المظنون حصوله بالصوم أو المحتمل عقلائياً، أو الذي يشتد أو يصعب علاجه أم يتباطئ بالصوم، كل ذلك يعسر معه الصوم، مهما كان المذكور في ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ هو المرض السابق على الصوم، فإن حكمة الحكم ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ توسّع نطاق المرض من الماضي إلى الواقع حاله، أو المتوقع عنده أو بعده أمّا ذا من عسر في الصوم: عسراً صحياً أم عسراً روحياً كالخائف أن يمرض بالصوم، فإن تكليفة بالصوم - إذاً - تكليف بالعسير غير اليسير، وقد تدل على حدٍّ

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

المرض الذي لا يسمح معه الصيام معتبرة عدة كالموثق: سألته ما حدّ المرض الذي يجب على صاحبه فيه الإفطار كما يجب عليه في السفر ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾؟ قال: «هو مؤتمن عليه مفوض إليه فإن وجد ضعفاً فليفطر فإن وجد قوة فليصم كان المرض ما كان»[1].

والصحيح «الصائم إذا خاف على عينه من الرمد أفطر وكل ما أضرّ به الصوم فالإفطار له واجب»[2].

ولأن ﴿ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾[3] «فذاك إليه هو أعلم بنفسه»[4]. والمعيار في المرض المعسر هو الأشخاص دون الأكثرية بخلاف السفر كما هو المستفاد من الآية والخبر.

---

(١) التهذيب ١: ٤٢٤ والاستبصار ٣: ١١٤ عن سماعة قال سألته...

(٢) الفقيه باب حد المرض الذي يفطر فيه الصائم عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام.

(٣) سورة القيامة، الآية: ١٤.

(٤) الوسائل ٧: ١٥٧ ح ٥ عن عمر بن أذينة قال: كتبت إلى أبي عبد الله عليه السلام أسأله ما حدّ المرض الذي يفطر فيه صاحبه والمرض الذي يدع صاحبه الصلاة من قيام؟ قال: بل الإنسان...

وفيه ح ٦ عن عمار بن موسى عن أبي عبد الله عليه السلام في الرجل يجد في رأسه وجعاً من صداع شديد هل يجوز له الإفطار؟ قال: إذا صدع صداعاً شديداً وإذا حم حمّى شديدة وإذا رمدت عيناه رمداً شديداً فقد حلّ له الإفطار.

وفيه ح ٧ عن محمد بن عمران عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث القوم الذين رفعوا إلى علي عليه السلام وهم مفطرون في شهر رمضان أنه قال لهم: أسُفرٌ أنتم؟ قالوا: لا، قال: فيكم علة استوجبتم الإفطار لا نشعر بها فإنكم أبصر بأنفسكم لأن الله تعالى يقول ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القِيَامَة: ١٤].

وفيه ح ٨ عن بكر بن أبي بكر الحضرمي قال: سأله أبي - يعني أبا عبد الله عليه السلام - وأنا لم أسمع ما حدّ المرض الذي يترك معه الصوم؟ قال: إذا لم يستطع أن يتسحّر، أقول عدم استطاعة التسحر يلازم عدم استطاعة الصيام من جهتين، هما الجوع والعلة التي لا يستطيع من أجلها أن يتسحر.

وفيه ح ٩ علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليهما السلام قال: سألته عن حدّ ما يجب على المريض ترك الصوم؟ قال: كل شيءٍ من المرض أضرَّ به الصوم فهو يسعه ترك الصوم.

وترى إذا صام المريض وهو يضر به هل يقضي أم يكفيه؟ ظاهر النص ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وجوب القضاء صام أم لم يصم[(١)]، اللّهم إلّا إذا جهل الحكم قاصراً أم يجهل مرضه[(٢)] فلا قضاء عليه، وأما إذا صامه علماً بالحرمة ثم تبيَّن أنه لم يضره فقد يقال إنه لا قضاء عليه لأنه لا يشمله هنا ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾ إذ لم يمرض أو لم يضر بمرضه، ولكنه يبقى إشكال نية القربة التي لا تجتمع مع العبادة، وإن العبادة بحاجة إلى أمر وهو هنا منفي وإن كان في ظاهر الحال فالأقوى - إذاً - وجوب القضاء، ذلك حدّ المرض الذي يجب فيه الإفطار، فما هو حدّ السفر؟ إنه: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ وطبعاً هو السفر الذي يعسر معه الصوم بنفس الحكمة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ فلا هو مطلق السفر، ولا المحدد بثمانية فراسخ، بل هو السفر المعسر في نفسه حيث يعسر فيه الصوم، المحدد في المعتبرة بـ «مسيرة يوم» وهي تختلف باختلاف وسائل السفر نوعياً، فلكل زمن مسيرة يوم تختلف عن سائر الزمن.

فكما أن ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ يختص بالمعسر منه، كذلك ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ هو المعسر منه وقد تظافرت به نصوص السفر للإفطار والقصر.

---

(١) الوسائل ٧: ١٦٠ ح ١ عن علي بن الحسين عليه السلام قال: فإن صام في السفر أو في حال المرض فعليه القضاء فإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٤].

(٢) وتدل عليه جملة من الصحاح منها صحيحة ليث عن أبي عبد الله عليه السلام إذا سافر الرجل في شهر رمضان أفطر وإن صامه بجهالة لم يقضه (الكافي ٤ : ١٢٨).
والتلازم الثابت بين القصر والإفطار يحكم بأن الإفطار كالقصر كما الصوم مثل التمام كما في صحيح معاوية بن وهب عن الصادق عليه السلام هما (يعني التقصير والإفطار) واحد إذا قصرت أفطرت وإذا أفطرت قصرت، (رواه الصدوق في الفقيه).
وعليه يحمل ما رواه عقبة بن خالد عن أبي عبد الله عليه السلام عن رجل صام رمضان وهو مريض؟ قال: يتم صومه ولا يعيد (الوسائل ح ٢).

صحيح أن هناك حدين يذكران للقصر والإفطار: ثمانية فراسخ[(١)] ومسيرة يوم أو بياضه[(٢)] ولكن المسيرة هي الأصل الدائب، والثمانية إمارة وقتية محددة بالزمن الذي مسيرة يومه هي الثمانية بأغلب السير والغالب على المسير، كما هو الصريح من أحاديث المسيرة بل والثمانية، ففي الموثق عن التقصير؟ قال: في بريد، قلت: بريد؟ قال: إنه ذهب بريداً ورجع بريداً فقد شغل يومه[(٣)] وذلك لشدة المسيرة كما في الصحيح أن أهل مكة يتمون الصلاة بعرفات؟ فقال: ويلهم أو ويحهم وأي سفر أشدّ منه؟ لا تتم[(٤)].

ومن أحكم الأحاديث الحاكمة بين نصوص الثمانية والمسيرة صحيحة فضل بن شاذان عن الإمام الرضا عليه السلام أنه سمعه يقول: إنما وجب القصر في ثمانية فراسخ لا أقل من ذلك ولا أكثر لأن ثمانية فراسخ مسيرة يوم للعامة والقوافل فوجب القصر في مسيرة يوم ولو لم يجب في مسيرة يوم لما وجب في مسيرة ألف سنة وذلك لأن كل يوم يكون بعد هذا اليوم فإنما هو نظير هذا اليوم فلو لم يجب في هذا اليوم فما وجب في نظيره إذا كان نظيره مثله لا فرق بينهما وقد يختلف المسير فسير البقر إنما هو في أربعة فراسخ وسير الفرس عشرون فرسخاً وإنما جعل مسيرة يوم ثمانية فراسخ لأن ثمانية فراسخ هو سير الجمال والقوافل وهو الغالب على المسير وهو أعظم المسير الذي يسيره الجمالون والمكاريون[(٥)].

---

(١) من نصوصها صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: التقصير في بريد والبريد أربع فراسخ.

(٢) من نصوصها صحيحة علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام عن الرجل يخرج في سفره وهو مسيرة يوم؟ قال: يجب عليه التقصير في مسيرة يوم وإن كان يدور في عمله (الوسائل ٥: ٤٩٢ ح ١٦).

(٣) الوسائل ٤٩٦ ح ٩ رواه محمد بن مسلم عن الباقر عليه السلام.

(٤) المصدر ٤٩٩ ح ١ رواه المشايخ الثلاثة في الكتب الأربعة بأسانيد صحيحة عن أبي عبد الله عليه السلام.

(٥) الوسائل ٥: ٤٩٠ ح ١ وعن العلل بزيادة من «وقد يختلف المسير ...».

فلأن الحكمة في الإفطار كما في القصر هي العسر فليحدَّد السفر المفطر المقصر بالمعسر، المحدَّد بمسيرة يوم بالغالب على المسير وأعظم المسير، وهو اليوم السيارات التي تسير كل يوم لأقل تقدير ألف كيلومتراً، فلا قصر ولا إفطار في أقل منه كما فصلناه في آية القصر - وفي كراس فذٍّ - فلا نطيله هنا أكثر مما بيّناه.

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ يختص بحالة السفر، ويلحق بها المقام دون العشرة حسب متظافر الأحاديث ولا يجوز الإفطار ما لم يتحقق السفر بالخروج عن حدِّ الترخص، فلا تكفي النية ولمّا يسافر، مهما كفت نية المقام دون العشرة في المقصد بعد أن سافر.

ومما تلمح لنا ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ إن نية السفر والتحضر له لا يكفي عذراً مهما صدق عرفياً أنه مسافر، وأما المقيم دون العشرة في السفر فهو حقاً على سفر، ثم يخرج المقيم عشرة أو أكثر بصحيح الأثر.

ثم ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ هل تشمل أياماً أخر من سنة أخرى غير التي فيها أفطر، أم تختص بأيام أخر من السنة نفسها؟ ظاهر الإطلاق هو الأول مهما كان فالواجب هو التقديم في سنة الإفطار، ثم السنة قيدت ذلك الإطلاق بالعدة الأولى، فإن كان معذوراً فيها فما عليه إلّا الكفارة الصغيرة عن كل يوم إطعام مسكين.

ثم «فعدة» تعني عدة المرض أو السفر ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ غير أن أياماً معدودات مقررة للصيام هي أيام رمضان، فإنه إذا برأ أو حضر في رمضان حجبه صومه عن قضاء ما فاته، فالعدة - إذاً - هي على أية حال ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ هي بين رمضانه ورمضان آخر، وإذا استمر المرض إلى الثاني ثم برأ فالظاهر من ﴿أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ سقوط القضاء عنه، فإن أياماً أخر هي بقية أيام سنة الصيام، ثم ومتظافر السنة دليل السقوط عنه هناك، اللهم إلّا إذا قصر في القضاء على برئه فعليه القضاء حتى آخر عمره دون سقوط.

وهل يجب التتابع في ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؟ و«عدة» أعم من المتتابعة والمتفرقة! إلّا أن التتابع راجح حسب المكنة، أم ولأنها عدة كعدة فلتقضَ كما فاتت، إنْ متتابعة فمتتابعة وإنْ متفرقة فمتفرقة؟ إلّا أن «عدة» منكرة لا تدل على هذه الخصوصية[١].

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾:

أطاق من طاق: قوي، فليَعِن الإِفعال منه معنى زائداً ليس هو القوة على الصوم، إضافة إلى عنايتها من المكلفين الأولين في فرض الصيام فكيف تعاد هنا لآخرين، عفواً عن فرضه إلى بديل الإطعام؟ فقد تعني طاق أنه استدار على أمر كطوق عليه وهو القدرة المتسعة، فالإِطاقة - إذاً - سلبها أم عكسها، أن أمراً طاق عليه كالطوق فلا يستطيع فيه حراكاً، أم هي صرف تمام الطاقة فيه فيأتي به على جُهد وشُقَّة، فإيجابها - إذاً - كسلبها يعنيان استئصال الوسع في فعله و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٢] إذاً يسقط الفرض عن الذين يطيقونه لأنه قمة العسر، وقد سقط عن المعسر الأدنى كالمسافر، أو المشابه كالمريض، مهما كان عسر المرض أعسر من حيث الضرر دون عسر الإطاقة التي ليس فيه ضرر ولأن مطيق الصوم معسر فهو مرفوع عنه فرض الصوم، مهما اختلف عسره عن عسر المرض والسفر، حيث العسر في المطيق يرفع الفرض، وهو في غيره مسافراً أو مريضاً يرفع

(١) تفسير الفخر الرازي ٥: ٧٨ روي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: عليّ أيام من رمضان أفيجزيني أن أقضيها متفرقاً؟ فقال له: أرأيت لو كان عليك دين فقضيته الدرهم والدرهمين أما كان يجزيك؟ فقال: نعم - قال ﷺ: فالله أحق أن يعفو ويصفح.
أقول: هذا إذا كان الدين غير مؤجل، وأما المؤجل فلا يجوز تأخيره أو تفريقه إذا أمكن الإيفاء في أجَله كلّاً.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

السماح عن الصوم، فهما مشتركان في عدم الفرض حيث العسر مرفوع في شرعة الله، اللهم إلّا في التكاليف المبنية على العسر كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فما على المطيق إلّا ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ وطبعاً ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ لا أدناه ولا أعلاه، اللّهم إلّا تطوعاً مندوباً، إلّا ألّا يستطيع على طعام مسكين لأنه نفسه من المساكين و﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ حيث تسع كلّ وُسعٍ بدنيا وحالياً ومالياً، شخصياً وجماعياً.

فكل من يَسع طوقُه الصيام، دون مرض ولا سفر، فما عليه من صيام، لا أداءً ولا قضاءً، وإنما ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ سواء أكان شيخاً هرماً أم كهلاً أو شاباً هزلاً كما الهرم، أو حاملاً أو مرضعاً أمّن هو مِن هؤلاء الذين يطيقونه، فإن إطلاق النص دليل لإطلاق المعنى دون اختصاص بالشيخ الهرم[1]، واختصاص الذكر في بعض الأحاديث لا يعني إلّا الأكثر مصداقاً للذين يطيقونه[2]، حيث العناية الخاصة لمثل الشيخ تقتضي العبارة الخاصة به في مذهب الفصاحة، لا سيما قمتها المرموقة في القرآن، هذا، إلّا أن المطيق الذي سوف يطوق الصيام دون إطاقة، عليه القضاء عند المكنة والسعة، مثل «الحامل المقرب والمرضع القليل اللبن لا حرج عليهما أن يفطرا في شهر رمضان لأنهما لا يطيقان الصوم وعليهما أن يتصدق كل

(١) الاستبصار ٣: ٩٩ والتهذيب ١: ٤١٧ صحيحة ابن مسلم سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «الشيخ الكبير والذي به العطاش لا حرج عليهما أن يفطرا في شهر رمضان ويتصدق كلٌّ منهما في كل يوم بمدٍّ من طعام ولا قضاء عليهما فإن لم يقدرا فلا شيء عليهما» وفي الدر المنثور ١: ١٧٨ - أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب في الآية قال: «الشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصوم يفطر ويطعم مكان كل يوم مسكيناً» أقول: إذا كان «فأصابهم كبر»... بعد الإطاقة فهو خلاف نص الآية، اللهم إلا أن يعني بيان موارد للإطاقة.

(٢) الكافي ٤: ١١٦ والفقيه باب ٢١ مرسل ابن أبي بكر عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: «الذين يطيقون الصوم فأصابهم كبر أو عطاش أو شبه ذلك فعليهم لكلٍّ يوم مد».

واحد منهما في كل يوم يفطران بمدّ من طعام وعليهما قضاء كل يوم أفطرتا فيه تقضيان بعد»[١].

هذا، وقد تتقيد المرضعة بالتي لا تستطيع على اتخاذ ظئر لولدها، إذ لا تصدق - إذاً - أنها تطيق الصيام[٢] إلّا أن ظاهر الإطاقة هي الذاتية، فكما لا يفرض على الشيخ الهرم تجديد قوته بدواءٍ أو غذاء حتى يستطع الصيام، كذلك المرضعة، وقد يدخلان في ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ تكلفاً في طوع الصيام، ولكنه غير مفروض، فالأشبه جواز إفطار المرضع وإن استطاعت على ظئر، لا سيما وإن الإرضاع فرض الأم فيتقدم على فرض الصيام فإن له مندوحةً لعدة من أيام أخر.

ولكن الطاقة الذاتية للمرضع حاصلة، وليست الإطاقة إلّا عند الخوف على ولدها إذا لم ترضعه، فإن كان هناك عنها بديل من ظئر أو لبن آخر مستطاع فلا إطاقة، وإلّا فهي مطيقة للصيام عرضياً فيسمح لها الإفطار ثم تقضي، والأظهر كما قدمناه عدم وجوب اتخاذ الظئر عليها، حيث البديل عن الإطاقة ليس في فرضه دليل.

وهذه تختلف عن الشيخ الهرم إذ لا طاقة له ذاتياً بالفعل، وهو مطيق

---

(١) الكافي ٤: ١١٧ والتهذيب ١: ٤٢٠ والفقيه ٢ ب ٢١ ح ٤ من كتاب الصوم، صحيح ابن مسلم سمعت الباقر عليه السلام يقول: الحامل...

(٢) في مكاتبة ابن مهزيار المروية عن مستطرفات السرائر قال: كتبت إليه أسأله - يعني علي بن محمد عليهما السلام - أن امرأة ترضع ولدها وغير ولدها في شهر رمضان فيشتد عليها الصيام وهي ترضع حتى غشي عليها ولا تقدر على الصيام، ترضع وتفطر وتقضي صيامها إذا أمكن؟ أو تدع الرضاع وتصوم، فإن كانت ممن لا يمكنها اتخاذ من يرضع ولدها فكيف تصنع؟ فكتب إن كان يمكنها اتخاذ ظِئر استرضعت ولدها وأتمت صيامها، وإن كان ذلك لا يمكنها أفطرت وأرضعت ولدها وقضت صيامها متى ما أمكنها.

وفي آيات الأحكام للجصاص ١: ٢٠٤ روى أنس بن مالك القشيري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الله وضع عن المسافر شطر صلاة والصوم وعن الحامل والمرضع.

الصيام بطبيعة الحال، وفرض تحصيل الطاقة عليه بحاجة إلى دليل، مهما كان راجحاً بـ ﴿فَمَن تَطَوَّعَ . . .﴾ ومن الذين يطيقونه ذوو العطاش، ولكنهم ضرورتهم تقدر بقدرها بشرب الضروري من الماء دون مفطر آخر[١]، ثم القضاء إن أمكن في أيام البرد، وحديث إفطاره يحمل على مفطر الماء - فقط - فإنه لا يطيق الصوم ككل، وإنما يطيق مفطر الماء، فالأشبه جواز شربه قدر الضرورة ثم الفدية والقضاء مع المكنة فإن القضاء على المطيق عند زوال الإطاقة أحرى منه على المريض عند زوال المرض.

وقد يدخل ذوا العطاش والحامل في المريض كما قد تختص الفدية بمن لا قضاء عليه، حيث الجمع بينهما جمع بين البدلين، وكفاية الفدية عن القضاء تخص من يطيق الصوم أداءً وقضاءً.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾:

«خيراً» هنا تشمل ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ إلى جانب «الصيام» والتطوع هو الطوع على تكلف في واجب كالسعي ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾[٢] عند ربه أو مندوب كما هنا إذ سقط عنه فرض الصيام بإطاقته.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾ الصيام على إطاقته فهو خير له ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ و«من تطوع» الفدية على عُدمه أم تطوعها بزيادة على مفروضة عِدة وعُدة ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ فـ ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾[٣]. وترى تطوع خير الصيام خير للمطيقين إياه، أم تطوع خير الفدية؟.

﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

---

(١) الوسائل ٧: ١٥٣ عن أبي عبد الله عليه السلام في الرجل يصيبه العطاش حتى يخاف على نفسه؟ قال: يشرب بقدر ما يمسك رمقه ولا يشرب حتى يروى.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٠.

وهذه علها ضابطة في حقل الصيام غير المحرَّم بمرض أو ما أشبه، فخيره في مفروضه يقابله شرٌّ، وهو في مندوبه يقابله غير شرٍّ، وهل تعم الذي على سفرٍ لا يضره الصوم؟ قد يقال: نعم، فإنه حيث لا يضر، خيرٌ لكم ككلٍّ، والخطاب هنا مطلق خرج منه الصوم المضر، ولكنه لا - لعموم النص في مرّتيه - ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ولا تجد سفراً يضر فيه الصيام إلّا لمرض وهو داخل في «مريضاً» فذلك - إذاً - نصّ في أن فرض المسافر كالمريض هو عدة من أيام أخر دون تخير بينها وبين رمضان، ولكن الذين يطيقونه دون مرض ولا سفر، وهم - ككل - الذين لا يضرهم الصوم، هؤلاء هم المخيرون بين الصوم والفدية، بعد انتقال فرضهم إلى الفدية، وقد يكفي ذكر «مريضاً» لعدم شمول ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ كلَّ المكلفين الثلاثة، المذكورين قبله، وإذا انقطع شمولها للقسم الوسط، فقد انقطع - بأحرى - للقسم الأول.

ثم - وعلى أقل تقدير - نشك في شمول ﴿وَأَن تَصُومُوا. . .﴾ لغير الذين يطيقونه، لا سيما وأن تنجيز التكليف بالصوم سلباً وإيجاباً لا يساعد «خيراً»، على فاصل هنا بين ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ و﴿الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ بـ ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ ثم وتطوع المسافر كما المريض هو ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فلا تطوع لهما في صيام رمضان فإنه تكلف في الطوع، ثم السماح عن صيام رمضان للسُّفْر هدية من الله، ولا يَردُّ هدية الله إلّا الخارج عن هدي الله، وأما المطيق فقد سمح له الله بالصيام بعد ما ألغي فرضه، فليتطوع المؤمن فرائض الله ورخَصه، وعلى أية حال ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فرضاً على المرضى والمسافرين، لا تسمح بصيامهما في رمضان إذ ليس عليهما فرضان، والواحد معروف في العدة، فصيامهما رمضان إذاً بدعة، ولا يعارض نصّ القرآن إجماع ولا شهرة ولا رواية، ولو لم يبين للذين يطيقونه

خير الصيام لكانوا كما هنا إلّا أن عليهما ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وعليهم ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[(١)].

وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ قوله: «الصائم في السفر كالمفطر في الحضر»[(٢)] و«ليس من البر الصيام في السفر»[(٣)] ويطاردَ خلافُه بخلافه وخلاف القرآن[(٤)] أم يؤول بغير صيام رمضان.

وهل يجوز صوم غير رمضان في السفر؟ آية «على سفر» لا تحرمه لأنها خاصة بصيام رمضان، وقد تأتي روايات بشأن حرمته أم جوازه في الهامش.

فـ ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لا تعني صوم المسافر فرضاً، ثم هو خير في كل حال وكما يروي الرسول ﷺ في حديث قدسي عن الله تعالى شأنه «الصوم لي وأنا أجزى به»[(٥)] فهي في وجه لم يسم فاعلها يكون الله هو جزاء

---

(١) في الكافي عن علي بن الحسين عليه السلام قال: فأما صوم السفر والمرض فأن العامة قد اختلفت في ذلك فقال قوم: يصوم وقال آخرون: لا يصوم، وقال قوم: إن شاء صام وإن شاء أفطر، وأما نحن فنقول: يفطر في الحالين جميعاً فإن صام في السفر أو في حال المرض فعليه القضاء فإن الله عز وجل يقول: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٤].

(٢) تفسير الفخر الرازي ٥ : ٧٦ قوله عليه السلام . . .

(٣) تفسير الفخر الرازي ٥ : ٧٦ قوله عليه السلام . . .

(٤) المصدر ٥ : ٧٧ روى أبو داود في سننه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن حمزة الأسلمي سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ هل أصوم في السفر؟ فقال ﷺ : «صم إن شئت وأفطر إن شئت».

(٥) الدر المنثور ١ : ١٧٩ - أخرج ابن أبي شيبة ومسلم والنسائي والبيهقي عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا قال رسول الله ﷺ : «الصوم لي وأنا أجزى به»، وفيه عنه ﷺ : «قال ربنا الصيام جُنة يستجن بها العبد من النار وهو لي وأنا أجزى به»، وأخرج البيهقي عن أيوب بن حسان الواسطي قال سمعت رجلاً سأل سفيان بن عيينة فقال لي يا أبا محمد فيما يرويه النبي ﷺ عن ربه عز وجل : كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزى به.

أقول: وقد تكون من ميزات الصيام بين العبادات أن لا رياء فيه لأنه عبادة سلبية لا تظهر اللهم إلا لمن أظهرها، ولكنه بطبيعة الحال لا يتحمل الرياء، وقد رواه أبو هريرة عن رسول =

الصوم، يعني الزلفى إليه، وهي معلوماً تعني اختصاص الجزاء، كأن سائر الجزاء لسائر الأعمال لا تحسب جزاء بجنبه.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾:

﴿... كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ... أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ هي: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ...﴾. بياناً متدرجاً لأصل الصيام ووقته ومن فُرض عليه أم منع عنه أو خيّر فيه، فإنه عبادة صعبة ولا سيما في رمضاء الحجاز.

«شهر رمضان» شهر يسمَّى في القرآن بين سائر الشهور تفضيلاً له عليها لأنه مَنزِلُ القرآن دونها، وفيه فرض الصيام دونها[1].

وعلّه «إنما سمي رمضان لأن رمضان يرمض الذنوب»[2] ويطهرها

= الله ﷺ بقوله: «الصيام لا رياء فيه قال الله: هو لي وأنا أجزى به يدع طعامه وشرابه من أجلي».

وفيه عن أبي أمامة قال قلت يا رسول الله ﷺ مرني بعمل آخذه عنك ينفعني الله به، قال: «عليك بالصوم فإنه لا مثل له»، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الصيام جُنة ما لم يخرقها»، قيل وبم يخرقها؟ قال: بكذب أو غيبة، وعن رجل من بني سليم أن رسول الله ﷺ أخذ بيده فقال: «... والصيام نصف الصبر».

(١) الدر المنثور ١: ١٨٤ قال رسول الله ﷺ: «أظلكم شهركم هذا»، - يعني شهر رمضان - بمخلوف رسول الله ﷺ ما مرّ على المسلمين شهر خير لهم منه ولا يأتي على المنافقين شهر شرّ لهم منه بمخلوف رسول الله ﷺ إن الله يكتب أجره وثوابه من قبل أن يدخل ويكتب وزره وشقاءه قبل أن يدخل وذلك أن المؤمن يعد فيه النفقة للقوة في العبادة ويعد فيه المنافق اغتياب المؤمنين واتباع عوراتهم فهو غنم للمؤمنين وغرم على الفاجر.

(٢) الدر المنثور ١: ١٨٣ - أخرج ابن مردويه والأصبهاني في الترغيب عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «إنما...» وفيه عن عائشة قالت قيل لرسول الله ﷺ ما رمضان؟ قال: «أرمض الله فيه ذنوب المؤمنين وغفر لهم...» أقول: وهو من الرمضاء: مطر يأتي قبل الخريف يطهر وجه الأرض من الغبار.

بصومه إسلامياً، ولرمض الفصل وحرّه الذي وضع له فيه هذا الاسم قبل الإسلام، فإنه من الأسماء العربية للشهور، فالرمض هو حرّ الحجارة، والرمضاء مطر يأتي قبل الخريف يطهر وجه الأرض من الغبار، فهو يغسل الذنوب ويحرقها، أم ومن رمضت الفصل إذا دفعته بين حجرين ليرقَّ، وهو كذلك يرق القلوب برمض الإمساك عن المشتهيات! وقد يعني مثلث المعنى. وكونه اسماً من أسماء الله تعالى(١) غريب في نوعه، إذ لم يذكر في عدادها حيثما ذكرت كتاباً وسُّنة، ولا أن معناه يناسب ساحته سبحانه ولا سيما الرمضاء، وأنه يثنَّى ويجمع وليس كذلك أسماء الله، ثم ويأتي كثيراً دون إضافة شهر في مختلف الأحاديث الحاملة فضله وأحكام صومه، مما يحيل كونه من أسماء الله تعالى(٢).

---

(١) نور الثقلين ١: ١٦٦ عن الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام لا تقولوا رمضان ولكن قولوا شهر رمضان فإنكم ما تدرون ما رمضان، وفيه عن الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: كنا عنده ثمانية رجال فذكرنا رمضان فقال: لا تقولوا هذا رمضان ولا ذهب رمضان ولا جاء رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله عزّ وجلّ لا يجيء ولا يذهب وإنما يجيء ويذهب الزائل ولكن قولوا شهر رمضان فالشهر مضاف إلى الاسم والاسم اسم الله عز ذكره وهو الشهر الذي أنزل فيه القرآن جعله مثلاً وعيداً. وفي تفسير الرازي ٥: ٨٣ وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأورد مثله.

(٢) الدر المنثور ١: ١٨٤ - أخرج ابن أبي شيبة والنسائي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه: «نبشركم قد جاء رمضان شهر مبارك» . . .

أقول: ولو كان اسماً من أسماء الله لبطل «جاء رمضان»! وفيه عن أبي مسعود الأنصاري سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم وأهلّ رمضان فقال: «لو يعلم العباد ما رمضان لتمنت أمتي أن يكون السنة كلها فقال رجل يا نبي الله حدثنا فقال: إن الجنة لتزين لرمضان من رأس الحول إلى الحول فإذا كان أوّل يوم من رمضان هبت ريح . . .».

وفيه عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كان أوّل ليلة من رمضان»، وفيه عن عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ذاكر الله في رمضان مغفور وسائل الله فيه لا يخيب».

أقول: ذكر رمضان دون إضافة، ثم وتثنية وجمعاً كثير في أحاديثنا مما يؤكد أنه ليس من أسماء الله، فإنما هو شهر الله.

ومن فضله إن «كان رسول الله ﷺ إذا دخل شهر رمضان شد مئزره ثم لم يأت فراشه حتى ينسلخ»[١] و«تغيّر لونه وكثرت صلاته وابتهل في الدعاء واشفق منه»[٢] و«أطلق كل أسير وأعطى كل سائل»[٣].

وقد سمي لفضله شهر الله لاختصاصه بالله أكثر من سائر الشهور، وكما يروى عن النبي ﷺ: «فاتقوا شهر رمضان فإنه شهر الله جعل الله لكم أحد عشر شهراً تأكلون فيها وتشربون وتتلذذون وجعل لنفسه شهراً فاتقوا شهر رمضان فإنه شهر الله»[٤].

ثم وصف «شهر رمضان» بأفضل مواصفة تميّزه عن كافة الشهور: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ ويا لِصومه وإنزال القرآن فيه من صلة ومواصلة عريقة، فإن مَنزِل القرآن لا بدَّ له من طهارة كاملة عن كلِّ الأقذار، فكما طهر قلب محمد ﷺ حتى نزل عليه القرآن، كذلك قلوب الأمة لما تطهر بصيامه، تستعد لإنزال أنوار وحي القرآن.

وترى كيف ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وقد أنزل طيلة الرسالة القدسية في ثلاث وعشرين سنة نجوماً متفرقة، ومنها رمضاناتها كسائر شهورها؟.

---

(١) الدر المنثور ١: ١٨٥ - أخرج البيهقي عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ..

(٢) المصدر أخرج البيهقي والأصبهاني عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ إذا دخل شهر رمضان...

(٣) المصدر أخرج البزاز والبيهقي عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ إذا دخل شهر رمضان أطلق...

(٤) المصدر أخرج البيهقي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الجنة لتزين من الحول إلى الحول لشهر رمضان وإن الحور العين لتزين من الحول إلى الحول لصوّام رمضان فإذا دخل رمضان قالت الجنة: اللهم اجعل لي في هذا الشهر من عبادك ويقلن الحور اللهم اجعل لنا من عبادك في هذا الشهر أزواجاً، فمن لم يقذف مسلماً فيه ببهتان ولم يشرب مسكراً كفر الله عنه ذنوبه ومن قذف فيه مسلماً أو شرب فيه مسكراً أحبط الله عمله لسنة، فاتقوا شهر رمضان...».

ألأنه أنزل فيه آي من القرآن أوّل ما نزل؟ وبازغ الوحي كان قريناً لبازغ الرسالة وهو السابع والعشرون من رجب وبينه وبين رمضان أكثر من شهر!.

ثم القرآن معرفاً لا يطلق على بعضه، وإنما قرآن، لو أنه أنزل في رمضان في بازغه!.

أم لأنه أنزل في شأنه قرآن؟ فقد أنزل في شأن غيره من زمان أو مكان أم أيّاً كان قرآن! ولا نجد نازل القرآن بشأن رمضان إلّا هذه الآية، فهل أنها تخبر عن نفسها دوراً مصرحاً! وآية كتابة الصيام من قبل ليست آية تعريف برمضان، فلم تنزل فيه ولا سيما قبل التصريح بشأن رمضان.

أم أن القرآن المفصّل أُنزل في رمضان من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور في السماء الدنيا[1]، ثم أنزل على الرسول ﷺ طوال البعثة؟ ولا ينزل القرآن على مكان، ولا مَنزِل للقرآن إلّا قلب النبي ﷺ دون أي مكان من سماءٍ أو أرض، ولا أي قلب آخر في سماءٍ أو أرض، وأي بيت أعمر من قلب محمد ﷺ وأجدر لأن ينزل فيه القرآن، فهو البيت المعمور بعامر الروحية الرسالية اللابقة اللائقة لنزول القرآن.

ثم ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ لا تصلح لنازل القرآن في غير قلب الرسول، حيث الهدى القرآنية للناس هي كيانه منذ بعث.

ومن ثم لا يصح نزول القرآن المفصّل جملة واحدة وإن في قلب الرسول ﷺ لأنه يحمل ناسخاً ومنسوخاً، ويشمل أنباءً مستجدة طول الزمن الرسالي، فكيف يخبر عنها بصيغة الماضي كـ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ...﴾[2] وما

(١) فيه رواية يتيمة رواها في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور ثم نزل في طول عشرين سنة (نور الثقلين ٥: ٦٢٤ ح٥٣).

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١.

أشبه؟ ولو نزل تفصيله جملة واحدة لما ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[1].

إذاً فهو القرآن المحكم النازل عليه في ليلة مباركة هي ليلة القدر، كما وأن صيغة الإنزال تلمح لدفعية النزول والتنزيل تدريجي: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[2]. فلقد أنزل على قلبه المنير محكم القرآن ومجمله بعد مبعثه بزهاء خمسين ليلة، فكان يعرفه جملةً ثم عرّفه ربه تفصيلاً كما تدل عليه آية القيامة ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[3] وآية طه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[4] ولا يليق بأي عاقل فضلاً عن أعقل العالمين أن يحرك لسانه بالقرآن ويعجل به وماله أية معرفة به لا جملة ولا تفصيلاً، ثم آيتا حم والقدر تتجاوبان في نزول القرآن - هكذا - في ليلة القدر، فالمعنى من «شهر رمضان» كمنزل القرآن، هنا هو ليلة القدر المتراوحة بين - ١٩ و٢١ و٢٣ - لأظهر تقدير وأكثره.

ولتفصيل أكثر يراجع تفسير حم والقدر، ثم «رمضان» ليس فقط منزل القرآن، بل هو حسب الأثر الثابت عن نبي القرآن - كذلك - مَنزِل لصحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل المسيح عليهم السلام [5].

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

(٢) سورة هود، الآية: ١.

(٣) سورة القيامة، الآية: ١٦.

(٤) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٥) الدر المنثور ١ : ١٨٩ عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أنزلت صحف إبراهيم في أوّل ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان.

أقول: أربع عشرين خطأً من الراوي فإن ليلة القدر بين (١٩ - ٢١ - ٢٣) لأشهر تقدير في أحاديثنا ففي نور الثقلين ١ : ١٦٦ عن الكافي عن الصادق عليه السلام في حديث نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور ثم نزل في طول عشرين سنة ثم قال قال =

ثم ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ كما هي مواصفات ثلاث للقرآن، كذلك وعلى هامشه قد تعني رمضانَ بصيامه، فقد يتكفل صيامه الجانب السلبي لكلمة التوحيد، والقرآن هو الجانب الإيجابي، فيتجاوبان نازلاً ومنزلاً، لمحة صارحة أن هدي القرآن وبيناته وفرقانه إنما تلمع وتتبلور في قلوب الصائمين، فإن ذلك النازل النور يتطلب المنزل النور، ليصبح نوراً على نور، قرآناً في قلوب الصائمين، وكما أنزل في قلب الرسول الطاهر الأمين، حيث كان صائماً عما سوى الله، فأصبح جديراً أن ينزل فيه أفضل وحي الله.

القرآن طبيعته ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ الذين يفحصون عن هدى، دون النسناس الهائمين في الردى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1].

ثم ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ لمن اهتدى حيث الهدى درجات تتدرج إلى أهدى فأهدى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[2].

ومن ثم بينات من «الفرقان» لمن اتقى بعدما اهتدى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[3] وهي هداية على ضوء القرآن علماً به وعملاً ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4].

= النبي ﷺ: نزلت صحف إبراهيم - وساق الحديث السابق قائلاً في آخره -: وأنزل القرآن في ثلاث وعشرين من شهر رمضان.

أقول: وأحاديثنا مختلفة في تعيين ليلة القدر وثلاث وعشرين أكثرها ثم هي بين ١٩ و٢١ وسواها.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٦.

إذاً فـ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ هي أولى المراحل لهدي القرآن، حيث الناس يعم كل الناس، ثم ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ وهي الهدى البيّنة ببراهينها، إنها لمن اهتدى، وأخيراً بينات من «الفرقان» لمن اتقى، درجات ثلاث تلو بعض ولِصقَ بعضٍ لمن ارتقى ذلك المرقى، وهنا ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ مواصفات فعلية لرمضان، وشأنية بحق الناس للقرآن فإنه يحمل هذه المواصفات بعد تفصيله للناس كما في إجماله لرسول الناس.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ هنا يفرع فرض الصيام على تبين زمانه وهو رمضان، وكأن «كتب» السالفة تَقدِمةٌ له، وترى ماذا تعني ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾؟ أهو شهود هلاله المشروط لفرض صومه، وليس الشهر هو القمر، فإنما هلاله إمارة بدايته وهو زهاء ثلاثين يوماً، فأين الشهر من القمر، إنما هو رمضان السابق ذكره، وتعريف الشهر يعنيه.

ثم الشهادة هي الحضور على علم، فشهود الشهر هو الحضور مقابل السفر، على علم برمضان، في أي يوم منه كان، ففي أوّله يصدق برؤية الهلال شخصياً أم بشياع أو شهادة مقبولة أو مضي ثلاثين يوماً من شعبان، وإلّا فلا شهود سواء حضر ولم يعلم أو علم ولم يحضر، فصيام يوم الشك على أنه من رمضان غير مأمور به ولا محبور، اللهم إلّا بنيّة آخر شعبان فإن صادف رمضان فمن رمضان وإلا فمن شعبان قضاءً أمّا ذا حسب ما نوى[(١)]

---

(١) يدل على ذلك من الاخبار موثقة سماعة قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام رجل صام يوماً ولا يدري أمن رمضان هو أم من غيره فجاءه قوم فشهدوا أنه كان من شهر رمضان فقال بعض الناس عندنا: لا يقيد به فقال: بلى فقلت: إنهم قالوا: صمت وأنت لا تدري أمن شهر رمضان هذا أم من غيره، فقال: بلى فاعتد به فإنما هو شيءٌ وفقك الله له، إنما يصام يوم الشك من شعبان ولا يصومه من رمضان لأنه قد نهي أن ينفرد الإنسان بالصيام في يوم الشك وإنما ينوي من الليلة أنه يصوم من شعبان فإن كان من شهر رمضان أجزأ عنه بتفضيل الله وبما قد وسع على عباده ولولا ذلك لهلك الناس (الكافي ٤: ٨٢ والتهذيب ١: ٤٠٤ والاستبصار ٣: ٧٨). =

فصوم يوم الشك بنية رمضان باطل خلافاً لأحاديث تعارض ظاهر الآية والموثقة[١] وصومه عن شعبان صحيح، وأما إذا صام بنيّة ما في ذمته من راجح وواجب قضاء، أو واجب أداءً، أم بنيّة أنه إذا كان شعبان فمنه وإذا كان رمضان فمن رمضان ففي صحته تردد للنصّ «إنما يصام يوم الشك من شعبان» ثم «ولا يصومه من شعبان» ولكن «رجل صام ولا يدري» يكفي لمحة لصحته وقد يدل على صحته ظواهر الإطلاق[٢].

والشهر في «شهد الشهر» بين ظرف ومفعول به، وهو على أي الحالين يختص بغير المسافر، إذا ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾ تخصيص لـ «من شهد الشهر» فهو الحاضر غير المريض، ولكن ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ يقابل «من شهد» مهما كان مريضاً أم صحيحاً.

وهل أن شهود الشهر هو حضور كله على علم؟ إذاً فأين الصيام، ولا يأتي دور الجزاء إلّا بعد تحقق الشرط بكامله، وهو هنا شهوده بكامله!.

أم أن «الشهر» هنا - فقط - يوم شهوده الأول أم أي يوم منه، لتعني «فليصمه» - فقط - صوم يومه؟ فكذلك الأمر، ثم وتعبيره الصالح «فمن شهد منكم أي يوم من الشهر فليصمه»!، إن شهود الشهر هنا هو الحضور على علم في الشهر، في أي يوم منه، أولاً أو ثانياً أمّا هو، فإذا كان حاضراً

= ومنها خبر هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: في يوم الشك من صامه قضاه وإن كان كذلك (التهذيب ١ : ٣٩٧) أقول: يعني من صامه عن رمضان، حيث القضاء ليس إلّا عن رمضان دون شعبان، وهذا هو المعني من خبر الحسين بن زيد عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن صيام ستة أيام يوم الفطر ويوم الشك ويوم النحر وأيام التشريق.

(١) المصدر السابق.

(٢) ومنها ما عن محمد بن الحكيم قال سألت أبا الحسن عليه السلام في اليوم الذي يشك فيه فإن الناس يزعمون من صامه بمنزلة من أفطر في شهر رمضان؟ فقال: كذبوا، إن كان من شهر رمضان فهو يوم وفق له وإن كان من غيره فهو بمنزلة ما مضى من الأيام (الكافي ٤ : ٨٣).

في رمضان وهو عارف بالشهر «فليصمه» تعني كلّه أم يومه إلى آخره، فالشاهد غرتَه يصومه كله - وهو أصل الشهود - والشاهد ثانيه يصوم الأيام الباقية معها، وهكذا الأمر في كل الأيام.

ولا ضير في استخدام الشهر كله من الشهر مرجعاً، وهو كمشهود أي يوم منه، إذ لا تصح عناية كل الشهر منه مشهوداً، ولكنه معنيٌ منه لفرض الصيام، إذاً فواجب صيام رمضان هو منذ شهوده حتى آخره، دون اختصاص بيوم شهوده، فهو كما يقال: إذا شهدت أول شعبان فلتقمه، يعني كله ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ﴾ أن حضر في أي يوم منه عالماً به «فليصمه» كله، ما بقي منذ شهوده[1] فرضاً يحلق على كل شاهد شهر رمضان مهما سافر بعد شهوده. أترى إذا كان صيامه كله فرضاً بمجرد شهود يوم منه فهلّا يجوز له إنشاء سفر بعد أم يجوز؟ فإن جاز أفطر، وإن لم يجز لم يفطر لأنه سفر معصية.

إنه إذا سافر وأفطر عصى بسفره حيث سبب الإفطار وكان عليه فرض الصيام، وإذا لم يفطر عصى لأن الصوم في السفر محظور، ولا يصح القول إن عليه الصوم لأن سفره معصية بما يسبب ترك الصوم، فإنه دور مصرح، ثم إن سفر المعصية التي تفرض إتمام الصلاة الملازم للصوم، هو المعصية الأخرى دون ترك الصلاة وترك الصوم، ثم لا ملازمة بين إتمام الصلاة والصوم كلياً، فإنما الملازمة بين القصر والإفطار: «إذا قصرت أفطرت» ولم يدل دليل على جواز الصوم في السفر - أياً كان - فضلاً عن فرضه و«على سفر» إنما سمح لهكذا مسافر عزيمة أن يترك صومه لأيام أخر، دون أن

---

(١) تفسير الرازي ٥: ٨٩ عن علي عليه السلام فمن شهد منكم أوّل الشهر فليصم جميعه، وفي نور الثقلين ١: ١٦٨ عن الفقيه وسأل عبيد بن زرارة أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] قال: ما أبينها من شهد فليصمه ومن سافر فلا يصمه.

يفرض صوم السفر على من ينشئ السفر وهو شاهد الشهر، فإنما المستفاد منه و«فليصمه» فرض الصوم على غير ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، فكما يحرم على السليم أن يمرض نفسه فيترك الصيام، كذلك يحرم على حاضر الشهر أن يسافر فيترك الصيام، فلا وجه - إذاً - لوجوب الصوم في هكذا سفر لأنه سفر معصية، أم لأنه لا يشمله «على سفر» لا سيما نظراً إلى الروايات التي تحظّر السفر على غير المضطر، فإنه يعني محظور ترك الصوم حينذاك، وكذلك الروايات الناهية عن الصوم في السفر كما في المرض، وهل عليه الكفارة لأنه تعمد ترك الفرض بالسفر، كلّا! لأنه يختص بالعامد ترك الصيام المفروض بالفعل، لا الذي سبب إباحة تركه، ومهما دلّ «فليصمه» على فرض الصيام لحاضر الشهر، ولكن «على سفر» يحرم الصيام على المسافر مهما كان سفره محرماً ودون ضرورة[(١)].

وفصل القول إن ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ تختص سماح الإفطار بمن دخل رمضان وهو على سفر، دون الحاضر الذي ينشئ فيه السفر، ثم فرض صيامه على ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ﴾ فلا يجوز له الإفطار مهما سافر، أم ولا يجوز له السفر اللهم إلّا لضرورة كحج أو عمرة أو في طلب مال يخاف تلفه[(٢)].

أجل ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ﴾ حاصلة له كل شروط فرض الصوم «فليصمه» وليس له أن يتركه بعاذرة السفر، أم أي عاذرة يختلقها كأن يسبب لمرضه فيعذر، فإنه لزام عليه الصوم على أية حال، اللهم إلّا لبادرة خارجة

(١) كصحيحة معاوية بن وهب قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام الرجل يصوم اليوم الذي يشك فيه من رمضان فيكون كذلك فقال: هو شيء وفق له (الكافي ٤: ٨٢) ومضمرة سماعة قال سألته عن اليوم الذي يشك فيه من شهر رمضان لا يدري أهو من شهر شعبان أو من رمضان فصامه من شهر رمضان؟ قال: هو يوم وفق له ولا قضاء عليه.

(٢) آيات الأحكام للجصاص ١: ٢٢٢.

عن اختياره، كسفرة ضرورية، أم مرض يأتيه أمّا ذا مما لا يختاره من عاذرة عن صيامه.

وقد يقال ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ يعذره مهما أنشأه بعد ما حضر وكان سفره محظوراً ودون ضرورة؟ ولكن «على سفر» بعد ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾ يعني كان في رمضان على سفر، ثم يلحق به إنشاء السفر فيه مضطراً بدليل الاضطرار، ومن ثم فالسفر غير المضطر إليه محرم لأنه يسبب جواز الإفطار، ثم لا يجوز الإفطار في سفر المعصية؟ ولكن ذلك ترتبٌ محظور، والأصل هو القول الفصل، إن سفره محرم - مهما جاز له الإفطار - لأنه يسبب ترك فرضه، أم إن فرضه لا يسقط بذلك السفر حيث إن فرض صيامه لزامه بأن «شهد الشهر» مهما سافر، إلّا أن ظاهر النصوص عدم وجوب أو جواز الصوم إن سافر لغير عذر، مع إن سفره معصية، فالنصوص الدالة على عدم الإفطار في سفر المعصية مخصصة بغير هذه، ولو أنه جاز الصيام أم وجب في السفر غير المضطر إليه لم يكن دور للنهي عن السفر، فإنما يُنهى عنه لأنه يحرم فيه الصوم.

ولكن الملازمة بين الإفطار والتقصير في السفر، ثم وجوب الإتمام في سفر المعصية، إنها تحكم بوجوب الصيام عليه كوجوب الإتمام في سفر المعصية كما يروى عن علي عليه السلام [1].

---

(١) نور الثقلين ١ : ١٦٩ عن تفسير العياشي عن الصباح بن سيابة قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام إن ابن يعقوب أمرني أن أسألك عن مسائل فقال وما هي؟ قال: يقول لك: إذا دخل شهر رمضان وأنا في منزلي إلى أن أسافر؟ قال: إن الله يقول: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] فمن دخل عليه شهر رمضان وهو في أهله ليس له أن يسافر إلّا لحج أو عمرة أو في طلب مال يخاف تلفه.

وفي الوسائل ٧: ١٢٩ ح ٣ محمد بن علي بن الحسين بإسناده عن علي بن أبي حمزة عن أبي بصير قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الخروج إذا دخل شهر رمضان فقال: لا إلّا فيما أخبرك به: خروج إلى مكة أو غزو في سبيل الله أو مال تخاف هلاكه أو أخ تخاف هلاكه وإنه ليس أخاً الأب والأم.

=

فالأشبه - إذاً - حرمة السفر ووجوب الصوم للملازمة بينه وبين الإتمام المحكوم به لحرمة السفر، فإن الآية فرضت على من شهد الشهر أن يصومه أينما كان حاضراً أو مسافراً، ولم تستثن إلّا الذي كان في رمضان على سفر ولكنه يقضيه بعد رمضان، والأحوط أن ينوى الإمساك في سفره ما في ذمته، إن صوماً فصوم وإن إمساكاً أدبياً فإمساك.

وعلَّ حرمة السفر على وجوب الصوم فيه، لأن السفر يُنهى أحياناً إلى الإفطار باختيار أو اضطرار، وإن الصوم في السفر غير مرغوب فيه، وقد ورّط هذا المسافر نفسه فيه، فليصم على غزارة، وبرغم أنفه، ولا سيما إذا كان فراراً عن الصوم، وقد أراد الله بكم اليسر فأوردتم أنفسكم بما سافرتم في العسر، وهذه خلاف إرادة الله، وليس السماح عن الصوم في السفر أو حرمته إلّا عطفاً على المؤمنين، وأما الفار عنه بالسفر أم في السفر فلا عطف عليه، فالظاهر وجوب الصوم عليه والأحوط قضاءه.

ولماذا ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ لـ ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾؟

= وفيه عن الخصال عن علي عليه السلام في حديث الأربعمائة قال: ليس للعبد أن يخرج إلى سفر إذا دخل شهر رمضان لقول الله عزّ وجلّ : ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

وفيه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له جعلت فداك يدخل عليّ شهر رمضان فأصوم بعضه فتحضرني نية زيارة قبر أبي عبد الله عليه السلام فأزوره وأفطر ذاهباً وجائياً أو أقيم حتى أفطر وأزوره بعدما أفطر بيوم أو يومين؟ فقال له: أقم حتى تفطر، فقلت له جعلت فداك فهو أفضل؟ قال: نعم أما تقرأ في كتاب الله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾؟.

وفيه عن الحسين بن المختار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا تخرج في رمضان إلا للحج والعمرة أو مال تخاف عليه الفوت أو لزرع يحين حصاده.

وأما صحيح العلا عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال سئل عن الرجل يعرض له السفر في شهر رمضان وهو مقيم وقد مضى منه أيام فقال: لا بأس بأن يسافر ويفطر ولا يصوم، فلا يدل على الجواز دون ضرورة، فإن «يعرض له السفر» تلمح إلى ضرورة مفاجئة للسفر.

ثم وما تدل على أفضلية المقام للصوم من السفر غير الضروري، وهي مخالفة لآلية ولهذه المستفيضة فلتطرح أم تؤول إلى فضيلة الفرض لا الندب.

لضابطة فقهية ثابتة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ فإنما هو المرض المعسر بصيامه، أو السفر المعسر به، دون مرض لا يعسر معه الصوم، أم سفر بلا عسر، وهو ما دون «مسيرة يوم».

فلأنه ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ لم يفرض الصيام عندهما، ولأنه «يريد بكم اليسر» فرضه «لعدة من أيام أخر» - ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ وهي رمضان كله، إما في رمضان لغير المريض والمسافر، أم في عدة من أيام أخر، فالأصل هو تكملة العدة على يسر دون عسر، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ إلى يسر التكليف تكبروه في صلاة الفطر[1]، فمن صام على مرضه أو سفر فقد صغر الله رغم هداه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ما يسر لكم، ومنه اتباع أمره وتكملة العدة.

ومهما تضاربت الأحاديث المروية عن الرسول ﷺ وذويه المعصومين حول سماح الصيام المفروض في السفر وعدمه، فالأصل هو الكتاب الدال على حرمته فيه كما في المرض[2].

---

(١) روى سعيد النقاش قال قال أبو عبد الله عليه السلام لي أما أن في الفطر تكبيراً ولكنه مسنون قال قلت: وأين هو؟ قال: في ليلة الفطر في المغرب والعشاء الآخرة وفي صلاة الفجر وفي صلاة العيد ثم يقطع وهو قول الله عز وجل: ولتكملوا العدة يعني الصيام، ولتكبروا الله على ما هواكم (التهذيب ٣: ١٣٨).

وفي الدر المنثور ١: ١٩٤ عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: زينوا أعيادكم بالتكبير.

وفي نور الثقلين ١: ١٧٠ عن الفقيه وفي العلل التي نروي عن الفضل بن شاذان النيسابوري ويذكر أنه سمعها من الرضا عليه السلام أنه إنما جعل يوم الفطر العيد - إلى أن قال -: وإنما جعل التكبير فيها أكثر من غيرها من الصلوات لأن التكبير إنما هو تعظيم لله وتمجيد على ما أهدى وعافى كما قال عز وجل: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥].

(٢) أحاديث الفريقين مستفيضة على حرمة الصيام ولا سيما رمضان في السفر فمنها خبر الساباطي عن الصادق عليه السلام «لا يحل الصوم في السفر فريضة كان أو غيره والصوم في السفر معصية» (التهذيب ١: ٤٤٤)

وصحيح عمار بن مروان «من سافر قصر وأفطر إلا أن يكون رجلاً سفره إلى صيد أو في =

وهل إن هذه الآية نسخت سماح الإفطار المدلول عليه في آية الإطاقة؟ وهذه الآيات منسقة نسقاً واحداً لبيان حكم ثابت، ثم كيف ينسخ العام ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ الخاصَّ السابق عليه المخصِّص لعموم سابق «كتب. . . وعلى الذين يطيقون» فلا نسخ إذاً إلّا لعقلية هؤلاء الذين يتهافتون على قيلة النسخ دونما تدبر في القرآن ولا تبحر في مغازيه ومعانيه.

وهل يعني إكمال العدة أن رمضان لا ينقص عن الثلاثين أبداً، وكما صرحت به روايات؟

كلّا فإن العدة هنا هي عدة الصيام المفروضة وهي رمضان بكمال الثلاثين أو نقصه، وإن انتقاص بعض الشهور ومنها رمضان هو أمر ملموس على كرور السنين.

استدراكات:

الأولى: أن شهود الشهر لأول يوم منه كما يصدق على رؤية الهلال

= معصية الله ورسولاً لمن يعصي الله عَزَّوَجَلَّ أو طلب عدو شحناء أو سعاية أو ضرر على قوم مسلمين» (الكافي ٤: ١٢٩) أقول وهذا من الأحاديث الحاصرة سفر المعصية بغير السفر الضروري للمقيم في رمضان.

وفي الدر المنثور ١: ١٩٠ عن أنس بن مالك القشيري أن النبي ﷺ قال: إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة وعن الحبلى والمرضع، وفيه عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: ليس من البر الصيام في السفر، ورواه مثله ﷺ كعب بن عاصم الأشعري، وفيه عن عبد الرحمن بن عوف قال قال رسول الله ﷺ: صائم رمضان في السفر كالمفطر في الحضر، وفيه عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: إن الله تصدق بفطر رمضان على مريض أمتي ومسافرها.

واستفاض عنه ﷺ قوله: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، وفيه أخرج الطبراني عن ابن عمر أن رجلاً قال له إني أقوى على الصيام في السفر فقال ابن عمر إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة. ويعارضها ما أخرجه فيه عن عائشة أن حمزة الأسلمي سأل رسول. . . . .

فليصم من يومه، كذلك العلم به فجراً أو بعده وحتى ما قبل الغروب، إلا أن صومه إذا لم يأكل هو كامل الصوم دون قضاء، وإلّا فعليه قضاء رغم صومه في تتمته، حيث «فليصمه» يعم الشاهد أوّل نهار الصيام أم وسطه، فليصم في الأول كاملاً وفي الثاني تتمة النهار ثم يقضي.

الثانية: يستثنى عن شهد الشهر المجنون والطفل ومن يطيق الصوم والمغمى عليه ما دام الإغماء والمضطر إلى الإفطار أو المكره عليه أمن ذا من هؤلاء الذين دلّ دليل قاطع على عدم فرض الصوم عليهم، ولا يشمل «شهد الشهر» من يعلم حالاً بدخول رمضان مستقبلاً إذ ليس شاهداً حالاً.

الثالثة: فليصمه: تمنع نية غير رمضان لشاهد الشهر، فلو نوى غيره لغى ويحسب من رمضان وهل عليه قضاء؟ لعله الأحوط حيث النية شرط ولكنها في المتعين لا دور له أصيلاً.

ثم «فليصمه» لا تدل على أكثر من واقع الصيام، وأما النية فلا، إلّا أن يدل دليل آخر وليس، لأنها لا تعني إلّا تعيين المنوي وهو هنا متعين، وأما نية القربة فهي لزام على أية حال ولا ينافيها نية غير رمضان اللّهم إلّا لعامد، تأمل.

الرابعة: السجين أمن شابهه إذا لم يدر رمضان عن غيره، صامه بنية ما في ذمته، دون النية الخاصة لرمضان، فإن كان من رمضان فمن رمضان وإلّا فمن سواه فرضاً أو ندباً.

الخامسة: من شهد الشهر خلال يوم الصيام وجب عليه الإمساك لإطلاق «فليصمه» والقضاء بعد رمضان لأنه أفطر يومه ولم يستثن من المفطر إلّا الناسي، دون المضطر أو العامد المعذور وهو عامد معذور.

السادسة: هل المسافر دون المسافة، وكذلك الناوي عشرة أيام في السفر، هما مشمولان - معاً - لـ «على سفر» فعدة من أيام أخر، لأنهما ليسا

داخلين في «من شهد»؟ كلّا حيث القصد من الشاهد هو غير المسافر لحده الشرعي، فإنما يعد غير الحاضر مسافراً حسب الحدّ الشرعي للسفر، فالمسافر دون الحدّ داخل في الحاضر كما المقيم عشرة أيام في السفر يلحقه.

ولأن المقيم عشرة أيام محسوب بحساب الشاهد الشهر فلا يجوز له - كالذي في بلده - إنشاء سفر.

وفي نظرة أخرى إلى الضابطة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ كحكمة حكيمة في كافة الأحكام الربانية نقول: سلب العسر إنما هو في الأحكام غير الموضوعة على العسر كالجهاد والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصوم نفسه من حيث نفسه، وأماهية، الموضوعة على إعسار هي بطبيعة الحال فيها، فالعسر المنفي عنها هو عسر على عسر، ففي عسر المرض وعسر السفر يسقط فرض الصيام، بل وأصله حيث لا يسمح له فيهما، ثم في عسر دونهما وهو مطلق الإطاقة يسقط - فقط - فرضه، وأما السفر ثمانية فراسخ في أيام السيارات فلا عسر فيه نوعيّاً ولا مرة واحدة من حيث أصله، فكيف يدخل تحت السماح وهو غير داخل تحت حكمة اللّاعسر، وقد حدّ السفر بمسيرة يوم وهي الآن فوق الألف كيلومترا!

هذا - وبصورة عامة تحلق على كل أحكام الشرعة، كل ما فيه عسر ويسر، فلا عسر فيه فإنه تعالى ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ وكما يروى عن رسول الهدى ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[1] و«الدين يسر ولن يغلب الدين أحد إلّا غلبه سددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدجلة»[2]

---

(١) الدر المنثور ١: ١٩٢ - أخرج البزار عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: . . .

(٢) المصدر أخرج البخاري والنسائي والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة سمعت النبي ﷺ يقول: . . .

و«... لا تبغض إلى نفسك عبادة ربك فإن المنبت لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى فاعمل على امرىءٍ يظن أن لن يموت أبداً واحذر حذراً تخشى أن تموت غداً»[(١)] و«لا تشددوا على أنفسكم فإنما هلك من كان قبلكم بتشديدهم على أنفسهم وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات»[(٢)] و«العلم أفضل من العمل وخير الأعمال أوساطها ودين الله بين القاسي والغالي والحسنة بين الشيئين لا ينالها إلا بالله وشر السير الحقحقة»[(٣)] و«سئل ﷺ أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: الحنيفية السمحة»[(٤)].

ولأن رمضان بصيامه وقيامه هو شهر الدعاء والإجابة، فلتتوسط آيةُ الدعاء والإجابة آياته، وقبل تفصيل الحلّ والحرام في لياليه وأيامه:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾:

السؤال عن الله هنا سؤال عن موقفه أمام دعوة الداع، قرباً وبعداً، إجابة ورداً، وكما يعرف ذلك الاختصاص من الجواب ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ...﴾ وقد روي ذلك عن رسول الهدى ﷺ [(٥)] فرفع الصوت بالدعاء بُغية أن يسمعها الله جهل بالله فـ «يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا

(١) المصدر أخرج البيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاصي عن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض...».

(٢) المصدر أخرج الطبراني والبيهقي عن سهل بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشددوا...».

(٣) المصدر أخرج البيهقي من طريق معبد الجهني عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: ....

(٤) المصدر أخرج البخاري في الأدب المفرد عن ابن عباس قال سئل النبي ﷺ...

(٥) الدر المنثور ١: ١٩٤ جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ﷺ أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فسكت النبي ﷺ فأنزل الله الآية.

تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً...»[١] اللّهم إلّا إسماعاً لعباد الله لكي يرغبوا في الدعاء، أم تلذذاً بصريخ الدعاء فلا بأس إذاً بل هو أولى.

ولأن الدعاء هي مخ العبادة حصيلةً لأقرب حالات القرب إلى الله والتعلق التدلي بالله، نرى آيتها هذه على اختصارها تأتي بضمير المتكلم وحده لله سبع مرات، خرقاً للحجب السبعة بين العبد وربه، كما وتعبر عن السائلين إياه بـ ﴿عِبَادِى﴾ وهي أشرف تعريف بهم دون «الناس» أما شابه من عامة التسميات لنا.

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ إليهم قرب المكانة علماً وقدرة دون قرب المكان والزمان، فـ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٢] معية العلم والقدرة والرحمة رحمانية عامة للكل ورحيمية خاصة لمن يستحقها.

فليس قربه إلينا أم إلى أي شيءٍ قربَ المسافة، بل هو أقرب القرب ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٣] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[٤] بل و﴿أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[٥] فبعد أن ليس أقرب إلينا - ككل - منا، فالله أقرب إلينا منا، يعلم منا ما لا نعلمه، ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[٦] ويقدر علينا ما لا نقدره أو نقدّره.

---

(١) المصدر ١٩٥ عن أبي موسى الأشعري قال كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نهبط وادياً إلّا رفعنا أصواتنا بالتكبير فدنا منا فقال يا أيها الناس... إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته «أجل» ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وإنما كلمهم الرسول ﷺ كما يفهمون.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٣) سورة ق، الآية: ١٦.

(٤) سورة الواقعة، الآية: ٨٥.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٦) سورة طه، الآية: ٧.

ودعوة الداع المجابة حسب الوعد المؤكد هنا وفي آيات أخرى، قد تعم الدعوة بلسان الحال والقال، حيث يعمهما السؤال: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[١] - ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[٢] وسؤال الحال أيضاً يعم سؤال الفطرة، وسؤال واقع الحال قضية المصلحة الحيوية، كما وإن سؤال القال يعم خاطرة النفس وحديثها، ثم الكلام خفية وجهاراً وعلى أية حال.

وترى ما هو دور ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ بعد ﴿دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾؟ إنه توجيه للدعاء إليه فإن دعوة الداع طليقة من حيث المدعو، كما وهو تعميق وتحقيق للدعاء، تخطّياً عن مجازه إلى حقه، وعن ظاهره إلى باطنه، بأن يصبح العبد كله دعاءً، لا أن يدعو الله بلسانه وقلبه غافل لاه[٣] متعلق بسواه، أو يدعوه بقلبه ولسانُه يدعو سواه، أم يدعوه بقلبه ولسانه وهو يرجو - فيما يرجوه - سواه، فكثير هؤلاء الذين يدعون الله بحرف من حروف الدعاء، ثم هم متجهون إلى سواه بسائر حروف الدعاء أم بحرف من حروفها فـ ﴿دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ في أية مرحلة من مراحل الدعاء، هي شرط أول لقضاء الحاجة، ثم وأهم منها شرط ثان: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ في معنييها المعنيين عبادة واستدعاء بحق، ومن ثم ثالث: ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِى﴾ ثقة بالاستجابة. فإنما ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ في، توحيداً في دعائه مصحوباً بحق الدعاء والدعاء الحق ومعرفة كاملة فـ «لو عرفتم الله حق معرفته لزالت بدعائكم الجبال»[٤]، فإذا صادف صالَحه في أية نشأة من

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.
(٣) الدر المنثور ١: ١٩٥ عن النبي ﷺ ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه، وفيه ١٩٦ - أخرج أحمد في الزهد عن مالك بن دينار قال قال الله تبارك وتعالى على لسان نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لبني إسرائيل تدعوني بألسنتكم وقلوبكم بعيدة مني بأحل ما تدعوني، وقال: تدعوني وعلى أيديكم الدم اغسلوا أيديكم من الدم أي من الخطايا هلموا نادوني.
(٤) المصدر ١٩٦ - أخرج الحكيم الترمذي عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال: . . .

النشآت استجيب فيها، وإلّا فتحولاً إلى صالح لم يدع له حيث، ﴿فَإِنِّي... أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِّ﴾ تُحتِّم الإجابة الصالحة، ولكنها دون توقيت، ولا تثبيت لخصوص ما دعى، وقد تعني ﴿إِذَا دَعَانِّ﴾ - فيما عنت من الدعاء الاستدعاء - دعاءَ العبودية كشرط أصيل في استجابة الاستدعاء: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1] فدعوة الله الأصيلة هي دعوة العبودية، وهي المتفرعة عليها دعوة الاستدعاء، ومن حصائل ﴿إِذَا دَعَانِّ﴾ هذه ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ دعائي إياهم لعبادتي وفاءً بعهدي: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[2] ثم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ دعائي لهم أن يدعونني: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3].

﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ إيماناً صالحاً ككلٍّ، وفاءً بعهد الفطرة وعهد الرسالة، ثم ﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ إيماناً بتحقيق وعد الإجابة «وليتحققوا أني قادر على إعطائهم ما سألوه»[4] ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ إلى كل سؤال صالح يدعون له.

وإنها آية عجيبة تسكب في قلوب المستجيبين المؤمنين الداعين ربهم النداوة الحلوة والودَّ الأنيس، والطمأنينة والثقة واليقين، فيعيش منها المؤمن في جناب رضىً وملاذٍ أمين بقرار مكين إلى حضرة رب العاملين.

وإنه قريب برحمته - إجابةً لسؤال - إلى عباده السائلين إذا دعوه بشروطها المسرودة في الذكر الحكيم، فاتحاً له خزائنه بدعائه أينما دعاه «ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته واستمطرت شآبيب رحمته فلا يقنطك إبطاء

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٠.
(٣) سورة غافر، الآية: ٦٠.
(٤) في المجمع روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: وليؤمنوا بي، أي وليتحققوا...

إجابته فإن العطية على قدر النية، وربما أخرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل وأجزل لعطاء الآمل، وربما سألت الشيء فلا تؤتاه وأوتيت خيراً منه عاجلاً أم آجلاً، أو صرف عنك لما هو خير لك، فلرب أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله وينفى عنك وباله، فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له»(١).

ألا «فاحترسوا من الله عز وجل بكثرة الذكر، واخشوا منه بالتقى، وتقرَّبوا إليه بالطاعة فإنه قريب مجيب»(٢).

فلا أصالة لمكان الدعاء وزمانها، وإنما هي مكانتها أينما كانت ومن أيٍّ، فهي تتمحور مثلثاً كأصل هو ﴿إِذَا دَعَانِۖ﴾ ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ إذاً فالإجابة تقدَّر بقدر الاستجابة والإيمان، والدعاء الخالصة الموحدة على ضوئها ومن ثم «أجيب...» «يقول الله: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني»(٣).

و«إن ربكم حي كريم يستحي إذا رفع العبد يديه إليه أن يردها حتى يجعل فيهما خيراً»(٤) «يقول الله تعالى: يا ابن آدم واحدة لي وواحدة لك وواحدة فيما بيني وبينك وواحدة فيما بينك وبين عبادي، فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً وأما التي لك فما عملت من شيءٍ أو من عمل وفيتكه وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعليّ الإجابة وأما التي بينك وبين عبادي فارض لهم ما ترضى لنفسك»(٥).

---

(١) عن نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) نور الثقلين ١ : ١٧١ في روضة الكافي خطبة طويلة مسندة له عليه السلام يقول فيها: ...

(٣) الدر المنثور ١ : ١٩٥ - أخرج أحمد عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: يقول الله: ...

(٤) المصدر ١ : ١٩٥ عن سلمان الفارسي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ...

(٥) المصدر ١٩٥ - أخرج الطبراني في الدعاء عن الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ...

ثم الاستجابة بحق الدعاء ليست في إثم أو قطيعة رحم[١]، أو أمر مستحيل، أو الذي بيدك أمره، إنما هي فيما لا تناله بحولك فقط وقوتك، من الممكن في ذاته، والممكن مصلحيّاً بدعائك، والاستعجال في إجابة الدعاء تآمر على الله وتأمُّر، ويأتي على المؤمن موقف في الأخرى يقول: «يا ليته لم يكن عجل له شيءٌ من دعائه»[٢].

ومن موانع إجابة الدعاء سوء الأدب فيها، أن يطلب سؤاله دون أن يرضى بسواه، أم يطلب عاجله دون آجله، فـ«لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل... يقول قد دعوت ربكم فلم يستجب لي»[٣].

والدعاء في محالها الصالحة هي مما تُحرز مصلحة الإجابة، فلولاها لما صلحت مهما كان هناك سؤال صالح في نفسه، ولكنه لا يُعطاه إلا باستعطائه، ومن مصلحة الدعاء أنها مخ العبادة لأنها انقطاع عن الأسباب المعسورة أو غير الميسورة لصاحبها، إلى مسبب الأسباب.

فحتى لولا الإجابة فيها، فهي صالحة في نفس ذاتها كسائر العبادات أم هي أحرى لأنها مخُّها! وكما لا يحتم لك الجزاء هنا - إلا قليلاً - على

---

(١) المصدر عن أبي سعيد أن النبي ﷺ: قال «ما من مسلم يدعوا الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلّا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا إذاً نكثر؟ قال: الله أكثر».

(٢) المصدر أخرج الحاكم عن جابر مرفوعاً: يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه فيقول عبدي إني أمرتك أن تدعوني ووعدتك أن أستجيب لك فهل كنت تدعوني؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول: أما أنك لم تدعني بدعوة إلّا أستجيب لك، أليس دعوتني؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول: أما أنك لم تدعني بدعوة إلّا أستجيب لك، أليس دعوتني يوم كذا وكذا لغمّ نزل بك أن أفرج عنك فلم تر فرجا؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول: إني أدخرت لك بها في الجنة كذا وكذا ودعوتني في حاجة قضيتها لك، فقال النبي ﷺ: «فلا يدعو الله عبده المؤمن إلّا بيّن له إما أن يكون عجل له في الدنيا وإما أن يكون ادّخر له في الآخرة فيقول المؤمن في ذلك المقام: يا ليته..».

(٣) المصدر ١٩٦ - أخرج أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال:...

سائر العبادات، فبأحرى الدعاء وهي مخ العبادات، فإنما نحن مؤتمرون في مختلف أشكال العبادة، ثم الجزاء من الله بما وعده كما يشاء ومتى يشاء، والمستجاب من الدعاء هنا - في الأكثر - هو دعاء الهداية - الصالحة، وسائر ما ينفع في مزيد التقوى التي لا تقوى عليها إلّا بعون من الله، وأكثر ما لا يستجاب هي من الأمور التي لا تنفعك في هواك، أم يزيد في هواك، أم لا ينفع لا في أولاك ولا أخراك، فالله يعوّضك عنها هنا أو في الأخرى ما تحتاجه هدىً أم علو درجة.

وهنا تتساقط قيلات على الدعاء، أنها إنما تصلح في حق من لا يعلم الحاجات بمصالحها، أو يضن بها لولا الدعاء حظوة للاستجداء، وإنها كتطلّب الآمر والناهي وهو إزراء بساحة الربوبية، أماهية من قيلات هي ويلات من قائليها.

فربنا هو الذي يأمرنا بالدعاء حيث يرى فيها صالح الداعي، وبما أنها مخ العبادة فهي أصيلة في حقول العبادة، قد لا يعطينا ربنا سؤالنا إلّا إذا انقطعنا إليه ودعوناه، ولكي نحظو الزلفى إليه وفوق ما نحظوه في الاستجابة.

ففي حديث قدسي: «يا موسى سلني كل ما تحتاج إليه حتى علف شاتك وملح عجينك»[١] و«الدعاء سلاح المؤمن»[٢] طبعاً لما فيه صلاحه باستصلاحه بها.

---

(١) في عدة الداعي.

(٢) رواه الفريقان عن النبي ﷺ.

وعن العدة في رواية محمد بن عجلان عن محمد بن عبيد الله بن علي بن الحسين عن ابن عمه الصادق عليه السلام عن آبائه عن النبي ﷺ قال: أوحى الله إلى بعض أنبيائه في بعض وحيه: وعزتي وجلالي لأقطعن أمل كل آمل أمل غيري بالإياس ولأكسونّه ثوب المذلة في الناس ولأبعدنه من فرجي وفضلي أيأمل عبدي في الشدائد غيري والشدائد بيدي ويرجو سوائي وأنا الغني الجواد، بيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني. =

وكختام لحقل الدعاءِ الاستدعاءِ طلباً لحاجيات روحية أو سواها، مُتَصورُ الدعاء ليس إلّا في أربع، حاجة حاصلة دون دعاء، كالتي كتب الله على نفسه برحمة عامة رحمانية، كالضرورات الحيوية للإنسان مؤمناً وسواه، أم حاجة حاصلة بما منح الإنسان من حول وقوة كما الأكل والشرب أما شابه، فلا دعاء هنا وهناك.

وحاجة مستحيلة بطبيعة الحال، أو مصلحياً، وكذلك الأمر، ثم عوان بينهما من الحاجيات الممكنة، سواء التي له فيه شأن ولا تكفي محاولاته للحصول عليها، أو التي انقطعت الأسباب دونها، فهنا لك الدعاء ولا سيما فيما تكلّ فيه الأسباب.

فلا دعاء - إذاً - إلّا في الممكن المعقول، المحتمل صلاحُه، حين استأصلت دونه طاقته، فليستمد بحول الله وقوته بشروطه المذكورة في حقل الدعاء.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ امتنان علينا بما أحل لنا من محرم علينا، حيث الإحلال

= وعنها عن النبي ﷺ قال قال الله: ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني إلّا قطعت أبواب السماوات وأسباب الأرض من دونه فإن سألني لم أعطه وإن دعاني لم أجبه، وما من مخلوق يعتصم بي دون خلقي إلا ضمنت السماوات والأرض رزقه فإن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته وإن استغفرني غفرت له.

ليس إلّا عن عقد التحريم، فليكن الرفث إلى النساء معقوداً علينا محظوراً ليلة الصيام من قبل حتى يصح ﴿أُحِلَّ﴾ إضافة إلى دلالة ﴿تَخْتَانُونَ﴾. ﴿فَتَابَ﴾. ﴿وَعَفَا﴾. ﴿فَالْئَنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ فهي خماسية الأدلة اللفظية هنا على سابق حظر الرفث إلى النساء.

وليس يدل سابق حظره على أنه من أحكام التوراة، فقد يجوز أنه كان محظوراً بالسُّنة الإسلامية ببيان الرسول ﷺ ثم نسخته هذه الآية، كما وإن سائر الإمساك مادة ومدة في الصيام لا بدَّ وأنه مبين بالسُّنة، وقد جاءت هنا إمساكات ثلاث هي أمهاتها: رفثاً وأكلاً وشرباً، لا فحسب، بل وآية فرض الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ طليقة بالنسبة لـ ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ... شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ حيث تعم ليالي رمضان إلى نهاراته، اللّهم إلّا في غير الرفث إلى النساء أكلاً وشرباً، فضلاً عما دونهما، حيث الأكل والشرب في الإفطار ضرورة لا محيد عنها، و﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ...﴾ تحليل لما زاد عن الفطور.

فقد كان الرفث إلى النساء محرماً طيلة رمضان ليل نهار، ثم أبيح هنا ليلاً وبقي النهار، كما أبيح الأكل والشرب بين الفطور والسحور وبقي النهار، فآية الإحلال - إذاً - تنسخ إطلاق فرض الصيام أياماً معدودات: شهر رمضان.

ثم ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ هي كل ليالي رمضان، دون الأولى فقط اللهم إلّا كأولى مصاديقها من رمضان[1]، فليست التاء هنا للإفراد، فإن الأفراد هنا كلُّ ليلةُ الصيام، دون اختصاص بليلة دون أخرى، واختصاصها بالأولى تخرج الليالي الأخرى عن كونها من ليالي الصيام، فالتاء - إذاً - هي للجنس هنا، سواء الليلة الأولى أم سواها، وسواءٌ فيها ليالي رمضان وسواها من ليالي الصيام.

(١) نور الثقلين ١: ١٧٢ في كتاب الخصال فيما علّم أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه من الأربعمائة باب قال: يستحب للمسلم أن يأتي أهله أوّل ليلة من شهر رمضان لقوله تعالى.

و«الرفث» في الأصل هو المقبوح من قول وعمل، وهو بمناسبة النساء يختص بالأمور الأنثوية الجنسية معهن تقبيلاً ولمساً ووطئاً وكلاماً يناسبها حالتها أو قبلها، فهي كلها محرمة في الإحرام ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ لمكان نفي الجنس دون اختصاص بأمر خاص.

ولكنه هنا الجماع لأنه ﴿الرَّفَثُ إِلَىٰ﴾ حيث الجار يوحي لمعنى الإفضاء، ثم يعرف الحل لسائر الرفث الأنثوي بالأولوية القطعية، فحين يحلّ عمل الجنس معهن، فلتحل مقدماته بأحرى وأولى، ولو قال «رفث نساءكم» لخيل إلينا أن الرفث ككل كان محرماً ليلة الصيام، وهو محرم الآن نهار الصيام!.

ولماذا التعبير عن وطئ النساء بالرفث وهو القبيح؟ لأنه في أصله مما يختجل منه على حلِّه، ولكنه كان محرماً ليلة الصيام فاستحق قبحاً شرعياً على قبحه عرفياً، ثم أحلّ الرفث إخراجاً عن قبحه شرعياً، ثم لا مجال لاستقباح العرف ما أحلّه الله، أم ورجحه أحياناً وفرضه أخرى، وحرمة الرفث إلى نسائكم - وهي محللة مبدئياً - تحرِّم بأحرى وأولى الرفث إلى سائر النساء، وإلى سائر الحيوان، وارفث من الكل واركس الرفث إلى الذكران، ومن حرمة الرفث إلى نسائكم تستفاد حرمة المعاكسة بالملازمة، فقد حرم رفث النساء إلى رجالهن.

وعلّ ترك التصريح بالعكس رعاية للحفاظ على رفث النساء، وكما في سائر القرآن اللهم إلّا عند الضرورة الأحكامية كـ ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾[1].

وترك «أزواجكم» الشاملة للعكس، إلى «نسائكم» علّه لأن ﴿الرَّفَثُ إِلَىٰ﴾ هو في الأغلبية الساحقة من الرجال إلى النساء، ولا عكس إلّا قليلاً، ثم لا دلالة ظاهرة لـ «أزواجكم» في عكس الرفث، إضافة إلى أنها لا تشمل

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٠.

الحلائل غير الأزواج، وترى «نساءكم» تعني كل الحلائل وحتى الإماء مملوكة أو موهوبة؟ طبعاً نعم، فلم يقل «أزواجكم» لتختص بغيرهن، و«نسائكم» تشمل كل الحلائل بأسرهن دون إبقاء.

ثم من الرفث إلى النساء - بطبيعة الحال - الإمناء، فإنه خاص بـ«إلى نسائكم» إدخالاً فيهن أو ملاعبة معهن، فأما الإمناء المفصول عنهن فهو محرم على أية، حال فحرام في الصيام بقاطع الأولوية، وأنه رفث جنسي يختص من الرجال إلى نسائكم.

ولماذا أحلَّ لكم الرفث بعد حرمته؟ لأمرين اثنين، الأول هو الضابطة العامة من رباط الرفث بين الزوجين ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ والثاني ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ...﴾.

واللباس هو المباشر لجسم الإنسان من ساتر يستر عورته ويستر عنه الحرَّ والبرد وسائر البأس، فلأن كلّاً من الزوجين قريب إلى زوجه قربَ اللباس، مشتملاً عليه بكل مراس، وأن ذلك الاشتمال يستر كلّاً عن نزوة الجنس غير المحللة.

لذلك فحرمة الرفث كانت شرعة ابتلائية مؤقتة كسراً شاملاً لنزوة الجنس، خلافاً لطبيعة اللباس، فأحلّه لكم بعد ما حرم.

ثم ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ...﴾ منذ حرمه عليكم ﴿أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ...﴾.

في حظر الرفث إلى نسائكم، وكما اختانوا بعضاً ما ومنهم الخليفة عمر حسب ثابت الأثر ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ برحمته الواسعة بعد ضيق حرمة الرفث ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ ما كنتم تختانون.

والاختيان افتعال من الخيانة وهي التنقص في الأمانة بخلاف الوفاء فيها، فنفس الإنسان أمانة إلهية، والتكاليف الإلهية أمانات عنده، والصوم

أمانة إلهية، فقد كان الرفث إلى النساء خيانة في هاتين، وهي ترجع بنقصها إلى النفس وليس إلى الله، فقد خفف عنكم هذه الكلفة في ليلة الصيام، أن أباح لكم فيها - إضافة إلى الأكل والشرب - الرفث إلى نسائكم، فلو استمر المنع لخُنتم كثيراً، خلعاً لعذار الصبر عن طيش النفس، وضعفاً عن مغالبتها، مواقفة للمحظور من ذلك الغشيان، وتلك خيانة النفس حيث تجرونها إلى محرم، وتنقصونها عن عليائها إلى سفلى الحيونة الجنسية، تكديراً على جوِّ الصيام.

وهنا مما لا بدَّ منه بطبيعة الحال هو الفصل الزمني بين فرض الصوم بشروطه وبين إحلال هذه الثلاثة ليلة الصيام، إذ لا معنى لإحلالها بعد تحريمها قبل ردح من زمن العمل في حقل التحريم، فابتلاء بعض بالخيانة وتكلّف آخرين وهم على أشرافها، وقد «أمر الله رسوله أن يضعها في المائة الوسطى من سورة البقرة»[1] مما يؤيد تأخر نزولها عن سائر آيات الصيام:

(١) الدر المنثور ١: ١٩٧ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان الناس أوّل ما أسلموا إذا صام أحدهم يصوم يومه حتى إذا أمسى طعم من الطعام حتى يمسي من الليلة القابلة وإن عمر بن الخطاب بينما هو نائم إذ سولت له نفسه فأتى أهله ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ إني اعتذر إلى الله وإليك من نفسي هذه الخيانة فإنها زينت لي فواقعت أهلي هل تجد لي من رخصة؟ قال ﷺ: لم تكن حقيقاً بذلك يا عمر فلما بلغ بيته أرسل إليه فأنباه بعذره في آية من القرآن وأمر الله رسوله أن يضعها في المائة الوسطى من سورة البقرة فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ - إلى قوله -: ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٨٧] يعني بذلك الذي فعل عمر فأنزل الله عفوه فقال: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ - إلى قوله -: ﴿مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٧] فأحلّ لهم المجامعة والأكل والشرب حتى يتبين الصبح، أقول وأخرج أصل القصة ابن جرير عن ثابت أن عمر واقع أهله ليلة في رمضان . . . وأخرج أبو داود والبيهقي في سننه عن ابن عباس مثله بلفظ فاختان رجل نفسه، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريح لقصته هكذا: فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله ﷺ أني أردت أهلي البارحة على ما يريد الرجل أهله فقالت إنها قد نامت فظننتها تعتل فواقعتها فأخبرتني أنها كانت نامت . . . ونزل فيه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ. . .﴾ [البَقَرَة: ١٨٧].

وفي إخراجات أخرى أن غيره ابتلوا بهذه الخيانة كمثله فنزلت الآية.

«فالآن» ويعد الحظر لردح من زمن الابتلاء «باشروهن» كل مباشرة جنسية، وليس - فقط - «ارفثوا إليهن» لزوال شرعية الرفث خبثاً، وإن الملابسة الخِلقية بينكم تزيل عرفية الرفث فضلاً عن تكاشف العورة مهما تحاشى عنه مَن تحاشى[1]، حيث الرسول ﷺ نفسه باشرهن بعد نزول الآية نبراساً عملياً للسماح فيها.

ولأن هذا الأمر كان عقيب الحظر فليس إلّا رافعاً للحظر، رجوعاً إلى أصل الحل، ولكي يأتي راجحاً رغم أنه حظوة الشهوة الجنسية ونزوتها ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وليس «عليكم» مما يلمح بعدم فرض المكتوب مهما فرض مكتوب ضمنه، فمنه الولد المكتوب لصالح المباشرة وصالح الحياة الزوجية، فلا تكن المباشرة لمجرد قضاء الشهوة مهما حلت في أصلها، ومنه حلّ المباشرة، بعيدة عن حالات محظورة كالحيض والنفاس والإحرام والاعتكاف أما شابه.

فليست المباشرة المسموحة - إذاً - ممنوحة ممدوحة لمجرد الاندفاع الشهواني الحيواني الموصول بالجسد، منفصلاً عما كتب الله لكم من المتعة بالذرية كثمرة عالية في هذه المباشرة، وكذلك التهيئة لتمام الصيام.

فهكذا تنظف هذه المباشرة وتخرج عن الرفث، فترق - إذاً - وترقى من حضيض حيونة الشهوة إلى أفق الإنسانية الرفيعة، ومنها ابتغاء كمال الصيام نهاره، كيلا يتضايق فيه عن ضغط الشهوة، فهذه وأمثالها من أمور راجحة أم واجبة تجعل الرفث مباشرة راجحة أم واجبة.

---

(١) الدر المنثور ١ : ١٩٨ - عن سعد بن مسعود الكندي قال أتى عثمان بن مظعون رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني لأستحيي أن ترى عورتي، قال ﷺ : ولم؟ وقد جعلك الله لهم لباساً وجعلهم لك! قال: أكره ذلك، قال: فإنهم يرونه مني وأراه منهم، قال: أنت يا رسول الله ﷺ؟ قال: أنا، قال: أنت فمن بعدك إذاً! فلما أدبر عثمان قال رسول الله ﷺ إن ابن مظعون لحيي ستير. أقول: إنه نقد منه ﷺ عليه وليس تعريفاً به فإن التمنع عما أحله الله ليس معروفاً.

ثم وليس فقط تحليل الرفث ليلة الصيام، بل والأكل والشرب أيضاً[1]، مما قد يلمح بعدم حل سائر المحظورات حالة الصيام، إذاً فرمضان بأيامه ولياليه ظرف لمطلق الصيام، اللهم إلّا هذه الثلاث لذلك النص، أمّا خرج معها لسائر النص:

﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّىٰ...﴾ أترى «حتى» غاية - فقط - لحل الأكل والشرب، فلم تُبين - إذاً - غاية المباشرة؟ وهي أهم محظوراً، لأنها حقل الخيانة ليلة الصيام كأصل دون الأكل والشرب! أم هي غاية لها، أصالة للمباشرة وفرعية لهما؟ وقد يبعِّده الفصل بـ ﴿وَابْتَغُواْ...﴾ ولكنه ليس فصلاً إلّا لتبرير الأصل، فلا ضير في هكذا فصل، إذاً فسماح المباشرة - كما الأكل والشرب - مستمر حق الفجر، وحتى إذا لم تكن «حتى» غاية للرفث معهما، فـ ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ الطليقة تسمح بالرفث إلى النساء حتى آخر لحظة

(١) قصة قيس بن حرمة الأنصاري مشهورة مروية بعدة طرق وهي كما في الدر المنثور ١ : ١٩٧ عن البراء بن عازب قال كان أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي وأن قيس بن حرمة الأنصاري كان صائماً فكان يومه ذاك يعمل في أرضه فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال هل عندك طعام قالت لا ولكن انطلق فأطلب لك فغلبته عينه فنام وجاءت امرأته فلما رأته نائماً قالت خيبة لك أنمت فلما انتصف النهار غشي عليه فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿أُحِلَّ لَكُمْ...﴾ [البَقَرَة: ١٨٧] ففرحوا بها فرحاً شديداً.

أقول: أصل نزول الآية كما هي صريحة: ﴿أُحِلَّ...﴾ هو بشأن مباشرة النساء ويضمنه الأكل والشرب، فقد توارد السببان لنزولها.

وهكذا قصة خوات بن جبير فعن تفسير القمي مرفوعاً قال قال الصادق عليه السلام: كان النكاح والأكل محرمين في شهر رمضان بالليل بعد النوم يعني كل من صلّى العشاء ونام ولم يفطر ثم انتبه حرّم عليه الإفطار وكان النكاح حراماً بالليل والنهار في شهر رمضان وكان رجل من أصحاب النبي ﷺ يقال له خوّات بن جبير أخو عبد الله بن جبير شيخاً كبيراً ضعيفاً وكان صائماً فابطأت عليه امرأته فنام قبل أن يفطر فلما انتبه قال لأهله قد حرم عليّ الأكل في هذه الليلة فلما أصبح حضر الخندق فأغمي عليه فرآه رسول الله ﷺ فرقّ له وكان قوم من شبان ينكحون بالليل في شهر رمضان فأنزل الله ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ...﴾ [البَقَرَة: ١٨٧].

من الليل ما صدق أنه من الليل، ولو اختص حل الرفث بما قبل الفجر قدر إمكانية الغسل لكان التصريح به أحرى من غاية الأكل والشرب، فإنه أهم محظوراً منهما، وهما على هامشه محظوراً، إذاً فـ«حتى» تشمل الثلاثة كلها، فهي نصّ في استغراق الحل كل آناء الليل، وحين يحلّ التعمُّد على أصل الجنابة مع العلم بعدم بقاء وقت للغسل عنها، فبأحرى يجوز البقاء عليها بعد حصولها، إذ قد يتنازل عن عمده فيغتسل ولا مجال لتنازله حين يعلم بيقين ألا مجال له للغسل بعد الجنابة.

فكيف تجب الطهارة الكبرى كشرط لصحة الصيام منذ الفجر؟ هنا روايات متضاربة في جواز الدخول في الفجر جنباً وعدمه، فقد ترجح الأولى[1]، ولكن على حدّ مدلول الآية من سماح المباشرة حتى الفجر،

(١) فمن الأولى من طريق أصحابنا ما رواه الشيخ في الصحيح عن حبيب الخثعمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي صلاة الليل في شهر رمضان ثم يجنب ثم يؤخر الغسل متعمداً حتى يطلع الفجر. (التهذيب ١: ٤١٢ والاستبصار ٣: ٨٨) وما رواه في الصحيح عن عيص بن القاسم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل أجنب في شهر رمضان من أوّل الليل فأخر الغسل حتى يطلع الفجر؟ قال: يتم صومه ولا قضاء عليه (الاستبصار ٣: ٨٥ والتهذيب ١: ٤١١) وما رواه في صحيح ثان عن ابن القاسم أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام عن رجل ينام في شهر رمضان فيحتلم ثم يستيقظ ثم ينام قبل أن يغتسل؟ قال: لا بأس.
ومن طريق إخواننا ما في الدر المنثور ١: ١٩٩ - أخرج مالك وابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والنسائي عن عائشة قالت: قد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدركه الفجر في رمضان وهو جنب من أهله ثم يغتسل ويصوم،
وفي إخراج آخر منهم وأبو داود والترمذي عن أم سلمة أنها سئلت عن الرجل يصبح جنباً أيصوم؟ فقالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصبح جنباً من جماع من غير احتلام في رمضان ثم يصوم، وأخرج مالك والشافعي ومسلم وأبو داود والنسائي عن عائشة أن رجلاً قال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إني أصبح جنباً وأنا أريد الصيام؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: وأنا أصبح جنباً وأريد الصيام فأغتسل وأصوم ذلك اليوم، فقال الرجل إنك لست مثلنا قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فغضب وقال: والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم وأعلمكم بما أتقى.
أقول: هذه روايات ست ثلاث وثلاث، تدل على ما دلت عليه الآية من جواز الجماع حتى=

وأما تعمد البقاء على الجنابة لمن أجنب قبله، وهو قادر على الطهارة فلا لروايات عدة مهما كانت معارضة، وجملة القول هنا إن الآية تدل على جواز الدخول في الفجر مجنباً حالة المباشرة قبله بلحظة، ولا دلالة آيةً أو روايةً على وجوب الدخول في الفجر على طهارة كبرى، ولا على حرمة الدخول فيه مجنباً، فإنما تدل روايات متعارضة على حرمة البقاء على الجنابة عمداً حتى الفجر، دون بطلان للصوم كلمة واحدة، وإنما القضاء أم الكفارة عقوبة، أم لا كفارة ولا قضاء كما لا بطلان، بل ولا حرمة كما في حديث الرسول ﷺ.

ومن الغريب المتعود في فقهنا حمل أمثال هذه على التقية ثم وفي معظمها النسبة إلى الرسول ﷺ وهي بعيدة كل البعد في روايات التقية! فإن قضيتها الاقتصار على حدِّ الضرورة وليست النسبة إلى النبي ﷺ منها، بل وتركها ضرورة وقائية على السُّنة الرسالية التي هي عدل للقرآن كتوضيح وبيان، ثم وهي موافقة لظاهر كالنص من الآية.

وتصديق أمثال الثانية[(١)] وهي مخالفة هكذا للآية وللثابت نقلاً متظافراً

= الفجر، وأما جواز البقاء على الجنابة فلا تدل عليه الآية مهما دلت عليه روايات منها، ولكن تعارضها روايات أخرى من القسم الثاني.

(١) وهي تدل - بأكثر تقدير - على عدم جواز تعمد البقاء على الجنابة، وليس عدم جواز الجماع حتى الفجر ومنها

صحيحة ابن أبي يعفور قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام الرجل يجنب في شهر رمضان ثم يستيقظ ثم ينام حتى يصبح؟ قال: يتم صومه ويقضي يوماً آخر وإن لم يستيقظ حتى يصبح أتم يومه وجاز له (الفقيه باب ما يجب على من أفطر ح ١٦ والتهذيب ١: ٤١٢) وصحيحة محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال: سألته عن الرجل تصيبه الجنابة في شهر رمضان ثم ينام قبل أن يغتسل؟ قال: يتم صومه ويقضي ذلك اليوم إلّا أن يستيقظ قبل أن يطلع الفجر فإن انتظر ماء يسخن أو يستقى فطلع الفجر فلا يقضي صومه (الكافي ٤: ١٠٥ والتهذيب ١: ٤١٢) وصحيحة معاوية بن عمار قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الرجل يجنب من أوّل الليل ثم ينام حتى يصبح في شهر رمضان؟ قال: ليس عليه شيء، قلت: فإنه استيقظ ثم نام حتى أصبح؟=

من فعل النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام، فما قيمة شهرة أو إجماع أم وإطباق لا يلائم القرآن بل ويعارضه، فالأشبه جواز المباشرة حتى الفجر، والأحوط حرمة البقاء على الجنابة لمن هو قادر على الطهارة، وأحوط منه القضاء دون كفارة.

وقد يلمح اختلاف التعبير بين «أحل - و- كلوا واشربوا» إن مباشرة النساء كانت محرمة ليل نهار بصورة مستأصلة، ولكنَّ الأكل والشرب كانا ممنوعين شطراً من الليل مع النهار، فسمح للكل طول الليل حتى الفجر،

= قال: فليقض ذلك اليوم عقوبة (التهذيب ١: ٤١٢).

وموثقة أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في رجل أجنب في شهر رمضان بالليل ثم ترك الغسل متعمداً حتى أصبح؟ قال: يعتق رقبة أو يصوم شهرين متتابعين أو يطعم ستين مسكيناً، قال وقال: إنه حقيق أن لا أراه يدركه أبداً (المصدر) وموثقة سماعة قال سألته عن رجل أصابته جنابة في جوف الليل في رمضان فنام وقد علم بها ولم يستيقظ حتى يدركه الفجر؟ فقال: عليه أن يتم يومه ويقضي يوماً آخر، فقلت: إذا كان ذلك من الرجل وهو يقضي شهر رمضان؟ قال: فليأكل يومه وليقض فإنه لا يشبه رمضان شيء من الشهور (التهذيب ١: ٤١٢).

أقول: لا دلالة في شيء من هذه الأخبار على بطلان الصيام مهما فرض القضاء كفارة وعقوبة كما في صحيحة معاوية بن عمار قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الرجل يجنب من أوّل الليل ثم ينام حتى يصبح في شهر رمضان؟ قال: ليس عليه شيء، قلت: فإنه استيقظ ثم نام حتى أصبح؟ قال: فليقض ذلك اليوم عقوبة (التهذيب ١: ٤١٢) وصحيحة ابن أبي يعفور قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الرجل يجنب في شهر رمضان ثم يستيقظ ثم ينام حتى يصبح؟ قال: يتم صومه ويقضي يوماً آخر وإن لم يستيقظ حتى أصبح أتم صومه وجاز له (المصدر).

أقول: فلا دلالة في شيء من الطائفة الثانية على بطلان الصوم، ولا على حرمة الجماع قبيل الفجر، فتبقى الآية دالة على حلّه، ثم الطائفتان متعارضتان في جواز البقاء على الجنابة حتى الفجر وعدمه، ومن البعيد جداً حمل الأخبار الأولى من طرق أصحابنا على التقية ولا سيما صحيحة الخثعمي المصرحة بتعمد بقاء الرسول ﷺ على الجنابة، ومن البعيد نسخ السنة بالسنة هكذا فإن «كان» دليل الاستمرار ولا سيما في مقام بيان الحكم، اللهم إلّا تقية في النسخ، ولكنها أيضاً بعيدة فإن بيان الحكم هكذا بعد الرسول ﷺ لا تساعده التقية، فالبطلان على تعمد الجنابة لا دليل عليه، ووجوب القضاء محل تردد فالاحتياط إذا أحسن بل لا يترك.

ولا منافاة بين حل المباشرة حتى الفجر وبين وجوب الطهارة عند المكنة قبلها إذا أجنب في وقت يمكنه الطهارة، ولكن في وجوبها أيضاً نظر وتأمل.

وقد تدل ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ أن ليلة الصيام لا تخلو - بعدُ - عن إمساكٍ وراء هذه الثلاثة، وإلّا فصالح التعبير «ثم صوموا إلى الليل» فليس إتمام الصيام إلى الليل إلّا بأن له تقدمة بالليل، يستثنى منها هذه الثلاثة حسب الآية، فإذا ثبت وجوب الإمساك صياماً عما سواها بدلالة أخرى، ثم لا دلالة على اختصاصه بالنهار، كان إمساكه الليلي أيضاً من الصيام.

هذا! ولكن الإمساك الليلي ليس إلّا عن الرفث المحرم أصالة وقاعاً وإمناءً، وعن الأكل والشرب المحرم أصالة، وأما دون محلَّل الرفث والأكل والشرب، فهو حلٌّ بأحرى وأولى، اللهم محرمات ذاتية، فإنها داخلة في نطاق الصيام «أياماً معدودات - شهر رمضان» فلتكن محرمة أغلظ في ليلة الصيام كما في نهاره.

﴿... حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ...﴾:

وتراه تبين الخيطين، تمييزاً لخيط أبيض من خيط أسود؟ و﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ إجابة صارحة عن هذه الهرطقة السوقية الساقطة![1].

كما وأن من الفجور علميّاً، والانجراف تفسيرياً تخيل أن «من الفجر»

---

(١) الدر المنثور ١: ١٩٩ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم قال أتيت رسول الله ﷺ فعلّمني الإسلام ونعت إلى الصلوات الخمس كيف أصلي كل صلاة لوقتها ثم إذ جاء رمضان فكل واشرب حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتم الصيام إلى الليل ولم أدر ما هو ففتلت خيطين من أبيض وأسود فنظرت فيهما عند الفجر فرأيتهما سواء فأتيت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله كل شيء أوصيتني قد حفظت غير الخيط الأبيض من الخيط الأسود، قال ﷺ: وما منعك يا ابن حاتم وتبسم كأنه قد علم ما فعلت، قلت: فتلت خيطين من أبيض وأسود فنظرت فيهما من الليل فوجدتهما سواء فضحك رسول الله ﷺ حتى رئي نواجذه ثم قال: ألم أقل لك: من الفجر، إنما هو ضوء النهار من ظلمة الليل.

نزلت بعدما سقط في جارفة ﴿ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾ جماعة![(١)]
ويكأن الآيات كانت تنزل كلمات بعد كلمات؟ وهي مترابطات في وحدة الآية، ومتعاركات في وهدتها الهوة!.

فما هو - إذاً - ﴿ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾؟

«الفجر» هنا هو فجر الشمس كبداية شقها الأفق المظلم برشحة من ضوئها، والخيط الأبيض من الفجر المتبين من الخيط الأسود، هو العمود الأفقي البادئ في الناحية الشرقية، وكأنه وليد بين ظلمة الليل، ويتراءى عندئذ خيطان، خيط الشمس المقبلة وخيط الليل المدبر، فيعبر عن الملتقى بينهما بالخيطين، فحتى يتبين بياض الصبح من سواد الليل هو المعني من الخيطين وإنما شبهاً بذلك لأن خيط الصبح يكون أول طلوعه مستدقاً خافياً، ويكون سواد الليل متقضياً مولِّياً، فهما جميعاً ضعيفان، إلّا أن هذا يزداد انتشاراً وذاك يزداد استتاراً.

و«الفجر فجران، فأما الذي كأنه ذنب السرحان فإنه لا يُحل شيئاً ولا يُحرمه، وأما المستطيل الذي يأخذ الأفق فإنه يحلّ الصلاة ويحرم الطعام»[(٢)]
ولذلك سمي الأول بالكاذب والآخر بالصادق.

﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ وهنا ﴿إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ دون غروب القرص تلمح كصراح إنه لا يكفي إلى الغروب، إذ لا يصدق عنده ليل، وإنما هو بعد

(١) في الدر المنثور ١: ١٩٩ عن سهل بن سعد قال: أنزلت ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ...﴾ [البَقَرَة: ١٨٧] ولم ينزل «من الفجر» فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله بعد ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٧] فعلموا إنما يعني الليل والنهار.

(٢) الدر المنثور ١: ٢٠٠ عن ثوبان أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال: ... وفيه عن طلق بن علي أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا ولا يمنعكم الساطع المصعد وكلوا واشربوا حتى يعترض الأحمر».

دقائق تزول فيها آثار النهار، وعلى المروي عن النبي ﷺ: «إذا أقبل الليل من هاهنا وأدبر النهار من هاهنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم»[١] «وغربت الشمس» هنا حال لإقبال اللّيل، إذاً فهو بعد غروبها لا عنده.

وهنا الليل من بادئه الظاهر بزوال الحمرة المشرقية، كما النهار من بادئه بتبيُّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

والفارق بين منتهى وقت العصر ومنتهى الصيام هو اختلاف النصين، فإنه هنا ﴿إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ وهناك ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾[٢] فإنما يتحقق غروب القرص قبيل الليل بدقائق هي تتمة وقت الصيام وليست وقت الإفطار.

ثم المذكور من المفطرات هنا هي الجماع والأكل والشرب، تفطر نهاراً لا ليلاً، فبأحرى ما يلحق بها من المحظورات نهار الصيام فإنها محللة ليلته، اللهم إلّا الكذب على الله وعلى رسوله والأئمة عليهم السلام، فأكيد الحرمة فيه يشمل ليلة الصيام ونهاره، بل وقد يُلمح من إطلاق الدليل أنه مفطر ليلاً كما هو مفطر نهاراً[٣] فالجماع قبلاً ودبراً محرم ومفطر نهاراً، وكذلك الاستمناء مهما كان بحليلته[٤] فإنه من الرفث إلى النساء، وارفث منه اللواط

(١) المصدر - أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عمر قال قال رسول الله ﷺ . . .

(٢) سورة ق، الآية: ٣٩.

(٣) التهذيب ١ : ٤٠٦ وأحمد بن محمد بن عيسى في نوادره موثقة سماعة قال: سألته عن رجل كذب في شهر رمضان؟ فقال: قد أفطر وعليه قضاؤه، فقلت: فما كذبته؟ قال: يكذب على الله وعلى رسوله ﷺ، وموثقته الأخرى سألته عن رجل كذب في شهر رمضان؟ فقال: قد أفطر وعليه قضاؤه وهو صائم يقضي صومه ووضوئه إذا تعمد (المصدر ٤٠٩) وخبره الثالث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ وعلى الأئمة عليهم السلام يفطر الصائم (الفقيه باب آداب الصائم رقم ٢) ومنها ما عن الخصال بسند فيه رفع إلى الصادق عليه السلام قال: «خمسة أشياء تفطر الصائم الأكل والشرب والجماع والارتماس في الماء والكذب». . . (المصدر ١ : ١٣٧).

(٤) في الكافي ٤ : ١٠٢ والتهذيب ١ : ٤١١ صحيحة عبد الرحمن بن حجاج قال: سألت أبا=

أو الاستمناء عبثاً بغلام أمن شابه، فكل رفث إلى غير النساء بإدخال أو إمناء تشمله الرفث إلى النساء بأولوية قطعية حيث إن محور التحريم هو الرفث، فإذاً كان حلُّه محرماً فبأحرى المحرم منه إضافة أن فيه كفارة الجمع[١].

ثم ما يصدق عليه الاكل والشرب سواءً أكان من المأكول والمشروب المتعوَّد أم سواه، - ما صدق عليه الأكل - هو مفطر نهاراً حين يتعمده فمثل الذباب يدخل حلق الصائم «ليس عليه قضاء لأنه ليس بطعام»[٢].

فما لم يصدق الأكل أو الشرب لم يصدق الإفطار اللهم الا بدليل قاطع أن كلما دخل الجوف أيّاً كان فهو محكوم بحكم الأكل، وليس فليس، فمثل الغبار والدخان الداخلان في الجوف لا يبطل، إذ لا يصدق هنا أكل ولا شرب وكما في موثقة[٣] مهما كانت معارَضة لسقوط المعارِض بضعف السند والمتن أم يتساقطان والأصل عدم البطلان.

= عبد الله عليه السلام عن الرجل يعبث بأهله في شهر رمضان حتى يمني؟ قال: عليه من الكفارة مثل مع على الذي يجامع.

(١) في التهذيب ١: ٤١١ والاستبصار ٣: ٩٧ خبر عبد السّلام بن صالح الهروي قال: قلت للرضا عليه السلام يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله قد روي عن آبائك عليهم السلام فيمن جامع في شهر رمضان أو أفطر فيه ثلاث كفارات، وروي عنهم أيضاً كفارة واحدة فبأي الحديثين نأخذ؟ قال: بهما جميعاً، متى جامع الرجل حراماً أو أفطر على حرام في شهر رمضان فعليه ثلاث كفارات عتق رقبة وصيام شهرين متتابعين وإطعام ستين مسكيناً وقضاء ذلك اليوم وإن كان نكح حلالاً أو أفطر على حلال فعليه كفارة واحدة وإن كان ناسياً فلا شيءَ عليه.

(٢) الكافي ٤: ١١٥ والتهذيب ١: ٤٤٣ خبر مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام أن علياً عليه السلام سئل عن الذباب يدخل حلق الصائم قال: . . .

(٣) في التهذيب ١: ٤٤٤ موثقة عمرو بن سعيد عن الرضا عليه السلام قال: سألته عن الصائم يدخن بعود أو بغير ذلك فتدخل الدخنة في حلقه؟ قال: لا بأس، وسألته عن الصائم يدخل الغبار في حلقه قال لا بأس، ومعارضه في المصدر نفسه ١: ٤١٣ عن سليمان المروزي قال سمعته يقول: إذا تمضمض الصائم في شهر رمضان استنشق متعمداً أو شم رائحة غليظة أو كنس بيتاً فدخل في عنقه وحلقه غبار فعليه صوم شهرين متتابعين فإن ذلك له فطر مثل الأكل والشرب والنكاح. =

وأما صيغة شرب الدخان، فلا تصلح للحكم بأنه مشروب فمبطل، لأنه تدخين وليس شرباً، وإنما بدأت صيغة الشرب إذ كانوا يمضغون الدخان فيشربون ماءَ البزاق المتأثر به، وهكذا زرق الإِبَر تقوية أم سواها، بل وتغذية اللّهم إلّا ما صدق عليه الأكل أو الشرب، كأن يقال إنه يأكل بالإِبر، إلّا أن مريضاً هكذا أكله وشربه ليس عليه صيام حتى يبحث عن أكله وشربه، اللهم إلّا ألا يضره الصيام، وأما بلع الحصى وما شابهها من غير المأكول ولا المشبع فبأحرى ألا تفطر، وكذلك رجع رطوبة من بزاق الفم إليه، أم إدخال مثلها إليه ما لم يصدق الشرب.

وعلى أية حال فالأحاديث المستعرضة للمفطرات خالية عن هذه الموارد، اللهم إلّا دلالة على عدم البأس بها، والآية لا تصرح إلا بثلاث منها.

ومن محرمات الصيام الارتماس في الماء ولا دليل على أنه مفطر[١] بل الدليل مصرح على أنه لا يفطر[٢].

= أقول: التمضمض ليس شراباً إلّا إذا تعمد البلع، ثم شم رائحة غليظة لا أكل ولا شرب كما لم يفت به أحد، ثم صوم شهرين يختص بصورة التعمد وقد اختص به التمضمض والاستنشاق دون ما سواهما، وهو فيهما لا يبطل إلّا إذا تعمد إدخال الماء في الحلق.

(١) مما يدل على الحرمة صحيحة الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الصائم يستنقع في الماء ولا يرمس رأسه» (الكافي ٤: ١٠٦ والتهذيب ١: ٤١٠) وصحيحة حريز عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لا يرمس الصائم ولا المحرم رأسه في الماء» (التهذيب ١: ٤١٠ والاستبصار ٣: ٨٤) وصحيحة محمد بن مسلم قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لا يضر الصائم ما صنع إذا اجتنب ثلاث خصال أو أربع خصال - كما عن الفقيه وموضع من التهذيب - الطعام والشراب والنساء والارتماس في الماء (الوسائل باب ما يمسك عنه الصائم ب ١ ح١).

أقول: لا دلالة في مجرد النبي عن شيء للصائم أنه مفطر، كما في الأول، لا سيما إذا قورن بما لا يبطل كما في الثاني، وأما الإضرار كما في الثالث فأعم من الحرمة والإبطال.

(٢) وقد تصرح بعدم الإفطار موثقة إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: رجل صائم ارتمس في الماء متعمداً عليه قضاء ذلك اليوم؟ قال: ليس عليه قضاء ولا يعودن =

وأما الحقنة بجامد أو مائع فلأنها ليست أكلاً ولا شرباً فلا تبطل، وقد يحرم المائع بدليل[1] دون إبطال، حيث الحرمة لا تستلزم الإفطار وإن صدق العكس كلياً.

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾:

هنا سلب مطلق لمباشرة النساء: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ﴾ بعد سماحها ليلة الصيام، فالدور الأصيل في ذلك السلب المطلق إنما هو لمكانة المساجد، حيث الصيام في الاعتكاف ليس بأهم من صيام رمضان، و﴿عَٰكِفُونَ﴾ هنا لا تختص بعبادة الاعتكاف، وإنما هي مصداق لها أجلى، وموضوع الحكم ككل هو الكون في المساجد صائمين كالعاكفين أم غير صائمين كسواهم، فقد تخصص هذه الآية آية ليلة الصيام مهما كان بينهما عموم من وجه فإن مادة الالتقاء هي للعاكفين في المساجد ليلة الصيام، وآية السلب تنسخ إطلاق السماح لآية الإيجاب، كما وإن آية النساء ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ لا تسمح للمجنب كوناً في المساجد مهما كان للصلاة ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾.

ولا صلة لآية السلب بآية الإيجاب إلّا مظنة الحلّ فيها حتى للعاكفين في المساجد فجاء الحظر المطلق عن مباشرة النساء ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ﴾ صائمين وغير صائمين ليلاً ونهاراً ما دمتم في المساجد، مهما كان

= (التهذيب ١: ٤١١ و٤١٣ والاستبصار ٣: ٨٥) هذا وإن كان يعارضه المرسلة السابقة عن الصادق عليه السلام حيث عد الارتماس في الماء مما يفطر الصائم.

(١) صحيحة البزنطي سأل أبا الحسن عليه السلام عن الرجل يحتقن يكون به العلة في شهر رمضان؟ فقال: «الصائم لا يجوز له أن يحتقن» (التهذيب ١: ٤١٠) وموثق ابن فضال كتب إلى ابن الحسن عليه السلام: تقول في اللطف يستدخله الإنسان وهو صائم؟ فكتب: «لا بأس بالجامد» (الكافي ٤: ١١٠).

الصيام من شروط الاعتكاف مطلقاً أم إذا فرضه على نفسه، أو إذا استطاع، حيث «عاكفون» أعم من عبادة الاعتكاف أم مطلق العكوف في المساجد مما قلّ منه أو كثر ما دام هو في المساجد.

وهذه المباشرة المسلوبة فيها هي المباشرة المسموح بها ليلة الصيام فليست إلّا الرفث إلى النساء دون ما سواه من اتصالات شهوانية بهن.

وهنا ﴿فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ تنفي اختصاص عبادة الاعتكاف بالمسجد الحرام أم هو مسجد النبي ﷺ، فتحلية المساجد باللام تلمح للاستغراق، فقد يجوز الاعتكاف فيها مطلقاً مهما كان الفضل للمسجدين الأعظمين، ويعدهما للجوامع[1].

والاعتكاف - وهو تكلف العكوف - ليس إلّا حبس النفس على ما عكف فالعكوف أعم من الاعتكاف.

وقد تلمح ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ ألّا عكوف كعبادة إلّا في المساجد، فضلاً عن عبادة الاعتكاف، كما وأن صلة آية العكوف بآية الصيام تلمّح بشريطة الصيام للاعتكاف[2].

---

(١) الدر المنثور ١ : ٢٠٢ - أخرج الدارقطني عن حذيفة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مسجد له مؤذن وإمام فالاعتكاف فيه يصلح».

وفي الفقيه باب الاعتكاف رقم (١) صحيحة الحلبي: لا اعتكاف إلا بصوم في مسجد الجامع.

وفي التهذيب ١ : ٤٣٤ في خبر ابن سنان: «لا يصح العكوف في غيرها يعني مكة إلّا أن يكون مسجد رسول الله ﷺ أو في مسجد من مساجد الجماعة» وفي الاستبصار ٣ : ١٢٦ خبر علي بن غراب: «المعتكف يعتكف في المسجد الجامع» وفي الكافي ٤ : ١٧٦ حسن الحلبي أو صحيحه أنه سأل عن الاعتكاف فقال: «لا يصلح الاعتكاف إلّا في المسجد الحرام أو مسجد الرسول ﷺ أو مسجد الكوفة أو مسجد جماعة وتصوم ما دمت معتكفاً».

(٢) الدر المنثور ١ : ٢٠٢ - أخرج الدارقطني والحاكم عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «لا اعتكاف إلّا بصيام».

وفي الوسائل كتاب الاعتكاف في حسن الحلبي مثله، وفيه عن علي بن الحسين عليه السلام على المحكي في خبر الزهري «وصوم الاعتكاف واجب». =

ولأن الاعتكاف وهو تكلُّف العكوف لا يصدق على سويعات فلا يصدق فيها الاعتكاف اللهم إلا مطلق العكوف، فقد تصدَّق الروايات القائلة «لا يكون الاعتكاف أقل من ثلاثة أيام»[1] أم هي أفضل الأقل لأنه يوم حسب المروي عن رسول الله ﷺ[2].

وهل يصح الاعتكاف أيام رمضان؟ وفرض الصوم للاعتكاف يفرضه في غير فرض رمضان أم سائر الفرض! اللّهم إلّا أن واجب الصيام للاعتكاف مطلق لا يتقيد بما لا فرض فيه لغير الاعتكاف، لا سيما وإن صلة آية الاعتكاف بآية صيام رمضان تنادي بصحته في رمضان بل ورجاحته على غيره، ولقد «كان النبي ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عزّ وجلّ»[3].

ومن واجبات الاعتكاف الإقامة في المعتكف إلّا لحاجيات متعوّدة لابدَّ

= والدر المنثور عن ابن عباس بالسند نفسه وصححه أن النبي ﷺ قال: ليس على المعتكف صيام إلا أن يجعله على نفسه أقول: وهو معارض لاعتكاف رمضان، اللهم إلا أن يعنيه من غير رمضان وهو كذلك معارض للرواية الأولى وظاهر الآية، اللهم إلّا لمن لا يستطيع على الصيام أم لا يسمح له السفر وسواه.

(١) في موثق عمر بن يزيد «لا يكون الاعتكاف أقل من ثلاثة أيام» (التهذيب ١ : ٤٣٣ والاستبصار ٣: ١٢٩).

وفي خبر داود بن سرحان «الاعتكاف ثلاثة أيام» أقول: وعل «يوماً» في الخبر الآتي مبالغة، أم هو يوم من الثلاثة.

(٢) الدر المنثور ١: ٢٠٢ - أخرج جماعة عن ابن عباس أنه كان معتكفاً في مسجد رسول الله ﷺ فأتاه رجل في حاجة فقام معه وقال: سمعت صاحب هذا القبر ﷺ يقول: من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيراً من اعتكاف عشر سنين ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق أبعد مما بين الخافقين.

(٣) الدر المنثور ١ : ٢٠١ - أخرج جماعة عن سعيد بن المسيب وعروة عن عائشة أن النبي ﷺ كان . . . وفيه عن علي بن حسين عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ : «من اعتكف عشراً في رمضان كان كحجتين وعمرتين».

منها[١] أو قضاء حاجة مؤمن كما دلّت عليه متواتر الرواية عن الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته عليهم السلام [٢] ولأن الضرورات تقدر بقدرها فلا يجوز للمعتكف أن يمكث خارج المعتكف إلّا قد الضرورة، فلا يجلس ولا يصلي فيه فريضة إلّا بمكة وكما يروى في الصحيح: «المعتكف بمكة يصلي في أي بيوت شاء والمعتكف بغيرها لا يصلي إلا في المسجد الذي سماه»[٣].

هذه أصول أحكام الاعتكاف وله فروع تطلب من مفصلات الفقه و: «تلك» التي ذكرناها من أحكام سلبية وإيجابية إباحة أو تحريماً أو إيجاباً هي ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي حدّها لما يرجع إلى صالحكم في الحياة ﴿فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ إفراطاً فيها بزيادة، أم تفريطاً بنقصان، أو تجاهلاً عنها عن بكرتها وسناً لحدود كما تشتهون، وذلك هو القرب المنهي عنه في ثالوثه، وهو الاعتداء المعنيّ بأخرى ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾: «كذلك» البعيد الأغوار، العميق الأسرار ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ دون أيِّ خفاء أو ريبة أو مجالة لارتياب ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ المحاظير.

---

(١) كما في صحيح داود بن سرحان كنت في المدينة في شهر رمضان فقلت لأبي عبد الله عليه السلام إني أريد أن اعتكف فماذا أقول وماذا أفرض على نفسي؟ فقال: «لا تخرج من المسجد إلا لحاجة لا بدَّ منها ولا تقعد تحت ظلال حتى تعود إلى مجلسك» (الكافي ٤ : ١٧٨) وموثق ابن سنان: «ولا يخرج المعتكف من المسجد إلا في حاجة» (التهذيب ١ : ٤٣٤) وفي صحيحه أيضاً: ليس للمعتكف أن يخرج من المسجد إلّا لجمعة أو جنازة أو غاية (الكافي ٤ : ١٧٨).

(٢) ومنها ما في خبر إبراهيم بن ميمون قال: كنت جالساً عند الحسن بن علي عليهما السلام فأتاه رجل فقال له يا ابن رسول الله ﷺ إن فلاناً له عليّ مال يريد أن يحبسني فقال: والله ما عندي مال فأقضي عنك، فقال فكلّمه ولبس نعله فقلت له: يا ابن رسول الله ﷺ أنسيت اعتكافك؟ فقال: لم أنس ولكني سمعت أبي يحدث عن جدي رسول الله ﷺ أنه قال: من سعى في حاجة أخيه المسلم فكأنما عبد الله تسعة آلاف سنة صائماً نهاره وقائماً ليله (الفقيه باب الاعتكاف رقم ٢٤).

(٣) الفقيه الباب نفسه رقم ٧، وفيه رقم ١٤ صحيح الحلبي «لا يخرج في شيءٍ إلا لجنازة أو يعود مريضاً ولا يجلس حتى يرجع».

فهرس الجزء الثاني

الموضوع | الصفحة

تتمة سورة الفاتحة